

تُرجمت
لأكثَر من
20
لغة

مَهْبُود سِرَاجِي

سطوح طهران

ترجمة: إيناس التركي

رواية





«من الروايات النادرة التي تبقى في ذاكرتك طويلاً بعد طي صفحاتها الأخيرة.
تُذكرنا بالخير والشر في الحياة، وبأن للفرح جانباً مؤلماً، وبأن الحب يأتي
بأشكال متعددة» — بوكرييورتر

«رواية رائعة عن حُب الشباب، مُضحكة وجميلة، وتثير التفكير وتُدمي
القلب... رواية مؤثرة» — بوكليست

«رواية عميقة عن الشجاعة، والتضحية، وروابط الصداقة والحب. بتفاصيل
ملينة بالحيوية، يفتح مهيد سراجي أبواب عالم إيران الساحر، ويقدم لمحة
كاشفة عن حياة وعادات بلد على وشك الثورة... قراءة أسرة» — جايل
تسوكياما، مؤلفة روايتي شارع أَلَف زهرة وحديقة الساموراي

«رواية مؤثرة عن فقدان البراءة، وتكشف جانباً من إيران لا يفهمه إلا
القليلون... مليئة بالفكاهة والأصالة والمعنى» — جون شورز، مؤلف رواية
تحت سماء رخامية

في هذه الرواية المؤثرة والكاشفة، يكشف مهيد سراجي عن جمال - وأحياناً عنف - الثقافة
الفارسية، مؤكداً في الوقت نفسه على المشاعر الإنسانية التي تتشاركها جميعاً.

في حي من أحياء الطبقة المتوسطة في طهران، يقضي باشا شاهد، البالغ من العمر سبعة عشر
عاماً، صيف عام ١٩٧٣ على سطح منزله مع صديقه المقرب أحمد، يتمازحان تارةً ويطحران
أسئلةً ملحة عن الحياة تارةً أخرى. يُخفي باشا حباً سرياً لجارته الجميلة زاري، المخطوبة منذ
ولادتها لرجل آخر، وسرعان ما يتبدد نعيم الوقت المُستباح الذي قضاه باشا وزاري معاً عندما
يساعد باشا، عن غير قصد، شرطة الشاه السرية. توظفه العواقب الوخيمة على واقع العيش في
ظل طاغية، وتدفع زاري إلى اتخاذ قرار صادم...

رواية لا تُنسى عن الحب والشباب في حين تغلي إيران فوق بركان.



ISBN 978-977-9603-46-9



مَهْبُود سِرَاجِي

سطوح طهران



telegram @
yasminebook

ترجمتها عن الإنجليزية
إيناس التركي





الكرمة

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
x.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٥

العنوان الأصلي: *Rooftops of Tehran*

Copyright © 2009 by Mahbod Seraji. All rights reserved.

Published by arrangement with Browne & Miller Literary Associates, LLC working in conjunction with ALLA agency.

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © إيناس التركي



telegram @
yasmeenbook

سراجي، مهيد.

سطوح طهران: رواية / مهيد سراجي؛ ترجمتها عن الإنجليزية إيناس التركي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٥.

٤٤٠ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: 9789779603469

١- القصص الأمريكية.

أ- التركي، إيناس (مترجمة).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٧٨٨ / ٢٠٢٥

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

تصميم الغلاف: أحمد فرج



شتاء ١٩٧٤

مستشفى روزبه للأمراض النفسية، طهران

سمعتُ صوت شخص ينشد، وتدفقت الأبيات المتكررة كالماء على حافة وعيي.

لو أن لديّ كتابًا، لقرأته.

لو أن لديّ نشيدًا، لغنيته.

نظرت حولي حتى رأيت رجلًا عجوزًا يقف على بُعد أمتار قليلة، ينشد بنبرة ثابتة جوفاء. لم يبدُ المكان مألوفًا بالنسبة إليّ. فالرداء الأزرق الذي يغطي جسدي، والكرسي المتحرك الذي أجلس عليه، وأشعة الشمس التي تتسلل بين الظلال وتدفئني، كل هذا بدا غريبًا.



telegram @
yasmeenbook

لو أنني أعرف رقصة، لرقصتها.

لو أنني أعرف قافية، لرددتها.

لو أن لي حياة، لخاطرت.

لو أن بوسعي الحرية، لغامرت.

في الفناء بالخارج، تجوّل رجال من جميع الأشكال والأعمار مرتدين أردية زرقاء. كان هناك شيء غريب في كل واحد منهم، حيث بدوا تائهين. فجأة، امتلأ صدري بموجة من المشاعر، واندفعت إلى حلقي. هرعت نحوي ممرضة صغيرة ذات وجه لطيف ممتلئ يشبه التفاحة، ووضعت يديها على كتفي وصرخت قائلة:

- ساعدوني هنا، ساعدوني!
هرع رجل يرتدي زياً أبيض، وحاول أن يثبتني.
صاحت ذات الوجه الشبيه بالتفاحة:
- ابقَ في مقعدك يا عزيزي، ابقَ في مقعدك.
وهو ما يعني على الأرجح أنني كنت أتحرك. ركزتُ على الجلوس بثبات، ونظرت نحو الرجل العجوز في الجانب البعيد من الغرفة. أخذ يحدق إليّ وهو يكرر ترنيمة على نحو محموم:

لو أن لديّ حصاناً، لركبته.
لو أن لديّ حصاناً، لركبته.
لو أن لديّ حصاناً...

اصطُحبت إلى غرفة بها فراش، وقالت لي صاحبة الوجه الشبيه بالتفاحة:
- سأعطيك مهدناً ليجعلك تشعر بالتحسن يا عزيزي.
شعرت بوخز في ذراعي، وفجأة أصبح رأسي وذراعي ثقيلين بشكل لا يُطاق، وانغلقت عيناي.

صيف عام ١٩٧٣

طهران

أصدقائي، وأسرتي، وزقاقي

النوم على سطوح المنازل خلال الصيف أمر معتاد في طهران، حيث تتبدد حرارة النهار الجافة بعد منتصف الليل، ويستيقظ مَنْ ينام منا على السطوح وشمس الصباح الباكر تسطع على وجوهنا، والهواء النقي يملأ رئاتنا. لكن والدتي تعارض ذلك بشدة، وتذكّرني قائلة كل مساء:

- يسقط مئات الأشخاص من فوق السطوح كل عام.

أتبادل أنا وصديقي المقرب أحمد ابتسامات خفية مع كل تحذير، ثم نصعد الدرج لنقضي ليلتنا تحت النجوم التي تبدو قريبة بما يكفي للمسها. تحوّل الزقاق في الأسفل إلى خليط من أضواء الشوارع والظلال والأصوات. مرت سيارة ببطء في الشارع المهجور، حريصة على عدم إيقاظ أحد، بينما أطلق كلب ضال من بعيد سلسلة من النباح المزعج.

تمتم أحمد في الظلام:

- أسمع أملك تنادي.

ابتسمت، وسددت له ركلة مازحة تفادها بسهولة.

منزلنا هو الأكثر ارتفاعاً في الحي، ما يجعل سطح منزلنا مكاناً مثاليًا لمراقبة

النجوم. وفي الواقع، فإن تسمية النجوم بأسماء أصدقائنا والأشخاص الذين نحبهم هي إحدى وسائل التسلية المفضلة لدينا.
سأل أحمد:

- هل كل شخص لديه نجم؟

- الأشخاص الطيبون فقط.

- وكلما كنت شخصًا طيبًا كان نجمك أكبر، أليس كذلك؟

أجبت كما أفعل في كل مرة يسأل فيها السؤال نفسه:

- أكبر وأكثر سطوعًا.

- وعندما تكون في ورطة، يرشدك نجمك، أليس كذلك؟

- نجمك ونجوم الأشخاص الذين تحبهم.

أغمض أحمد إحدى عينيه ورفع إبهامه ليحجب أحد النجوم الأكثر سطوعًا.

- لقد سئمت من النظر إلى وجهك السمين الضخم.

ضحكت قائلاً:

- اخرس وأخلد إلى النوم إذن.

تركت نظراتي تسترخي في الفراغ المخملي بين كل نقاط الضوء. انتقلت عيناى في السماء حتى استقرتا على المرتفعات والمنخفضات المألوفة لجبال ألبرز، الممتدة في شكل متعرج بين الصحراء وبحر قزوين الأزرق المائل إلى الخضرة. تشتت انتباهي للحظة وأنا أحاول أن أقرر ما إذا كان الظلام أسود أم أزرق داكنًا بحيث يبدو كالحبر بالمقارنة.

قلت متأملًا:

- أتساءل لماذا يخشى الناس الظلام بلا مواربة؟

ضحك أحمد، وأدركت من دون أن أسأله أنه يجد مفرداتي الغريبة أمرًا مسليًا، وهي نتاج عمر كامل من القراءة المكثفة. في أحد الأيام، أخذني والدي جانبًا أنا وأحمد، وسألني أمام أصدقاء العائلة والأقارب عن رأيي في طبيعة الحياة. أجبته على الفور أن الحياة عبارة عن سلسلة عشوائية من المشاهد الجميلة المنسقة،

مرتبطة ببعضها بشكل غير مُحكم بسلسلة من الشخصيات والزمن. وقد صنف أصدقاء والدي، ما أشعرنني بالخرج البالغ. مال أحمد نحوي وهمس بأني سرعان ما سأُنصَّب كأكبر فتى في العالم في السابعة عشرة من العمر، خصوصاً إذا واصلت التفوُّه بأشياء من قبيل «بلا موارد» و«المشاهد الجميلة المنسقة».

انتهيت للتو أنا وأحمد من الصف الثاني الثانوي، وسنلتحق بالسنة الأخيرة من المرحلة الثانوية في الخريف. تطلعت إلى الانتهاء من دراستي الثانوية بقدر ما يتطلع إلى ذلك أي فتى في السابعة عشرة من عمره، لكن هذا الترقب المفعم بالحيوية شابهته خطط والدي لإرسالني إلى الولايات المتحدة لدراسة الهندسة المدنية. عمل والدي منذ فترة طويلة حارساً للغابات، يحمي الغابات المؤممة من المعتدين الذين يقطعون الأشجار بشكل غير قانوني لتحقيق مكاسب شخصية. وهو يعمل الآن في مكتب، ويدير منطقة بأكملها مع جيش من حراس الغابات الذين يرفعون إليه التقارير.

كلما سنحت له الفرصة ذكّرني والدي قائلاً:

- إيران في حاجة ماسة إلى المهندسين، فنحن على وشك التحول من بلد زراعي تقليدي إلى بلد صناعي. والشخص الحاصل على شهادة الهندسة من إحدى الجامعات الأمريكية سيضمن مستقبلًا عظيمًا له ولعائلته، إلى جانب تمتعه بالهيبة المتمثلة في مناداته بلقب «السيد المهندس» لبقية حياته. أحببت والدي، ولم أكن لأقدم قطُّ على عصيانه، لكنني كرهت الرياضيات، وكرهت فكرة أن أصبح مهندسًا، وكرهت أن يُطلق عليَّ لقب «السيد المهندس». حلمت بالتخصص في الأدب، ودراسة فلسفة الإغريق القدماء والتطور والماركسية والتحليل النفسي والثيوصوفية والبوذية. أو التخصص في السينما، وأن أصبح كاتبًا أو مخرجًا، شخصًا لديه ما يستحق القول.

في الوقت الراهن، أعيش مع والدي في حي من الطبقة المتوسطة. لدينا منزل إيراني تقليدي مع فناء متواضع وغرفة ضيوف كبيرة، كما يوجد حوض، بركة صغيرة في الفناء الأمامي. وفي حينًا، كما هي الحال في أي حي آخر في طهران،

تفصل الجدران العالية بين المنازل التي بُنيت متقاربة من بعضها. يتألف منزلنا من عدة طوابق، وتشغل غرفتي جزءاً صغيراً من الطابق الثالث، حيث توجد شرفة كبيرة متصلة بالسطح بدرج فولاذي ضخمة. ومنزلنا هو الأعلى في الحي بأكمله، ويطل جهة الجنوب.

اعتادت والدتي القول مراراً وتكراراً:

- لن أقبل العيش في منزل ذي إطلالة شمالية حتى لو منحوني إياه مجاناً، فتلك المنازل لا تتعرض للشمس أبداً، وهي أرض خصبة للجراثيم.

لم تكمل والدتي دراستها الثانوية، ومع ذلك فهي تتحدث عن المشكلات الصحية بسلطة خريجة من جامعة هارفارد. لديها علاج لكل داء: شاي الأعشاب لعلاج الاكتئاب، وجرات أكاسيا شوك الجمل لتفتيت حصوات الكلى، ومسحوق من الأزهار للقضاء على التهابات الجيوب الأنفية، والأوراق المجففة للقضاء على حب الشباب، وحبوب تساعد على زيادة طول القامة كالشجرة، على الرغم من أن طولها هي نفسها لا يتجاوز خمس أقدام وهي من دون حذاء.

يتلاشى هدوء كل ليلة صيفية مع ضوضاء العائلات التي تبدأ يومها، ويعج زقنا بالأطفال من جميع الأعمار. يتصايح الصبية ويتشاجرون وهم يطاردون الكرات البلاستيكية الرخيصة، بينما تنتقل الفتيات من منزل إلى منزل، ويفعلن ما تفعله الفتيات معاً. وتتجمع النساء في أماكن مختلفة في الزقاق، مما يجعل من السهل معرفة مَنْ يحب مَنْ من خلال طريقة تجمعهن. وقد قسّم أحمد هذه التجمعات إلى ثلاث مجموعات: لجان النسيمة الشرقية والغربية والوسطى.

كان أحمد فتى طويلاً ونحيفاً، له بشرة داكنة وابتسامة مشرقة. ووفقاً لرأي والدتي الخبيرة، فهو مثال للصحة بجسده القوي النحيل، وفكه العريض الجريء، وعينه العسليتين اللامعتين. كما أنه مرح ومحبوب في الحي. أخبرته بأنه يمكن أن يصبح ممثلاً كوميدياً عظيماً إذا أخذ موهبته التي وهبها الله إياها بقدر أكبر من الجدية.

فأجابني قائلاً:

- نعم، بقدر أكبر من الجدية. يمكنني أن أصبح أكثر المهرجين جدية في البلاد! عرفت أحمد منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري، عندما انتقلت عائلتي إلى الحي في البداية. التقينا للمرة الأولى في المدرسة، عندما تعرضت للضرب من ثلاثة متتمرين. وقف جميع الأولاد الآخرين متفرجين فحسب، لكن أحمد هرع لمساعدتي. كان الأولاد طوال القامة وضخام الجثة وقبيحين، وعلى الرغم من محاولتنا البطولية فقد تعرضنا للضرب المبرح.

قدمت نفسي بعد الشجار:

- اسمي باشا.

ابتسم أحمد ومد يده لمصافحتي، وسألني:

- ماذا كان السبب وراء الشجار؟

ضحكت.

- ألم تكن تعرف؟ لماذا ساعدتني؟

- ثلاثة مقابل واحد! لدي مشكلة بهذا الشأن. أدركت أنهم سيهزموننا بالتأكيد،

لكن على الأقل لم يكن الأمر ظالماً مثلما هي الحال في وجود ثلاثة فتيان

يسحقون واحداً.

حينها عرفت أن أحمد سيكون أفضل صديق لي إلى الأبد. أحبته على الفور

بسبب شهامته وسلوكه المتفائل. شكّلت هذه التجربة رابطاً بيننا، ودفعت والدي،

وهو بطل ملاكمة سابق في الوزن الثقيل، إلى إعطائنا دروساً في الملاكمة، مما

أثار استياء والدتي.

كانت والدتي تتذمر قائلة لوالدي الذي لم يكثر لحديثها:

- ستجعلهما يتسمان بالعنف.

كإجراء مضاد، كانت تمد لي يدها كل ليلة بعد العشاء بكأس من سائل كهرماني

اللون، تفوح منه رائحة تشبه بول الخيل في يوم صيفي حار، وتؤكد لي قائلة وهي

تجبرني على شرب الخليط المثير للغثيان:

- سوف يحيد هذا ما يفعله والدك بمزاجك.

أحببت الملاكمة، لكن علاج والدتي كاد يدفعني إلى الإقلاع عنها.
بعد بضعة أشهر من التدريب، ومع ازدياد قوة لكماتنا - صارت قصيرة وسريعة،
لكن قوية وقت الحاجة - بدأت أتوق إلى إعادة المباراة مع المتتمرين الثلاثة في
المدرسة. سمع والدي بالمصادفة خططنا للانتقام وتدخل في الأمر.

قال ذات يوم بعد التدريب:

- اجلس يا سيد باشا.

ثم أشار إلى أحمد وقال له:

- هلاً انضممت إلينا من فضلك؟

ردَّ أحمد:

- بالتأكيد يا سيد شاهد.

وبينما كان يجلس بجانبني همس قائلاً:

- أعتقد أننا في ورطة يا سيد باشا!

بدأ والدي قائلاً بتأمل:

- مَنْ يتعلم الملاكمة ينضم إلى رابطة الرياضيين الذين لا يرفعون أيديهم أبداً
في وجوه مَنْ هم أضعف منهم.

توقفت والدتي عما كانت تفعله وتقدمت لتقف بصرامة إلى جانب والدي.
سألته بذهول:

- لكن يا أبي، إذا لم نضرب الأشخاص الأضعف منا، فمَنْ سنضرب؟ أليس
من الغباء على أي حال أن نضرب مَنْ هم أقوى منا؟

بذل والدي قصارى جهده لتفادي النظر إلى والدتي، التي كانت تحديق إليه
مثل نمر يتمعن غزاً لا قبل الوثبة الأخيرة الحاسمة.
تمتم قائلاً:

- لقد علمتك الملاكمة حتى تتمكن من الدفاع عن نفسك، لكن لا أريدك
أن تسعى إلى القتال.

لم أصدق أنا وأحمد ما سمعناه.

أصر والدي قائلاً:

- أريدك أن تعدني بأنك ستحترم دائماً قانون رابطتنا.

لا بد أننا أبطأنا في الرد.

كرر والدي ونبرة صوته ترتفع:

- أريدك أن تعدني.

وهكذا انضمت أنا وأحمد على مضض إلى رابطة الرياضيين الذين لا يعتدون بالضرب أبداً على المتتمرين الذين يحطمون وجوه الأطفال الأضعف منهم. ولم تكن لدينا أي فكرة بالطبع في ذلك الوقت عن وجود مثل هذه الرابطة من عدمه.

قال أحمد لاحقاً:

- إيراج محظوظ لأن والدك جعلنا نقطع له وعداً.

مما دفعنا إلى الضحك.

كان إيراج فتى ضئيل الحجم، زري الهيئة، له أنف طويل مدبب، لوحث الشمس ملامحه مما جعله يبدو كالهنود. وكان ذكياً، ويحصل على أفضل الدرجات في مدرستنا، ويحب الفيزياء والرياضيات، وهما المادتان اللتان أكرههما أكثر من أي شيء آخر.

كنت على اقتناع بأن إيراج يحب شقيقة أحمد الكبرى، لأنه لا يستطيع رفع عينيه عنها عندما تكون في الزقاق. الجميع يعرفون أنه لا ينبغي لك أن تقع في حب أخت صديقك، كأنها فتاة من حي آخر. لو كنتُ مكان أحمد ورأيت إيراج يحدق إلى شقيقتي لضربته ضرباً مبرحاً، لكنني لست أحمد. سيصبح أحمد وهو يحاول جاهداً ألا يتسم عندما يباغت إيراج:

- مهلاً، توقف عن التحديق إليها، وإلا سأخالف عهدي مع الرابطة المقدسة

لجماعة الملاكمة.

وسأهمس أنا مبتسماً:

- الرابطة المقدسة لجماعة الملائكة؟ الرابطة والجماعة تحملان المعنى نفسه، ولا يجب عليك استخدامهما في الجملة نفسها.
وسيضحك أحمد.
- أوه، فلتخرس أنت.

إيراج هو بطل الشطرنج في حيننا، وهو بارع إلى درجة أنه لم يعد هناك من يرغب في اللعب ضده. وعندما نلعب كرة القدم في الزقاق، يلعب إيراج الشطرنج ضد نفسه.

سأله أحمد بابتسامة ساخرة:

- من الفائز؟

تجاهله إيراج، فقال أحمد:

- هل سبق لك أن هزمت نفسك؟ يمكنك ذلك، كما تعلم، لو لم تكن منشغلاً بأختي إلى هذا الحد.

تمتم إيراج وهو يدير عينيه في محجريهما:

- أنا لست منشغلاً بأختك.

أجاب أحمد وهو يومئ برأسه:

- حسنًا، إذا واجهتك أي مشكلة في هزيمة نفسك، فأخبرني وسيسعدني فعل ذلك نيابة عنك.

مازحت أحمد قائلاً:

- أتدري، كنت أغضب منه لتحديقه إلى شقيقتك، لكن قد لا يكون من السيئ تمامًا مصاهرة بطل شطرنج.

زمجر أحمد قائلاً:

- التزم الصمت، وإلا سأغير على خزانة والدتك، وأعد لك شرابًا خاصًا سينبت الشعر على لسانك.

حمل ذلك التهديد بعض الوزن، وذلك بالنظر إلى الطريقة التي طبقت بها

والدتي معرفتها الفريدة، واستمعت إلى حدسها، وتوصلت إلى استنتاج مفاده أنني شخص انطوائي للغاية.

سألته من دون انتظار جواب مني:

- هل تعلم ماذا يحدث للأشخاص الانطوائيين؟ إنهم يصابون بالمرض.
وعندما اعترضت قائلاً إنني لست انطوائياً، ذكرتني بالمرّة التي سقطت فيها على الدرج عندما كنت في الرابعة من عمري. كان عملي وعمتي وجدي وجدتي يزوروننا في ذلك اليوم، واعتقدت والدتي أن مشاهدتي وأنا أسقط من فوق طابقين على الدرج كادت تتسبب لأفراد الأسرة في حدوث نوبتين قلبيةتين وثلاث سكتات دماغية وعدد من قرح المعدة الصغيرة.

وبخنتني قائلة:

- لقد كُسرت ساقك في ثلاثة مواضع! قال الطبيب إنه رأى رجالاً كباراً يكون بسبب مثل هذه الكسور، لكنك لم تصدر صوتاً. هل تعلم ماذا يفعل هذا النوع من الضغط بجسمك؟

قلت:

- لا.

- إنه يسبب السرطان.

ثم بصقت ثلاث مرات لإبعاد هذه الفكرة.

كي تساعدني في التغلب على طبيعتي الانطوائية، أصررت على أن أشرب خليطاً قاتماً يشبه في شكله ورائحته زيت المحركات المستعمل. شكوت طعم الدواء الفظيع، فطلبت مني الصمت والكف عن التذمر.
ذكرتها قائلاً:

- ظننت أن الهدف من هذا العلاج هو دفعي إلى الحديث بدرجة أكبر.
أمرتني قائلة:

- اصمت، فالتذمر لا يُحتسب. إذا أردت النجاح في الحياة، فيجب أن تجبر نفسك على أن تكون منفتحاً.

ثم أوضحت:

- ينتهي الأمر بالانطوائيين كشعراء وحيدين أو كُتَّاب معدمين.

قال أحمد متأملاً ذات يوم:

- إذن زيت المحرك يجعلك شخصاً منفتحاً، وبول الخيل يجعلك تنسحب

إلى قوقعتك مرة أخرى.

هز رأسه متعاطفاً.

- ستكون في حالة يرثى لها عندما تنتهي والدتك من أمرك.



telegram @
yasmeenbook

دموع فهيمة وشعر زاري المبلل

قضينا ليلينا الصيفية على السطح، مستمتعين بالمساحة الآمنة والواسعة التي يوفرها لنا المنظر البانورامي. لم تكن هناك جدران تحاصر ما نقوله، ولا مخاوف تشكّل ما نفكر فيه. قضيت ساعات وأنا أستمع إلى قصص لقاءات أحمد الصامته مع فهيمة، الفتاة التي يحبها. خفت صوته، ولانت ملامحه وهو يصف كيف أَلقت شعرها الأسود الطويل إلى الخلف وهي تنظر إليه، وكيف أن ذلك يعني حتمًا أنها تحبه. وإلا لماذا تجهد عنقها في محاولة التواصل معه؟ يقول والذي إن الفرس يؤمنون بالتواصل الصامت، إذ إن نظرة أو إيماءة تنقل أكثر بكثير مما ينقله كتاب ممتلئ بالكلمات. ويجيد والذي التواصل بصمت ببراعة شديدة، فعندما أسيء التصرف، يحدّجني بنظرة صارمة تؤلم أكثر من ألف صفعه على الوجه.

أستمع إلى صوت أحمد وهو يواصل الثرثرة عن فهيمة، لكن نظراتي عادة ما تتجول في فناء جيراننا، حيث تعيش فتاة تُدعى «زاري» مع والديها وشقيقاتها الأصغر، كيفان. لم يسبق لي أن رأيت فهيمة عن قرب، لذلك عندما يتحدث أحمد عنها أتخيل زاري في ذهني: عظمتي وجنتيها الرقيقتين، وعينيها الباسمتين، وبشرتها الشاحبة الناعمة. في أغلب أمسيات الصيف، تجلس زاري على حافة

حوض منزلها الصغير تحت شجرة كرز، تدلي قدميها الرشيقتين في الماء وهي منشغلة بالقراءة. وأحرص على عدم التحديق إليها فترة طويلة، لأنها مخطوبة لصديقي ومرشدي رامين صبحي، الطالب في السنة الثالثة بكلية العلوم السياسية في جامعة طهران، والذي يناديه الجميع بمن فيهم والداه بلقب «الدكتور». إنه لأمر وضع أن أعجب بحبيبة صديقي، وفي كل مرة أفكر فيها بالدكتور، أطرده من رأسي كل الأفكار عن زاري. ومع ذلك، فإن ثروة أحمد العاطفية تجعل من الصعب عليّ الحفاظ على صفاء ذهني.

يقطع أحمد كل يوم عشر دقائق بالدراجة إلى الحي الذي تقطن به فهيمة، على أمل أن يلحقها. قال إن لها شقيقين أكبر منها يحميانها كالصقور، وإن كل من في الحي يعرف أن العبث مع شقيقتي يعني الإصابة بكسر في الأنف، وخلع في مفصل الفك، وكدمة كبيرة سوداء كالباذنجان تحت عين واحدة على الأقل. وقال أحمد إنه لو علم شقيقا فهيمة أنه معجب بأختي، لجعلا أذنيه أكبر جزء في جسده، أي أنهما سيمزقانه إربًا إربًا.

ونظرًا إلى أن أحمد لم يستسلم بسهولة، فقد اختار يومًا كان شقيقا فهيمة موجودين فيه بالزقاق، وتعمد الاصطدام بدراجته في جدار، وأخذ يئن ويتأوه من الألم، إلى أن أخذه شقيقا فهيمة داخل منزلهم، وأعطياه حبة من الأسبرين، ثم ثبتا معصمه المصاب بلف قطعة من القماش حوله. وكانت فهيمة على بعد خطوات قليلة فقط، وأدركت تمامًا ما يهدف إليه الغريب الوسيم.

صار أحمد يركب دراجته إلى زقاق فهيمة من دون أن يحمل همًا على الإطلاق، ويقضي ساعات مع شقيقها، وهم يتحدثون عن كل شيء بداية من اللاعبين الحاليين هذا العام في المنتخب الإيراني لكرة القدم، وحتى أولئك الذين قد يحصلون على هذا التكريم العام المقبل. وقال إنه لا يمانع لو تسبب شقيقها في شعوره بالضجر حد الموت، ما دام قريبًا منها. اعتادوا لعب كرة القدم في الزقاق طوال فترة ما بعد الظهر، وأصر أحمد على لعب دور حارس المرمى، على الرغم من أدائه السيئ في هذا المركز. وبينما انشغل الأولاد الآخرون

بمطاردة الكرة في حرارة الظهيرة الحارقة في طهران، وقف أحمد ساكنًا. وكان من المفترض أنه يدافع عن مرمى فريقه، لكنه في الواقع كان يراقب فهمية، التي تراقبه من سطح منزلها.

بعد بضع مباريات فقط، اضطر أحمد إلى التخلي عن مركز حارس المرمى. فقد انشغل جدًا مع فهمية، إلى درجة أنه لم يكن مستعدًا قط لمهاجمي الخصم، وكان فريقه يخسر دائمًا بفارق خمس أو ست نقاط على الأقل. وعندما بدأ أحمد اللعب مهاجمًا، عاد فريقه يفوز مجددًا، لكن صار عليه الركض خلف الكرة، مما كان يعني أنه لم يعد قادرًا على تبادل النظرات الصامتة مع فهمية.

لذا جاءني أحمد بخطة. كان عليّ أن أرافقه إلى زقاق فهمية في اليوم التالي، حيث سيقدمني لأصدقائه الجدد، ويحرص على أن ينتهي بي المطاف باللعب مع الفريق المنافس، وسأصوب الكرة إلى ركبته خلال لعبة حاسمة، ثم يتظاهر هو بالسقوط على نحو سيئ والإصابة بشكل خطير. بعد ذلك، لن يكون لديه خيار سوى اللعب حارس مرمى مرة أخرى. سيكون حارس مرمى يتألم، ويلعب على الرغم من آلامه، الأمر الذي سيثير إعجاب فهمية بلا شك.

وافقتُ على الذهاب معه، لكنني قلقت في أعماقي مما قد تظنه فهمية بي بعد أن أسقط أحمد أرضًا. غير أنني شعرت بتحسن عندما تخيلت اليوم الذي نخبرها فيه بأن الأمر برمته كان حيلة لإعادة أحمد إلى مركز حارس المرمى.

حذرني أحمد بابتسامة على وجهه:

- لا تؤذني حقًا الآن.

فأجبت وأنا أشاركه روح المرح:

- فلتحرص على أن يكون جرّاح العظام على أهبة الاستعداد، يا صديقي.

- أوه، دعك من ذلك، أنت تعلم أن عظامي هشة. المسني برفق فحسب، وسأتولى الباقي.

نُفذت الخطة ببراعة، واستحق أحمد جائزة الأوسكار عن تجسيده دور فتى

يعاني الألم، وميدالية ذهبية للعبة دور حارس المرمى بعد إصابته المروعة. وعندما نظرت إلى وجهه الذي يتوهج لمعرفته أن فهمته تراقبه، خشيت أن يؤدي نفسه حقًا بوثباته الشجاعة إلى اليسار وإلى اليمين وتحت أقدام مهاجمينا، وكل هذا على الأسفلت. لم نتمكن من تسجيل أي هدف في مرماه، وانجرح يده ومرفقاه، كما تمزق سرواله عند الركبتين. في كل مرة أوقفنا فيها كان يتجه من شدة الألم، ويترك الكرة ثم ينظر إلى السطح حيث تراقبه فهمته باهتمام، حتى إنني رأيتها تبتسم له في إحدى المرات.

لاحظ أحد شقيقي فهمته أنني أنظر نحو السطح، وأدركت منذ تلك اللحظة أنه لم يعد يحبني كما لا أحب إيراج لأنه يحدق إلى أخت أحمد. لم يضافحني عندما ودّعت الجميع. تفحصته خلسة، ووجدته أطول وأضخم مني. رحلت وأنا مطمئن إلى أنني لن أخذل الرابطة المقدسة لجماعة الملاكمة إذا ما قرر أن يكون وغداً معي أو مع أحمد.

مر أسبوعان، وكنت جالساً على سطح منزلنا في الظلام، وأذناي وعينا يملأها اندفاع وتمايل الرياح الخفيفة التي تحني رؤوس الأشجار، عندما سمعت باب فناء منزل زاري يُفتح ثم يُغلق.

فكرت قائلاً لنفسني بحزم: لا تنظر، لكن أنفاسي صارت سريعة وسطحية بمجرد التعرف على الصوت. فكرت: قد يكون كيفان فحسب. قررت إغلاق عيني، لكن نبضات قلبي تسارعت عندما أدركت أن ذلك لم يؤدِّ إلا إلى زيادة حدة سمعي. خطت قدماها العاريتان عبر الفناء، ثم بدأ الماء في الحوض يتماوج مع الحركة البطيئة لساقها بينما تقلب صفحات كتابها بصوت خافت إيقاعي مألوف لي من الساعات التي أمضيتها في القراءة. قرأت أربع صفحات قبل أن يصل أحمد إلى سطح منزلي. جلس بصمت على الجدار المنخفض الممتد بين سطحينا، وأشعل سيجارة بيديه المرتعشتين. كشف الضوء اللحظي من عود الثقاب عن دموع في عينيه.

ضاق صدري عند رؤية التعبير المرتسم على وجهه، وسألته:

- هل هناك خطب ما؟

هز رأسه بالنفي، لكنني لم أصدقه. نحن الفرس كشعب غارقون في البؤس، إلى درجة أننا لا نستطيع مقاومة اليأس عندما يطرق بابنا.

أصررت قائلاً:

- هل أنت متأكد؟

فأوماً برأسه بالإيجاب.

قررت أن أتركه وشأنه، لأن هذا ما أتمنى أن يفعله الناس معي عندما لا أشعر بالرغبة في الكلام.

جلس ساكناً كالحجر لبضع دقائق بينما زحف طرف السيجارة المشتعل المتوهج نحو أصابعه، ثم همس قائلاً:

- لديها خاطب.

ألقيت نظرة على زاري في الأسفل، وقدمها العاجيتان تحركان انعكاس القمر على سطح الماء حتى تلاًلأ كالذهب السائل، وسألته:

- من التي لديها خاطب؟

- فهيمة. هناك رجل يسكن على بُعد منزلين منها سيرسل والديه إلى منزلها ليلة الغد.

شعرت كأن شخصاً ما قد أفقدني الوعي، ولم أعرف ماذا أقول. نادراً ما يعرف الناس الذين يصرون على التدخل في شؤون الآخرين ما يجب أن يقولوه أو يفعلوه. تساءلت لماذا يسألون في الأساس. تظاهرت بتأمل أضواء المدينة الواضحة التي تمتد عبر الأفق المعتم.

في النهاية سألته:

- متى عرفت؟

- بعد أن رحلت أنت عصر اليوم، ذهبت أنا وشقيقها إلى فناء منزلها للحصول على بعض الماء البارد، وعندها أخبراني.

- هل كانت موجودة؟

رفع نظره إلى الأعلى وحدّق إلى السماء بقوة ليمنع الدموع من الانهمار على وجهه، وقال:

- نعم، كانت تصب الماء من الإبريق في كأسِي عندما أخبراني.

تذكر سيجارته وأخذ منها نفسًا عميقًا، ثم تابع:

- كنت جالسًا على كرسي بينما وقفت أمامي، بل انحنت فوقِي في الواقع.

ظلت تنظر إلى عيني طوال الوقت، ولم يرمش لها جفن.

هز أحمد رأسه وارتجفت شفتاه في شبح ابتسامة.

- كانت قريبة جدًا إلى درجة أنني شعرت بأنفاسها على وجهي، وبدت رائحة

بشرتها نظيفة مثل الصابون، لكن أكثر حلاوة. سألني أحد شقيقها عما

إذا كنت سأهنئ أختهما الصغرى، لكنني لم أتمكن من إخراج صوت من

حلقي.

ترك أحمد خيبة الأمل تظهر على وجهه ودموعه تنهمر، وأسقط السيجارة

المستهلكة وداس عليها.

همست قائلاً:

- إنها صغيرة جدًا. بحق السماء، كم عمرها، سبعة عشر عامًا؟ كيف يمكنهم

تزويج طفلة في السابعة عشرة من العمر؟

هز أحمد رأسه مرة أخرى في صمت.

قلت كي أزرع الأمل في قلبه:

- ربما يرفضه أهلها.

قال بضحكة قصيرة مريرة وهو يسحب سيجارة أخرى من العلبة:

- عائلتها تحبه، فهو خريج جامعي في السادسة والعشرين من عمره، يعمل

في وزارة الزراعة، ويمتلك سيارة، وسيشتري قريبًا منزله الخاص في حي

تهرانبارس. لن يرفضوه.

أشعل السيجارة، ثم رفع العلبة نحوي. تخيلت والدي يظهر فجأة ويحد جني

يأحدي نظراته الصارمة تلك التي تؤلم أكثر من ألف صفعة على الوجه، فهزرت رأسي بالرفض.

تأملت وجه أحمد الحزين، وتمنيت لو أن بإمكانني فعل شيء لمساعدته. كانت هذه ليلة تاريخية لكلينا، حيث كنا نمر بأول أزمة شخصية كبيرة في حياتنا الشابة. كان أمراً محزناً، لكن عليّ الاعتراف أنه بدا مثيراً أيضاً على صعيد ما، وجعلني أشعر بالنضج.

سأل أحمد بين أنفاس السجارة:

- هل تعرف مدى سوء هذا الشعور؟

أردت مشاركة ألمه بشدة، فشرعت أعترف وأنا أشعر بالحرج نوعاً ما:

- حسناً، لقد قرأت عن ذلك في الكتب فقط.

ثم نظرت إلى فناء زاري وأضفت:

- لكنني أعتقد أنني أستطيع تخيل الأمر.

في وقت متأخر من عصر اليوم التالي، طلب مني أحمد الذهاب معه إلى زقاق فهيمة، ففعلت ذلك، على الرغم من تخوفي من رؤية شقيقي فهيمة مرة أخرى، خصوصاً ذلك الذي يكرهني لكوني مثل إيراج. كانت الشمس قد غربت للتو، وبدأت الأضواء في الزقاق تضيء الواحد تلو الواحد. وانتهى بعض الناس حينها من ري أشجارهم ورش أرصفتهم بالخرطوم، كما هي العادة في طهران، فجعلت رائحة الغبار الرطب حرارة المساء الجافة أكثر احتمالاً. كانت هناك مجموعة من الأطفال يلعبون كرة القدم ويحدثون الكثير من الضوضاء، واعتقدت أنها لا بد أن تكون المباراة الأخيرة في ذلك المساء. وقفت السيدات على مقربة من بعضهن يتبادلن الحديث، بينما ركضت الفتيات الأصغر سناً وأذرعهن متشابكة، وهن يتصاحكن.

لم يسبق لي أن رأيت أحمد مستغرقاً في الحزن إلى هذا الحد. سرنا عبر الزقاق ذهاباً وإياباً، وتباطأ في سيره في كل مرة وصلنا فيها إلى منزل فهيمة. أسند جبينه إلى الحجر، وأغمض عينيه وهمس قائلاً:

- أستطيع أن أشعر بها على الجانب الآخر من هذه الجدران. إنها تعلم بوجودي هنا. نحن نتنفس الهواء نفسه.

مر بعض الأطفال وتعرفوا على أحمد، وأرادوا الحديث، لكن لم يكن أحمد ولا أنا في حالة مزاجية تسمح لنا بالحديث، فواصلنا السير. عندما وصلنا إلى منزل فهيمة مرة أخرى، توقف وضغط بكلتا قبضتيه على الحجر، مثل محارب متعب عند قاعدة حصن.

في الداخل، تبادلت مجموعة من البالغين النقاش حول ارتباط مدى الحياة بين شابين. وعادة ما تكون والدة العروس المقبلة على الزواج سعيدة وفخورًا، إلا إذا كان الخاطب فاشلاً للغاية. أما والدة العريس المستقبلي فتكون متحذرة وهادئة، وتسجل في ذهنها ملاحظات لتستخدمها لاحقًا إذا تعذر إتمام الاتفاق، وهي تفاصيل ستبقى راسخة في ذهنها حتى يتم الزواج بسعادة. مَنْ يدري ما الذي سيحدث بين شخصين غريبين؟ دائمًا ما يمكن للمعلومات المفيدة أن ترجح كفة الميزان لصالحها في حال فشل الزواج. كل شيء مباح، من لون ورق الجدار في غرفة المعيشة إلى حجم مؤخرة الحماة المستقبلية. أما الآباء فيتسمون باللطف، وهم أكثر اهتمامًا بالشراب والطعام والتفاخر بالأشياء التي يتفاخر بها الآباء: الأشخاص الذين يعرفونهم في مناصب رفيعة، والصفقة التي فازوا بها للحصول على قطعة أرض مميزة على بحر قزوين. كما توجد مجموعة من العمات والأعمام والأصدقاء المقربين وأفراد العائلة، وجميعهم سعداء بوجودهم هناك، لأنه ليس لديهم شيء أفضل يفعلونه بوقتهم.

ستركز معظم النقاشات على المال. ماذا يملك العريس؟ هل يملك منزلًا؟ هل لديه سيارة؟ ما طرازها وسنة صنعها؟ حبذا لو كانت سيارة أمريكية، بويك أو فورد. كم المهر؟ كم ستدفع أسرة العريس لأسرة العروس في هذه المناسبة الميمونة؟ كم ستكون النفقة إذا حدث طلاق في المستقبل؟

عادة ما يجلس العريس والعروس متباعدين، ولا يتبادلان الحديث، حتى إنهما يتجنبان النظر إلى بعضهما. أدركت أن أحمد يتساءل عما تفكر فيه فهيمة،

وهي جالسة بهدوء في تلك الغرفة المزدحمة. هذا ما كنت سأفكر فيه لو كنت أحب زاري على سبيل المثال، وكانت ستتزوج شخصاً آخر غير الدكتور. كنت سأتساءل إن كانت زاري تفكر فيّ. كنت سأتساءل ما إذا كانت قد تزينت، وإذا كانت قد فعلت، سأتساءل عن السبب. ألا تريد أن يعتقد غريمي أنها قبيحة وغير جديرة بالزواج؟ كنت سأغار بشدة من الرجل الذي سينظر في عينيها الزرقاوين الجميلتين، ويفكر في احتضانها، ولمس وجهها، والشعور بجسدها الدافئ قبالة جسده. يا إلهي، أنا سعيد جداً لأنني لا أحب زاري، لا بد أن أحمد المسكين يعاني الأمرين.

انتظرنا حتى الساعة العاشرة، لكن لم يخرج أحد من منزل فهيمة. عدنا بدراجتنا إلى حينا، وتناولنا عشاءً سريعاً، ثم انسحبنا إلى السطح. مرت الساعات في صمت ثقيل. بدت معالم جبال ألبرز، التي عادة ما تبعث على البهجة، كأنها رابضة في الظلام المتنامي مثل كلب وحيد. ظلت الحرارة متواصلة على غير العادة طوال اليوم، وجلسنا نتصبب عرقاً من دون أن نتحدث لما بدا كأنه أيام. ما الذي يمكن قوله لفتى في السابعة عشرة من عمره وقع في حب فتاة في السابعة عشرة من عمرها، وهي على وشك أن تُباع في مزاد علني مقابل بضعة آلاف من التومانات الإيرانية مهراً، ووعد مشكوك فيه بالسعادة؟

قلت فجأة:

- أعتقد أن عليك أن تخبرها بأنك تحبها.

زفر أحمد قائلاً بسخرية:

- ما جدوى ذلك؟ علاوة على هذا، ألا تعتقد أنها تعرف بالفعل؟

- ربما تعرف... قد تعتقد أنه من المحتمل أنك تحبها، لكنها لا تعرف على وجه اليقين، أليس كذلك؟ فأنت لم تخبرها بمشاعرك، وبالتأكيد لم تفعل أي شيء لتظهر لها ذلك.

تمتم قائلاً:

- أنا أتواصل معها في صمت كل يوم.

دفعني جوابه إلى الابتسام.

- أحمد، إنها الوحيدة القادرة على إيقاف هذه الزيجة. قد يجبرها والداها على الزواج به، لذلك ليس هناك ما يضمن أن أفعالك ستغير أي شيء، لكن عليك أن تعطيها سببًا للقتال.

سأل أحمد، وصوته يرتجف من التساؤل العميق:

- هل تعتقد أنها قد تفعل؟

- أعتقد أنها قد تفعل ذلك إذا تدخلت أنت، وإذا لم تفعل، فما الذي لديك لتخسره؟

اشتعل الضوء فوق باب منزل زاري، ثم دخلت الفناء وجثت برشاقة عند حافة الحوض. انخفضت حرارة الجو ببطء ذلك المساء، فانحنى ومالت جانبًا لتبلل شعرها، وغمسته في الماء ثم لفته ببراعة وثبته على رأسها حتى ينزلق الماء في قطرات على عنقها وظهرها. لست متأكدًا كم من الوقت ظللت أهدق إلى فناء زاري، عندما شعرت بأحمد يهدق إليّ.

قال وهو يحك أعلى رأسه مفكرًا:

- إذن، هل تعتقد أن زاري ستعيد النظر في الزواج بالدكتور، لو تقدم إليها شخص ما وأخبرها بأنه يحبها؟
أجبت متلعثمًا:

- هذا ليس... هذا أمر مختلف. زاري تريد الزواج بالدكتور، لذا فهذا ليس سؤالًا عاديًا، كما أن الأمر لا يتعلق بشأني أنا وزاري، بل يتعلق بك أنت وفهيمه.

عض أحمد على شفته السفلى ليخفي ابتسامته، ثم سأل:

- هل تعتقد أنها ستخالف رغبة والديها؟

أجبت بحدة:

- قلت إن وضع زاري مختلف!

لم يكلف أحمد نفسه عناء إخفاء ابتسامته هذه المرة.

- لم أقصد زاري، كنت أتحدث عن فهيمة.
- ثم كرر قائلاً:
- هل تعتقد أنها ستخالف رغبة والديها؟
- هزرت رأسي قليلاً لأطرد أي أفكار أخرى عن زاري، ثم رمقت صديقي بنظرة واثقة وأجبت:
- الناس يفعلون أشياء مذهلة من أجل الحب. تمتلئ الكتب بقصص رائعة عن هذا النوع من الأشياء، والقصص ليست مجرد خيالات، كما تعلم. إنها جزء من الأشخاص الذين يكتبونها، إلى درجة أنهم يعلمون قراءهم في الواقع دروساً لا تُقدر بثمن عن الحياة.
- لاحظ أحمد البريق في عيني، وهز رأسه وضحك.
- أعرف، عليّ أن أقرأ بدرجة أكبر.

استيقظت في اليوم التالي وحدي، وأنا أحرق إلى الشمس الحارقة المعلقة في منتصف السماء، وأدركت أنني لا بد أن أكون قد صحت في وقت متأخر. انقشعت غشاوة استيقاظي فجأة عندما لاحظت أن أحمد قد رحل بالفعل. هرعت إلى الطابق السفلي وارتديت حذائي، وغمغمت ملقياً التحية على والدتي التي كانت متجهة إلى الرواق حاملة كوباً كبيراً من شراب زيت المحركات الخاص بها من أجلي. تجهمتُ، ثم ركضت متجاوزاً إياها إلى الفناء نحو دراجتي. صاحت أُمي:

- إلى أين أنت ذاهب؟ أنت لم تتناول إفطارك بعد!

صحت وأنا أقفز على دراجتي:

- لا يوجد وقت لذلك!

وسمعت همهمة أُمي المألوفة وهي تطلق السباب بصوت خافت. ركبت دراجتي بأسرع ما يمكنني إلى زقاق فهيمة، وهوى قلبي وأنا أنعطف حول الزاوية. كانت هناك مجموعة من الأولاد يصدون شقيقي فهيمة، بينما وجه

أحمد مغطى بالدماء. وتعالى الكثير من الصيحات والصراخ، وشقيق فهيمة الأكبر يطلب من أحمد أن يغرب عن وجهه. وقف أحمد بهدوء، من دون أن يمسه أحد، قفزت من فوق دراجتي وركضت نحوه.
سألته بقلق:

- ما الذي يجري؟

عندما لم يرد أحمد، افترضت الأسوأ واستدرت لمواجهة مهاجمينا. تركت جسدي يرتخي كي يستعد، وقفزت بخفة على كعبي وهزرت يدي فترة وجيزة لتدفقتهما قبل أن أكورهما في هيئة قبضتين.
ابتسم أحمد برفق، وأمسك ذراعي، وأوضح وهو يشير إلى الفتاة الباكية على السطح:

- لقد اتبعت نصيحتك. كنت أحاول إخبار فهيمة بأنني أحبها، لكنني أعتقد أن العالم كله سمعني.

راقبتنا فهيمة، وهي تعلم جيداً أن فتى في السابعة عشرة من عمره قد خطأ أولى خطواته نحو أن يصبح رجلاً، وخلال ذلك جعلها تشعر بأنوثتها أكثر من كل العمات والأعمام والرسميات التي كانت في الليلة السابقة. إذا كان عليها أن تتزوج رجلاً اختاره لها والداها، فهي تعرف على الأقل أنها محبوبة من شخص لديه الشجاعة الكافية لتحدي التقاليد.

لم يسعني إلا أن آمل أن تستجمع شجاعته لتتحدى والديها من أجل أحمد.

بعد بضع ليالٍ، ذكرت والدتي على العشاء شائعة سمعتها عن فتاة شابة لطيفة في حي قريب، تُجبر على الزواج برجل لا تحبه. قالت أُمي:
- لا أعرفها، لكنني أشعر بالأسى عليها.

استمعتُ بامعان، لكنني أبقيت ملامحي جامدة. تابعت أُمي:

- سمعت أنها حبست نفسها في غرفتها، وترفض الخروج أو تناول الطعام أو التحدث إلى أي شخص.

هز أبي رأسه، وقال:

- لقد حان الوقت كي يتعلم الآباء في هذا البلد أن أرواح أبنائهم أهم من التقاليد.

ثم قال لي:

- عليكم أيها الشباب أن تتحملوا مسؤولية مستقبلكم. إذا كان الشخص كبيرًا بما فيه الكفاية ليتزوج، فمن المؤكد أنه كبير بما فيه الكفاية ليقرر مَنْ يريد الزواج بها.

أومأت أمي برأسها موافقة.

جلست على السطح بعد العشاء في ذلك المساء، وشممت رائحة سيجارة أحمد، وسمعت خطواته على الدرج قبل أن يستقر بجاني بوقت طويل. سألني:

- هل لديّ نجم في الأعلى؟

أدركت أنه لا يتوقع إجابة، لذا التزمت الصمت.

قال وهو يشير إلى نجم لامع بعيد عن الأفق:

- أرى نجمك، إنه يبهر البصر!

جادلته ووجهي يلتهب بعض الشيء:

- هذا ليس أنا، إنه ساطع جدًا. لا بد أنها فهمية، والضوء أقوى لأنها تفكر فيك.

تنهد أحمد وهو يتمدد على ظهره ويغمض عينيه. حذوت حذوه، مدركًا أن سيمفونية الضوضاء الليلية الخافتة لن تكون عالية بما يكفي لانتشالنا من همومنا. استنشقت رائحة الأسفلت الرطب، واستمتعت بالطريقة التي داعب بها نسيم الليل عيني المغمضتين.



شتاء ١٩٧٤

مستشفى روزبه للأمراض النفسية، طهران

أفقت بما يكفي لأتقلب تحت الأغطية، وافتقدت الحرارة التي خلفها جسدي بمجرد أن لامس جلدي الملاءات الباردة غير المستخدمة على الجانب الآخر من الفراش. استلقيت ساكناً وعيناي مغمضتان، لأن عقلي شعر بالإرهاق الشديد إلى درجة لا يمكنني معها استيعاب أي شيء قد أراه. لفت انتباهي بعض الأصوات: طقطقة جوفاء لعصا تبعها صوت جرجرة أقدام ترتدي النعال على المشمع، ودقات خافتة لساعة يد في درج الطاولة الجانبية للفراش، لكن الصمت النسبي أيقظني. كنت وحدي في الغرفة، وشعرت بالضيق من دون ترانيم العجوز الإيقاعية. انقلبت على جانبي الآخر، فوجدت الملاءات قد بردت بالفعل، وتساءلت ما إذا كنت سأفتح عيني مرة أخرى.

مرّت إما بضع دقائق وإما عدة أيام قبل أن أستعيد وعيي مجدداً. لاحظت وجود بقع وردية اللون من الجلد الملثم على يدي وذراعي. بدا الجلد الجديد رقيقاً، لكنه لم يؤلمني. هل أصبت بحروق؟ لماذا؟ كيف؟ هل حاول أحدهم قتلي؟ لكن ذلك لم يكن ما يهمني. سرى الألم في مؤخرة رأسي على إيقاع نبضي الخافت، بينما شعرت مع كل نفس بطيء أسحبه بين أضلعي المتألّمة كما لو كنت أجاهد لرفع ثقل.

بدأت الأحلام تبثلي أيامي ولياليّ. تجمعت السُّحب الداكنة فوق سطح منزلنا على مقربة كافية لملامستها، وضرب البرق على مقربة مني حتى كاد الرعد يطيح بي. فتحت عينيّ لأرى الكرسي المتحرك على الجانب الآخر من الغرفة. هل يمكنني المشي؟ هل أنا مشلول؟ ربما سقطت من على السطح، كما كانت أمي تخشى دائماً. أم أن أحدهم دفعني من أعلى؟ لماذا؟ غلبني مزيد من القشعريرة، وفقدت الوعي ساعات أخرى.

في المرّة التالية التي استيقظت فيها، بدت السُّحب أكثر قتامة. كنت لا أزال على السطح، ورأيت رجلاً يرتدي بدلة سوداء ينظر إليّ من الزقاق، وعيناه المتربستان تلتمعان. بدا وجهه متنفخاً، وهو يصرخ في اللاسلكي الذي يمسكه بيده. ملأ الهواء صوت مكتوم، أشبه بهدير غاضب يضاهي الرعد في شراسته. هبت رياح باردة عبر الزقاق، وثار الغبار والمخلفات، بينما تحوّل كل شيء إلى اللون الرمادي الشتوي. لم أستطع أن أجزم ما إذا كان الرجل في الأسفل أم السحب الداكنة فوقي هي التي أرسلت قشعريرة في عمودي الفقري.

صيف ١٩٧٣

طهران

الوردة الحمراء

من الصعب عدم الإعجاب بالدكتور، فنظارته المستديرة السميكة تكبر عينيه البنيتين الباسمتين بعض الشيء، ويجعله مظهره الأنيق يبدو كأستاذ شاب. ويؤدي سلوكه الهادئ وصوته القوي اللطيف إلى تهدئة حتى ألد أعدائه. وهو يعيش في الجوار مع والديه، السيد والسيدة صبحي، ويأتي كثيرًا لزيارة زاري.

عندما نلعب كرة القدم في الزقاق، يشجعنا الدكتور كمشجع حقيقي، ويتقافز مهللًا لكلا الجانبين، ويعجب باللعب النظيف. ندعوه أحيانًا إلى الانضمام للعب، لكنه دائمًا ما يضحك ويقول شيئًا من قبيل:

- أوه، لا، لا، أنا كبير في السن جدًا.

ثم يلتفت إلى زاري التي تبسم وتهز كتفيها، كأنها تقول له إن عليه أن يفعل ما يحلو له. في النهاية لا ينضم إلينا أبدًا، ولا ألومه على ذلك، فماذا سيعتقد الجيران إذا رأوا العالم الشاب، المخطوب لأجل فتاة في الزقاق، يركض وراء كرة بلاستيكية مع مجموعة من الصبية؟

أشعر بالإعجاب نحو الدكتور، لكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في زاري. وهذا بالطبع شيء لن أعترف به أبدًا، ولا سيما بالنظر إلى الطريقة التي نزعج بها إیراج بسبب نظراته إلى أخت أحمد. في معظم الوقت، تكون أفكار

حول زاري نقية وبريئة، وأكثر خيالاتي المخزية التي انغمست فيها هي التفكير في أنني إذا تزوجت يومًا ما سأرغب في أن تكون زوجتي مثلها تمامًا: ذكية، وجميلة، ورقيقة، ومحترمة، ومهذبة، كل ما يريده الرجل في المرأة، أو هكذا اعتقدت. لكن سرعان ما قادني استعراض صفات زاري إلى تخيل أول قبلة لنا في ليلة زفافنا، وشعرت كأن أحدهم سكب ماءً مغليًا في عروقي: عيناها اللامعتان تغمضان عند تقارب وجهينا، وأنا أستنشق رائحتها العذبة بينما تلتقي شففتانا في فيضان صامت من النعومة. أجبرت نفسي على تصفية ذهني في تلك اللحظة، ولم تراودني أفكار كهذه عنها منذ ذلك الحين، على الأقل ليس بشكل واع.

دائمًا ما ينشغل الدكتور بالقراءة، حتى في أثناء سيره، وأقسم أحمد إنه رآه يصطدم بعمود إنارة عدة مرات. وهكذا أصبح صديقي ومرشدي، باعتباره أحد الأشخاص القلائل الذين أحبوا الكتب نفسها التي أحبها. وهو معجب بفلسفات كارل ماركس وفريدريك إنجلز وجان بول سارتر وبرتراند راسل، كما أنه يمتلك كل مسرحيات برتولت بريشت وجورج برنارد شو، بالإضافة إلى أعمال كبار الروائيين الأمريكيين مثل جاك لندن، وجون شتاينبيك، وهوارد فاست.

قابلت الدكتور من خلال أحمد. قال أحمد:

- إنه أذكى شاب في حيننا.

وما زحني قائلًا:

- أذكى منك بكثير.

ثم تلفت حوله وأضاف هامسًا:

- أعتقد أنه من أولئك الشباب الذين لا يحبون الشاه.

تمتت مدرّكًا أن أغلب طلاب الجامعة يعارضون طغيان النظام بشدة:

- هذا منطقي.

ثم سألت:

- ما الذي يجعله فائق الذكاء؟

أجاب أحمد بنبرة متحذقة:

- إنهم لا ينادونه بالدكتور عبثاً. إنه ليس طبيباً، أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟
ابتسمت وأومأت بالإيجاب.

- إنه يقرأ كل شيء، ويعرف كل شيء. إنه مثل الموسوعية.
سألته ضاحكاً على زلة لسانه:

- ما هي الموسوعية؟

تجاهلني وتابع:

- أعتقد أنه ربما يكون الشخص الوحيد الذي يستخدم كلمات أكبر منك!
وهو دائماً ما يجادل في السياسة، حمداً لله أنك لا تفعل ذلك.
رفع نحوي ظهر يده اليمنى، كما لو كان على وشك أن يصفعني.
ضحكت مرة أخرى.

بمرور الوقت تعرفت على الدكتور حقاً، وأصبحت لغته الماركسية جزءاً
مُرحباً به في أيامي. كان يناقش المادية الجدلية والاحتمية، والمركزية وتركيز رأس
المال، مشيداً بعلماء مثل لويس ألتوسير وإريك فروم وأنطونيو جرامشي ومقتبساً
أقوالهم، علماء ماركسيين كانت منشوراتهم محظورة في إيران.
سألني الدكتور عن اهتماماتي وهواياتي ونشاطاتي المدرسية، ولمعت عيناه
عندما علم أنني قارئ مثله.

سألني بشغف:

- مَنْ مؤلفك المفضل؟

أجبت بتردد، شاعراً برهبة بعض الشيء من الشاب الذي يُفترض أنه موسوعي:
- أحب أعمال غوركي، وأحب كل الكُتّاب الروس الذين قرأت لهم،
دوستويفسكي وشولوخوف وبوشكين.

صاح الدكتور مبتسماً:

- حقاً؟ أين كنت طوال هذا الوقت يا صديقي؟ هذا رائع جداً.

بعد مناقشة طويلة عن الأدب الروسي وأثره في الثورة البلشفية عام ١٩١٧،
سألني الدكتور:

- ما رأيك في حالة الناس في قرانا؟
لم يفاجئني سؤاله بالنظر إلى حديثي مع أحمد في وقت سابق. وقبل أن تسنح لي الفرصة للرد، قال:

- إن ظروفهم المعيشية بائسة. هل سبق لك أن ذهبت إلى مزرعة؟
أومأت برأسي بالإيجاب، وتابع قائلاً:
- أعلم، يعتقد بعض الناس أنني مثالي جداً، لكنني أتمنى يوماً لا يأوي فيه أحد إلى الفراش بمعدة خاوية. أريد أن أجد طريقة لتعليم كل إنسان حتى يتمكن من استغلال كامل إمكانياته. أريد المساواة والعدالة للجميع بصرف النظر عن الوضع الاجتماعي والطبقة الاجتماعية.
شعرت بحرارة حماسة الدكتور إلى جانب إخلاصه، وسرعان ما غمرتني موجة مذهلة من المشاعر الطيبة تجاهه.

تابع قائلاً:
- لا أدري عنك، لكنني أستطيع أن أرى نفسي مبشراً في القرى، أساعد الناس على حفر الآبار وتعليمهم تقنيات الري الحديثة وحصاد المحاصيل وتنقية مياه الشرب. هل تعلم كم عدد الأشخاص الذين يموتون سنوياً بسبب شرب المياه الملوثة؟
هزئت رأسي بالنفي، فhez رأسه هو الآخر، والحزن السافر في تعابير وجهه، قبل أن يكمل:

- أريد أن أساعدهم في السيطرة على حياتهم بدلاً من انتظار إله ما لينقذهم من مشكلاتهم. هل تفهم؟
أجبت بابتسامة:
- بالطبع.

وقررت في تلك اللحظة أنني أريد أن أكون مثله تماماً عندما أكبر: لطيفاً وذكياً وصاحب رؤية، ونعم، مثالياً أيضاً. في تلك اللحظة تقدمت إلينا زاري ومعها صينية من المشروبات الباردة، وقالت لي بصوت عذب يصدق في أذني:

- لا بد أنك تشعر بالعطش. كنت أراقبك، ولم تتناول أي شيء منذ أن دخلت من الباب.

كانت تراقبني؟ يا إلهي! ثم سمعت صوت الدكتور يطلب مني أن أشرب، وبدائي كأن كلماته قد تأخرت بين الخروج من شفتيه والوصول إلى أذني، لأن قلبي تعثر وانشغل تمامًا بصوت زاري. عندما نظرت إلى الدكتور، تساءلت كيف يمكنني أن أنظر إليه بكل إخلاص وإعجاب، وحسد في الوقت نفسه.

اضطر الدكتور إلى العمل للمساعدة في إعالة أسرته منذ أن كان في الثانية عشرة من عمره، عندما تعرض والده لحادث أقعده عن العمل في ورشة الماكينات، حيث كان مسؤولاً عن تسخين المعادن لأغراض المعالجة.

قال لي الدكتور ذات يوم، وقد امتلأت عيناه بالدموع:

- في أحد الأيام، في نهاية ورديّة عمل مزدوجة، غمر والدي التعب الشديد، إلى درجة أنه غلبه النوم لبضع ثوانٍ. احترقت يده اليمنى بشدة حتى إنه تعين عليهم بترها في اللحظة التي وصل فيها إلى المستشفى. قبل ذلك اليوم بسنوات، عندما كنت طفلاً صغيراً، كان يصاب بنوبات صداع نصفي حاد. وعندما كنت أسأله عما يمكنني فعله لتخفيف آلامه، كان يبتسم ويطلب مني تقبيل جبهته. وبمجرد أن أطبع قبلتي، كان يتقافز ويقول إن الصداع اختفى. هز الدكتور رأسه بابتسامة حزينة، وتابع:

- كان يشكرني ويعطيني عملة معدنية، وعندها بدأ يناديني بالدكتور. اعتقدت فترة طويلة أن قبلاتي يمكن أن تشفيه، لذا في كل ليلة قضاها في المستشفى بعد عملية البتر، اعتدت الجلوس بجانب فراشه وتقبيل ذراعه المغطاة بالضمادات الثقيلة في أثناء نومه.

ذلك الدكتور جبهته، كما لو كان يريد فرك القلق وإزالته من جلده، ثم أضاف: - لقد فصلوه من العمل بحجة إهماله بعد خمسة وعشرين عامًا من العمل المخلص. إليك حقيقة الرأسمالية.

بدت مشاهدة الدكتور وهو يجادل في السياسة والدين - وهما الموضوعان الوحيدان اللذان يتحمس لهما - أشبه بتخيُّل جبل دماوند المهيب الهادئ وهو ينفث الدخان في السماء. كان يكره الشاه والملالي، المسؤولين الدينيين المتعلمين، ويقول:

- الشاه دكتاتور ودمية في يد الغرب، أما الملالي، فأنا أفضل تقبيل أفعى على شفيتها من أن أصافح يد أحدهم.

كانت كراهية الدكتور للملالي عميقة جداً إلى درجة أنه تردد في استدعاء رجل الدين المحلي لإجراء مراسم جنازة جده، وظل يجادل والده قائلاً:

- لماذا نحتاج إليه؟

ومع ذلك، اضطر في النهاية إلى الاستسلام لرغبة والديه في إقامة جنازة تقليدية. في ذلك الوقت، كان الدكتور طالباً مستجداً في الجامعة، وكنتُ في الصف الأول الثانوي. عندما رأيت مدى اضطرابه بسبب مهمته، عرضت عليه الذهاب معه، فوافق بحماسة. كان الملا رجلاً بدينًا في منتصف العمر ذا كرش كبيرة ولحية كثيفة يخالط الشيب سوادها. كان يرتدي عمامة بيضاء ملفوفة حول رأسه الحليق، وقميصاً أبيض وسروالاً أسود تحت رداء بني كستنائي. بدا متعاطفاً بصدق مع الدكتور في مصابه، وأراد أن يعرف كم كان عمر المُتوفَّى، وكيف مات، ومن الذي ينعى الرجل المسكين، وما إلى ذلك. كنت قد سمعت من الدكتور قصصاً مرعبة عن الأساليب الخبيثة التي يتبعها الملالي، إلى درجة أن المشاعر الودية الصادرة من هذا الرجل اللطيف الطيب أدهشتني على نحو سار. وبينما كان يجمع المعلومات عن المُتوفَّى، خفض عينيه فجأة وسأل الدكتور:

- كم عمر جدتك كما ذكرت؟

أجاب الدكتور بتردد:

- اثنان وستون عاماً.

قال الملا محاولاً أن يبدو غير مبالي:

- ليست عجوزًا بدرجة كبيرة، مَنْ سيعتني بها الآن؟ أمامها سنوات عديدة، تلك السيدة المسكينة الوحيدة.

وضع الملايده اليمنى على كتف الدكتور، وقال بنظرة من تلك النظرات التي يوجهها الكبار إلى الأطفال عندما يعلمونهم درسًا:

- أتعلم يا بُني، عندما يغلق الله بابًا فإنه يفتح دائمًا بابًا آخر! والآن، أين قلت إن جدتك تعيش؟

تجمدت ملامح الدكتور من الغضب، وضرب يد الملا من على كتفه واستدار على عقبه ليخرج من المسجد. أسرع لتابعه، وسمعت الدكتور يطلق سبابًا خافتًا. قال بغضب:

- ذلك الوغد اللعين! إنه يحاول الإيقاع بجديتي. إذا فكر فيها حتى، فسوف أنتزع العمامة من رأسه القبيح وأخنقه بها.

يمكن أن يُحكم على الدكتور بالسجن سنوات عديدة إذا ضبطته قوات السافاك - قوات الشرطة السرية التابعة للشاه - متلبسًا مع مجموعته من الكتب المحظورة من قبل الحكومة. في أحد الأيام، بينما نسير عائدين إلى المنزل من إحدى المكتبات، أخبرته كيف كان والدي يحتفظ بالكتب المحظورة في قبو صغير بناه داخل الخزانة.

قلت:

- عندما كنت في السادسة من عمري، داهم السافاك منزلنا. حاولت أُمي منعهم من دخول الفناء، لكنهم دفعوها بعيدًا عن الطريق. كان والدي يقرأ في مكتبه، لكن عندما سمع الضجّة أسقط الكتاب على الأرض وهرب من الغرفة. وبشكل غريزي، التقطت الكتاب وسرت إلى القبو وأغلقت الباب خلفي. ليست لديّ أي فكرة عن السبب الذي دفعني إلى ذلك، ربما لأن والدي كان يُسمّي القبو «سرنا» وجعلني أعده بألا أخبر أحدًا عنه. شجعتني الابتسامة المشرقة على وجه الدكتور على إكمال القصة.

- فَنَشَّ العملاء المنزل لبضع ساعات، لكنهم لم يعثروا على أي شيء. غادروا خالي الوفاض، ومنذ ذلك الحين لم يَعُدْ والدي يحتفظ بالكتب المحظورة في المنزل.

قال الدكتور بنبرة قلقلة:

- أنا سعيد لأن الهواء لم ينفد منك بالداخل هناك.
أجبت:

- لا أتذكر أن الأمر كان سيئًا على الإطلاق.

خلع الدكتور نظارته ووضع يده بلطف على كتفي، وتحدث بهدوء.

- هل أخبرك أحد من قبل بأنك تتمتع بتلك السمّة؟

لا بد أنني بدوت مرتبكًا تمامًا، فسألني مندهشًا:

- ألم تسمع بتلك السمّة من قبل؟

هزرت رأسي بالنفي.

أوضح قائلاً:

- إنها سمّة لا تُقدّر بثمن، يستحيل تعريفها في الحقيقة، لكنك تدركها في تصرفات العظماء.

كان إغداق الأصدقاء والغرباء بالمجاملات المبالغ فيها وغير الصادقة تقليدًا مألوفًا في إيران يُسمّى «التعارف»، لكن عندما نظرت إلى عينيّ الدكتور، لم أعتقد أنه يتعارف.

تصاعدت إلى صدري وعنقي حرارة الخجل، وفكرت: يا لي من شخص عظيم، أرغب سرًّا في خطيبة صديقي، وأتوق إلى استغلال مهاراتي الجديدة في الملاكمة لتحطيم وجه أحد المتنمرين.

استشعر الدكتور عدم ارتياحي فغيّر الموضوع، وقال:

- أنت تعرف كيف قبضوا على الجماعة، أليس كذلك؟

كان يشير إلى مجموعة الشباب والشابات الذين اعتقلهم السافاك بتهمة التآمر

لقتل الشاه، وتابع:

- ذهبوا للبحث عن كتب محظورة في منزل أحد أعضاء الجماعة، ووجدوا المخططات.

أومأت برأسي، مدركًا أن وسائل الإعلام تعد منذ أسابيع بأن المحاكمة المثيرة ستُبث على الهواء مباشرة على شاشة التلفزيون، وهي المرة الأولى في تاريخنا التي يُعرض فيها حدث كهذا على شاشة التلفزيون. ففي معظم الأحيان، يتم إنكار حقيقة وجود المعارضة - حزب توده والشيوعيين والماركسيين الإسلاميين - أو يُشار إلى تلك الجماعات بوصفها خراب كر، أي نشطاء تخريبيين وإرهابيين وأشخاصًا يرتكبون أعمالًا مروعة باسم السياسة. ووفقًا لوسائل الإعلام، فإن إيران أمة موحدة في خدمة ملك الملوك: الشاهنشاه محمد رضا بهلوي. ويُعد الاعتراف بوجود معارضة سياسية كفرًا في نظر السافاك، كأن المرء ينكر وجود الله. لذلك فعلى الرغم من الاعتقالات والتعذيب والقمع المتواصل للجماعات المعارضة، فإن التملق للشاه مستمر كما لو كانت البلاد دولة نموذجية للديمقراطية. أضفت قائلاً:

- يقول الناس إن أعضاء الجماعة سيكون ويتوسلون الصفح على الهواء مباشرة، ثم يعفو الشاه عنهم في محاولة مدبرة لإظهاره بمظهر القائد الخير الرحيم. رأيت تعبيرًا غريبًا يرسم على وجه الدكتور، كاد يبدو تعبيرًا ساخرًا. هز رأسه وقال:

- لكن قد يكون السيرك ومدير الحلبة على موعد مع مفاجأة. في الزقاق، وجدت أنا والدكتور جدة أحمد تتجول كأنها تائهة. سألتنا وهي تنظر إلينا بوداعة: هل رأيتما زوجي؟ تبادلنا أنا والدكتور النظرات، مدركين أن زوجها توفي منذ عامين. قال الدكتور:

- لا، لم أره منذ فترة يا جدتي. هل هناك أي شيء يمكننا فعله من أجلك؟

توقفت الجدة للتفكير، وقالت متأملة:

- إنه أمر غريب للغاية، لم يره أحد منذ أن دفناه قبل عامين. هل أخبرتكما من قبل كيف التقيت أنا وزوجي؟

سمعت أنا والدكتور هذه القصة ملايين المرات، لكننا ابتسمنا وهزنا رؤسنا بالنفي. وصفت الجدة مرة أخرى كيف التقت زوجها في حفل في السفارة الأمريكية، وعلى الرغم من أنه كان متزوجاً ثلاثاً وأربعين امرأة أخرى في ذلك الوقت، فإنه وقع في حبها وطلق جميع زوجاته ليتزوجها. وقالت إنه ظل مخلصاً لها حتى يوم وفاته وهو يحاول إنقاذ قطعة من منزل يحترق.

قال الدكتور:

- يا لها من قصة جميلة يا جدتي. لا بد أنه كان يحبكِ حقاً، وبالتأكيد كان رجلاً شجاعاً وعطوفاً.

رددت الجدة وهي تتبعد:

- نعم، لقد كان رجلاً شجاعاً، وكان رجلاً عطوفاً.

أطرقت أنا والدكتور برأسينا، وكلانا يدرك أن جد أحمد لم يزُر السفارة الأمريكية قط، ولم يكن لديه ثلاث وأربعون زوجة، وبالتأكيد لم يكن ليخاطر بحياته لإنقاذ قطعة لأنه كان يكره القطط بشدة.

في ذلك المساء، حضر عدد من أفراد عائلتنا وأصدقائنا لتناول العشاء، ومشاهدة المحاكمة مع والدي ومعي، وضج المنزل بالحماسة والترقب. وخلا الزقاق من الناس عندما أعلن القاضي بمطرقة بدء الإجراءات.

صعد المتهمون إلى المنصة الواحد تلو الواحد، واعترف معظمهم، متوسلين عفو الشاه. قرأوا شهاداتهم من وثائق مُعدّة سابقاً اختيرت كلماتها بعناية، لضمان أن يكون أي ذكر للعائلة المالكة على نحو يراعي الاحترام. بكى بعض أفراد الجماعة علانية، وناشدوا الملكة بوصفها والدة الأمة. وصرخت إحدى النساء قائلة:

- ساعدي أولادكِ العصاة كي يُغفر لهم. أنتِ أم، ارحمي أولادي.

شمرت كُمِّي بحركات سريعة وفعالة، ثم رفعت قبضتي المضمومتين إلى فمي

وأنا أشاهد وجوههم على شاشة التلفزيون. بدا على كل متهم تعبير منمق يوحى بالقلق المذهب. كان من الواضح أن معظمهم مرعوبون، بينما بدا أن آخرين قد فارقوا أجسادهم، وتركوا الموقف بأسره خلفهم.

كان كلسرخي، قائد المجموعة، هو آخر مَنْ وقف وأدلى بشهادته، ويعني اسمه «الوردة الحمراء». جعله وجهه الجذاب وطول قامته وبنيته المتوسطة وفكه المربع وشاربه الكثيف يبدو مثل مكسيم غوركي الشاب. خلع سترته وشمر كُمَّيه بحركات بطيئة ومدروسة وتقدم نحو المنصة.

صرخ قائلاً وهو يهوي بقبضته على المنصة بقوة جعلتنا جميعاً نجفل في مقاعدنا:

- هذه المحكمة مؤسسة غير شرعية. الشاه طاغية، وخادم للأمريكيين، ودمية في يد الغرب.

انحبست أنفاسي في حلقي، مما جعل من الصعب عليّ ازدراد ريتي. اعتدلت في جلستي وشغلت يدي بإنزال كُمِّي مرة أخرى، لكن الهواء في الغرفة بدا كأنه يحمل تياراً كهربائياً.

تمتم أحد أصدقاء أبي:

- ألا يخشى الموت؟ سوف يعذّبونه حتى الموت الليلة، وسيبتزّعون أظفاره بكماشة، ثم يقطعون أصابع يديه وأصابع قدميه واحدة تلو واحدة. توقف عندما رمقه أبي بنظرة تحذير، وأدرك فجأة أن النساء في الغرفة يبكين. أمر القاضي كلسرخي بالسكوت، لكنه رفض التزام الصمت.

قال كلسرخي وذقنه مرفوع، وعينه لا تطرفان:

- فلتذهب إلى الجحيم، يا سيدي.

ثم صاح مخاطباً الغرفة بأكملها:

- أيها الناس، احفظوا شكله، واحرصوا على أن يُعرف في كل مكان بوصفه أحد أعوان أعظم دكتاتور على قيد الحياة.

همس أبي، حريصاً على عدم النظر إليّ:

- لقد حان الوقت ليقف شخص ما في وجه هؤلاء الأوغاد.
لكنه لم يكن بحاجة إلى النظر نحوي، لأن المسافة بين قلبه النابض وقلبي
بدت مشدودة، كما لو أنهما مربوطان معًا بخيط.
شرعت أُمِّي تبكي.

- إنه شاب صغير جدًا، لم يتجاوز الثلاثين يوم واحد. يا لوالديه المسكينين،
ويا لزوجته المسكينة!

أوقف القاضي شهادة كلسرخي فجأة وانتهى البث. أظلمت الشاشة، ثم عادت
إلى الحياة بحلقة معادة من مسلسل تلفزيوني أمريكي يُدعى «بيتون بليس».
انسحبت إلى السطح من دون أن أتمنى لضيوفنا ليلة سعيدة، وأدركت أن أحمد
سيقضي الليلة في محاولة تهدئة عائلته، وربما يلقي النكات ويقلد الآخرين، الأمر
الذي سيثير ضحكات الجميع.

انقضى الليل وكاد الفجر يبرز عندما أغلقت كتابي أخيرًا ونهضت وأنا أنتهد.
تمنيت أن تشغلني القراءة عن خطبة كلسرخي العنيفة، لكن الكلمات على الصفحة
بدت غريبة، واضطرت إلى قراءة كل سطر مرتين لإسكات صوته الذي يتردد
في رأسي. كانت معظم النوافذ مظلمة، لكنني شعرت بأنني لست الوحيد الذي
يحس بالقلق الشديد إلى درجة عجزت معها عن النوم.

قررت أن المشي قد يهدئ من روعي، فخرجت إلى الزقاق. تقدمت ببطء
بخطى مدروسة، واضعًا يدي في جيبي، أحاول تهدئة أفكاري، عندما مر خيال
رجل بسرعة عبر بركة الضوء الأصفر التي يلقيها عمود الإنارة بالشارع أمامي.
كان رأسه مغطى بقبعة، وهو يعمل بسرعة على لصق شيء ما على الجدار. غمس
فرشاة في دلو صغيرة، ثم رسم علامة «X» كبيرة على الجدار، وألصق قطعة كبيرة
من الورق، ثم تحرك بسرعة عبر الزقاق. تسلفت إلى الأمام لألقي نظرة، فرأيت
ملصقًا تتوسطه وردة حمراء.

قلت بصوت عالٍ:

- كلسرخي!

ثم وضعت يدي على فمي عندما سمعت كيف يرن صوتي.
استدار الرجل مذهولاً، ووجهه مطلي باللون الأسود، ونظارته المستديرة تلمع.
حدقت إليه هامساً:
- الدكتور؟

تجمّد في مكانه، وأدركت أن كلينا توقف عن التنفس. التمتعت ردود الفعل في
عينيه: الخوف، الندم، الإدانة، الغضب؟ بعد لحظة بدت كأنها شهر، هرب من دون
إجابة، وتركني بعد أن انضمت نبضات قلبي المتسارعة إلى أفكار المتسارعة.

استيقظ الحي في الصباح التالي على جدران مغطاة بملصقات الورد الحمراء.
الجميع أراد أن يعرف:

- مَنْ ألصق صور هذه الوردة؟

وسأل شخص آخر:

- ماذا تعني؟

قال البعض بتفهم:

- أوه، الوردة الحمراء.

قال شخص لآخر:

- الأحمر هو لون الحب.

فكرت قائلاً لنفسي: إنه لون الدم أيضاً. وهوى قلبي بين أضلعي، وشعرت
بالغثيان عندما فكرت في المخاطرة التي قام بها صديقي. إذا اكتشف السافاك
يوماً ما أنه مسؤول عن هذا الأمر، فسينتهي أمره.

مرت خمسة أيام قبل أن يأتي الدكتور أخيراً لزيارتي على السطح.
قال وعينه تمسحان الأفق بقلق:

- اسمع، سوف أسافر، وسأظل بعيداً بعض الوقت.

سألته بصوت خافت من فرط الإحباط:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى قرية في الشمال، على بحر قزوين مع مجموعة من رفاقي في الجامعة.
تابع الدكتور بسرعة:

- ليس بالأمر المهم، فنحن نفعل ذلك كل عام.

عدت بذاكرتي إلى الصيف السابق، وأدركت أنه لم يسافر حينها. شعرت
بالغضب لكونه يكذب، ولا بد أنه شعر بغضبي لأنه بدا كأنه لا يستطيع التفوه
بالكلمات بسرعة كافية.

قال بحماسة:

- يجب تعليم الناس في القرى. سنعلم الكبار كيفية القراءة والكتابة، وسنعرفهم
على القضايا الصحية. كما سنساعدهم على حفر الآبار، ونعلمهم تقنيات
الري الأكثر كفاءة.

قلت بحدة:

- حقًا؟ الحكومة تشبه في الأشخاص الذين يشاركون في هذا النوع من
الأنشطة.

بدت صدمته واضحة، سواء من كلماتي أو من الغضب الكامن وراءها.

قال بهدوء أكثر، وهو ينظر إليّ حقًا للمرة الأولى منذ وصوله:

- أخطط للزواج بزاري عندما أعود. أريد الاستقرار، وأنا أحبها كثيرًا.

هزني وقع اسم زاري، والطريقة المتزنة التي أعلن بها عن حبه لها. فجأة،

تبخر كل غضبي من شجاعته الطائشة أمام الدفء الهائل لعينيه البنيتين اللطيفتين.

سألته:

- هل هي على دراية بالأمر؟

قال الدكتور:

- لا، سيكون هذا سرنا، اتفقنا؟

تجاهلت الألم الحاد في أعماق قلبي، وقلت:

- اتفقنا.

أضاف الدكتور، في إشارة إلى محاكمة كلسرخي:

- بعد ما شاهدناه جميعًا على شاشة التلفزيون قبل بضعة ليالٍ، أحتاج إلى وجود زاري في حياتي.

امتلات عينا الدكتور بالدموع.

- كلسرخي هو أكثر رجل عطوف عرفته في حياتي، وسيوقفونه مقابل جدار ويعدمونه رميًا بالرصاص كأنه مجرم عادي.

مسح الدموع من على وجهه بخشونة، وشرع قائلًا بعنف:

- لقد حان الوقت...

ثم توقف عن الحديث.

سألته:

- حان وقت ماذا؟

أخذ الدكتور نفسًا عميقًا، ثم ابتسم وسألني:

- ما أؤمن سلعة بشرية؟

أجبتُه من دون أدنى تردد:

- الحياة.

ضحك بلطف وهز رأسه، وقال:

- الوقت، الوقت هو أؤمن شيء نملكه.

ثم لمس كتفي وقال:

- لقد حان الوقت لنفهم أنه لا يمكننا تضييع مزيد من الوقت. «ليس وعي

الناس هو الذي يحدد وجودهم، إنما وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد

و«لهم»، هل تعرف من قال ذلك؟

قلت:

- كارل ماركس.

فابتسم مرة أخرى، لكنه لم يؤكد الإجابة. ذكرني اقتباسه بجذتي، اللتين تنسبان كل شيء إلى الله - بما في ذلك الكوارث - ثم تعجزان عن تفسير السبب. قمعت

هذه الأفكار بسرعة، وعضضت الجلد بين إصبعي الإبهام والسبابة بحذر. هذه هي الإيماءة التي من المفترض أن تفعلها عندما تقول أو تفكر في شيء محرم حتى يغفر لك الله.

مد الدكتور يده إلى جيبه الجانبي، وأخرج كتابًا عنوانه الذبابة، وقال:
- هذا لك. عقوبة حيازته لا تقل عن ستة أشهر، لذا كن حذرًا جدًا.
أخذت الكتاب ووضعتَه بسرعة في الجيب الجانبي لسترتي.
أقسمت له:

- سيصبح هذا أغلى ما أملكه.
وحاولت إخفاء خجلي من مشاعري السرية تجاه زاري، على الرغم من أنني متأكد أنها لا بد أن تكون مطبوعة على وجهي.
شرع الدكتور يقول وهو مطأطئ الرأس:
- بخصوص تلك الملصقات...
قاطعتَه قائلًا:

- لا أعرف مَنْ وضعها، لكنها كانت لمسة لطيفة.
رفع رأسه ونظر إليَّ من أعلى نظارته المستديرة، وكسا وجهه تعبير متأمل.
قال:

- هذه هي تلك السمّة.

سووشون

لأسباب لا يفهمها الكبار، أصبح قرع الأطفال للجرس ثم الهروب مشكلة منتشرة في حيننا. ويحدث ذلك بتواتر أكبر في الساعات الأولى من فترة ما بعد الظهر، عندما لا يكون هناك أحد في الخارج. اعتقدت أنا وأحمد أن الأطفال الذين يفعلون ذلك هم من زقاقنا، بينما اعتقدت أمي بالطبع أن الأطفال في زقاقنا أكثر تهدياً من أن يقدموا على ذلك.

في ظهيرة أحد الأيام عندما كان أبي عائداً إلى المنزل، رأى شقيق أحمد البالغ من العمر خمس سنوات يقف عند باب منزل إيراج. قال أبي بابتسامة عريضة:

- مرحباً يا أبولي، ماذا تفعل؟

سأله أبولي ببراءة:

- هل يمكنك مساعدتي على قرع جرس منزل إيراج؟ لا أستطيع الوصول إليه.

وافق أبي، وقرع الجرس. وفي اللحظة التي دق فيها الجرس، أمسك أبولي

يد أبي وقال:

- حسناً، فلنركض الآن!

أدرك أبي المسكين فجأة ما فعله، فحمل أبولي وبدأ يركض نحو منزلنا. كنت

أنا وأحمد جالسين في فناء المنزل، عندما دخل أبي مسرعًا وأغلق الباب خلفه، واتكأ على الباب لالتقاط أنفاسه.

سألته، مندهشًا من حالته:

- ما الخطب؟

نظر إلى أبولي وبدأ في الضحك، ثم روى لنا القصة، مما جعلنا جميعًا نشاركه الضحك. عندما توقفنا عن الضحك أخيرًا، رفع أبي أبولي عن الأرض وقال:

- أنت محظوظ لأنك لطيف جدًا يا صديقي الصغير.

في اليوم التالي، اخترع إيراج ما أسماه جهازًا «عبريًا» للقبض على قارعي الأجراس. تألف جهازه من أنبوب صغير متصل بمضخة مياه صغيرة، ويرش الجهاز الماء على الشخص الذي يقرع الجرس، وقد وُضع الأنبوب فوق الباب بحيث يكون مخفيًا عن الأنظار. كان إيراج يشغل الجهاز في وقت مبكر من بعد الظهر على أمل القبض على الجناة الذين يقرعون جرس عائلته مرتين أو ثلاث مرات على الأقل في الأسبوع. وبالطبع، لم ينجح اختراعه قط، وبقي الجميع جافًا.

في بعض الأيام، تمنيت لو كانت لديّ الشجاعة لأخبر أحمد عن زاري. يا إلهي، لو كانت زاري أصغر مني بسنوات قليلة ولم تكن مخطوبة للدكتور، لأخبرت أحمد عن عينيها الزرقاوين العميقتين، وابتسامتها المعوجة، وذقنها، وعظمتي وجنتيها الجميلتين. كنت سأخبره كيف أن مشيتها تصيبنني بالجنون، وأني لا أستطيع التنفس عندما تتحدث، وأني لا أستطيع التوقف عن التفكير فيها. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تثير الغثيان، فإنني كنت على استعداد لشرب إبريق كامل من زيت محركات أمي، لو أنني أعلم أن هذا سيمنحني الشجاعة للروح بما في داخلي لأعز أصدقائي.

لم أعد أستطيع الاستماع تقريبًا إلى قصص أحمد عن فهمية، لانشغالي بالتفكير في زاري على الدوام. لم تراودني قط أي أفكار جنسية عنها، فهي أنقى

من أن أفعل ذلك، وسأجن من الشعور بالذنب والخجل. تخيلت الدكتور وزاري زوجين سعيدين ولديهما كثير من الأطفال، وقبلت دوري في حياتهما كصديق طيب. لكن تحريض أحمد على الثورة ضد عائلة فهيمة أفسد عليَّ أحلام اليقظة. أدركت أنني لا أستطيع أن أفعل ما فعله. أولاً، كانت زاري تحب الدكتور، وثانياً، لم أمتلك شجاعة أحمد، أما ثالثاً، فلا يمكنني أن أفعل شيئاً كهذا مع شاب عظيم مثل الدكتور. ومع ذلك، تساءلت أحياناً كيف ستكون علاقتي مع زاري لو لم يكن الدكتور في حياتنا، وفي كل مرة، كنت أعرض الجلد بين إبهامي وسبابتي بسرعة على نحو لا إرادي.

تخيلت أنني سأعيش بقية حياتي بسرٍّ جميل لن يعرفه أحد أبداً. لكن في إحدى الأمسيات على السطح بينما كان أحمد يتحدث وأنا أحرق إلى السماء المرصعة بالنجوم في ليلة صيفية مبكرة، وجدت نفسي أقاطعه، وقلت له:

- أريد أن أخبرك بسرّ.

سألني على الفور:

- هل هو عنك أنت وزاري؟

- متى عرفت لأول مرة؟

ابتسم ابتسامة عريضة.

- متى عرفتُ أن أعز أصدقائي واقع في الحب؟ أعتقد أنني أدركت ذلك في كل مرة كان يشعر بالقلق عندما تمر إنسانة معينة بجانبه، أو عندما كان يعجز عن النظر في عينيها حتى عندما تتحدث إليه مباشرة. مثل تلك المرأة التي أحضرت فيها لنا شرباتاً بارداً بعد مباراة كرة القدم، وكانت يداك ترتعشان عندما قدمت لك كوباً، أتذكر؟ أوه، أما اللحظة المفضلة لديّ، فهي تلك المرأة التي سألتك فيها عن الوقت، فنظرت إلى ساعتك وقلت «بقيت خمس دقائق على الغداء».

نظرت إلى قدمي بينما أحمد يضحك.

سألني:

- هل تعرف شيئاً آخر تفعله دائماً؟ لقد اعتدت تسمية أكبر وألمع النجوم باسمها، ليلة بعد ليلة.
- حقاً؟

- ألم تلاحظ كيف أنني دائماً ما أطلق اسمك على النجم الذي بجانبها؟
هززت رأسي.

لذا، حان دوري لأخبر أحمد بكل شيء، وحان دوره للاستماع طوال الليل. حكيت له عن مشيتها، وذقتها، وعظمتي وجنتيها. أخبرته عن عينيها وعن أحلامي، وشعوري بالذنب وجهودي المستمرة لعدم تخيلها بطرق غير لائقة. لكنني لم أخبره عن خطط الدكتور للزواج بها عندما يعود. ففي النهاية، دائماً ما يجب الوفاء بالوعد الذي تقطعه لصديق.

دخن أحمد سيجارة وهو يستمع، وعرض عليّ واحدة. كان بإمكانني تدخين العلبه بأكملها، لكنني قررت عدم المخاطرة بتعريض نفسي لنظرة والدي الصارمة.
سألني أحمد:

- متى عرفت أول مرة أنك تحب زاري؟
طأطأت رأسي قائلاً:

- منذ فترة أطول مما أتذكر. أعتقد أن موقفك مع فهيمة أجبرني على تقبّل ذلك. التزمنا الصمت بعض الوقت، وارتسمت على وجه أحمد نظرة جادة وهو مستغرق في التفكير. ولأنني لم أكن واثقاً بمدى صحة قراري بالاعتراف بمشاعري تجاه زاري، سألته بقلق عما إذا كان يعتقد أنني شرير.
ضحك أحمد.

- ماذا تعني بحق السماء...
تلعثمت قائلاً:

- حسناً، كما تعلم، بسبب الدكتور وما إلى ذلك. إنه... إنه صديقنا... وها نحن أولاء جالسان نتحدث عن خطيئته. أعني، ليس أنت بل أنا. إنه أمر مروع.
ضحك أحمد مرة أخرى وهز رأسه.

في اليوم التالي، أخبرني أحمد بأن شقيق زاري البالغ من العمر ست سنوات، كيفان، يبني بيتًا صغيرًا للكلاب.

سألته:

- لماذا؟ هل سيقبطني جرّوا؟

- لا، إنه مجرد مشروع مدرسي صيفي.

أشعرتني نظراته إليّ بالخجل.

سألته:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

- ما مدى براعتك في النجارة؟

ضحكت، لأنني لم أكن بارعًا على الإطلاق. قرع أحمد جرس منزل زاري على أي حال، وقبل أن أدرك الأمر، صرنا في الفناء نساعد كيفان. كان والدا زاري في العمل، كما هي الحال كل يوم، يديران معًا مطعمًا صغيرًا يملكانه منذ أكثر من عشرين عامًا في حي قريب.

في كل مرة خرجت فيها زاري إلى الفناء، سرقت انتباهي بالكامل. تحرقُ خجلًا، وأخبرت أحمد بأن هذا الأمر أصبح معقدًا جدًّا بالنسبة إليّ. فأنا لا أخون الدكتور فحسب، بل أظاهر بأنني صديق لطفل في السادسة من عمره كي أتمكن من الوجود بالقرب من أخته، لكن أحمد طلب مني الاسترخاء.

كانت زاري ترتدي قميصًا أزرق ضيقًا وتنورة سوداء طويلة مغطاة بنقوش الأزهار. وصففت شعرها الرطب بعناية إلى الخلف، كما كانت تضع لمسة من المكياج. غلبني التوتر والخجل الشديد، إلى درجة أنني لم أستطع النظر في عينيها، لذا في كل مرة خرجت فيها للتحديث إلينا، شغلت نفسي على نحو أخرق بقطع الخشب والأدوات غير المألوفة. وعندما كانت تدير لي ظهرها، كنت أنظر إلى انحناء ذراعها ومعصمها الرقيق. لاحظت الشعيرات الشقراء الصغيرة على ذراعها التي تلمع تحت أشعة الشمس، فشعرت بالإثارة إلى درجة أنني أردت أن أفقر خارجًا من جلدي. كانت هناك سكينه تبعث على الهدوء في نظراتها،

في العينين الباسمتين لامرأة أتوق إلى حبها. وجعلني خصرها الصغير أتمنى أن ألف ذراعَي حولها. اضطررت إلى النظر في الاتجاه الآخر، وإغماض عيني عدة مرات كي أمسح الصورة من ذهني.

جلبت إلينا مشروبات باردة وشكرتنا على مساعدتنا لأخيها الصغير. شعرت باضطراب شديد في حضورها إلى درجة أنني سكبت معظم المشروب على نفسي وأنا أحاول ارتشافه بتوتر.

سأل أحمد بنبرة ساخرة:

- هل يشعر صدرك بالعطش أيضًا؟

رمقته بنظرة حانقة، لكنه تجاهلها. ضحكت زاري على تعليق أحمد وقالت:

- دعه وشأنه، المسكين يشعر بالحر والعطش.

عندما عادت زاري إلى داخل المنزل، قال أحمد:

- إنها لا تستطيع إبعاد عينيها عنك.

- إنها لم تنظر إليَّ حتى!

- أنت لا تعرف النساء. تعتقد أنهن لا ينظرن إليك، لكنهن يراقبن كل

تحركاتك، وعقولهن تعمل مثل الرادار. إنهن يرينك، لكنك لا تعرف

أنك على شاشتهن. لا تكن خجولاً إلى هذا الحد! تحدث إليها عندما

تخرج مرة أخرى.

عادت زاري إلى الفناء بعد بضع دقائق، وجلست على حافة الحوض. غمست

قدميها البيضاءوين الجميلتين في الماء البارد وبدأت في قراءة كتاب.

همس أحمد:

- اذهب وتحدث إليها.

قلت بحدة:

- لا!

- اذهب.

- لا.

قال لي:

- أنت ميؤوس منك.

ثم قال لزاري:

- ماذا تقرئين.

- سوو شون، من تأليف سيمين دانيشور.

التفت إليّ أحمد في دهشة مصطنعة.

- كتابك المفضل، يا إلهي!

ثم قال لزاري:

- إنه يحب هذا الكتاب.

أردت أن أقتله، إذ إنني لم أقرأ حتى رواية سوو شون.

سألته زاري:

- ما رأيك في الرواية؟

تمتت بتوتر، وأنا أحاول ألا أنظر في عينيها مباشرة خوفاً من أن تنقطع

أنفاسي تمامًا:

- حسناً، دانيشور واحدة من أفضل الكاتبات، إنها بارعة للغاية، في الواقع

هي أكثر من بارعة، بل إنها فائقة البراعة.

من طرف عيني، لمحت أحمد يهز رأسه، بينما زاري تستمع بانتباه.

واصلت قائلاً:

- كما أن كتابة زوجها، جلال آل أحمد، جيدة مثل كتابتها أو حتى أجود.

أكد أحمد:

- أوه، أجود بدرجة كبيرة.

- أنا... أعني، ربما كان كاتباً أفضل منها حتى. سأقرأ أي شيء لهما.

أدركت أنني أثرثر، فصمت.

قالت زاري:

- نعم، أنا على استعداد لقراءة قصص لدانيشور ولآل أحمد أيضًا.

- عادت عيناها إلى الكتاب، وأخبرت أحمد بنظراتي بأنني سأركل مؤخرته بمجرد أن نصير بمفردنا، فغمز لي.
- بحلول عصر ذلك اليوم، انتهينا من بناء بيت الكلب. كنا على وشك المغادرة عندما سمعت زاري تقول لأحمد:
- بالطبع، سأفعل أي شيء من أجلك. سيسعدني ذلك.
- سألته بغضب عندما صرنا في الزقاق:
- ما الأمر؟
- سألتها إن كانت تريد تقبيلك، فقالت إنها تود ذلك.
- هاجمته قائلاً:
- أيها الوغد!
- فشرع يركض نحو منزله.
- حسناً، هل هو خطئي أنك لطيف جداً إلى درجة أنها تريد تقبيلك؟
- صرخت وأنا أطارده:
- اخرس! لقد جعلتني أبدو كالأحمق.
- قال وهو ينظر خلفه كي يتأكد أنني لن ألحق به:
- كيف لي أن أعرف أنك لم تقرأ سوو شون؟ لقد قرأت كل الكتب اللعينة الأخرى في العالم.
- لعبته مرة أخرى وأنا أسدد نحوه ركلة بقدمي.
- أيها الوغد، سأركل مؤخرتك لما فعلته بي.
- مازحني أحمد وهو يختفي في منزله ويغلق الباب خلفه.
- ماذا حدث لعهدك الذي قطعته للرابطة المقدسة لجماعة الملاكمة؟
- وقفت هناك لبضع دقائق، لاهثاً، أتصب عرقاً، وأتميز غيظاً. ثم سمعته من الجانب الآخر من الجدار.
- هل آل أحمد حقاً كاتب أجود من زوجته؟
- على الرغم من غضبي الشديد، فإنني انهرت من الضحك الهستيري.



شتاء ١٩٧٤

مستشفى روزبه للأمراض النفسية، طهران

أدركت أنني أحلم، على الرغم من أنني لم أكن متأكدًا أين يرقد جسدي. في ذهني، كنت في مرعى مع زاري وفهيمة وأحمد. أخذنا نركض بلا هدف، باتجاه بعضنا أحيانًا، ومبتعدين عن بعضنا في أحيان أخرى. توقفت زاري وأمالت رأسها جانبًا، وابتسمت لي. حركت الرياح شعرها الطويل، فمال في اتجاه العشب الأخضر الطويل نفسه الذي يلامس ركبتنا. تقدمت نحوها وجذبت جسدها إلى جسدي، فملأت ذراعي. رفعتها في الهواء ودرنا معًا فيما بدا كأنه أبدية. ورأيت أحمد يفعل الشيء نفسه مع فهيمة. انطلقت في الهواء من حولنا أبيات من قصيدة للرومي، حملتها الرياح بصوت الدكتور.

هنيئًا باللحظة التي نكون فيها معًا، أنا وأنت.
في جسدين، لكن بروح واحدة، أنا وأنت.
ببغاوات الحب في الفردوس تغني
وسنضحك بمرح، أنا وأنت.

رأيت الدكتور يتحرك بعيدًا عنا، ونظرت زاري إليّ ومالت نحوي ببطء

وقبّلتنني على شفّتي، ثم نهضت هي وأحمد وتبعها الدكتور، فشرعت أنا وفهيمة
نبكي بحرقة. في الهدير الأجوف لحلمي، ترددت ترانيم إيقاعية خاوية وحلت
محل أبيات الرومي.

لو كان لديّ مسدس، لصوبته.
لو كان لديّ قناع، لارتديته.
لو كان لديّ ألم، لأخفيته.
لو كان لديّ قلب، لشاركته.

ركزت جهدي كي أفتح عيني، ووجدت نفسي على الكرسي المتحرك مرة
أخرى. كانت ذات الوجه الشبيه بالتفاحة جالسة بجانبني، وقد التفتت بوجهها
نحو الرجل العجوز في الجانب الآخر من الغرفة. أدركت أنني أحلم فحسب،
لكن عقلي لم يستطع القبض على التفاصيل، وبدا الأمر أشبه بمحاولة القبض
على حرير زلق.

همست:

- ماء؟

استدارت نحوي بهدوء، لكن اللمعان في عينيها فضح حماسها، وسألتنني:

- ماذا قلت؟

قلت بصوت أجش:

- أشعر بالعطش.

تفحصت عيناها وجهي من اليسار إلى اليمين، ثم من اليمين إلى اليسار،
وهمست بأنها ستعود في الحال، ثم اختفت ورائي. عادت بعد ثواني قليلة حاملة
إبريق ماء وكأسًا.

سألتنني:

- ما مدى عطشك؟

- عطشان جداً.

ملأت الكأس بالماء، ونظرت إلى جسدي المرتخي على الكرسي المتحرك.
قربت مني الكأس وقالت:
- خذها.

مددت يدي وتناولت الكأس، وأفرغتها في جرعة واحدة طويلة. ارتسمت ابتسامة دافئة على وجهها، وظننت أنني أرى الدموع في عينيها، لكن لم تكن لدي أي فكرة عن سبب بكائها.
سألتها:

- أين أنا؟

قالت بنبرة متحذقة لكن لطيفة:

- أنت هنا.

- مَنْ أَنْتِ؟

مازحتني قائلة:

- ألا تعرفني؟ الجميع يعرفونني، بمن فيهم أنا.

أطلقت ضحكة واهنة وأجبت:

- أَنْتِ وجه التفاحة.

فضحكت بشدة.

قلت:

- أضلعي تؤلمني.

- أعرف هذا، لا توجد كسور، لا تقلق.

نظرتُ إلى ذراعي.

- لماذا توجد لدي بقع محروقة على ذراعي ويدي؟

لم تُجب وجه التفاحة.

- وتراودني كوابيس طوال الوقت. أرى رجلًا بعينين شريرتين، مَنْ هو؟

وبينما أنا أتحدث عن كوابيسي، انفجر شيء ما بداخلي، وسحب من أعماقي

موجة من المشاعر، فشرعت في البكاء. جلست وجه التفاحة على الكرسي بجانبني، وأحاطتني بذراعيها.

- ابلُك يا عزيزي، ابلُك.

تراجعت لأتمعن عينيها اللتين تدفقت منهما الدموع، وسألتها:

- لماذا أبكي؟

سألتني بذهول:

- ألا تتذكر أي شيء؟

- أتذكر ماذا؟

اتكأت إلى الورا وتمايلت قليلاً، ثم قالت بهدوء:

- لا بأس، أغلق عينيك فحسب، فلا يحتاج المرء إلى سبب للبكاء.

صيف ١٩٧٣

طهران

تحت شجرة الكرز

كنت أنا وأحمد في الزقاق نشاهد إيراج وهو يستعرض أحد أحدث اختراعاته لمجموعة من الأطفال المهتمين إلى حدٍّ ما، عندما مرت فهيمة بجانبنا. نظرت إليَّ بابتسامة وغمزت، ثم قرعت جرس منزل زاري. عندما فتحت زاري الباب، تعانقتا وقبلت كلُّ منهما الأخرى كأنهما صديقتان منذ مليون سنة، ثم سحبت زاري فهيمة إلى داخل المنزل. سألت أحمد إن كانتا تعرفان بعضهما.

- هل تمزح؟ إنهما كالأختين.

- منذ متى؟

أجاب مبتسمًا:

- منذ اليوم.

أوضح لي أن فهيمة ستأتي إلى منزل زاري كل يوم لبقية الصيف.

- سنجلس حول حوض زاري، ونتجاذب أطراف الحديث عن الحياة. هل

أنت مستعد؟

- مستعد لأي شيء؟

- اتبعني فحسب.

هرع إلى داخل منزله، وتبعته إلى أعلى الدرج المؤدي إلى السطح.

سألته بقلق:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

- لا يمكننا أن ندع الجيران يرون أننا نجتمع في منزل زاري. إنهم يثرثرون،
كما تعلم، ولن يكون ذلك في صالح الفتاتين.

- كيف جعلت زاري توافق على هذا؟

- لقد وعدت بإحضارك معي.

خفق قلبي وأنا أقول:

- أنت تكذب.

أجاب ضاحكًا:

- نعم، أنا أكذب.

ركضنا بقية الطريق إلى سطح منزل أحمد، وعبرنا فوق سطح منزلي ثم إلى
منزل زاري، حيث كانت تنتظرنا هناك لتسمح لنا بالدخول. شعرت بخفقات قلبي
تتردد بإيقاع متناغم في أحشائي من شدة الحماسة. ابتسمت زاري وألقت علينا
التحية، وسمحت لنا بالدخول إلى المنزل.

في الفناء، جلسنا نحن الأربعة على بطانية حمراء في ظل شجرة الكرز بجانب
الحوض. تبادل أحمد وفهيمه وزاري أطراف الحديث، وراقبتهم في صمت.
تزامم الشعور بالذنب والخجل والإثارة في قلبي، مما جعل من المستحيل
بالنسبة إليّ التركيز على أي شيء يقال أو التفكير في أي شيء أقوله بنفسني.
حتى في مخيلتي الخاصة، لم تكن زاري قط أكثر من مجرد هدف لرغبة خجول
وحذرة، وكان استكشاف الاحتمالات معها يتجاوز أي شيء أجرؤ على تخيله.
من ناحية أخرى، واسيت نفسي بأن هذا الأمر لن يسفر عن شيء أبدًا، لذا
فما الضرر في قليل من المرح، ولا سيما أنها ستتزوج الدكتور بعد شهرين على
أي حال؟ وقف الصيف مفتوحًا كبوابة بين المراهقة والبلوغ، ونحن الأربعة
على أعتابها. بعد هذا العام، سأذهب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وستبدأ
زاري والدكتور حياتهما معًا، وستتزوج أحمد فهيمه. ستصير الأمور مختلفة

جدًا بالنسبة إلينا جميعًا، فلماذا لا يمكنني الاستمتاع بصحبة فتاة جميلة على نحو غير مؤذٍ تمامًا؟

جلس أحمد وفهيمة متجاورين، وجلست زاري أمامي مباشرة. جلبت إلينا مشروبات مثلجة في الساعات الأولى من فترة ما بعد الظهر، ثم في وقت لاحق، عندما برد الطقس، شاي لاهيجان الساخن المُحلى، أفضل شاي أسود في العالم.

بدا أحمد وفهيمة رائعين معًا. كانت فهيمة فتاة جميلة، على الرغم من أنني لم أكن لأجاملها قطُ بالثناء على مظهرها، لأنه ليس من الأدب أن أقول لحبيبة صديقي إنها جميلة. كان لديها شعر أسود طويل، اعتادت طرحه وراء كتفها اليسرى بحركة رشيقة من رأسها، كما اعتادت إنهاء تعليقاتها بسؤال ونظرة استفهامية. وكانت الطريقة الشخصية التي تخاطبك بها تجعلك تشعر بأنك صديق قديم وموثوق به. بدا سروالها الأسود الواسع وقميصها الحريري الأبيض مناسبين لها تمامًا. أدركت أنني سأحب فهيمة كثيرًا.

لم أنسجم أنا وزاري مع بعضنا، إذ أخذت تتحدث عن الدكتور، وهي علامة أكيدة على أنها تفتقده بشدة. قالت لنا:

- لقد سافر للمشاركة في مشروع جامعي.

مشروع جامعي؟ فكرت مليًا. لقد أخبرني بأنه ذاهب للعمل مع الفلاحين.

قالت زاري:

- أنا والدكتور مرتبطان منذ مولدنا، فقد تعاهد والدانا على أن يتزوج أبناؤهما.

كانت هذه هي طريقتهما في ضمان الحفاظ على صداقتهما ما داما على قيد الحياة.

قال أحمد بدهشة حقيقية:

- عجبًا، لم أكن أعرف ذلك!

- أشعر بأنني محظوظة لأن الدكتور أصبح شابًا رائعًا، وإلا كنت سأواجه صعوبة في الموافقة على ذلك.

زواج مُدبّر؟ فكرت في الأمر متهكمًا. الدكتور من أكثر المفكرين التقدميين في حيننا. كيف له أن يوافق على مثل هذا التقليد السخيف الذي عفا عليه الزمن؟ غمز لي أحمد ورفع حاجبيه وأومأ برأسه عدة مرات، كأنه يقرأ أفكارني ويؤكددها.

بينما كانت زاري تتحدث، نظرتُ إلى أذنيها الصغيرتين، وشفتيها الورديتين، وبشرتها الحريرية النضرة، فاشتعل وجهي بالرغبة. كان صوتها ناعمًا ومنخفضًا، وبدا واثقًا، بل وناضجًا أكثر من اللازم بالنسبة إلى وجهها، لكن وقعه مثالي في أذني. عندما مالت إلى الأمام، تمكنتُ من رؤية جزء من صدرها من خلال فتحة قميصها، ثم تذكرت أنها فتاة الدكتور، فشعرت بالذنب مرة أخرى. كانت تنظر إليّ في الغالب عندما تتحدث، لكن بدا أنها تتحلى بموقف متحفظ تجاهي.

عندما دخلت زاري للاطمئنان على كيفان، قلت لأحمد وفهيمه:

- لا أعتقد أنها ترغب في وجودي هنا.

انشغل أحمد بالتفكير، وتمتم غاضبًا وهو ينظر إلى فهيمه:

- زواج مُدبّر؟ ما خطبك أنّ أيتها الفتيات؟ لماذا يحاول أهلكن دائمًا التخلص منكن؟

ابتسمت فهيمه قائلة:

- أوه، اصمت.

عندما عادت زاري، صبت لنا الشاي في أكواب صغيرة أحضرتها من المطبخ،

ثم سألت فهيمه وأحمد كيف التقيا.

أوضح أحمد:

- اعتدت أن أتبعها من المدرسة إلى المنزل كل يوم.

سألت زاري فهيمه:

- هل كنت تعلمين أنه يتبعك؟

- كان العالم أجمع يعرف.

حكّت لزاري كيف أظهر أحمد عاطفته علنًا، بعد أن رُتّب زواج مُدبّر لها.

ضحكت زاري، وضربت أحمد على ظهره.

- هنيئًا لك، أنا فخور بك.

ثم سألت فهمية:

- ما شعور والديك إزاء ما فعله؟

- إنهما ليسا سعيدين بالأمر، ويشعران بالحرج. لم يعد والدا العريس يتحدثان إليهما.

اعتدل أحمد في جلسته عند هذا التعليق، ونفخ صدره كأنه فخور بإنجازه، فضربت فهمية ذراعه بلطف.

- هل سيوافق والداكما على أن...؟

لم تكمل زاري الجملة، وهي غير متأكدة إلى أين تتجه علاقتهما. أجابت فهمية بنظرة حزينة:

- حسنًا، لقد منعاني من رؤيته.

ثم ابتهجت فجأة، وأضافت:

- لكن بمجرد أن يتعرفا عليه سيحبانه بشدة. أنا متأكدة من ذلك.

مدت يدها وأمسكت ذقن أحمد بيدها وتابعت:

- انظري إلى هذا الوجه، هل يمكنك لومهما؟

تخضب وجه أحمد، بينما ضحكت أنا وزاري.

سألتهما زاري بعد بضع ثوانٍ:

- عندما كان يتبعك، هل كنت تريدينه أن يتحدث معك؟

فكرت فهمية هُنيئة ثم أجابت بالنفي.

سأل أحمد مندهشًا:

- لا؟ حقًا؟! ألم ترغب في أن أتحدث معك؟

أجابت فهمية بهدوء:

- غلبني الخوف، ولم أريدك أن تقع في ورطة. شعرت كأن أحدهم ينتزع قلبي عندما ضربك شقيقاي.

ملأت الدموع عينيها.

نظرتُ إلى زاري، التي عضت شفتها السفلى وابتسمت. تخضب وجه أحمد خجلًا مرة أخرى، ثم أشار إليَّ وهو يتحدث إلى زاري وقال:

- لقد كانا محظوظين لأن صديقي هنا لم يلاحقهما. هل كنتِ تعلمين أنه ملاكم؟

هزت زاري رأسها بالنفي.

ملاكم؟ هل يجعلني تسديد اللكمات لكيس الملاكمة ملاكمًا؟
قال أحمد:

- إنه ملاكم رائع، فهو أسرع من أي شخص رأيته في حياتي.
شعرت بعدم الارتياح لمديح أحمد غير المستحق، وحاولت تغيير الموضوع، لكن أحمد واصل قائلاً:

- حسنًا، إنه ابن بطل ملاكمة سابق في الوزن الثقيل. لديه جينات قتالية جيدة.
أخيرًا، قاطعتُ حديثه.

- إذن، أنتِ والدكتور تعرفان بعضكما منذ زمن طويل، أليس كذلك؟
قالت زاري وهي تضع أكواب الشاي الممتلئة أمامنا:
- بلى.

ثم التفتت إلى أحمد وفهيمه.

- أشعر بالإعجاب تجاه الأشخاص من أمثالكما. لطالما فتنتني الطريقة التي يقع بها الغرباء في حب بعضهم بعضًا. منذ فترة أطول مما يمكنني أن أتذكر، كان من المفترض أن أقع في حب الدكتور.

تساءلتُ بمرارة: من المفترض أن تقعي في الحب؟

وضعت زاري مكعب سكر في فمها، وبدأت في شرب الشاي بينما تنظر إلى فهيمه، وقالت:

- لطالما تساءلت كيف يحدث ذلك. أعني، ما الذي يجعل شخصين غريبين تمامًا يقعان في الحب؟ كيف تعرفين أنكِ اتخذت القرار الصحيح؟

- نظرت فهيمة إلى أحمد، فهز كتفيه.
- قلت كما لو كنت خبيراً في الحب:
- لا يمكنك معرفة ذلك. في الزواج المُدبّر، تعتمدين على حكمة الكبار، وفي حالات مثل حالتهما، تعتمدين على حدس قلبك.
- تمنيت لو كانت أُمي هنا لترى أنني لست انطوائياً كما تظنني. لكن ليس لديّ شك أنها ستدّعي أن زيت محرّكاتها يؤتي مفعوله.
- منحني أحمد ابتسامة وغمزة صغيرة.
- كررت زاري مع بريق في عينيها:
- حدس قلبك، يعجبني ذلك. حدس قلبك.
- تباهى أحمد قائلاً:
- لديه طريقة مميزة في الكلام، أليس كذلك؟
- ثم نظر إليّ بتعبير أخبرني بأنه على وشك أن يوقع بي بعض الحرج الشديد.
- كلماته أشبه بسلسلة عشوائية من المشاهد الجميلة المنسقة، مرتبطة ببعضها بشكل غير مُحكم بسلسلة من الشخصيات والزمن.
- أدركتُ في تلك اللحظة بالذات أن أحمد لن يعيش طويلاً بما فيه الكفاية ليتزوج فهيمة.
- نظرت زاري إلى أحمد هُنيئة، وهي تحاول فهم ما قاله للتو على ما أعتقد، ثم التفتت إلى فهيمة وقالت:
- لا بد أن الاستسلام لحدس قلبك كان أكثر إثارة بكثير من مجازاة حكمة الكبار، أليس كذلك؟
- بدا من الواضح أنها تفكر في نجاة فهيمة من زواجها المُدبّر.
- أكدت فهيمة بنبرة مبتهجة:
- كان الأمر كذلك بالفعل.
- قالت زاري:
- الأمر يُشبه ما تشاهدينه في أفلام هوليوود. إن السماح لشخص جديد

بالدخول إلى حياتك، ومشاركة أسرارك معه، وتعلم أشياء جديدة عنه، كل ذلك يبدو لي رومانسيًا جدًا. كما يبدو أيضًا محفوفًا بالمخاطر وينطوي على المجازفة. لم أضطر قطُّ إلى التعامل مع أيٍّ من ذلك مع الدكتور.

سألتهافهيمه:

- ألم تضطري إلى ذلك حقًا؟

أوضحت زاري:

- بلى، كنت أنا وهورفيقي لعب في طفولتنا. بالتأكيد لا يتسنى لي رؤيته الآن سوى مرتين في الأسبوع، فهو مشغول جدًا، ولا يأتي إلا عندما يكون والداي في المنزل. لا يريد أن يثير كلام الناس، هل تفهمين ما أعنيه؟ إنه تقليدي جدًا في هذا الصدد. أعتقد أن هناك كثيرًا من الأمور الجيدة في علاقتنا، لكن قصتكما من النوع الذي يؤلف الناس عنه الكتب.

أدركت من اضطراب لغة جسد زاري أنها لا تشعر بالارتياح في الحديث عن زيارات الدكتور لمنزلها. هل انزعاجها ناتج عن رغبتها في رؤية الدكتور أكثر أم لأنها غير متحمسة لزوجها المُدبّر؟

ابتسمت فهيمه بينما غمز لي أحمد مرة أخرى. عرفت بالضبط ما يدور في رأسه. في المرة المقبلة التي سنكون فيها بمفردنا، سيقول إن زاري ليست مغرمة حقًا بالدكتور، وإن زواجهما سيكون زواج مصلحة. وسيجادل أحمد بأن هذه عادة من واجب رجل مثقف مثل الدكتور أن يقاومها. فماذا سيقول الجميع؟ هل سيتزوج العالم الشاب الواعد فتاة اختارها له والداه قبل أن يولد؟ سيحاول أحمد إقناعي بأن أفعل شيئًا غبيًا، مثل الصراخ من فوق السطح بأنني أحب زاري، وأن على الدكتور أن يتنحى جانبًا عن دوره بوصفه زوجها المُنتظر، ويكرس حياته لتحرير بلادنا من قبضة التخلف.

في وقت لاحق من اليوم، أخبرتنا زاري عن أقاربها ووالديها. نشأت والدتها في

عائلة متدينة جداً في مدينة قُم، إحدى أقدم المدن الإيرانية. كانت معظم النساء من عائلة والدتها يغطين أنفسهن بالشادور، ولديها ابنة خالة يمكن أن تصبح نجمة سينمائية لو عاشت في الولايات المتحدة أو في أوروبا، لكنها ترتدي البرقع الذي يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها، مثل النساء في بعض الدول. أطلقت عليها زاري اسم «الملاك المُقنَّع».

سألها:

- الملك المُقنَّع؟ يبدو عنواناً رائعاً لفيلم.

استغل أحمد هذه الفرصة للإشادة بي مرة أخرى، وقال:

- لقد شاهد كل الأفلام الأمريكية الكلاسيكية التي أنتجت على الإطلاق. إنه أشبه بموسوعة أفلام، يعرف جميع الممثلين وجميع المخرجين وجميع المنتجين. سيصبح صانع أفلام عظيماً يوماً ما.

نظرت إليَّ زاري وقالت:

- هل تريد أن تكون صانع أفلام؟

أجبت:

- نعم، أريد ذلك.

- هذا مثير للغاية.

ابتسم أحمد ابتسامة ظافرة.

قالت زاري:

- أنا أيضاً أحب الأفلام الأمريكية، لكن الدكتور يعتقد أن هوليوود يسيطر عليها اليهود الذين يروجون للصهيونية.

وأضافت أنها لا تعرف معنى الصهيونية، لكنها تعرف أنه ليس من الجيد أن تكون صهيونياً.

قالت فهيمة إن والدها كاتب عمود في صحيفة كيهان - أكبر صحيفة في إيران - وكان حلم طفولته أن يجري مقابلة مع والت ديزني، لكن أحد الأشخاص في كيهان أخبره بأن ديزني عميل للصهيونية. اعترفت بأنها لا

تعرف ما الصهيونية أيضًا، لكن من وقع الكلمة، فلا بد أن يكون من الفطيع
للمغاية أن تكون صهيونيًا!

أدار أحمد رأسه نحوي ليلقني وهو يحرك شفثيه هامسًا:

- تحدث عن الصهيونية! تحدث عن الصهيونية!

التقطت الطعم، وقلت:

- كثير من أقطاب استوديوهات هوليوود كانوا في الواقع يهودًا: زوكر، وماير،

وسيلزنيك، كانوا جميعًا يهودًا، لكنني لست متأكدًا أنهم أنتجوا أي أفلام

تروج لإنشاء دولة إسرائيل، وهو ما تدور حوله الصهيونية.

قال أحمد في دهشة مصطنعة:

- رائع! كيف تعرف كل هذا؟ دائمًا ما أعلم منك شيئًا جديدًا.

سألت زاري، على أمل مقاطعة أحمد:

- هل لي ببعض الماء؟

في كل مرة دخلت فيها زاري إلى المنزل لإحضار الطعام والمشروبات، تمنيت لو
كنت في مكان آخر حتى يتمكن أحمد وفهيمه من الانفراد معًا، لكنني لم أعرف
إلى أين أذهب. أخيرًا، أتت زاري لنجدتي، ونادتني من داخل المنزل. كانت
المرّة الأولى التي تناديني فيها باسمي، وبدا وقعه مميزًا عندما نطقته. جعلني
سماع اسمي على شفثيها أشعر بأنني شخص أكثر أهمية، بطريقة ما. دخلت إلى
المنزل ورأيتها تقشر برتقالة وظهرها إلى باب المطبخ.

استدارت لتوجه إليّ ابتسامة، وقالت:

- أردت منك الدخول حتى يتسنى لهما قضاء بعض الوقت معًا.

- أعرف هذا. ماذا يمكنني أن أفعل للمساعدة؟

- لا شيء، ابقَ معي فحسب.

استدارت مجددًا وواصلت تقشير البرتقال.

بدا الضغط شديدًا، حيث كانت هذه هي المرّة الأولى التي أصير فيها

بمفردي معها، ولم تكن لديّ أي فكرة عما يجب قوله. دخل كيفان إلى المطبخ وتناول كوبًا من الماء ثم غادر على الفور. قلت لنفسِي: ربما لا يكون إبراج شخصًا سيئًا في نهاية المطاف، وأنا أفكر في الطريقة التي ينظر بها إلى أخت أحمد.

قالت زاري:

- يبدوان رائعين معًا.

وافقتها الرأي.

- إنه لطف منك أن تفعلني هذا من أجلهما.

- أوه، سأفعل أي شيء من أجل أحمد. إنه شاب رائع.

وافقتها قائلاً:

- إنه كذلك بالفعل.

وأدركت أنه لم يعد لديّ ما أقوله.

تبع ذلك صمت طويل محرج.

سألتنِي وهي تبسّم لي من فوق كتفها:

- هل أنت هادئ إلى هذا الحد على الدوام؟

فقلت:

- لا، ليس عادة.

وحاولت جاهداً أن أفكر في شيء عميق لأقوله عن الطريقة التي أتعامل بها

مع الناس، لكنني فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً، وعدت إلى صمتي.

- هل لديك في حياتك إنسانة عزيزة على قلبك؟

لم أعرف ماذا أقول، ولا حظت صمتي فاستدارت لترى ما إذا كنت لا أزال

هناك. ابتسمت ابتسامة عريضة عندما لاحظت أنني تضرجت خجلاً.

- لا تخجل، أنا أكبر منك بستين فقط. يمكنك أن تخبرني بأي شيء، إذا

أردت ذلك.

- نعم، لديّ إنسانة عزيزة على قلبي.

- اعتقدت أن هذه أفضل إجابة، لأنها تمنحني شيئاً لأتحدث معها بشأنه.
- آه، ظننت ذلك. أراك أنت وأحمد على السطح كل ليلة. ظننت أنكما تتحدثان عن الفتيات.
- صمتت للحظة، ثم أضافت:
- إذن عرفتُ الآن أنه يتحدث معك عن فهيمة. مَنْ ملكة قصصك؟
- شعرت بحماسة شديدة لأن انتباهها مُنصب عليّ. تلفت حولي قليلاً، ورفعت ذراعي إلى أعلى، ونقلت ثقلي من ساق إلى أخرى عدة مرات، وقلت بينما هي تراقبني بإمعان:
- لا يمكنني إخبارك بِمَنْ تكون.
- فارتسمت ابتسامة على وجهها، وقالت:
- أنت لطيف جداً.
- بعد عدة ثوانٍ، توجهت إلى الثلاثية وأخرجت بعض التفاح، وقالت:
- لِمَ لا؟ لماذا لا يمكنك إخباري؟
- لم أُجب.
- مازحتني قائلة:
- هادئ وخجول أيضاً! الفتيات يعشقن الشباب الخجولين والهادئين، من النوع الغامض، هل تعلم ذلك؟
- هزرت رأسي بالنفي، وتمنيت أن تسمع أُمي أن بعض الناس يعتقدون أن الانطوائية أمر جذاب للغاية.
- أصرت زاري قائلة:
- لا بد أن تخبرني الآن. هل تعرف كيف يصبح الناس أصدقاء مقربين؟ من خلال مشاركة الأسرار. لذا أخبرني، مَنْ هي؟
- عادت إلى المكان الذي كانت تقف فيه، وتابعت:
- هل هي جميلة؟ هل أعرفها؟ هل تعيش في زقاقنا؟ هيّا، مَنْ هي؟
- همست:

- أنتِ تعرفينها.
- أوه، جيد. إذن لا بد أنها تعيش في الزقاق. هذا جيد، بدأنا نحرز تقدماً الآن.
- الترمتُ الصمت.
- سألتني:
- هل تذهب إلى المدرسة؟
- لقد تخرجت للتو من المدرسة الثانوية.
- فتاة أكبر سنًا! دائماً ما يكون هذا مثيراً. هل هي جميلة؟
- اندفعت قائلاً:
- إنها أجمل امرأة على هذا الكوكب. لديها عيناان زرقاوان، وذقن جميل، وعظمتا وجنتين رائعتين.
- لاحظت أنها توقفت عن التقشير لبضع ثوانٍ، وخشيت أن أكون قد تماديت كثيراً. ففي النهاية، هي الفتاة الوحيدة في زقاقنا التي لديها عيناان زرقاوان.
- أبقت ظهرها لي وسألتني:
- تبدو رائعة. أين تعيش؟
- أجبت بتردد:
- بالقرب من هنا.
- تابعت، ونبرة صوتها أكثر جدية:
- ما الذي يعجبك فيها، إلى جانب مظهرها بالطبع؟
- اعترفت قائلاً:
- كل شيء، فهي تذكرني بالثلج النقي النظيف، والأنهار الهادئة المتدفقة، والمطر المنعش الباعث على الحيوية، والجبال القوية الشامخة، والأزهار الرقيقة الناعمة.
- التفتت زاري وحدثت إليّ مباشرة بابتسامة معوجة حائرة، لكنها متأملة. بدت نظرتها مشحونة بالتساؤلات، من النوع الذي يضرب العقل مثل وميض البرق، ويضيء محيطك للحظات ثم يتركك تتساءل، في الظلام الذي يلي ذلك، عما رأيت به بالفعل.

أخيرًا، سألتني:

- هل يعرف أحمد من هي؟

- نعم.

- سأسأله، أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟

شرعت في الضحك، وحملنا الطعام والمشروبات إلى الفناء. شعرت بوهن شديد إلى درجة أنني اضطررت إلى استخدام كل ذرة من طاقتي حتى لا أسقط وعاء الفاكهة. عندما عدنا إلى الفناء، أحضرت زاري كاميرا والدها وعلمت كيف يلتقط صورة لنا نحن الأربعة ونحن جالسون حول الحوض. قالت إنها ستطبع نسخة من الصورة لكل واحد منا، حتى تذكر هذا الصيف الذي أصبحنا فيه أفضل الأصدقاء.

تلك الليلة في الفراش، استعدت كل لحظة من اليوم، بما في ذلك اللحظة التي جعلت فيها نفسي أبدو أحمق عندما قارنتها بالأنهار والأزهار. كانت قد سألتني: «ما الذي يعجبك فيها، إلى جانب مظهرها؟»، وتمنيت لو أنني لم أندفع في الثروة كرومانسي أحمق. كان يجب أن أتحدث عن ألوانها المفضلة، وطعامها المفضل، وأنواع الأفلام التي تحبها، والكتب التي تستمتع بقراءتها.

أدركت فجأة أنني لا أعرف كثيرًا عن زاري. في الواقع، لم أكن أعرف أي شيء عنها. لا أعرف كيف تختار أصدقاءها، أو ما هواياتها، أو أنواع الأشخاص الذين تحبهم. كل ما أعرفه هو أنني أحبها. هل يقع الجميع في الحب على هذا النحو؟ تساءلت كم يعرف أحمد عن فهمية. ليس الكثير على الأرجح. أعرف أن أبي رأى أمي لأول مرة في طريق عودتها من المدرسة إلى المنزل، وظل يلاحقها كل يوم لمدة شهر قبل أن يجد الشجاعة ليقول لها شيئًا. وبعد شهر من أول محادثة بينهما، أرسل والديه إلى منزلها لطلب يدها.

يا إلهي، أحسست أنني في حيرة من أمري. الحب من شأنه أن يستنزف كل شيء، ويعطل الحياة. لم أعد أستطيع التفكير في أي شيء سوى زاري. كيف يقع الكبار في الحب ويعملون في الوقت نفسه؟

نظرت نحو سطح منزل أحمد. كان مستغرقاً في النوم، واستطعت سماع
شخيرِه. مشيت نحو فراشه وأيقظته.
سألني:

- ماذا يحدث؟

قلت بنبرة يائسة:

- سألتني زاري ما الذي يعجبني في الفتاة التي أحبها، ولم أستطع التفكير
في أي شيء لأخبرها به.
حذق إليّ أحمد وعلى وجهه نظرة مرتبكة.
تابعت وأنا قلق ومضطرب:

- لقد قرأت في مكان ما أن الناس في الغرب، كما هي الحال في الولايات
المتحدة وأوروبا، يتواعدون لفترة طويلة قبل الوقوع في الحب، هل تعلم
ذلك؟

هز أحمد رأسه بالنفي.

- هذا صحيح، لقد رأيت ذلك في الأفلام أيضًا. إنهم يتواعدون لفترة طويلة
جدًا، أحيانًا لمدة عشرة أو حتى عشرين عامًا!
همس أحمد:

- يا إلهي!

- لكن هنا في إيران، ننظر إلى شخص ما ونقع في الحب. ما على الفتاة إلا أن
تبسم، فتهم قلوبنا. لا مواعدة ولا تعارف ولا فرصة حقيقية للتعارف، هل
تفهم ما أعنيه؟ على سبيل المثال، هل تعرف حقًا طبيعة شخصية فهيمة؟
هل تعرف ألوانها المفضلة، وطعامها المفضل، وهواياتها؟
لا.

- ألا تشعر بالقلق؟

أوما أحمد برأسه، وقد ارتسم القلق على وجهه.

- ماذا لو لم تكن الفتاة التي تظنها؟ ماذا لو كانت زاري غير مناسبة لي؟ ماذا

لو تزوجتها وأنجبت منها أطفالاً واتضح أنها مختلفة تماماً عني؟ ماذا أفعل حينها؟
وضع أحمد يديه على فمه وشهق.
سألته:

- ألا تقلق بشأن ذلك؟
أشعل سيجارة وقال:
- بلى، بلى، أنا قلق الآن بعد أن أثرت الموضوع. يا إلهي، هذه مشكلة حقيقية.
حك أعلى رأسه، وأضاف:
- دعني أفكر في الأمر. أعتقد أنك توصلت إلى نقطة مهمة للغاية. أرى أخيراً كيف أن كل تلك القراءة جعلتك أكثر ذكاءً.

بدأت في توضيح وجهة نظري، لكنه طلب مني التزام الصمت لانشغاله بالتفكير. جلست على حافة فراشه وهو يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف، ويرسم تعبيرات غريبة على وجهه، كأنه يركز، وينظر إلى الأشياء من زوايا مختلفة، ويشكل فرضيات ثم يرفضها باعتبارها غير معقولة. تتمم لنفسه، وأصدر أصواتاً غريبة، ورفع حاجبيه، وحرك يديه، وغطى شفته العليا بشفته السفلى بينما ينظر نحو السماء. أخذ نفساً من سيجارته ثم نفث الدخان وهو يتنهد، كما لو كان محبطاً حقاً بسبب عجزه عن حل لغز بسيط.

عندما انتهى من سيجارته أخيراً، توجه إلى حافة السطح وأطفأها ورمى عقبها على سطح الجيران ليتأكد أن والده لن يراها. ثم عاد تحت غطاءه وهمس قائلاً:
- أعتقد أنني أعرف ما يجب عليك فعله. لماذا لا تذهب إلى الغرب، وتواعد إحداهن لفترة من الوقت، وتتعرف عليها جيداً، ثم تعود وتزوج زاري.
وبعد ذلك، انقلب على ظهره وبدأ في الشخير.
جلست أراقبه بضع ثوانٍ، ثم نهضت وركلته في مؤخرته وعدت إلى فراشي.

مشاهد من الحب

قضيت أنا وفهيمة وأحمد كل يوم تقريبًا في منزل زاري. شكوت لأحمد أن كل ما نفعله هو الجلوس وتبادل الحديث، وأنه على الرغم من روعة الوجود مع فهيمة وزاري فإنه ينبغي لنا القيام بأشياء أخرى، وإلا ستمل الفتاتان منا قريبًا. سألني أحمد:

- ما الذي يمكننا فعله خلاف ذلك؟

أجبت:

- يمكننا اصطحابهما للخروج، والذهاب إلى السينما، وتناول العشاء. أشياء مثيرة، كما تعلم.

سأل أحمد بسخرية:

- حقًا؟ والآن، هل سنسحب من حسابك الجاري أم من مدخراتي لهذا الغرض؟

عbst وهزرت كتفَي، فأضاف:

- وأين تعتقد أننا نعيش بحق الجحيم، في أمريكا؟ هذه إيران، ونحن في حينًا...

أدركت أنني لن أتطرق إلى الموضوع مرة أخرى، وقاطعته:

- حسنًا، حسنًا، فلتنسّ أنني قلت أي شيء.

مع مرور الصيف، صار من الواضح أننا أصبحنا أصدقاء أفضل، لأننا بتنا نتشارك بسهولة تجاربنا الشخصية الأكثر حميمية، و صار من الصعب أن نودع بعضنا في المساء. لم يكن أحد يرغب في المغادرة، وتمازحنا كثيرًا بشأن ذلك. كان أحدنا يقول:

- حان وقت الرحيل.

ويؤكد شخص آخر:

- نعم، بالتأكيد حان وقت الرحيل.

لكن لم يكن أحد يتحرك، حتى نضحك جميعًا.

- حسنًا، ربما بضع دقائق أخرى فقط، لكن بعد ذلك يجب أن نذهب حقًا.

- أوه، نعم، بالتأكيد. بضع دقائق أخرى فحسب.

بدت من السهل رؤية أن أحمد وفهيمة واقعان في الحب. سيطر على أحمد نوع من الرقة، وشعور خاص بالرضا وهو بجوار فهيمة. وقال إنه يحس بشعور روحاني تقريبًا في وجودها.

- يبدو الأمر كأنني مختلف تمامًا، حتى إنني أستطيع تحمّل الوجود برفقة إيرا ج.

قالت زاري في إحدى المرات عندما كنا بمفردنا:

- من المثير للغاية مشاهدة تطوّر علاقتهما. إنهما يزدادان شبهًا بالأزواج في كل مرة نراهما فيها، أليس كذلك؟

- بلى، يبدوان كذلك بالفعل.

- علاقتهما مختلفة تمامًا عن علاقتي مع الدكتور.

في كل مرة تذكر فيها الدكتور، كنت أرفع كُمّي قميصي على نحو لا إرادي. واصلت زاري بنبرة حاملة:

- علاقتهما مثيرة وجديدة. أما علاقتنا فتبدو مملة نوعًا ما بالمقارنة، أتفهم ما أعنيه؟ كأننا متزوجان بالفعل منذ زمن بعيد.

ثم، كما لو أنها أدركت فجأة أنها تتحدث بشكل سلبي عن الدكتور، ضحكت وقالت:

- لا تسئ فهمي. فأنا أعشق الدكتور، وهو إنسان رائع. إنه ذكي جدًا وحنون للغاية. أشعر بأنني محظوظة بشدة لوجوده معي. هل تتخيل فتاة مثلي تفوز بشاب مثل الدكتور؟

كانت تبالغ بدرجة أكبر من اللازم. الدكتور شاب رائع، لكن لا يمكن أن تكون زاري سعيدة تمامًا بزواجهما المُدبّر وبانعدام الفرصة لتجربة الحب بنفسها. هل يعرف الدكتور طبيعة شعورها؟ وماذا سيفعل لو أنه يعرف؟ هل يحب زاري حقًا أم أنه يعتمد فقط على حكمة الكبار بدلًا من حدس قلبه؟

بين الفينة والفينة، كانت زاري تخلق عذرًا للذهاب إلى داخل المنزل لأداء مهمة ما، ودائمًا ما تطلب مني مرافقتها.

كانت تهمس بمجرد أن نبتعد عنهما بضع خطوات:

- دعنا نتركهما بمفردهما قليلًا.

فأجيبها وأنا مفعم بالإنارة في أعماقي:

- نعم، هيّا بنا.

ذات يوم ونحن في غرفة المعيشة، أرّتني دفتر ملاحظات، وسألّتني إن كان بإمكانني الاحتفاظ بسرّ.

قلت:

- بالطبع.

استمتعت بفكرة ترقّيتي إلى مرتبة الرفيق الموثوق به. فتحت الدفتر وأرّتني رسومات بالقلم الرصاص لزقانا.

لم ترغب في أن يعرف أحد أنها ترسم، وأكدت لها أنني سأحفظ سرّها. ثم أشارت إلى إحدى الصور وقالت:

- هذا أنتم يا رفاق، بينما تلعبون كرة القدم! هل يمكنك تخمين من تكون من بينهم؟

- أي واحد؟

ارتسمت على وجهها ابتسامة متحذقة، ومازحتني قائلة:

- لم تكن هناك في ذلك اليوم!

فبادلتها الابتسامة. قالت إن أكثر ما تفضل رسمه هو الأشخاص والأماكن، وأرتني صورة لجدة أحمد وزوجها الراحل. وقفت الجدة ساكنة تحت شجرة، بينما تقدم منها زوجها وعلى وجهه تعبير دافئ، لكنها بدت غافلة عن كونه لا يبعد عنها سوى أمتار قليلة فقط.

قالت زاري:

- كان رجلًا طيبًا. اعتاد تقديم الحلوى لي عندما كنت في عمر كيفان. أفقده حقًا.

كان هناك رسم كاريكاتوري لإيراج محاطًا بالفتيات، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما، كأنه يحاول التهام كل فتاة بنظراته. قلت:

- أنتِ امرأة شديدة الملاحظة.

ضحكت بصوت عالٍ، وأجابت:

- من الصعب ألا تكون شديد الملاحظة عندما تشعر بأن عينيه تخترقك! ضحكت أنا أيضًا، لكنني تمنيت في داخلي لو كان بإمكانني القبض على ذلك الوغد الصغير الشهواني، واقتلاع عينيه الصغيرتين الوقحتين من محجريهما. ثم أخرجت زاري ألبومًا عائليًا، وأرتني صورة للملاك المُقنَّع. - إنها جميلة، أليس كذلك؟

ألقيت نظرة على الصورة. كانت الملاك المُقنَّع بطول زاري نفسه تقريبًا، وانسدل شعرها الطويل الأملس مغطيًا كتفها، ونزل حتى خصرها. - عيناها زرقاوان أيضًا، تمامًا مثل عينيك.

- هذا بسبب أصولنا الروسية. معظم الفتيات في عائلتي لديهن أعين زرقاء. بالمناسبة، هذه هي المرة الوحيدة التي خلعت فيها البرقع أمام الكاميرا.

- وجهك يضيء عندما تتحدثين عنها.

قالت زاري:

- إنها صديقتي المفضلة. اسمها الحقيقي ثريا. إنها فتاة عبقرية، تحفظ جميع أشعار حافظ، هل تصدق ذلك؟

فكرت كم هو مرهق ذهنيًا، حفظ كل هذا القدر عن ظهر قلب، وقلت:
- هذا أمر لا يُصدق. بالمناسبة، هل سبق لك أن حاولت أخذ الفأل من ديوان حافظ؟ هذا تقليد متعارف عليه في إيران، ينطوي على إغماض عينيك وتمني أمنية، ثم فتح الديوان على صفحة عشوائية للعثور على إجابة لمشكلتك.
قالت زاري:

- نعم، هذا أحد الأشياء المفضلة لديّ، لكن الدكتور يقول إنها إهانة لحافظ، ويقول إن حافظ لم يقصد قط تأليف كتاب لقراءة الطالع.

ضحكتُ، وأردت القول إن على الدكتور أن يسترخي بعض الشيء، لكنني لم أفعل. بدلًا من ذلك قلت:

- في يوم من الأيام، سأحضر ديوان حافظ إلى هنا، وسأأخذ الفأل معًا من بعض أبياته، ولن نخبر الدكتور. سيكون هذا سرنا الصغير الآخر.
غطت وجهها ابتسامة مشرقة.

- سأحب ذلك.

ذات يوم وأنا أقف بجانبها وهي تغسل الأطباق في المطبخ، سألتني:

- هل أنت متوتر بشأن الذهاب إلى أمريكا؟

- متوتر؟

- كما تعلم، لوجودك بعيدًا جدًا، وحيدًا في بلد أجنبي. إضافة إلى توقعات والدك، حيث سمعت أن لديه أحلامًا كبيرة لك. ألا يؤثر كل ذلك فيك؟

توقفت عن غسل الأطباق واستدارت لمواجهتي، واعتذرت بسرعة.

- معذرة إن كنت أبدو متطفلة.

قلت لها:

- لا، لست متطفلة.

وسمعت صوت أمي في ركن من عقلي: الناس يموتون من الجوع في أفريقيا، وتريدني أن أقلق لأن والدك سيرسلك إلى الولايات المتحدة؟ هل ستكون بنجلاديش مكاناً أكثر ملاءمة لك؟

ثم تذكرت المرة التي شعرتُ فيها بالإحباط بسبب إصرار والدي على سفري إلى أمريكا، وقلت لأمي، التي كانت تعرف شعوري تجاه خططه:

- أرايت؟ زيت محركاتك لا يساعدني على الخروج من قوقعتي، فما زلت غير قادر على نقاش أيّ من هذا الأمر معه. لذا، هل يمكنكِ التوقف عن سكبه في حلقي؟

اعترفت قائلة:

- أنت على حق، فعلاجي لا يؤتي نتيجة. يا للأسف!

وعندها ضاعفت جرعتي اليومية وقالت:

- لا بد أن يفي هذا بالغرض.

تسللت إلى شفتي ابتسامة.

سألتني زاري:

- لماذا تبسم؟

قصصت عليها حكاية زيت المحركات، فضحكت بحرارة وقالت إنني أقد والدتي بشكل رائع.

للإجابة عن سؤالها الأصلي، شرحت كيف عاد والدي إلى المنزل قبل بضعة أيام ومعه مجلة أرسلها إليه صديق يعيش في أوروبا. أوضحت قائلاً:

- عرضت المجلة السنوات الثلاث الماضية في صور مع شرح موجز لكل صورة: أناس يتضورون جوعاً في بيافرا، وأم تشيلية تركض إلى سيارة إسعاف خارج المشرحة لترى ما إذا كان ابنها المسجون من بين الذين أُعدموا في ذلك اليوم، وغيرها الكثير. لكن صورة واحدة على وجه الخصوص أزعجتني بشدة: فتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها تعرضت للاغتصاب

المتكرر على يد الجنود النيجيريين في بيافرا، وتركت في أحد المصارف
لتموت. التُقطت الصورة بعد نقلها إلى المستشفى، وكانت الابتسامة تعلو
وجهها لأنه قيل لها إن أمها في طريقها لزيارتها.
وضعت زاري يدها على فمها.

- يا إلهي!

قلت:

- يساعدنا مثل هذا النوع من الأشياء على وضع الأمور في نصابها، أليس
كذلك؟

بدت حزينة للغاية، ثم ظهرت ابتسامة شجن على وجهها الجميل. ربت
على كتفي وقالت:

- أنت متماسك للغاية. أحب ذلك فيك.

انتابني إحساس رائع عندما استخدمت كلمة «أحب». يا إلهي، لو أنها أسقطت
باقي كلماتها وقالت «أحبك» فحسب!

في يوم السبت الأخير من شهر أغسطس، أي قبل شهر تقريباً من نهاية الصيف،
أخذت أنا وأحمد وردتين إلى منزل زاري وقدمناهما إلى الفتاتين. كانت الوردة
التي قدمها أحمد لفهيمه حمراء، وهذا يعني أنه يحبها. أما الوردة التي أهديتها إلى
زاري فكانت بيضاء، ما يعني أننا صديقان حميمان. تأثرت الفتاتان بصدق بهذه
اللفتة. عانقت فهيمه أحمد وقبّلتها على خده، وصافحتني زاري وأخبرتني بأنني
لطيف حقاً، ثم وضعت الوردة في شعرها ونظرت في عيني مباشرة وابتسمت.
غمرني التوتر الشديد، إلى درجة أنني خفضت عيني على الفور وتضرجتُ
خجلاً. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، لاحظت أن زاري تبدو أكثر أناقة عندما نذهب
إلى منزلها.

همست فهيمه:

- إنها تحاول أن تبدو جميلة من أجلك. لماذا لا تخبرها بأنك تُقدّر ذلك؟

هزرت رأسي رافضاً بقوة، فضحكت هي وأحمد. ومع ذلك، بدت فكرة توجيه معاملة لزارى مغرية للغاية. لذا في عصر أحد الأيام، عندما كنت أنا وزارى في المطبخ وهي تغسل أكواب الشاي، استجمعت ما يكفي من الشجاعة لأقول لها إن شعرها يبدو جميلاً. تمتمت بمجاملتي بطريقة غير مفهومة، إلى درجة أنها التفتت إليّ وسألتني:

- ماذا؟

حاولت بتوتر أن أكرر ما قلته، لكن صوتي علق في حلقي.

- هل قلت للتو إن شعري يبدو جميلاً؟

أومأت برأسي بالإيجاب، فابتسمت واستدارت وواصلت غسل الأطباق. لم أكن متأكداً مما يجب فعله أو قوله بعد ذلك.

سألتني:

- هل يعجبك أكثر بهذه الطريقة؟

وجدت صعوبة في الإجابة، وتلعثمت قائلاً:

- لا، نعم، أعني أنني أحب كلتا الطريقتين، لكن هذه الطريقة جميلة للغاية. بالطبع هذه الطريقة، أو كما في السابق، تعجبني كلاهما. كلاهما جميلة، جميلة جداً.

تحرك فكي بشكل لا إرادي، ولم تكن لديّ أي طريقة لإيقافه.

قالت بهدوء، من دون أن تنظر إليّ:

- حسناً، سأصففه هكذا من الآن فصاعداً.

غمر قلبي فيض من الحنان، لم أختبر مثله من قبل.

عندما رويت هذه القصة لأحمد، ربت على ظهري وقال:

- ممتاز، ممتاز. خطتك تنجح.

سألته:

- أي خطة؟

- الخطة التي تدفعها إلى التساؤل عما إذا كنت تحبها. لا شيء يشير فضول

المرأة أكثر من الشك في أن شخصًا ما يحبها. ستفعل أي شيء الآن لتؤكد من ذلك. سوف ترى، ستبذل كل ما في وسعها لتعرف إن كنت تحبها حقًا. هذه هي الطبيعة البشرية، فمن لا يريد أن يكون محبوبًا؟

ثم حك رأسه وواصل:

- ثق بي، هناك عاصفة تختمر داخل هذه الفتاة الهادئة الآن. ستلاشى تدريجيًا، وسترى ما وراء تلك الغيوم.

قصة واحدة أخرى من فضلك

كان عيد ميلاد كيفان السابع، وكُلفنا نحن الأربعة بالإشراف على الحفل. دُعي معظم الأطفال الصغار في الزقاق إلى منزل زاري، وكنت أنا وأحمد هناك للمساعدة، أو على الأقل هكذا فسرت فهمية وزاري وجودنا. قضينا اليوم كله في تزيين المنزل بالأشرطة الحمراء والبيضاء والصفراء والبالونات التي علقناها من السقف والجدران. أعدت فهمية وزاري الشطائر، بينما جهزتُ الأطباق الورقية والأكواب والسكاكين والملاعق البلاستيكية، وتطوَّع أحمد ليكون مسؤولاً عن الموسيقى. استعار مشغل كاسيت استريو صغيراً ورخيص الثمن من أحد الأصدقاء، وانشغل بالعمل على ضبطه طوال اليوم.

قال أحمد:

- إن إعداد الموسيقى المناسبة للحفل هو الجزء الأكثر أهمية في الأمر كله. أنتم تدركون هذا، أليس كذلك؟ يمكن أن يفسد الحفل بأكمله إذا لم أعد التشكيلة المناسبة من الأغاني.

قالت فهمية:

- بلى يا عزيزي، ندرك ذلك.
بينما ضحكت زاري على تهريج أحمد.

- هل تدركين ذلك حقاً أم أنكِ توافقين على ذلك لأنني وسيم جداً؟
أجابت فهيمة:

- كلاهما يا عزيزي. أنت على حق، ووسيم جداً.
بدأ أحمد يشغل أغانيه المفضلة وهو يرقص في منتصف الغرفة.
أثنت عليه فهيمة:

- أنت راقص بارع.
- لقد تلقيت دروساً في الرقص من تينيسي وليامز نفسه.
جادلته قائلاً:

- لم يكن تينيسي وليامز راقصاً.
- لقد حاولت أن أخبر تينيسي بذلك، لكنه لم يوافقني الرأي.
بدا الأمر كأن جميع الأطفال ظهروا في الوقت نفسه، وقال أحمد إنهم كانوا
ينتظرون خارج الباب بلا شك، يخططون لعملية الغزو. فسد ترتيب أغانيه في
غضون خمس دقائق، وشعر كيفان بسعادة غامرة لكونه مركز الاهتمام. أراد أن
يلعب لعبة ركوب الحصان، وأن يكون أحمد حصانه. انحنى أحمد وقضى بقية اليوم
في منح الجميع فرصة ركوب الخيل. حاولت أن أمتطيه مرة واحدة، لكنه ركلني
بعيداً وتمتم ببعض الكلمات النابية. ضحكت فهيمة وزاري وشفقتا لمحاولتي.
ركض الأطفال في الفناء، وصعدوا ونزولاً على الدرج، ومن غرفة إلى غرفة.
تصايحوا وصرخوا وتدافعوا وتشاجروا باستمرار. وفي لحظة ما، سقط كيفان
وخذشت ركبته. جلست أنا وزاري وفهيمة بجانبه في محاولة لتهدئته، لكنه
استمر في البكاء.

قلت له:

- أتعلم، لقد كُسرت ساقِي ذات مرة في ثلاثة مواضع ولم أبك على الإطلاق.
تجهم كيفان.

- كيف، ألم يؤلمك ذلك؟
أجبت:

- أوه، بلى، بالتأكيد كان مؤلماً، لكنني اكتشفت أن البكاء لن يجعل الألم يزول.
سأل كيفان:
- حقاً؟

رفعت ذراعِي في الهواء، وبذلت قصارى جهدي لأبدو في حيرة.
- اعتقدت أُمي أيضاً أن ذلك كان غريباً للغاية، وقالت «كيف يمكنك تحمل
كسر ساقك في ثلاثة مواضع من دون أن تبكي؟».
أطلق أحمد ضحكة مكتومة في الخلفية بسبب تقليدي لها، وواصلت قائلاً:
- لذا فهي الآن تعطيني ملعقة كبيرة من الدواء الذي من المفترض أن يساعدني
على البكاء عندما أحتاج إلى ذلك.
سأل كيفان بتردد:

- وهل تبكي بالفعل؟
لويت قسماتي كما لو كنت أتناول شراب بول الخيل الخاص بأمي.
- عندما أتناول دواءها فقط.
ضحك الجميع، ولمست ركبة كيفان برفق.
- لم تُعدْ تؤلم الآن، أليس كذلك؟
هز كيفان رأسه.
- نعم.

- أرايت؟ يزول الألم عندما تضحك.
قفز كيفان، واستأنف الأطفال اللعب. همست زاري إليّ بالشكر، وجعلت
نظراتها الرقيقة قلبي يخفق بشدة.
في وقت متأخر من بعد الظهر، قررنا أن نلعب لعبة تُسمَّى «مَن أنا؟». تجمع
جميع الأطفال في دائرة، وقلّد أحمد شخصية بينما نحاول تخمين مَن تكون.
أحب الأطفال اللعبة، وكذلك أنا وفهيمة وزاري، لأنها منحتنا فرصة للجلوس
والاسترخاء. بينما نحن نشاهد أحمد وهو يتمص شخصيات مختلفة، مالت
زاري نحوي وقالت:

- أتدري، السؤال بالنسبة إليك ليس من «أنا»، بل من «هي»؟
- من هي؟
- نعم، تلك الناعمة كالأزهار والشامخة كالجبال؟ ماذا قلت أيضًا؟
- أجبت بخجل:
- أوه، انسي هذا. كان ذلك حماقة مني.
- اعتقدت أن الأمر جميل. إنها فتاة محظوظة بوجودك معها. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟
- أردت أن أذوب، وأن أصرخ. وأردت أن يسمع أحمد هذا.
- قلت:
- شكرًا لك.
- أتمنى ألا تشعر بالغيرة لأنك تساعدني اليوم.
- إنها ليست من النوع الغيور.
- حقًا؟ كل الفتيات غيورات، ألا تعلم ذلك؟
- أردت سؤالها إن كانت غيورًا، لكن ربما كانت هذه وقاحة مني.
- سألتنى وقد ارتسمت على وجهها نظرة فضولية:
- حسنًا، كيف تصفك هي؟
- لا أعرف. لم نخض مثل هذه المحادثة بعد.
- حقًا؟ ألم تخبرها بأنك تحبها بعد؟
- قلت بتردد:
- أعتقد أنها تعرف.
- لكنك لم تخبرها بعد؟
- ليس بصريح العبارة.
- سألتنى:
- هل استشرت حافظ بعد؟ وأخذت منه الفأل؟
- هززت رأسي بالنفي.

- حسنًا، عليك أن تفعل، ومن الأفضل أن تخبرها بذلك قريبًا. فكل فتاة تريد أن تعرف أنها محبوبة، كما تعلم.

ثم سألتني فجأة، على أمل خداعي لاكتشاف سري:

- والآن، ماذا كان اسمها؟

ابتسمتُ.

- لا أستطيع أن أخبرك بعد.

- لا يمكنك إخباري لأن...؟

- أنا... لا أعرف.

ظلت زاري تبتسم، وارتجفتُ. أعتقد أنها أدركت ذلك، لأنها ابتعدت عني ببطء، وواصلنا مشاهدة أحمد وهو يقلد شخصيات مختلفة. بعد بضع دقائق، ذهبت زاري إلى المطبخ وعادت بطبق ممتلئ بأنواع مختلفة من الشطائر، وقالت: - كنت أعلم أنك لن تحظى بفرصة لتناول الطعام، لذلك وضعت هذه جانبًا من أجلك.

دارت في رأسي فكرة أنها انشغلت بالتفكير في مثل أغنية تتردد بلا توقف. واصلت قائلة:

- آمل أن تعجبك الشطائر الباردة.

كيف لا تعجبني وهي من صنعتها؟

بعد رحيل الأطفال، جلست أنا وأحمد وزاري وفهيمه حول طاولة طعام صغيرة منهكين تمامًا. حدثت إلى وعاء الآيس كريم الذي ظل أمامي لمدة عشرين دقيقة على الأقل. وحدثت الفتاتان إلى الفوضى التي أحدثها الأطفال، وهما لا تصدقان أنه لا يزال علينا التنظيف.

قال أحمد:

- ظهري يؤلمني بشدة. أتدرون، سيسافر والداي لبضعة أيام. لِمَ لا تأتون وسنقيم حفلًا لنا نحن الأربعة، للاحتفال بنجاتنا من هؤلاء الأطفال؟ سنشغل الأغاني الهادئة ونرقص طوال الليل.

خفق قلبي وأنا أفكر في زاري بين ذراعي. نظرت إليها، فابتسمت وخفضت عينيها.

سأل أحمد فهيمة:

- هل سننجب أطفالاً؟

رفعت له فهيمة أربع أصابع وغمزت له، فأمسك أحمد برأسه.

قالت زاري وهي تنظر إليهما بحب:

- سننجبان أطفالاً رائعين.

أشار أحمد إليّ وقال:

- هو وحبيبته سينجبان أطفالاً رائعين أيضاً.

وافقته فهيمة الرأي.

- أوه، نعم، أطفال رائعون للغاية.

قالت زاري:

- كان عليه أن يدعوها إلى الحفل.

انتظرت رد أحمد وفهيمة لكنهما لم يقولوا أي شيء، ثم التفتت إليّ:

- كان من الممكن أن تكون هذه فرصة مثالية لك لمصارحتها بمشاعرك.

اتخذ أحمد على الفور وضعية المثقف، وقال:

- حسناً، لا أعرف عن ذلك. فهو يعتقد أن عليه التعرف عليها قبل أن يخبرها

بحبه لها.

أدركتُ إلى أين يتجه أحمد بحديثه، وأردت أن أمد يدي عبر الطاولة وأخفقه.

سألته زاري:

- ماذا تقصد؟

قال أحمد كأنه يلقي محاضرة:

- كما ترين، معظم الناس في إيران يقعون في الحب من دون أن يعرفوا الكثير

عن بعضهم. في الولايات المتحدة وأوروبا، يتواعد الناس لفترة طويلة

ويتعارفون قبل الوقوع في الحب.

أشار إليّ وتابع:

- لديه نظرية ذكية للغاية حول هذا الأمر. لقد أخبرني عنها قبل بضع ليالٍ على السطح.

واجهني قائلاً:

- فلتخبرهما.

ركلته بأقوى ما أستطيع تحت الطاولة.

نظرت إليّ زاري وفهيمه، منتظرتين أن أتحدث. سعلت، وهمهمت، وتناولت ملعقة من الآيس كريم الذائب لأكسب بعض الوقت. أخيراً قلت:

- نعم، في أوروبا والولايات المتحدة يقضي الناس وقتاً أطول بكثير في التعارف قبل الإفصاح عن حبهـم.

لم أجد ما أقوله بعد ذلك. وعقب فترة من الصمت المـحرج، أضفت:

- في الغرب، تلاقي العلاقات بين الرجال والنساء القبول بسهولة. لكن في بلدان مثل بلدنا، نهتم أكثر بإرادة الله وبالقدر. يجب على علماء الأنثروبولوجيا دراسة العلاقة بين التقدم التكنولوجي وأشكال العلاقات بين الأزواج في هذه المجتمعات المختلفة.

شعرت بالحماقة التامة وأنا أنظر إلى وجه أحمد المبتسم. لماذا أدعه يفعل هـذا بي؟

فكرت زاري في الأمر لبعض الوقت ثم قالت:

- هذا مشير للاهتمام.

نفخ أحمد صدره مرة أخرى، فركلته بقوة إلى درجة أنه تصلب وحاول جاهداً ألا يتأوه من الألم.

نظرت إليّ زاري وقالت:

- متى ستخبرني من هي؟

قال أحمد وهو يغمز نحوي:

- على الأرجح ليس قبل أن ينشر علماء الأنثروبولوجيا النتائج التي توصلوا إليها.

سأقتله! أقسم إنني سأفعل!

بدأنا في تنظيف المنزل. رأيت صورة للدكتور وزاري على رف في غرفة المعيشة. كان الدكتور مبتسمًا، ويحيط كتفها بذراعه. وكانت هي أيضًا تبتسم ابتسامتها المعوجة المميزة، ورأسها مستند إلى ذراع الدكتور اليسرى. أتت خلفي وقالت:

- هذه صورة فظيعة لي، لكن أُمي تحبها. كلما أخفيتُها تجدها وتضعها على الرف ثانية. سأحرق تلك الصورة يومًا ما.

- لماذا؟ إنها صورة جميلة.

قالت وهي تتفادى نظراتي:

- يبدو الدكتور لطيفًا، لكن ليس أنا.

نظرتُ إلى الصورة، وهمست:

- لا أعلم بشأن ذلك، فلديكِ تلك الابتسامة.

- أي ابتسامة؟

همست:

- ابتسامتك المعوجة، المميزة لك.

قالت:

- المميزة لي.

كما لو كان قولها هذا تصريحًا وليس سؤالًا.

- نعم، لا أحد آخر يبتسم هكذا. يعجبني ذلك.

سألتني وهي لا تزال مطأطئة رأسها:

- حقًا؟

- نعم. كما تعجبني الطريقة التي تملين بها رأسكِ جانبًا.

- حقًا؟

- تعجبني عيناك أيضًا، إنهما تبتسمان، كما هي الحال معظم الوقت.

- ألا تبسّمان دائماً؟

- إنهما تبسّمان دائماً عندما تكونين سعيدة.

نظرت إليّ.

- هل تبسّمان الآن؟

- نعم، إنهما كذلك.

نظرنا إلى بعضنا فترة من الوقت، ووقفنا قريبين جداً، إلى درجة أنني شعرت بأنفاسها على وجهي. أحسست بالوهن في ركبتيّ، وفي جزء من الثانية، أومض في ذهني كل ما عرفته عنها. لونها المفضل هو الأزرق، وتقول إن اللون الأزرق مرتبط بالاتساع، فالسما زرقاء والمحيطات زرقاء. تساءلت لماذا تغفل دائماً عن حقيقة أن عينيها زرقاوان أيضاً. كما أنها راوية قصص. تستلقي هي وكيفان على بطانية حمراء تحت شجرة الكرز في الفناء كل يوم بعد الغداء. دائماً ما ترقد زاري على جانبها ووجهها نحو السطح، وأعرف أنها تراقبني من الطريقة التي تتبع بها تحركاتي. وأسمع كيفان يتوسل قائلاً:

- قصة أخرى، قصة واحدة أخرى من فضلك. قصة واحدة فقط.

تمنيت لو أنها همست في أذني بحكايات عن مستقبلنا، وحينها سأتوسل إليها أنا أيضاً، طالباً قصة واحدة أخرى فقط. تستيقظ مبكراً كل صباح وتذهب إلى المطبخ في نهاية الزقاق لشراء خبز اللافاش الطازج الساخن للإفطار. أراقبها طوال الطريق ذهاباً وإياباً من موقعي على السطح، وتعرف أنني أراقبها لأنها ترفع نظرها كثيراً إلى الأعلى.

شعرت بأنني مخمور بمعرفتي لعاداتها، وأحسست بأنفاسها العميقة، وصدرها يعلو ويهبط على بعد سنتيمترات قليلة من صدري. وقعت في حبها ووصلت إلى نقطة اللاعودة. كان بوسعي تقريب شفاهنا معاً بأبسط إيماءة، وبدأ كلانا بالانحناء عندما دخل كيفان إلى الغرفة.

سأل:

- أين قميصي الأزرق؟

وقفت أنا وزاري بلا حراك، نتبادل النظرات بضع ثوانٍ أخرى.
أوضح كيفان:

- القميص الذي أرسله الدكتور إليّ في عيد ميلادي.
أدارت زاري رأسها ببطء ونظرت إلى كيفان، ثم التفتت نحوي وهمست:
- أرسل إليه الدكتور قميصًا جميلًا، لا بد أن تراه. هذا لطف منه.
ثم اتجهت نحو الخزانة، وقالت بنبرة مختنقة:
- إنه رجل لطيف جدًا، رجل طيب للغاية.

عندما عدت إلى المنزل، أراد والدي أن أشاهد معه فيلم كازابلانكا. قال إنه أحد أعظم الأفلام الكلاسيكية على الإطلاق. أردت أن أخبره بأنني أعرف ذلك، لأنني موسوعة سينمائية، وفقًا لأحمد، لكنني لم أفعل. بينما نحن نشاهد الفيلم، استمعت بعناية إلى الحوار بين همفري بوجارت وإنجريد بيرجمان، فربما يمكنني أن أتعلم كيف يتحدث العشاق. فكرت فيما قلته عن علماء الأنثروبولوجيا وأشكال وأنماط العلاقات، وشعرت بأنني سأموت حرجًا. هل سيتهي بي المطاف أنا وزاري والدكتور مثل الشخصيات الثلاث الرئيسية في فيلم كازابلانكا؟ يمكنني تخيل الدكتور في دور الثائر الذي حارب النازيين، وأنا صاحب الحانة الوحيد الذي يظن أنه فاز بالمرأة حتى يعود الرجل الآخر. هل سأمتلك القوة لأتركها تذهب كما فعل بوجارت؟ هل سأجد طائرة للهروب كي يفر الدكتور مع حبيبتي من النازيين؟ هل سأضحى بنفسى من أجل سعادتهما؟

بعد مشاهدة فيلم كازابلانكا، توجهت إلى السطح. نظرت نحو غرفة زاري، فوجدت أنوارها مطفأة. وفجأة، لاحظت ورقة على الجدار بين منزلينا، ارتكزت عليها صخرة صغيرة كي لا تطيرها الرياح بعيدًا.

التقطت الورقة، فوجدت زاري قد رسمت لي صورة: كنت أقف في الزقاق، تحت المطر، متكئًا على شجرة، أنظر إلى يميني نحو فتاة تسير مبتعدة نحو نهر في الخلفية. في الواقع، بدت كأنها تطفو بعيدًا، كملاك بلا وجه. كانت تضع في

شعرها الطويل وردة بيضاء، مثل تلك التي أعطيتها لزاري. وظهر جبل من بعيد وقمته مغطاة بالثلوج. نجحت زاري في تصوير كل شيء، على نحو يتسم بالنقاء والمهابة والهدوء والانسائية. كُتبت عبارة في أسفل الصفحة: «عندما تخبرني مَنْ هي، سأكمل وجه ملاكك».



شتاء ١٩٧٤

مستشفى روزبه للأمراض النفسية، طهران

وقفت على السطح، أراقب هيئة امرأة تتمايل وهي تصعد الدرج لتنضم إليّ. لم أستطع تبين ملامحها، لكن مشيتها الرشيقة والوردة المكتنزة ناصعة البياض في شعرها أثارنا فضولي، وذكر تاني بزازي. هل كانت هي؟ تمنيت ذلك. كانت الرياح لطيفة وقوية في آنٍ واحد، هبت على جلدي وحملت رائحة الوردة الخفيفة عبر المدى. حاولت الانتظار، لكن ساقَيَّ خانتاني ووجدت نفسي أركض نحوها، وأفتح ذراعيّ عن آخرهما لأضمهما إليّ. رأيت ذراعيها ممدودتين، وظننت أنني أمسكت بها، لكنها انزلقت وسقطت من الحافة. انحبس صوتي في حلقي، وجلست على فراشي المبلى بالعرق، ألهث مختنقًا، بينما تتردد في أذني أصدااء مقولة أُمي عن سقوط الناس من فوق السطوح.

كنت وحدي في الغرفة، وسقط شعاع ضوء خافت من النافذة المربعة الصغيرة في الباب. اعتصرتُ أصابعي الباردة ثم هزتها بقوة، كأنني أستطيع أن أنفخ عني الرعب الليلي كأنه ماء كثير مظلم. انسابت في الردهة خارج غرفتي أصوات المرضى الآخرين الذين لم يكونوا نائمين، ووجدتها تبعث على الراحة بشكل غريب. ثقلت جفوني، لكنني لم أجرؤ على العودة إلى النوم. بدلًا من ذلك، نزعت الملاءات المبللة عن فراشي واستلقيت على المرتبة

العارية، وأحصيت خطوات الممرضات عبر الممر وهن يقمن بجولاتهن التي لا تنتهي.

هاجمت عقلي سلسلة من التساؤلات مرة أخرى: لماذا أنا هنا؟ لماذا لا أستطيع تذكر أشياء معينة، بما في ذلك الأحداث القريبة؟ كما أنني لا أعرف على والذي أحياناً عندما يدخلان إلى الغرفة، لماذا؟ ولماذا لا أستطيع التحرر من الكوابيس التي تؤرق ليالي وأيامي؟

بدا البحث الجدي عن إجابات أمراً مؤلماً للغاية بالنسبة إلى عقلي الخدير، لذا مارست خيارى الوحيد: تجاهلتها وتركت ضباب اللاوعي يتدفق ليحجب ما يحيط بي. كان ذلك الضباب الذهني أشبه بخيمة أزحف إليها لأبقى في مأمن مما يبدو لي محيراً ومهدداً، وهكذا أتجاوز الليل.

في المرة التالية التي رأيت فيها وجه التفاحة، أخبرتها بأنني بحاجة إلى شيء ما لوقف الأحلام. طلبت مني وصفها، فأخبرتها بأنني لا أستطيع تذكر معظمها. أكدت لي أن حالتي طبيعية، وربما تكون مؤقتة.

نهاية صيف ١٩٧٣

طهران

ليلة القبض على الدكتور

جاءت ثريا، الملاك المُقنَّع، لزيارة زاري، بينما ذهبت فهيمة ووالداها إلى بحر قزوين في الأيام الأخيرة من الصيف، وشعرت أنا وأحمد بالضجر حد الموت، لكن من دون فهيمة، لن يكون من المقبول أن نذهب إلى منزل زاري. حاول إيراج أن يرينا اختراعاته الجديدة كلما سنحت له الفرصة، لكننا لم نُعره أي اهتمام. في الواقع، لم نستطع في معظم الأحيان معرفة ما يحاول صنعه حتى، إذ بدت اختراعاته كأدوات غبية ليست لها وظيفة عملية. اكتشفت والدتي أن مسحوق ثمار شجرة الغبيراء يقي من أمراض الكبد، واشترت مدقة جديدة كي تستخدمها لسحق النبتة ذات اللون البني. ونوت وضع المسحوق على لوح في الشمس ليجف بضعة أيام قبل تخزينه في وعاء زجاجي صغير اشترته خصوصًا لهذا الغرض. تساءلت أنا وأحمد كيف ستجعلنا نتناوله. قال أحمد:

- ستضعه في الشاي. لن أشرب الشاي في منزلك بعد الآن.
قلت:

- ولا أنا أيضًا.
وضحكنا معًا.

من فوق سطح منزلي، رأينا ثريا مع زاري في فناء منزلها، تجلسان بجانب الحوض تحت شجرة الكرز. اعتادت ثريا ارتداء البرقع دائماً، حتى عندما تكون في فناء منزل زاري. أعتقد أنها أدركت أننا نستطيع رؤيتها من السطح. فتنت كل من في الزقاق، وكانت والددة إيراج، أكبر معجبيها، تقول للجميع إن ثريا هي أجمل مخلوق على وجه الأرض.

- لديها وجه ملاك وجسم حورية بحر، والنظرة في عينيها الزرقاوين الواسعتين تخطف الأنفاس! بشرتها ناعمة، وشعرها كالبحر الهادئ. كلماتها مثل الشعر، رقيقة وحنون. وصوتها مثل ترانيم الملائكة، ساحر وهادئ. أخبرت أحمد بأن برقع ثريا يذكرني بأستاذنا في مادة الدين، الأستاذ جورجى الذي أخبرنا العام الماضي بأن كل نساء عائلته يرتدين الشادور. قال إن النساء السافرات يتاجرن بأجسادهن، وإن الجميع يعلم أن الرجال مبرمجون على اشتواء النساء اللاتي يظهرن وجوههن وأجسادهن، وإنه لا يمكن أن يكون هناك رجال شبقون في مجتمع أخلاقي، يشتهون زوجات وأمهات وأخوات الآخرين! سأل أحمد:

- هل قال كل ذلك حقاً؟ لا بد أنه كان في أحد الأيام التي طردني فيها من الفصل. قلت إنه بقدر ما تبدو هذه القصة محزنة، فإنها حقيقية بالكامل. ثم أخبرته كيف أن السيد جورجى قال إن سعي المرأة للحصول على حقوق الرجل نفسها أمر مخالف لتعاليم الإسلام، ووصف السيد جورجى يوم ٨ يناير ١٩٣٦، وهو اليوم الذي كشف فيه رضا شاه الحجاب عن النساء، بأنه أحلك يوم في تاريخ إيران. وقال إنه في المجتمع العادل، تخلق الحكومة جواً يمكن فيه للنساء التنافس ضد بعضهن في أدوار هادفة ومناسبة، صُممت لهن خصيصاً مثل تربية الأطفال وتعليم البنات الصغيرات والطبخ.

ضحك أحمد وقال إنه سيعرض كل ذلك على فهيمة للتأكد من أنها تعرف مكانتها في الأسرة.

لاحظت أنا وأحمد أن إيراج صار يقضي كثيراً من الوقت في الزقاق هذه

الأيام. خيَّم على وجهه التوتر كل مرة في وجود الملاك المُقنَّع وزاري، وأصبح أخرق ومرتبكًا ومتلعثمًا في حديثه، وعينه تلاحقان الملاك المُقنَّع أينما ذهب. أخبرني ذات مرة بأنه لو كان يكبرها بعامين، لأرادت والدته أن يتزوج ثريا، وتمنى حقًا لو كان يعرف شكلها.

تذكرت محاضرة السيد جورجى عن الرغبة والأخلاق، وشرعت في الضحك. حمى البرقع ثريا من عيني إيراج الشهبانيتين، لكن من الواضح أنه لم يمنعه من الرغبة فيها.

في إحدى الأمسيات، كنت جالسًا تحت الجدار الفاصل بين سطح منزلي وسطح منزل زاري، أقرأ كتابًا، عندما سمعت صوتها من الجانب الآخر من الجدار. كانت تتحدث إلى الملاك المُقنَّع، وأوشكتُ على الوقوف لإلقاء التحية عندما أدركت أن زاري تبكي، فبقيت جالسًا، حيث لم أرغب في أن أسبب لها أي حرج. قالت الملاك المُقنَّع:

- كوني قوية، واطمئني لأن الله يتولى توجيه الأمور بما فيه صالح جميع الأطراف المعنية. ما دمت حسنة النية وتعيشين الحياة بقلب نقي، فسيصبح صلاحك بفضل الله سبيلًا إلى الخير.

صاحت زاري بهدوء:

- أخشى أن يعاقبني الله على عدم إخلاصي.
ألقت الملاك المُقنَّع قصيدة لحافظ، وتمكنتُ بالكاد من سماع الأبيات، لكنها بدت شيئًا من هذا القبيل:

ستنتهي الأحزان القاسية التي طال أمدها.
ستطلق الصلوات في كل الاتجاهات التي أرسلتها.
لعل إحداها تصيب الأهداف التي قصدتها.

واصلت زاري البكاء من دون أن تقول شيئاً.

سألتها ثرياً:

- هل يعرف أحد؟

أجابت زاري:

- لا، أنتِ فقط. أنت الوحيدة التي تعرف.

نادتهما والدة زاري لتناول العشاء، فسارعتا في الانصراف. تساءلت عن معنى كل ذلك. هل كانا نتحدثان عني؟ هل كانت تبكي لأنها لا تعرف ماذا تفعل؟ امتلأ رأسي بالأسئلة، وعجزت عن مواصلة القراءة، فأغلقت الكتاب ووضعتة جانباً. الحب أمر فائق المشقة والتعقيد.

لم يبق سوى أسبوعين قبل بدء الدراسة، وصار من المفترض أن يعود الدكتور في أي يوم الآن. وعلى الرغم من كوني مغرماً بجنون بزاري، فإنني ما زلت أحترم الدكتور وأقدره بشدة. ظننت الأمر بمنزلة مفارقة ساخرة، كونه أكثر شخص لديه ما يلزم من البصيرة والنصيحة البناءة حول مشكلتي، إذا ما امتلكت الشجاعة لإخباره عن زاري.

عادت الملاك المُقنَّع إلى قُوم، وذهب أحمد ووالده في رحلتهم السنوية إلى قمصر، البلدة التي يعيش فيها أقارب أحمد. لم أذهب إلى قمصر من قبل، لكن أحمد يقول إنها صغيرة جداً إلى درجة أنه يستنفد الناس الذين يستطيع مشاكتهم في أقل من أربع وعشرين ساعة.

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم، بدأت ألاحظ حركة غريبة حول منزل زاري. أتى والدا الدكتور وذهبا، على عجل وبهدوء. ولم تخرج زاري إلى الفناء منذ ساعات. ظننت أنني سمعت والدة الدكتور تبكي لبضع ثوانٍ، ثم ساد الصمت التام المنزل مرة أخرى. تمنيت لو أنني أعرف ما الذي يدور.

بقيت مستيقظاً بسبب الاستغراق في التفكير بشأن الحركة الغريبة في منزل زاري. كانت ليلة حارة ومكتومة، وأنا في فراشي على السطح، عندما قطع وحدتي

فجأة وقع خطي ثقيلة لرجل يركض عبر الزقاق. نظرت إلى الأسفل، وتعرفت فوراً على الدكتور. كان يركض بسرعة، ويلهث، ويئن خوفاً، كأن نمراً جائعاً يطارده. توقف عند باب زاري ودق الجرس، ثم نظر خلفه إلى الزقاق كأنه يتوقع أن يرى مطارديه يقتربون منه. لم ينتظر الدكتور أن يفتح أحد الباب، بل تسلق الجدار وقفز بهدوء داخل الفناء الأمامي. جلس مسنداً ظهره إلى الجدار، وانتظر. انعطف ثلاثة رجال عند الزاوية، ودخلوا الزقاق. نظر أحدهم نحوي فوق السطح، وبدأ خسيساً وحقيراً، حتى إنني أدركت ذلك من هذه المسافة. كان أسمر طويل القامة، في نحو الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره، لديه شعر طويل مموج مشدود إلى الخلف بإحكام. ورأيت عينيه تتطلعان وتستوعبان تفاصيل كل ما يدور حوله. سرى في مفاصلي وعضلاتي خدر أصابني بالشلل. أردت أن أخفض جسدي خلف الجدار المنخفض المحيط بالسطح، لكنني لم أستطع الحركة. أطلق الرجل السباب وهو يعلن عبر جهاز اللاسلكي أن المطاردة قد تعطلت.

لم أفهم الرد الخافت، لكن الرجال الثلاثة بدأوا في الركض مرة أخرى. ركضوا متجاوزين منزل زاري مباشرة، وغمر الارتياح قلبي الذي أصابه بالرعب. لا بد أنهم من السافاك. تذكرت قول والدي بعد أن داهموا منزلنا بحثاً عن كتبه: - إنهم أشرار، يبدوون كأناس عاديين، يعيشون بيننا، ويعملون معنا، ويأتون إلى منازلنا لتناول العشاء، ويشاركوننا في سعادتنا، ويحزنون لخسائرننا، ثم تكتشف يوماً ما أن لديهم وظيفة ثانية، ويعملون لدى أكثر وكالة مكروهة على الإطلاق أنشئت في هذا البلد، بفضل الأمريكيين ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

جلس الدكتور ورأسه بين ركبتيه، يرتجف من الخوف ويتنفّض ويرتعش من حين إلى حين كرجل تجتاحه نوبة من المشاعر لا يمكن إيقافها أو السيطرة عليها. رأيت زاري تركض خارجة من المنزل إلى الفناء، وتبعها والداه. نهض الدكتور بسرعة ووضع إصبعه على شفثيه ليعلمهم أن عليهم التزام الصمت. لم يكن بحاجة إلى ذلك، إذ كانوا صامتين كالأشباح عندما خرجوا من المنزل. كانوا

على دراية تامة بما يحدث للدكتور، فلا بد أن الناس من السافاك ظلوا يتصلون بهم طوال اليوم. تساءلت عما كان الدكتور يفعله طوال الصيف. هذا يفسر الحركة الغربية التي جرت عصر اليوم. ولا بد أن الجيران كانوا يعلمون أيضًا، على الأقل أولئك الذين سمعوا الضجة وراقبوا هذه الدراما من وراء ستائرهم المسدلة. بدت ظلالهم تذكيرًا صارخًا بمدى حقيقة الخوف من السافاك.

أحاطت زاري الدكتور بذراعيها، وشرعت تبكي بهدوء، وأخذت أمها تدعو وتحرك شفيتها بسرعة من دون أن تنطق بصوت مسموع، أما والد زاري، السيد نادري، بطل المصارعة الأولمبي السابق، فدار حول عائلته مثل أسد عجوز جريح. لم ينطق أحد بكلمة، ولم يكن أحد بحاجة إلى ذلك.

عرفت المصير الذي ينتظر الدكتور في السجن، فقد أخبرني والذي كثيرًا من القصص عما يفعلونه بالخراب كر، أي النشطاء المحرضين مثل الدكتور. سيضعونه في زنزانة لبضعة أيام ليزيدوا من قلقه استعدادًا لاستجوابه، ثم يأخذونه إلى غرفة ويضربونه. بعدها سيطرحون عليه مجموعة من الأسئلة، ثم يضربونه مجددًا. سيهددونه بأوصاف مفعجة لأحدث أساليب التعذيب التي يتبعونها، ويقارنونها ببعض الأساليب التقليدية المفضلة: اقتلاع الأظفار، وكسر الأصابع، وغمر خصيتي السجين في الماء المغلي. وقد يتحدثون عن إحضار أقرب قريباته إلى السجن، حيث ستُغتصب بشكل جماعي على مرأى منه. وقد ينفذون التهديدات، لكنهم في الغالب لا يضطرون إلى ذلك. فالدكتور صغير جدًا، وأكثر ضالة في محيط المعارضة السياسية من أن يواجه عقوبة قاسية إلى هذا الحد. سيقونه في السجن فترة، ويضربونه من حين إلى حين، ثم يطلقون سراحه ذات يوم ببساطة، على أمل أن يكونوا قد أخافوه بما فيه الكفاية حتى لا يحاول ارتكاب أي حماقة مرة أخرى.

رأيت مزيدًا ومزيدًا من الجيران يراقبون من غرفهم المظلمة. لم يرغب أحد في الظهور، لكن الجميع أرادوا معرفة كيف سينتهي هذا الأمر. فكرت في مدى شعور الدكتور بالعجز في هذه اللحظة. قال والذي ذات مرة إنه لا شيء يجعلك

تشعر بالعجز مثل مواجهة الشرطة السرية للحكومة. فلا توجد سلطة يمكن اللجوء إليها، ولا أحد يستطيع إنقاذك من هابوية الألم والبؤس التي توشك أن تُلقي بها. تذكرت أنني أخبرتك الدكتور عن اليوم الذي داهم فيه عملاء السافاك منزلنا. كان ذلك عندما أخبرني بأن لديّ تلك السمّة.

في السجن، سيسلب العملاء من الدكتور أئمن ما يملكه: وقته. سيحبسونه في زنزانة صغيرة بعيداً عن كتبه المحبوبة. ولإغضابه، قد يعطونه حتى بعض الروايات التافهة ليقراها، من النوع الذي يحمل على الغلاف صورة امرأة شبه عارية ورجل وسيم، ذلك النوع من الروايات الذي يعدّه مجرد هراء.

لم أستطع إبعاد نظري عن المشهد الذي تجمد في الزمن بساحة زاري، حتى حوّل صوت انتباهي فجأة إلى نهاية الزقاق. كان الرجل الذي يحمل اللاسلكي ينظر إليّ، فجلست بسرعة خلف الجدار المنخفض، لكن بعد فوات الأوان. لا بد أنه كان يراقبني منذ فترة، ومن اتجاه نظراتي حدد المنزل الذي لجأ إليه الدكتور. رفعت نظري إليه للحظة، فرأيت يبتسم ابتسامة خبيثة، وبدأ يسير ببطء نحو منزل زاري. ظهر الرجلان الآخران بسرعة، وتوقفت سيارة أمام المنزل. طرق الرجل الذي يحمل اللاسلكي باب زاري، فترك الدكتور زاري، وبدأت والدتها تضرب رأسها في الجدار. لن أنسى أبداً الصوت الخافت لارتطام جمجمتها بالطوب. بدا والد زاري كمحارب عاجز، يتحرك بلا هدف، كما لو كان يواجه عدواً لا ينبغي له أن يقاتله، بينما بكت زاري.

فتح الدكتور الباب وخرج، وزاري تشبّث به بقوة. كان رأسه مرفوعاً، وكتفاه مشدودتين: لن يسمح لأحد أن يسلبه كرامته. لكنّ أحد العملاء الدكتور في وجهه، وصرخت زاري كأن حربة اخترقت قلبها. شعرت بدماغي تفور وتتصاعد حتى أذني. وقف العميلان الآخران يراقبان، بينما جلس رابع خلف مقود سيارة سيدان تابعة للوكالة، يدخلن سيجارة.

سقط الدكتور أرضاً، وركله الرجل الذي يحمل جهاز اللاسلكي في وجهه. تدفقت الدماء على الرصيف، ووصلت صرخات زاري إلى ذروة جديدة. بدأت

والدة زاري تصيح وهي تضرب رأسها وتشد شعرها، ونظر السيد نادري إلى العملاء، وربما فكر في أن بإمكانه قتل هذه المخلوقات البغيضة والمنفرة بيديه العاريتين، لكنهم كانوا عملاء سريين للحكومة، وتدخله سيزيد الأمور سوءاً. هرعت إلى الزقاق بعض العائلات المجاورة، بمن في ذلك والداي اللذان كانا نائمين حتى أيقظهما صراخ زاري. كان العملاء يكرهون أن تشهد الحشود المعاملة اللاإنسانية لأسراهم، فدفعوا الدكتور بسرعة إلى السيارة وانطلقوا. نظر العميل الذي يحمل جهاز اللاسلكي نحو السطح، وأرسل إليّ قبلة في الهواء بينما السيارة تخرج من الزقاق. أقسمت لنفسي إنني سأجده يوماً ما وأقتله. لم أشعر في حياتي بمثل هذا القدر من الغضب، ولا حتى عندما كان أولئك المتمردون يضربونني في المدرسة، أو عندما أدمى شقيقاً فهيمة وجه أحمد.

ركضت زاري خلف السيارة، وركض الجيران خلفها. فقدت والدته زاري الوعي على الرصيف، وحاولت بعض النساء، ومن بينهن والدتي، إنعاشها بوضع الماء الساخن والسكر في فمها المرتخي. اتكأ السيد نادري على شجرة، وتمايل إلى الأمام وإلى الخلف، مغمماً بكلمات غير مفهومة. عَجَّ الزقاق بالناس، وتساءلت عما إذا كان أي شخص قد رأى العميل يشكرني قبل أن يختفي في الليل. هرعت إلى الطابق السفلي وجسدي لا يزال يرتجف، وركبتي واهنتان، وأعصابي متوترة. في الزقاق سمعت طفلة صغيرة تسأل أمها عما يحدث، فانحنت الأم ورفعت ابنتها وضمتها بقوة إلى صدرها. بكت زاري على نحو هستيري، بينما حاول الجيران السيطرة عليها. ركضت نحوها وأمسكت بها، وأمسكت وجهها بين يدي وناديت اسمها عدة مرات، فتعرفت عليّ ورمت نفسها بين ذراعي وبكت. لم يكن من الممكن أن تأتي حلاوة عناقها في وقت أكثر مرارة. رأيت والدي يواسي السيد نادري، وفجأة سمعت صرخة عالية من نهاية الزقاق. كان والدا الدكتور، السيد والسيدة صبحي، يندفعان مسرعين نحونا. ضربت والدته الدكتور نفسها على رأسها، وخدشت وجهها بأظفارها وهي تعوي من شدة الألم، وعرج والده نحونا وعلى وجهه نظرة معذبة. حاول عدد من النساء، بمن في ذلك

والدة إيرا، منع والدة الدكتور من إيذاء نفسها. بدا من المؤلم سماع صرخاتها. أخبرني الدكتور ذات مرة بأن والدته اعتادت أن تتبعه إلى المدرسة من بعيد كل يوم حتى أصبح في الصف الأول الثانوي. لم أستطع تخيل معاناتها. رأيت أمي تقف بالقرب من السيدة نادري، تنظر في اتجاهي. بطريقة ما، عرفت ما تفكر فيه، على الرغم من أنني أصغر من أن أعرف ما يفكر فيه الآباء والأمهات. كانت تشكر الله أنني لم أكن الشخص الذي أُلقي القبض عليه. رأى والد الدكتور دماء ابنه على الرصيف، وانهار في ذلك الموضع مطلقاً صرخة يمكن أن تفطر قلب الشيطان. غمس يده اليسرى، اليد الوحيدة المتبقية لديه، في الدماء ورفعها إلى وجهه وقبّلها وهو ينوح في يأس. أردت أن أهرع نحوه لأعانه، وأقبّل يده، وأطلب منه الصفح، لكنني لم أستطع. لم أرغب حتى في أن أعترف لنفسني أن إهمالي هو الذي كشف أمر الدكتور. تمنيت لو كان بإمكانني أن أضرم قبضتي وأهزها تجاه السماء وأصرخ بتحدٍّ، لكن هذا من شأنه أن يكشف سري المشين. لذا بدلاً من ذلك أمسكت رأسي بين يدي، وعضضت شفتي السفلى بقوة، إلى درجة أن سيلاً من الدماء تدفق على ذقني.

الأناركي

تمضي الحياة، وتنتهي ليالٍ مثل ليلة القبض على الدكتور، لكن أثرها يبقى. نحن
الفرس لسنا متمرسين فيما يتعلق بالتعامل مع الألم. فقد سمعت أن الناس في
الغرب، خصوصًا الولايات المتحدة، يلجأون إلى العلاج النفسي عندما يتعرضون
لصددمات عاطفية. لكن معالجنا هو الزمن، ونثق بأن الزمن يشفي كل شيء، وأنه
لا داعي إلى الانشغال بالألم. لا نسعى إلى العلاج النفسي لأننا لسنا هشين مثل
الغربيين، أو هكذا ندّعي. فالتدخلات النفسية مصممة لعلاج العقل وليس الروح،
ونتلمس العزاء لقلوبنا من خلال إظهار مشاعرنا. عندما يصيبنا الحزن، نفعل كل
ما يلزم بأجسادنا لنعتصر السلوى من أرواحنا الجريحة، من دون اعتذار أو ندم.
قد نضرب أنفسنا ونمزق ثيابنا ونصرخ بأحزاننا، ودائمًا ما يكون هناك رفقاء لنا،
حيث يشاركنا من حولنا في معاناتنا من خلال فعل الشيء نفسه.

كنت أشاهد ذات مرة فيلمًا من أفلام هوليوود، ولاحظت ضبط النفس الذي
يتحلى به الأمريكيون في أثناء الجنازات. سألت والدي عن السبب الذي يجعلنا
كشعب نتعامل مع الموت بهذا القدر من الحزن والمبالغة في المشاعر.

قال والدي:

- هذا موضوع جدير بالدراسة العلمية، لكنك محق. نحن مختلفون، وشدة

حزننا لها جذور تاريخية. كان الموضوع المتكرر في تاريخنا هو المذابح التي تعرض لها شعبنا، فيما بات الآن في طي النسيان من مذابح جماعية على أيدي الغزاة مثل الإسكندر المقدوني، البربري الذي أحرق برسبوليس، والعرب الذين نكلوا بأمتنا لمئات السنين، وجنكيز خان، الذي ذبح في القرن الثالث عشر ما يقرب من ثلاثة ملايين من مواطنينا. لقد أصبح الحداد جانباً مهماً جداً من ثقافتنا.

ثم وضع يده على كتفي وتابع:

- عندما يُذبح طفلنا أمام أعيننا، نتحب كأن روحنا تريد الهروب من جسدنا. وعندما نتعرض لظلم شديد، نصرخ. هذه هي هبة التاريخ لنا يا بُني. هز رأسه وفرك صدغيه.

- كان ملاذنا الوحيد في مواجهة الشر الذي لا يغتفر هو النحيب بلا هوادة. أعتقد أننا، حتى الآن، نربط الموت بالظلم من دون وعي منا.

وهكذا مضت الحياة في زقاقنا، لكن بوتيرة أبطأ. أو على الأقل، هكذا بدا الأمر. قد يكون الوقت هو أثمن سلعة يمتلكها البشر، لكنه يصبح مملاً جداً عندما يزحف زحفاً. أعتقد أن ما يجعل الوقت ثميناً هو السرعة التي يمر بها.

لم تعد زاري تخرج إلى الفناء، وكان أحمد لا يزال في قمصر، فلم أطق الوجود بصحبة إيراغ الذي لا يتوقف عن الثرثرة حول اختراعاته الغبية. حاول والدي عدة مرات أن يتحدث معي عن الدكتور، لكنني تجنبته بأي طريقة ممكنة. لم أعرف ما الذي قد أقوله إذا بدأت الكلام عن أحداث تلك الليلة. كنت أغمض عيني، وأتخيل تلك اللحظات القليلة الأخيرة على السطح مراراً وتكراراً، وفي كل مرة أنحني قبل أن يراني العميل. لكن بعد ذلك، أفتح عيني وأريد الصراخ من الألم. قررت أنني بحاجة إلى معاودة القراءة مرة أخرى، فالقراءة هي أفضل وسيلة تسلية بالنسبة إليّ. قرأت كثيراً لداروين وفرويد، وأدركت أن هذين المفكرين لديهما أفكار أكثر مما تحدث عنه السيد جورج، معلم الدين في العام الماضي. لا أتذكر ما الذي قاده إلى هذا الموضوع،

لكنه أخبرنا بأن فرويد كان منحرفاً وداروين ملحدًا، ولا ينبغي لنا أبدًا أن نقرأ أعمالهما. في اليوم التالي بدأت البحث عن الكتب التي تحمل اسمي ذينك الملحد والمنحرف.

كانت الكتب رائعة، لكنني وجدت صعوبة في الحفاظ على تركيزي. تمنيت رؤية زاري، لكنني صرت أشعر بالذنب لمجرد التفكير فيها الآن. تشاغلته بالتفكير في الدكتور بدلًا من ذلك، وتساءلت عما إذا كان يعرف أن إهمالي هو الذي كشف أمره. لو أن بإمكانني أن أكتب إليه رسالة، لأخبرته بأنني آسف، ليس فقط على الليلة التي قبض عليه فيها، لكن على وقوعي في حب خطيئته. آسف لأنني لم أستطع أن أكون مثل همفري بوجارت في فيلم كازابلانكا. لم أعلم أنه مطلوب من قبل السافاك. كنت أعرف أنه ماركسي بالطبع، وصليت بعد ليلة الوردة داعيًا ألا يُقبض عليه. لو كنت أعرف أنه عائد إلى المنزل، لانتظرتُ العملاء في الزقاق، ولتظاهرت بأنني هو، وانطلقت في اتجاه آخر، لأجعل العملاء يطاردونني بدلًا منه.

يا إلهي، كم أكره نفسي. أكره نفسي أكثر مما أكره ذلك الوغد الذي تبقيني ابتسامته الشريرة مستيقظًا خلال الليل. أغمض عيني مجددًا، وأحاول مرة أخرى استرجاع اللحظة التي رأي فيها الرجل الذي يحمل جهاز اللاسلكي على السطح. ومرة أخرى، أنحني قبل أن يراني، لكن الواقع لا يتغير. يا إلهي، ليتني أستطيع العودة! أكره حتمية الزمن.

صعدت إلى السطح لبضع دقائق، وعندما نظرت إلى الزقاق أدركت أن الطاقة قد استنزفت من حينًا. أمعنت في ظل الشجرة التي زرعها والدي في الفناء في أول يوم انتقلنا فيه إلى هنا، ولم يبدُ أنه يتحرك. جلس معظم الأطفال واكتفوا بالحديث فقط، ولم يعد أحد يلعب كرة القدم. لم يرغب الآباء في عودة السافاك إلى الزقاق، وطلبوا من أطفالهم ألا يتحدثوا إلى أي شخص عما حدث في ليلة القبض على الدكتور، لكن الأطفال لم يفهموا بما يكفي ليخافوا. سمعت الدكتور يقول ذات مرة:

- التمرد جميل في بعض الأحيان. أتساءل إن كان بإمكان الأنظمة الدكتاتورية أن تستمر لو كان البالغون أشبه بالأطفال. هل يجزؤ أحد على احتجاز طفل أحدهم في منتصف الليل إذا تمردنا جميعًا على السلطة والتسلط؟

تذكرت قول الدكتور إن الأناركية هي مقدمة النظام، وأدركت أنني لا أعرف معنى الأناركية. قررت الذهاب إلى المكتبة والبحث عن كتاب عن هذا الموضوع. دائمًا ما تشكّل الكتب مصدرًا رائعًا للتسلية بالنسبة إليّ.

عندما عدت، رأيت إيراج وطفلين آخرين يشرحون لأحمد ما حدث ليلة اعتقال الدكتور. بدا عليه الاستياء بوضوح، وعندما صرنا بمفردنا، سألتني عن شعوري، فأحسست بالحرع حينما انهمرت الدموع على وجهي.

بدا أحمد مصدومًا.

- لماذا تبكي؟

كان قد سمع مرات عديدة من قبل قصة عدم بكائي عندما كُسرت ساقي في ثلاثة مواضع.

قلت له:

- لقد كشفت أمره، ولم أنحن في الوقت المناسب. أرسل إليّ ابن العاهرة قبلة في الهواء. سأجده وأقتله يومًا ما.

حاول أحمد تهدّثي، وأراد معرفة كل ما حدث ليلة القبض على الدكتور. استعدت كل شيء، كما فعلت مرات عديدة في ذهني في الأيام الخمسة الماضية. لم أستطع التوقف عن البكاء وأنا أروي له القصة.

توسلت إليه قائلاً:

- ألم يخبروك؟ ألم يخبروك بأنني كشفت أمره؟ من يعرف بالأمر؟ أرجوك، أخبرني.

أقسم أحمد إن أحدًا لم يذكر اسمي حتى فيما يتعلق بتلك الليلة.

أخفيت وجهي بين يدي.

- هذا لا يغير حقيقة أنني كشفت أمره.

سألني بحزم:

- وهل جعلتهم يطاردونه أيضًا؟ انظر، لم تبدأ الأمور في التسارع في اللحظة التي رآك فيها العميل على السطح. لقد كانوا يبحثون عنه بالفعل، ولا نعرف أين كان طوال الصيف، وماذا كان يفعل، ومن كان يراقبه. هل تعتقد أنهم ظهروا هنا، وانتظروا منك أن تنظر إلى فناء زاري، ثم هاجموه؟ لا بد أن البحث عنه كان مستمرًا لبعض الوقت.

مسحت دموعي وزفرت بضغمرات، وقلت:

- أشعر بالسوء الشديد.

أمرني أحمد بحزم:

- لا تشعر هكذا، فمحنة الدكتور لا علاقة لك بها. لا يمكنك أن تتحمل مسؤولية تعليمه وتربيته وما أوصله إلى أن يصير ماركسيًا وعلى قائمة مطاردة السافاك.

ثم أشعل سيجارتين وأعطاني واحدة، وجلسنا في هدوء بعض الوقت. لاحظ كتابي عن الأناركية، وسألني:

- لماذا تقرأ هذا؟

فأخبرته عن وصف السيد جورجى لداروين وفرويد، وعن احتقاري للسلطة، ورغبتى في أن يتحدى الجميع الدكتاتورية، وعدم إلمامي بنظرية سياسية تُعرف بالأناركية. نظر إليَّ أحمد كأنني ثمل، وبدا من الواضح أنه ليست لديه أدنى فكرة عما أتحدث عنه. ذكّرني بأن معلم الدين حذرنا أيضًا شرور ممارسة العادة، وتساءل عما إذا كنتُ أخالف تحذيره ذاك على سبيل التحدي. ضحككت بشدة، وكانت المرة الأولى التي أضحك فيها منذ القبض على الدكتور.

كان من المقرر بدء الدراسة بعد أقل من عشرة أيام، ولم أطلع إلى ذلك. لم يكن أحد يعرف أين الدكتور، أو ماذا يحدث له. أنت فهمت لزيارة زاري كل

يوم، وصارتا صديقتين مقربتين، لكن أحمد بقي بعيدًا، حيث أدرك أن هذا ليس وقتًا مناسبًا للرومانسية. جاءت فهمة إلى السطح لتحدث معنا بضع دقائق، وقالت إن زاري تبكي طوال الوقت لأنها قلقة بشأن قدرة الدكتور الجسدية والنفسية على التحمل تحت التعذيب. ثم وضعت فهمة ذراعها حول كتفي وقالت:

- لا تقلق يا عزيزي، سيصير كل شيء على ما يرام.

في أعماقي، تحرقت شوقًا لمعرفة ما إذا كانت زاري تسأل عني، لكنني كتمت هذه الرغبة بكل ما أوتيت من عزم. مثل أحمد، أدركت أنا أيضًا أنه من الأفضل أن أبقى بعيدًا. قال الجيران إن والدة الدكتور قد تقدمت في العمر ألف عام منذ اعتقاله. صار شعرها أشيب، وبدا وجهها مغضنًا، وارتجفت يداها طوال الوقت. لم تستطع فتح فمها من دون أن تبكي، وقضت معظم وقتها خارج سجن إيفين تتوسل إلى الحراس أن يخبروها إن كان ابنها بخير. التزم والد الدكتور الصمت، حيث أتى اثنان من العملاء إلى منزله ذات يوم وأخبراه بأن أسوأ شيء يمكن أن يفعله لابنه هو جذب الانتباه لعائلته. قيل له:

- انتظر حتى ينتهي هذا الأمر فحسب، وإلا لن ترى ابنك مرة أخرى.

صار والد الدكتور يعمل في وظيفة مكتبية في المدينة، بعد أن تعلم الكتابة بيده اليسرى. لذا اعتاد الذهاب إلى العمل كل يوم والتظاهر بأن شيئًا لم يحدث للابن الذي يحبه أكثر من الحياة نفسها.

طلب مني أحمد أن أعرف له الأناركية، ففعلت، لكن من دون كثير من التفاصيل، ومن دون حماسة.

قال أحمد ساخرًا:

- فلتسبِّدِ معروفًا إلى العالم، حسنًا؟

- ماذا؟

- لا تصبح مُعلِّمًا أبدًا. أنت فاشل في هذا المجال.

ثم أخبرني بأن لديه فكرة عبقرية من شأنها أن تبعث الروح والحيوية في الزقاق. قال إن الأمر يتعلق بالأناركية، وعندما أصررت على معرفة المزيد، أضاف أنه لا يزال مجهل ماهية الأناركية، فكيف لي أن أتوقع منه أن يشرحها؟ ضحكت، وتركته وشأنه.

نظمنا لقاءً في قبو منزلي، وحضر نحو خمسة عشر فتى في مثل عمرنا من جميع أنحاء الزقاق. دخل إيراج حاملاً لوحة دوائر كهربائية متصلة بعجلة تدور كلما ضغط على مفتاح، وقال إنه يجري تجارب على كفاءة الطاقة. قال: - إذا حافظنا على الطاقة، فلن نعاني انقطاعات الكهرباء المتكررة في طهران. وكالعادة، تجاهله الجميع.

فجأة، ظهر أحمد في إطلالة مهيبة وهو يرتدي زي أستاذ جامعي، ويرتدي نظارة جدته ورداء أسود لجده الراحل، ويحمل مسطرة طويلة خلف ظهره. بدأ الجميع في الضحك، فهز مسطرته في وجوهنا وأمرنا بالصمت. تعالت ضحكاتنا أكثر كلما ازدادت حدته. بدأ الدرس بإخبارنا بموضوع اليوم: ممارسة العادة. وقال إنه حاصل على درجة الدكتوراه في ذلك الموضوع من إحدى جامعات باريس، وأنه نشر عديدًا من المقالات والكتب حوله. ازداد الضحك صخبًا كلما نطق كلمة «العادة».

نقلَ نظراته في صمت من يسار الغرفة إلى يمينها من تحت نظارته الدائرية، وذراعه معقودتان، ثم طالب بمعرفة مَنْ فعل ذلك الليلة الماضية. لم يرفع أحد يده، فتقدم نحوي وضربني بالمسطرة لكوني كاذبًا، وطلب رؤية كف يدي اليمنى. استجبت لطلبه، فأمسك يدي وأراها لكل مَنْ في الغرفة.

- انظروا إلى مدى نعومة كف يده. أتعرفون لماذا؟ زيت الزيتون، هذا هو السبب وراء نعومة بشرته.

سألني وهو ينظر إليّ من فوق نظارته:

- أليس هذا صحيحًا؟

ضحكت ورددت بالإيجاب، فضربني بالمسطرة مرة أخرى. تجول بنظره في

أرجاء الغرفة بينما ينتظر الجميع لمعرفة مَنْ سيكون ضحيته التالية، حتى وقع نظره على إيراج.

صرخ قائلاً:

- أرني يدك!

أراه إيراج ظهر يده وهو ينحني من الضحك، فضربه أحمد على رأسه بالمسطرة.

- كف يدك أيها الأحمق.

أراه إيراج كف يده.

تحسس أحمد يد إيراج.

- صابون؟ إنها أكثر جفافاً من أن يكون صابوناً. هذا الأحمق يستخدم مسحوق الغسيل.

ضرب إيراج مرة أخرى، وقال:

- هل يمكنكم تخيّل مدى جفاف جلد عضوه؟ اخلع سروالك، نريد أن نرى.

أمسك إيراج حزامه وهز رأسه بالنفي.

سأل أحمد الفصل:

- هل تريدون أن تروا؟

صرخ الجميع:

- نعم! نعم! نعم!

صمت أحمد للحظة، ثم أضاف:

- تتساءلون، ما مشكلة العضو الجاف؟ ماذا يحدث لأوراق الشجر عندما تجف؟

انحنى وهدق إلى عيني إيراج.

أجاب إيراج:

- إنها تسقط يا سيدي.

بدأ أحمد يضرب إيراج مرارًا وتكرارًا بالمسطرة، وهو ينطق بتحذيره كلمة وراء كلمة.

- هذا... ما... سيحدث... لعضوك... الصغير... إذا... استمرت... في ممارسة الأمر... باستخدام... مسحوق... الغسيل... هل تفهم؟
هز إيراغ رأسه بالإيجاب وهو يضحك بشدة إلى درجة أنه لم يستطيع النطق بكلمة.

صرخ أحمد:

- لا أستطيع سماعك!

أخيراً، قال إيراغ لاهثاً:

- نعم يا سيدي.

كان أحمد مؤدياً بارعاً، وظل صامتاً وهو يتعد لإعطاء الجميع الوقت الكافي للضحك. وعندما استقر الجميع، سأله إيراغ:

- هل سيكون من الأفضل استخدام سائل غسيل الأطباق يا سيدي؟

اندفع أحمد نحوه والمسطرة تلتمع. ضحكت بشدة، إلى درجة أنني لم أستطع الرؤية من خلال دموعي. ضرب أحمد إيراغ مراراً وتكراراً، وأخيراً ابتعد عنه ووقف في مقدمة الغرفة.

شاركنا أسلوبه «المتطور» في ممارسة العادة: أخرج موزة من جيبه وقشرها، وقطع قشرتها بعناية إلى قطع صغيرة، ثم أخذ قطعة ووضعها بين إبهامه وسبابته وتظاهر بفعل الأمر. أخبر الجميع بأن الموز طعام مغذٍّ وممتاز لمكافحة العمى الناتج عن تلك الممارسة. ضحكت كثيراً حتى ظننت أنني قد أتقيأ.

عندما غادر الجميع واختليت أنا وأحمد بمفردنا، أخبرته بأنه كان عبقرياً، وأن الأولاد في الزقاق يقدرّون حقاً محاولته لرفع معنوياتهم. ضحكنا من فكرة أن الأمهات في كل مكان في الزقاق سيجدن أنه من الغريب أن يشعر أبنائهن بمثل هذه الرغبة الشديدة في تناول الموز في ذلك المساء.
قلت له:

- عندما يخرج الدكتور، سأخبره بما فعلته أنت، وكم ساعد ذلك على رفع معنويات الجميع.

أجاب مبتسمًا:

- فلتفعل ذلك.

أمعنت في النظر إليه بعض الوقت، وأردت سؤاله عن سبب اعتقاده أن درسه كان عن الأناركية، لكنني ظننت أنني أعرف، لذا التزمت الصمت.

مدرستي وأساتذتي



telegram @
yasmeenbook

اليوم الأول من الخريف هو أول يوم دراسي في إيران، ودائمًا ما يبدو ذلك اليوم الأول مختلفًا عن باقي أيام السنة. تزدهم الشوارع بالفتيان والفتيات من جميع الأعمار، ويبدو الجميع عازمين ومنشغلين بفكرة قضاء اليوم بأكمله في الفصل. يبدو الأطفال أكثر انضباطًا وهمة، بل وأكثر نظافة من المعتاد، كأن أمهاتهم قد أولينهم أقصى درجات العناية في إعدادهم لهذا اليوم.

مشيت أنا وإيراج وأحمد إلى المدرسة معًا. تمخّط إيراج بصوت عالٍ في منديل أبيض، وأخبرنا بأن والده يعتقد أن الأمريكيين يجب أن يتحملوا مسؤولية مصير جميع الثوار الذين اعتقلتهم الحكومة الإيرانية وعذبتهم وقتلتهم. ثم توقف ونظر داخل منديله رافعًا حاجبيه كأنه معجب بما خرج من أنفه، قبل أن يطوي المنديل ويضعه في جيبه.

هز أحمد رأسه وقال:

- أنت مقرف. هل تعرف ذلك؟ ما كانت أختي تنتظر إليك حتى لو كنت ابن الشاه!

تجاهله إيراج كعادته، وواصل:

- كان والدي عقيدًا في الجيش، ولديه معرفة مباشرة بأنشطة التجسس الأمريكية

في إيران. أخبرني ذات مرة عن حاملة طائرات عملاقة مزودة بأجهزة رادار متطورة أوقفها الأمريكيون في الخليج الفارسي لتتبع الجماعات السياسية الإيرانية المناهضة لأمريكا. وقال إن الأمريكيين لديهم أجهزة ذات تقنية عالية، يمكنهم عن طريقها الرؤية من خلال الجدران، ولهذا السبب يحرص دائمًا على تغطية أعضائه التناسلية عندما يستحم.

حاولت أنا وأحمد كتمان الضحك، لكن الأمر كان عسيرًا.

همس إيراج:

- إنهم يرون كل شيء، ويسمعون كل شيء. وهم يراقبوننا جميعًا، طوال الوقت.

ردّ أحمد هامسًا في المقابل:

- صه، لا تتحدث بصوت عالٍ، قد يسمعوننا.

احتج إيراج:

- أنا لا أمزح. لو كنت أعيش في الولايات المتحدة لصرت مخترعًا الآن، لأن الأمريكيين يحبون الأجهزة الجديدة، ويدعمون الأشخاص أمثالي الذين لديهم أفكار عبقرية لتسهيل حياة الناس.

قاطعه أحمد:

- دعونا ننظم فعالية لجمع التبرعات، لجمع المال اللازم لنشتري له تذكرة ذهاب فقط إلى الولايات المتحدة.

تجاهل إيراج أحمد مرة أخرى.

- لقد اخترع الأمريكيون تقنيات متطورة تمكنهم من التجسس على أي شخص في أي وقت وفي أي مكان.

وبخني أحمد قائلاً:

- هل رأيت ما الذي تسبب فيه مخترعك اللعين ذاك، توماس إديسون؟

همس إيراج كأنه يشاركنا سرًا كبيرًا من أسرار الأمن القومي:

- كان الأمريكيون يعرفون الدكتور جيداً، وكانوا يخشون أن يصبح مطلعاً

على شؤون العالم، فاتصلوا بشخص ما داخل إيران باللاسلكي للقبض عليه.

نظر إليَّ أحمد وقال:

- أرايت؟ كان الرجل الذي يحمل جهاز اللاسلكي يتحدث إلى طاقم السفينة الأمريكية في الخليج الفارسي!

رمقت أحمد بنظرة صارمة لمزاحه على حساب الدكتور، فقال:

- أوه، بالله عليك، سيخرج قريبًا. تذكر قلبي هذا، سيخرج خلال وقت قصير. قال إيراج إن الأمريكيين تجسسوا على رجل آخر في الخمسينيات، شخص أكبر وأهم بكثير من دكتورنا.

كان إيراج يتحدث عن مصدق، رئيس الوزراء الوحيد المنتخب ديمقراطيًا في تاريخ إيران. في عام ١٩٥٣، أطاحت به وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية مقابل مبلغ تافه قدره ٦٠ ألف دولار. وُضع تحت الإقامة الجبرية بعد عودة الشاه حتى وفاته في مارس من عام ١٩٦٧ عن عمر يناهز الرابعة والثمانين. قال الدكتور إن الإطاحة بمصدق كانت أكبر خطأ فادح في السياسة الخارجية الأمريكية في التاريخ. وأعلن بغضب:

- لن يثق أحد في الشرق الأوسط مرة أخرى بالأمريكيين ووصايتهم الزائفة على الديمقراطية.

تابع إيراج:

- حظي هذا الرجل بشعبية كبيرة، وكان قتله سيتسبب في ثورة بإيران. لا يريد الأمريكيون أن نكون أقوياء لأن ميزان القوى في المنطقة سيختل. لا يريدوننا أن نتقدم تكنولوجياً، حتى يتمكنوا من بيع تكنولوجيتهم لنا. قال أحمد:

- أنا مهتم فقط بالكاميرات التي تسمح لك بالرؤية من خلال الجدران. أريد أن أرى كيف يمارس جيراننا الحب مع زوجاتهم.

تلقت إيراج حوله ليتأكد من عدم وجود أحد بالقرب منه، وهمس قائلاً:

- يعتقد والدي أن الشاه دمية في يد الولايات المتحدة، ويمكنهم طرده في أي وقت يريدون.
- كان هناك بائع جائل يبيع البنجر المسلوق، فتوقفت أنا وأحمد لشراء بعضه. قال إيراج:
- هذه الأشياء ستقتلكما يارفيقيّ. انظرا إلى الرجل الذي يبيعها. متى تعتقدان أنه غسل يديه آخر مرة؟
- ضحكت قائلاً:
- نعم، فالصحف ممتلئة بالتقارير التي تتحدث عن موت الأشخاص بعد تناولهم البنجر المسلوق الذي يشترونه من الباعة الجائلين. قال أحمد:
- وهو على دراية بالأمر، لأنه قرأ كل شيء، بما في ذلك رواية سووشون. ضربت أحمد على صدره بظهر يدي، وواصلت تناول وجبتي اللذيذة.
- تمخّط إيراج مرّة أخرى، لكنه لم ينظر إلى منديله هذه المرّة. قال وهو يعيد منديله إلى جيبه:
- عمي جنرال في الجيش. وكان من الممكن أن يكون والدي جنرالاً أيضاً، لكنه تعمد التقاعد في وقت مبكر لأنه أدرك أنه إذا تغيرت الأمور في إيران، فإن النظام الجديد سيلاحق الجنرالات قبل أي شخص آخر.
- أومأت برأسي متفقاً معه.
- لقد اشترى عمي بالفعل منزلاً في مكان ما في نيويورك، وهي أكبر مدينة أمريكية على المحيط الأطلسي.
- تابع، وعلى وجهه نظرة احتقار:
- لديه حساب توفير ضخّم في سويسرا. ويعلم الجميع أن عمي سيكون أول من يغادر البلاد إذا حدثت ثورة. أما والدي فهو إيراني أصيل، ولن يغادر البلاد التي دافع عنها طوال مسيرته المهنية في الجيش. وأنا أيضاً، لن أغادر أبداً!

همس أحمد:

- يا للعار! من المحتمل أن السفينة الأمريكية الراسية في الخليج الفارسي تنقل الأخبار إلى الصحف الأمريكية الآن. أستطيع تخيل العناوين الرئيسية: توماس إديسون القادم يقرر البقاء في إيران!

بدأت مدرستنا المخصصة للبنين كأنها قلعة حصينة. أحاطت جدران خرسانية عالية بالمبنى المكون من ثلاثة طوابق من الطوب. أما البوابة الضخمة، فكان يقف عليها فرّاش، وهو حارس يحرس على عدم دخول غير الطلاب إلى مبنى المدرسة. ازدحمت ساحة المدرسة بالأولاد، وكان يمكن اكتشاف الوافدين الجدد على الفور، من خلال الطريقة المتوترة التي يراقبون بها الأولاد من حولهم. ودائمًا ما يقع شجار أو اثنان بالأيدي في اليوم الأول من المدرسة. لكن عادة ما تُفرض الشجارات قبل ظهور معلم الانضباط، الأستاذ مرادي، حاملاً المسطرة الطويلة السمكية التي يستخدمها لضرب أولئك الذين يمارسون أعمال عنف.

كان يصرخ وهو يضرب المشاغبين بمسطرته قائلاً:

- أيها الأغبياء، ألا تعلمون أن العنف قد يوقعكم في كثير من المتاعب؟ الأستاذ مرادي هو أيضًا معلم التربية الرياضية لدينا، على الرغم من حقيقة أنه ليست لدينا صالة رياضية في مدرستنا. كان يطلب منا الاصطفاف في الساحة مرة واحدة في الأسبوع، ويجعلنا نؤدي تمارين الإحماء المفضلة لديه بملابسنا العادية. كان يصرخ بأعلى صوته:

- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة! اقفروا الآن، أعلى، أعلى، أيها الحمقى الكسالى! وعندما نتصبب جميعنا عرقًا ونلهث، يقسمنا إلى مجموعات من أربعة ويجعلنا نركض من جانب إلى آخر من الفناء ثم نعود. ثم يتنافس آخر العائدين من كل مجموعة ضد بعضهم، حتى يتم تحديد «أكسل مؤخرة في الفصل». كثيرًا ما تساءلت عما إذا كان الأستاذ مرادي يعرف الفرق بين الكسل والبطء. لكن لأن

اليوم كان أول يوم دراسي، قرر الأستاذ مرادي أن يعطينا محاضرة عن الانضباط بدلاً من إجبارنا على الركض ذهاباً وإياباً في ساحة المدرسة.
صاح وعيناه تلتمعان:

- سيصبح العالم مكاناً أفضل بكثير لو صار الجميع منضبطين. لماذا أمريكا دولة قوية إلى هذا الحد؟ لأن الأمريكيين أمة منضبطة. فالناس في الولايات المتحدة يحترمون القواعد.

قال إنه ذهب ذات مرة إلى أمريكا للمشاركة في مسابقة دولية للمصارعة، واندesh من التزام الناس بقواعد المرور.

- يتوقف الجميع عند علامات التوقف، حتى عندما لا تكون هناك سيارة قادمة من الاتجاه المعاكس. هذا هو الانضباط. فالانضباط يعني احترام القواعد بصرف النظر عن الظروف. لكننا لا نتوقف حتى عند الإشارات الحمراء في هذا البلد. نشعر بأن القواعد وُضعت لكي تُكسر، ونشعر بأننا محقون في كسرها لأننا أمة غير منضبطة من كاسري القواعد.
هز رأسه في خيبة أمل، وتابع:

- البريطانيون أمة منضبطة أيضاً. هل رأيتم صور الحراس في قصر باكنجهام؟ هؤلاء الحراس لا يرمش لهم جفن، حتى عندما لا يكون هناك أحد في الجوار.

أشار إلى أحمد وأضاف:

- هل يمكنكم تخيل أحمد حارساً في قصر باكنجهام؟ ضحك الجميع، ودعوت الله ألا يرد أحمد، ولم يفعل، على الأقل ليس بعد.
بدلاً من ذلك، ضحك هو أيضاً وهز كتفيه.
واصل الأستاذ مرادي محاضرتة قائلاً:

- لقد رُكبت الحكومة الأمريكية حاويات قمامة كل بضعة أمتار في كل شارع، ويستخدمها الجميع للتخلص من نفاياتهم. لذا فشوارع أمريكا نظيفة جداً، إلى درجة أنه يمكنكم أن تأكلوا منها. هذا هو الانضباط.

قال إن الناس يصطفون في طوابير وينتظرون دورهم في المتاجر الأمريكية. ثم هز رأسه وقال إننا في بلدنا يتسلق بعضنا على بعض للوصول إلى مقدمة الصف. رفع مسطرتة في الهواء قائلاً:

- نغش ونتدافع ونتجاهل الآخرين من أجل الوصول إلى مقدمة الصف بأي ثمن. من المثير للاشمئزاز كم نحن غير منضبطين. لهذا السبب اخترت أن أكون معلمًا للانضباط.

زفر ونظر في أرجاء الغرفة، ثم لمح إيراج.
- كان والدك رجلًا عسكريًا. أخبرني، ما أهم سمة من سمات أفضل جيش في العالم؟

- الانضباط يا سيدي.

أوما الأستاذ مرادي برأسه موافقًا. رفع أحمد يده، فخفق قلبي، وبدأت أشمر كُمي بتوتر. عندما نظرت إلى وجه أحمد وابتسامته المتحدقة المميزة، أدركت أنه على وشك طرح سؤال سيغضب الأستاذ مرادي. وأعتقد أن الأستاذ مرادي شك في الأمر نفسه، لأنه تجاهل أحمد فترة كافية كي أنزل كُمي مرة أخرى. أخيرًا، أجاب الأستاذ مرادي على أحمد.

- نعم؟

كادت وقفة أحمد المتأنية تضحكني، بينما ارتفع مستوى قلقي في الوقت نفسه. سأل:

- هل صحيح يا سيدي أن الجيش الأكثر انضباطًا في العالم لديه سفينة مجهزة بأحدث تقنيات التجسس ترسو في الخليج الفارسي؟
بدت الحيرة على وجه الأستاذ مرادي.

تابع أحمد وهو يلوح بإصبعه، كأنه يستجوب الأستاذ مرادي:

- وهل صحيح أيضًا يا سيدي أن البحارة على متن تلك السفينة يستمعون إلى كل محادثة في إيران؟

حدق الأستاذ مرادي إلى وجه أحمد بذهول.

- وماذا عن التكنولوجيا التي تمكنهم من الرؤية من خلال الجدران؟ لأنه إذا كان كل هذا صحيحًا يا سيدي، فلن أستحم مرة أخرى.
حاول الأستاذ مرادي كبت ابتسامته، وسأل:
- أين سمعت ذلك؟

رأيت إيراج يحاول الاختباء خلف الطالب الجالس أمامه.
قال:

- سمعت ذلك من إيراج يا سيدي، لكنني لست متأكدًا أنني أستطيع الوثوق به لأنه فتى غير منضبط على الإطلاق، ولا يحترم القواعد، بما في ذلك تلك التي تمنع الأصدقاء من التحديق إلى أخوات أصدقائهم.
انفجر الفصل بالضحك، حتى إن ابتسامة ارتسمت على وجه الأستاذ مرادي.
كان الأستاذ مرادي رجلًا غريبًا، لكننا نحبه أكثر من الأستاذ بانا، معلم الهندسة الذي يبلغ من العمر أربعين عامًا تقريبًا، والذي عمل بالتدريس منذ اليوم الذي خرج فيه من رحم أمه. كان يقول:
- الهندسة هي أم العلوم كلها.

سأله أحمد ذات مرة عن أبيها، وانتهى به المطاف في مكتب الأستاذ مرادي، حيث تلقى محاضرة عن فضيلة الانضباط في الفصل الدراسي.

عندما يدخل الأستاذ بانا إلى الفصل، نقف كما نفعل مع جميع المعلمين، ويقف الأستاذ بانا على رأس الفصل محدقًا إلى الجميع. يقول إنه يستطيع التعرف على أولئك الذين لم ينجزوا واجباتهم المدرسية من خلال نظرة الخوف البادية في أعينهم. ودائمًا ما ينادي شخصًا ما من مؤخرة الفصل لأن هذا هو المكان الذي يجلس فيه - في رأيه - الطلاب الكسالي. ونتيجة لذلك، دائمًا ما يدور صراع حول من يجلس في الصفوف الأمامية في حصص الأستاذ بانا. ويحب الأستاذ بانا على وجه الخصوص توجيه الأسئلة التي يعلم أن لا أحد يستطيع حلها.

- طرح إقليدس خمس مسلمات، وتنص المسلمة الخامسة على ما يلي: «من

أي نقطة خارج مستقيم ما، يمر مستقيم وحيد يوازي المستقيم المذكور»،
ما رأيك في ذلك؟
دائمًا ما يتبع أسئلته صمت ثقيل.
وكان يقول ساخرًا:

- لو كان الغباء هو مقياس العظمة، لكنتم جميعًا أعظم الناس في العالم.
في نهاية كل حصّة، كان الأستاذ بانّا يستفسر ما إذا كان لدى أي شخص أي
أسئلة. وإذا طرحت أي سؤال، فسيهز مسطّرتّه في وجهك، ويخبرك بأنك غبي
لطرحت سؤالًا غبيًا.
كان يصرخ:

- الإجابة في الصفحة الثامنة والثمانين. ابحث عنها أيها الأحمق!
وإذا لم نطرح الأسئلة، يقول الأستاذ بانّا شيئًا من قبيل:
- إذن، أنتم جميعًا تعرفون كل ما يجب معرفته، ها؟ حسنًا، سنرى بشأن
ذلك.

ثم يشير إلى شخص تعسّ الحظ ويطرح سؤالًا صعبًا، يعقّبه عادة ضرب مبرح.
أعرف ما تكون عليه الحال عند مخالفة الأستاذ بانّا. فخلال اختبار الفصل
الدراسي الأول في العام الماضي، حللت إحدى المسائل باستخدام طريقتين
مختلفتين. ولم يمنحني الأستاذ بانّا درجات على أيّ من الطريقتين، على الرغم
من أن كلا الحلين كان صحيحًا. اتهمني بالغش، وفي النهاية أعطاني صفرًا في
الاختبار بأكمله. ذهبت إلى الأستاذ يزدي، مدير المدرسة، وطلبت مساعدته.
سألني الأستاذ يزدي:

- ماذا تريد مني أن أفعل؟
- أريد أن أعرف لماذا أعاقب على حل مسألة باستخدام طريقتين صحيحتين
بالقدر نفسه.
- الأستاذ بانّا هو معلمك. إذا قال إنك غششت، فلا بد أنك غششت. لا يوجد
شيء يمكنني فعله حيال ذلك.

سألته:

- لكن أين الدليل؟

- الأستاذ بانا معلم، لا يحتاج إلى دليل. شكوكه وحدها تكفيني.

انتهى بي الأمر بالحصول على صفر في اختباري الأول. أخبرت والدي بالقصة كلها، فقال لي إنني يجب أن أثبت خطأ الأستاذ بانا والأستاذ يزدي من خلال النجاح بتفوق في اختباري التاليين. بعدها، سيذهب إلى المدرسة لإقناعهما بتغيير درجاتي في الفصل الدراسي الأول. شعرت بالانتهاك والظلم، وشكوت لأحمد قائلاً:

- كل شيء في هذا البلد اللعين كريه. أنا سعيد جداً لأنني سأتوجه إلى الولايات المتحدة قريباً، حيث يفهم أكثر الناس انضباطاً في العالم المنطق، ولا يتهمون الأبرياء بجريمة لم يرتكبوها.

نظرت إلى الأستاذ بانا، وشكرت الله لأنه لم يجعل أيًا من أقاربي معلمين. وعلى النقيض من الأستاذ مرادي، كان معلم الدين، الأستاذ جورجي - الذي تعلمنا الإملاء أيضًا - يكنّ ازدراءً شديداً للغرب، خصوصاً الولايات المتحدة. كان الأستاذ جورجي رجلاً سميناً ضخماً، أزعجني كثيراً سلوكه الفظ الوقح. وبدا وجهه متسخاً بفضل لحيته التي لا يحلقها أبداً، لكن لا يزيد طولها على بضعة سنتيمترات. ودائماً ما يرتدي بدلة بنية فاتحة تتناسب مع حذائه المهترئ غير المصقول. وكان قميصه الأبيض، الذي يغلق أزراره دائماً حتى آخرها، مصفراً حول الياقة. لم يكن يتسم قَطُّ، لكن عندما يتحدث، يمكن دائماً رؤية أسنانه الصفراء. قال أحمد إنه في كل مرة ينظر إليه الأستاذ جورجي، يشعر بالذنب كما لو أنه ضُبط وهو يقشر موزة، ثم غمز لي ليتأكد أنني فهمت النكتة. كما ذكر أحمد أيضاً أنه سمع شائعات مفادها أن الأستاذ جورجي ثري بسبب إقراضه المال للفقراء، وتقاضيه مبالغ كبيرة منهم في صورة فوائد. قال:

- إنه محتال، وممارسة الشريعة على طريقته ستودي بالمرء إلى الجحيم بلا

عودة.

أحيانًا ما يخضعنا الأستاذ جورجي لاختبارات من دون إنذار سابق، ويقول: - أي يوم يمكن أن يكون يوم اختبار. أفعّل هذا لمصلحتكم، لأنكم بوصفكم طلابًا يجب أن تكونوا مستعدين دائمًا للاختبار.

ومع ذلك، تساءلت عما إذا كان الأستاذ جورجي كسولًا جدًّا فحسب، بدرجة أكبر من أن يخطط للأمر. ففي النهاية، كما يقول والدي دائمًا، نحن أمة عفوية، وكل ما نفعله وليد اللحظة، من دون تخطيط سابق.

يختار الأستاذ جورجي أصعب الكلمات في الكتاب، ويقرأ كل كلمة بصوت عالٍ ثلاث مرات: «قسطنطينية، قسطنطينية، قسطنطينية». أعتقد أنه يظن أننا لا نسمع الكلمة في أول مرتين. «مغالطة، مغالطة، مغالطة». من السهل أن نخطئ في كتابة هذه الكلمات لأنه يمكن الخلط بين حروف مثل الطاء والتاء، والتاء المربوطة والهاء. عادة ما نكون قد تناولنا معظم الكلمات الواردة في الاختبارات خلال الدروس السابقة. ومع ذلك، للتمييز بين الطلاب المتفوقين والمتوسطين، يمكن أن ترد في الاختبار كلمات لم يسبق تناولها. كما أن كتابة الكلمة على نحو صحيح لم تكن تضمن لك بالضرورة الحصول على درجات، إذ كان الأستاذ جورجي يُقيّم الخط أيضًا. لذا يمكن أن تتهجى كل شيء بشكل مثالي، لكن إذا لم تعجبه طريقة كتابتك، فقد تخسر درجتين أو أكثر. ولن يكافئك الأستاذ جورجي بعشرين، وهي درجة الكمال، حتى لو لم تخطئ في تهجئة كلمة واحدة وكان خطك أفضل خط في العالم. اعتاد تقبيل مسبحته وهو يقول:

- تسع عشرة هي أعلى درجة يمكنك الحصول عليها. عشرون هي درجة الكمال، والكمال لله وحده.

إذا أخطأنا في كلمة ما، كان يجعلنا نكتبها أربعمئة مرة في دفاترنا. وأحيانًا ينادي أسماءنا بشكل فردي ويطلب منا التوجه إلى السبورة لإجراء اختبار على مرأى من الجميع. كان يقرأ كل كلمة ثلاث مرات، ثم ينتقل إلى الكلمة التالية بصرف النظر عما إذا كنا قد انتهينا من التهجئة أم لا. كان كل اختبار يساوي عشرين درجة، والنجاح من عشر درجات. وحتى النتيجة التي تتراوح من عشر

إلى أربع عشرة درجة قد تتسبب لصاحبها في بضع صفعات على الوجه، وتوبيخ لفظي شديد.

- أيها الأحقق الغبي، أيها البقرة الكسول، أيها الكلب متقلب المزاج، لن تحقق شيئاً أبداً! إذا طلبت منك أن تتهجى أصعب اسم أنثى ستفعل ذلك وأنت مغمض العينين، لكنك لا تستطيع تهجئة الكلمات التي تجعلك شخصاً أفضل. هذا لأن كل ما تفكر فيه هو الفتيات، الفتيات، الفتيات. لا تطبق الانتظار حتى تنتهي الساعة، كي تهرع إلى أقرب مدرسة بنات وتظاهر بأنك شخص رائع. اذهب واجلس على مؤخرتك السمينة، واكتب كل كلمة أربعمئة مرة. وهأنذا أحذرك، من الأفضل أن تتبته لخط يدك.

يحب الأستاذ جورجي أن يهيننا بنعتنا بأسماء الحيوانات. قال معلم مادة الإنشاء في العام الماضي، وهو طالب جامعي شاب عيّنته الحكومة في مدرستنا، إنه من غير اللائق أن نطلق على شخص ما اسم «بقرة» لإهانته. وقال إن الملايين من الناس في الهند يعبدون الأبقار، وعلينا أن نحترم المعتقدات الدينية للجميع، بصرف النظر عن مدى غباثهم! كان يعطينا كل أسبوع موضوعاً جديداً لنكتب عنه، ثم يجمع كل الأوراق ويقرأها بعناية. لم يحصل أي شخص على أكثر من أربع عشرة درجة في مادته لأنه كان يفتخر بكونه من المتشددين في تقدير الدرجات. ذات مرة، كلفنا بكتابة موضوع عن «فوائد التكنولوجيا». طلب من أحمد أن يقرأ موضوعه أمام الفصل، فقال أحمد إنه خلافاً لما ادعاه الأستاذ بانا، كان يعتقد أن التكنولوجيا وليست الهندسة هي أم العلوم، وأنه يريد أن يضع فمه على الثديين الكبيرين لأمنا التكنولوجيا، ويشرب حتى يفرغهما تماماً من حليب المعرفة.

صرخ معلم الإنشاء:

- توقف، توقف!

ثم نعت أحمد بكل أسماء الحيوانات ما عدا البقرة، قبل أن يطرده من الفصل.

في سجون السافاك

لم يسمع أحد أي شيء عن الدكتور منذ ليلة القبض عليه، قبل أكثر من أسبوعين بقليل. بدا الأمر كأنه اختفى من على وجه الأرض. وقد تسبب مرض والدته الخطير في منعها من معاودة الذهاب إلى أبواب سجن إيفين، كما لم تخرج زاري إلى الفناء منذ اعتقال الدكتور. عند ذهاب فهيمة لزيارتها، كانتا تقضيان معظم وقتهما في غرفة زاري.

واصل أحمد التأكيد على أن الدكتور سيُطلق سراحه قريبًا، وأن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه. بعد إحدى هذه المحادثات، التفت إليّ وسألني عن حالي. أردت أن أقول له إنني محبط بسبب عدم رؤيتي لزاري، وإنني أفقدها بشدة، وإنه على الرغم من شعوري بالذنب لوقوعي في حبها، فإنني لا أستطيع التوقف عن التفكير فيها. بدلًا من ذلك، قلت إنني أحتاج إلى وسيلة لصرف انتباهي عن مآزقنا الحالي، وإن معلمينا يشعرونني بالغثيان، وإن فكرة الذهاب إلى أمريكا تشعرني بالغثيان، وإنني أحس أحيانًا أن العالم كله يشعرني بالغثيان. تمنيت لو كان بإمكانني إطلاق النار على الرجل الذي يحمل جهاز اللاسلكي، بعد أن تسنح لي الفرصة لأحطم أنفه، وأريق دمه على رصيفنا. وضع أحمد يده على كتفي وهز رأسه متفهمًا. ثم قال إن علينا

الذهاب لمشاهدة فيلم إيراني، وهو أفضل علاج للاكتئاب لأن جميع هذه الأفلام لها نهايات سعيدة.

قررنا اصطحاب إيراج معنا، لأننا لم نرغب في تركه من دون رقابة في الزقاق، حيث يمكن أن يقضي يومًا كاملاً في مراقبة أخت أحمد.

لا تعرض معظم دور العرض في حينًا سوى الأفلام الإيرانية، التي لا تشبه نظيراتها الأمريكية على الإطلاق. أخبرني الدكتور ذات مرة بأن الأفلام الإيرانية تُصنع لإضفاء الشرعية على الفوارق الطبقيّة في بلادنا. وقال أيضًا إن جميع الأفلام الإيرانية تتبع الحبكة العامة نفسها التي يكون فيها الصراع دائمًا بين الفقراء والأغنياء، حيث يربح الأغنياء المعارك، لكنهم يخسرون الحرب. ودائمًا ما يُصوّر الأغنياء على أنهم أقوياء، لكنهم ليسوا أشرارًا، وبالتأكيد ليسوا من النوع الذي يجب أن تقوم ضدهم ثورة عنيفة. في الواقع، تبذل الأفلام الإيرانية جهدًا كبيرًا في إنشاء رابط عاطفي بين البطل والشرير الثري: الابن الضائع، أو القريب المشرّد، أو ضحية الظروف الغريبة. ووفقًا للدكتور، فإن هذه الأفلام تشي الجماهير عن التصدي للأغنياء، وتشجع الفقراء على التمسك بمبادئهم السامية.

قال لي الدكتور ذات مرة بنبرة فلسفية:

- لهذا السبب ستكون الثورة في هذا البلد ضد الشاه، وليس ضد الأغنياء. يعتقد الدكتور أننا قد نشور لأسباب ثقافية أو دينية أو سياسية، لكن ليس للقضاء على الأغنياء.

يا إلهي، كم أفتقد الدكتور.

أفضل ممثل معروف في هذا النوع من الأفلام هو رجل يُدعى «فاردين». ولا يعتقد معظم النقاد أنه ممثل فائق البراعة، لكنني أحبه كثيرًا، على الرغم من أنني لن أعترف بذلك أبدًا.

قبل الوصول إلى السينما، قال إيراج إنه يريد الجلوس بيني وبين أحمد. وأوضح أنه جاء قبل أسبوعين لمشاهدة فيلم بمفرده وانتهى به الأمر بالجلوس بجوار متحرش بالأطفال. بعد دقائق قليلة من بدء الفيلم، لاحظ أن الرجل ينظر

إليه، ولم يفكر كثيرًا في الأمر حتى شعر بيد الرجل على ركبته، فنهض وهرب. أحس بالصدمة الشديدة إلى درجة أنه ركض طوال الطريق إلى المنزل من دون أن ينظر إلى الوراء ليرى ما إذا كان الرجل يتبعه.

قال أحمد إن أخته تركض إلى المنزل بالطريقة نفسها في كل مرة ترى فيها إيراج في الزقاق، فانحنيت ضاحكًا.

اكتظت قاعة السينما بأشخاص من جميع الأعمار يتناولون بذور عباد الشمس، وهي وجبة خفيفة معتادة في دور العرض الإيرانية. في أحد المشاهد في منتصف الفيلم، هاجمت مجموعة من الأشرار فاردين وبدأوا في ضربه. فجأة، سمعنا امرأة عجوزًا من الجمهور تصرخ قائلة:

- توقفوا عن ضربه أيها الأوغاد! ماذا فعل لكم؟ اتركوه وشأنه! لو كان زوجي هنا لركل أسنانكم القذرة من أفواهكم التتنة.

نظر إليَّ أحمد والذعر بادٍ على وجهه، وقال:

- إنها جدتي!

صرخت جدته بينما سقط فاردين على الأرض وبدأ أعداؤه بركل جسده

ووجهه:

- إنهم يقتلونه! النجدة، النجدة!

بدأ الناس يصرخون بألفاظ نابية في وجهها.

- أغلقي فمك الثرثار يا سيدتي!

- ارموا هذه الحمقاء خارجًا!

في غضون ثوانٍ، ركض الحاجب وهو يحمل مصباحًا يدويًا إلى داخل القاعة

بحثًا عن السيدة العجوز المشاغبة. أشار إيراج إلى الصف الأول وقال:

- ها هي ذي هناك.

رأينا جدة أحمد تلوح بيديها وتهز قبضتها وتصرخ قائلة:

- ليتصل أحدكم بزوجي، إنه صديق مقرب لفاردين. النجدة! فليحضر

أحدكم زوجي!

ركضت أنا وأحمد وإيراج إلى مقدمة القاعة، فرأينا الجدة وصرخت قائلة:
- الحمد لله أنكم هنا. ساعدوه! ساعدوه!

حاولنا إقناعها بالنهوض عن مقعدها، لكنها رفضت المغادرة. صرخ الحاجب بأنه من الأفضل أن نُخرج الجدة وإلا سيضطر إلى فعل ذلك بنفسه، وأطلق الناس الصغير والضحكات. أمسك إيراج بذراع الجدة اليسرى وأمسك أحمد بذراعها اليمنى، وبدأ يسحبانها، لكن الجدة شرعت تركل وترمي جسدها إلى الخلف في الوقت نفسه. حاولت أنا والحاجب الإمساك بساقيهما، لكن الجدة ركلت بقوة وضربت المصباح من يد الحاجب وهي تصرخ منادية زوجها.

أوقفوا الفيلم وأشعلوا الأضواء في القاعة، وعلا صوت الصغير والاستهجان وكذلك صراخ الجدة. أفلتت الجدة من قبضة إيراج، وخلعت حذاءها والتقطتها، وبدأت في ضرب أي شيء في متناول يدها. شجعها البعض على الضرب بقوة أكبر، واستشاط الحاجب غضبًا، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب منها. أخيرًا، انقضضت عليها أنا وأحمد وطرحناها أرضًا. وبمساعدة إيراج وثلاثة أشخاص آخرين، حملنا الجدة إلى خارج القاعة، حيث هذأها الهواء النقي على الفور. ظل أحمد صامتًا في الطريق إلى المنزل، وتقدم هو والجدة بخطوتين أمامي أنا وإيراج. قالت الجدة لأحمد:

- هؤلاء الشباب محظوظون لأن جدك لم يكن موجودًا، وإلا لكانوا قد تلقوا أشد ضرب في حياتهم. كان جدك مصارعًا، وكان الجميع في طهران يخشونه حد الموت.

كان جد أحمد رجلًا مسالمًا ضئيل الحجم، لم يسبق له أن اشتبك في عراك بالأيدي طوال حياته.

كنت على السطح في تلك الليلة عندما صعد أحمد، وقال:
- تقول إن جدي أخذها إلى السينما. أتساءل كيف دخلت، فهي لا تملك أي مال.

لم أكن متأكدًا مما يجب أن أقوله، فأجبت:

- إخلاصها لجذك مؤثر حقًا، لا بد أنه كان النجم الأكبر في حياتها.
لم يرد أحمد.

تعجبت قائلاً:

- هل تصدق كيف قاتلتنا؟ كم عمرها، خمسة وستون عامًا؟

فكر أحمد لبعض الوقت، ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

- مهلاً، هل تعتقد أن جدتي قادرة على هزيمة فاردين في قتال حقيقي؟

طلبت مني أمي أن أتهياً، لأن لدينا ضيفين مميزين سيأتيان لزيارتنا، وذكرت اسمًا
لا أعرفه. قالت أمي:

- كان صديق والدك المقرب.

بينما كنت أستحم، تذكرت قصة إيراج عن الأمريكيين ومعدات الرادار
المتطورة لديهم، وتساءلت عما إذا كانت بإمكانهم حقًا الرؤية من خلال الجدران.
نظرت إلى الأسفل وغطيت نفسي للحظات، ثم هزرت رأسي وضحكت.

كان الضيفان المميزان هما السيد والسيدة مهربان. عندما فتحت الباب،
عانقني السيد مهربان كأنه يعرفني طوال حياته، على الرغم من أننا لم نلتق قط.
هرع أبي نحوه وتعانقا وقتًا طويلاً، وتهامسا. لم أستطع رؤية وجهيهما، لكنني
أدركت أنهما يبيكان. نظرت السيدة مهربان وأمي إلى زوجيهما بأعين دامعة.
ثم دخلا أخيراً وجلسا في غرفة المعيشة. تبادل أبي والسيد مهربان النظرات،
واستمررا في البكاء. ربت كلُّ منهما على وجه الآخر وشعره من حين إلى حين،
وقال السيد مهربان:

- لقد مرت ثمانية عشر عامًا.

قال أبي:

- ثمانية عشر عامًا وأربعة أشهر وثلاثة أيام.

انتابني الفضول لأعرف لماذا تركا كل هذا الوقت يمر من دون أن يرى أحدهما
الآخر. همستُ إلى أمي:

- أتمنى ألا تمر ثمانية عشر عامًا قبل أن أرى الدكتور.

قالت وهي تعض المسافة بين إبهامها وسبابتها:

- أتمنى ألا يحدث هذا أيضًا.

كان السيد مهربان رجلًا أسمر طويل القامة يعرج قليلًا في مشيته، وجعل شاربه الأسود الكثيف وجهه يبدو رجوليًا وقاسيًا. أما زوجته فكانت طويلة ونحيفة وجميلة. كلمة «مهربان» تعني «لطيف» بالفارسية، وكان الزوج والزوجة كلاهما مهربان للغاية.

تناول أبي والسيد مهربان الفودكا، تلا ذلك خليط من الزبادي والخيار والزبيب والملح والفلفل. تحدثا عن الأيام الخوالي عندما كان أبي بطل ملاكمة في الوزن الثقيل وكان السيد مهربان نجم مصارعة، وتحدثا عن الخصوم والأصدقاء القدامى. توفي اثنان من أصدقائهما المشتركين في حوادث غريبة، بينما أصبح آخر ثريًا على نحو فاحش، ويعيش في أوروبا. واكتُشف أن شخصًا آخر عميل للشرطة السرية، كلب قدر. طالعت السيدة مهربان وأمي الصور القديمة، وتحدثتا عن الوقت الذي كانتا فيه معًا في المدرسة الثانوية.

أخبر أبي السيد مهربان بهدوء عن صديق آخر من أصدقاء الطفولة القدامى، وهو السيد كسروي الذي أصبح الآن رجلًا ثريًا للغاية في منطقة بحر قزوين. قال:

- سمعت عن ذلك في السجن. لطالما كان يتمتع بذكاء شديد فيما يتعلق بالأمور المالية.

لفت السيد مهربان انتباهي. هل كان في السجن ثمانية عشر عامًا؟ تساءلت عن السبب. هل يعرف الدكتور؟ فكرت في أن أسأله، لكن والدِّي علَّمني أنه ليس من الأدب أن أتدخل في حديث الكبار، خصوصًا عندما يكون النقاش جادًا للغاية. تناولا مزيدًا من الفودكا، وابتسم لي السيد مهربان. أراد أن يعرف عمري، وفي أي صف دراسي أنا، وما إذا كنت أقرأ بقدر ما كان أبي يقرأ عندما كان في السابعة عشرة من عمره. أخبره أبي بأنني طالب متفوق، وأني تخصصت في الرياضيات،

وأنوي أن أكون مهندسًا مثل عمي مهربان، ففي إيران يُشار إلى أصدقاء الأب المقربين بوصفهم أعمامًا. شعرت كأنني في الرابعة من عمري. أردت أن أقول إنني طالب متوسط المستوى، وأكره الرياضيات، ولا أريد أن أكون مهندسًا، لكنني لم أفعل. نظرت إلى أمي، متذكرًا عدد المرات التي اشتكيت لها فيها بشأن هذا الأمر، لكنها تجاهلت نظراتي الحادة، وأشاحت بنظرها في الاتجاه الآخر. على العشاء، أكد السيد مهربان أنه ظل سجينًا لمدة ثمانية عشر عامًا، وتحدث عن تجربته هناك بقدر كبير من الكرامة والفخر، فأعجبت بالسهولة التي عبَّر بها عن نفسه. علَّمه ما يقرب من عقدين في السجن التحلي بالصبر مع نفسه وأفكاره والتعبير عن ذكرياته. كسروا ساقه اليمنى عدة مرات، وكان هذا سبب عرجه، كما أحرقوه بالسجائر، وسكبوا الملح على جراحه، وضربوه كل يوم للحصول على معلومات عن رجال ونساء لم يعرفهم قط.

تحدث السيد مهربان عن الليلة التي قبضوا عليه فيها. كانت ليلة زفافه، وكان الضيوف قد غادروا للتو عندما داهم السافاك منزله. بكّت السيدة مهربان وتوسلت طالبة الرحمة. كانت هذه ليلة زفافهما. ألم يكن بإمكانهم الانتظار يومًا واحدًا؟ ماذا فعل ليستحق هذا العقاب القاسي؟

قيل لها إن جريمته كانت أخطر من أن تُناقش.

لكن تبين فيما بعد أن السيد مهربان كان يرأس بعض رفاقه في الحزب البلشفي في روسيا، كما اتُّهم بتوزيع منشورات ماركسية بين طلاب الجامعات في طهران. طلب السيد مهربان من القاضي في المحاكمة أن يريه القانون الذي يحظر التواصل مع الروس، كما طلب أيضًا تقديم دليل على أن توزيعه للمنشورات المذكورة قد تسبب في إلحاق أي ضرر بأي شخص. رفض القاضي العسكري كلا الطلبين، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة. ثم خُفف الحكم عليه لاحقًا إلى ثمانية عشر عامًا، ولم يُذكر أي سبب لهذا القرار.

لم يعرف أحد مكانه، أو ماذا حدث له لمدة ثلاث سنوات. بات الجميع على اقتناع بأنه مات، باستثناء والدته وعروسه. ثم سُمح لهما بزيارته في السجن في

أحد الأيام، وبدا ضعيفًا ومتعبًا وخاضعًا. لم يكن قد حلق ذقنه منذ زمن طويل، وبدا شعره الطويل متسخًا، كأنه لم يستحم منذ شهور، وفقد ما لا يقل عن خمسة عشر كيلو جرامًا من وزنه. توسل إلى زوجته أن تطلقه لأنه لن يخرج من السجن أبدًا، فبكت وقالت إنها ستنتظر.

قال السيد مهربان:

- الحب أوفى من كلب عجوز.

أثرت في قصته والوقار الذي تحدث به وهو يتذكر أحلك لحظات حياته. تحدث عن فترة حقنوه خلالها بالمخدرات، مثل المورفين، ثلاث مرات في اليوم، ثم توقفوا لمشاهدته وهو يعاني أعراض الانسحاب، وتمنى لو كان ميتًا. مضت الليلة، وتحدث الرجلان بينما المرأتان في المطبخ. ذهبت إلى الغرفة الأخرى وذهني منشغل بالتفكير في السيد مهربان. شغلت التلفزيون وشاهدت مسلسل مسحور. هل الحياة في أمريكا حقًا كما تصورها هذه البرامج التلفزيونية؟ هل الناس سطحيون إلى هذا الحد؟ هل يتجول الرجال حقًا في منازلهم مرتدين البدلات الرسمية؟ هل يوجد رجال مثل الدكتور والسيد مهربان في الولايات المتحدة، رجال يضحون بحياتهم من أجل القضايا التي يؤمنون بها؟ تبع مسحور مسلسلًا أحلم بجيني، ورجل الستة ملايين دولار. فكرت في شخصية جيني، وهي امرأة من الشرق الأوسط لعبت دورها الممثلة باربرا إيدن. نظرت إلى السيدة مهربان، وهي أيضًا امرأة من الشرق الأوسط، وتساءلت لماذا لا يصنع الأمريكيون أفلامًا عن نساء من الشرق الأوسط مثلها. ثمانية عشر عامًا وقت طويل لانتظار شخص ما، خصوصًا عندما لا يكون هناك أمل في إطلاق سراحه. بالطبع، انتظرت جيني في القمقم ألقي عام قبل أن يجدها لاري هاجمان. لماذا يجب على نساء الشرق الأوسط الانتظار كثيرًا من أجل رجالهن؟ تساءلت عما إذا كنت سأتمكن من العيش في الولايات المتحدة. اعتاد الدكتور القول إن هذه البرامج مصممة لإبقاء الناس منشغلين بـ«أمور غير ذات أهمية»، إذ إن قدرتها على الترفيه تمنع مشاهديها من التساؤل عن أي شيء، مما يؤدي إلى إضعاف

ذكائهم، ببطء ولكن بثبات. واشتكى أن هذه البرامج تسببت في دخول الأمريكيين في غيبوبة سياسية. اعتاد انتقاد الأمر قائلًا بمرارة:

- إنهم يجهلون بشكل مأساوي سلوك حكومتهم الظالم والقمعي في البلدان الأخرى.

الشياطين التي حطمت النوافذ

مرّ أكثر من أسبوعين منذ أن رأيت زاري، وبدأت أشعر بالتوتر. أثقلني شيء ما بداخلي، شيء لا أستطيع السيطرة عليه. حتى الآن، ظننت أنني أتحكم في مصيري، لكن حبي لزاري غيّر كل ذلك. فقد استولت على قلبي مثل غازٍ لا يرحم، وصرت عبداً لأفكار ومشاعر لا تنبع من عقلي الواعي. يشرد ذهني إلى حيث لا أوجهه، وتتأبني نوبات قلق تبدو بلا أي منشأ. تحرقت شوقاً للرؤية زاري، والتحدث معها، والتحديث إلى عينيها، والجلوس معها تحت شجرة الكرز، وسماع حديثها عن سووشون، ومشاهدتها وهي تبلل قدميها في الحوض. وقعت في حبها بشدة، وشعرت بالذنب البالغ حيال ذلك.

بعد بضع ليالٍ من زيارة الزوجين مهربان لمنزلنا، تلقى والدي مكالمة من السيدة مهربان. أبلغته أن السيد مهربان قد اعتُقل مرة أخرى. حضر أربعة من عناصر السافاك في الساعة الثالثة صباحاً وفتّشوا منزلهما لساعات. لم يفصّحوا عما يبحثون عنه، لكنهم ظلّوا يخبرون السيد مهربان بأن أمره سينتهي تماماً إذا عثروا عليه. كانت متأكدة أن السيد مهربان لم يتصل بأصدقائه القدامى منذ إطلاق سراحه. تساءلت:

— لماذا يجب أن تكون الأمور على هذا النحو؟

لم تكن متأكدة من قدرتها على تحمّل ألم الانفصال عن زوجها هذه المرّة.
ألم يدفعا بالفعل ثمن أي خطأ ارتكبه مهربان في شبابه؟
صاحت السيدة مهربان:

- كان عليك أن ترى النظرة التي ارتسمت على وجهه. بدا حزينًا للغاية،
وغاضبًا بشدة، ويائسًا وعاجزًا. يا إلهي!
شرعت تبكي.

تحدثت أُمي أيضًا إلى السيدة مهربان، وبكت على الهاتف وهي تطلب من
صديقتها القديمة أن تبقى هادئة.
- لا بد أن هذا خطأ، أو ربما يحاولون إخافته. سيطلقون سراحه قريبًا. ستري،
سيطلقون سراحه.

بدا والدي محبطًا تمامًا. كان السيد مهربان يعاني مرضًا في القلب، وقد يكون
ضغط السجن خطرًا على صحته. بالأُمس فقط اصطحب أُمي السيد مهربان إلى
المستشفى لتصوير الأوعية الدموية، وقال الطبيب إن السيد مهربان بحاجة إلى
تغيير نظامه الغذائي، والبدء في ممارسة التمارين الرياضية بانتظام، والتوقف عن
التدخين. قال أُمي بمرارة:

- بالطبع، يمكن نسيان أمر كل ذلك وهو في السجن.
أشعل أُمي سيجارة وانشغل بالتفكير. جلست بجانبه، وقلت بهدوء:
- أتساءل عما إذا كان قد قابل الدكتور في أثناء وجوده في السجن.
نظر إليّ أُمي وحدق إلى وجهي لبعض الوقت. أعتقد أنه أدرك فجأة أننا نعاني
الألم نفسه، وقال بهدوء:
- كان عليك أن تسأله.

- لم أرغب في تضييع الوقت الذي قضيتاه معًا.
وضع أُمي ذراعه حول كتفي وجذبني نحوه.
- لم تُعد طفلًا، يمكنك الانخراط في مناقشات البالغين. كان عليك أن تسأله
عن الدكتور.

بدأت أشمر كُمني وأنزلهما ثانية، فمد أبي يده وأوقفني. سألني:

- ما الخطب؟

قلت له:

- أنا آسف بشأن السيد مهربان يا أبي. لا بد أنه كان من الصعب الابتعاد عنه

كل تلك السنوات. أعلم أن عدم رؤية أحمد أو الدكتور ثمانية عشر عامًا

ربما تقتلني.

اعترف أبي قائلاً:

- كان الأمر صعبًا.

- كيف التقيت أنت والسيد مهربان؟

وقبل أن تسنح له الفرصة للرد، أضفت:

- ولماذا لم تذكر أي شيء عنه طوال هذه السنوات يا أبي؟

هز أبي رأسه.

- لا أعرف ما إذا كانت لديّ إجابات جيدة لأسئلتك. لقد اختفى من حياتنا.

كان من المفترض أن يظل محبوبًا إلى الأبد، كما تعلم. أحيانًا يكون من

الأسهل عدم التفكير في الأشياء التي لا يمكنك فعل أي شيء حيالها.

دخن أبي سيجارته كأنها آخر سيجارة له. جعلني ذلك أتمنى أن أحظى

بواحدة أيضًا.

قال أبي:

- إن صداقتك مع أحمد تذكرني كثيرًا بما كنت أعنيه أنا ومهربان لبعضنا.

ظل أقرب صديق لي فترة طويلة.

أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته.

- لقد قام بمخاطرة كبيرة من أجلي ذات مرة. أتعلم، ذلك النوع من الأشياء

التي أظن أنك وأحمد ستقدمان عليها من أجل بعضكما.

أصغيت بانتباه، وأعتقد أن والدي أدرك ذلك. قال إنه والسيد مهربان كانا

صديقين منذ المدرسة الثانوية. عاشت عائلتهما في بلدة صغيرة تُدعى «هشتر»

في شمال غرب إيران. بعد المدرسة الثانوية، جُنِّدًا معًا في الجيش، وخدمًا معًا لمدة عامين في منطقة جبلية باردة قريبة من الحدود العراقية. في ذلك الوقت، كان والدي مغرمًا بوالدتي، ولم تُرَقْ له فكرة الانفصال عنها لمدة عامين. تاق إليها وحلم بها وتمنى لو كانا معًا. وكان من حسن الحظ وجود مهربان، وإلا كان سيفقد عقله. في بعض الأيام، كان يمضي في حياته من دون أن يتذكر كيف مر يومه. وفي بعض الليالي، كان يستيقظ ليجد نفسه يتصبب عرقًا، غاضبًا ومنزعجًا. بالطبع، كان كل هذا من دون علم مَنْ حوله، بمن في ذلك السيد مهربان الذي أدرك حالته، لكنه لم يكن يعلم مدى معاناته.

أقاموا في ثكنة ضخمة حيث ينام الجنود في مهاجع من طابقين. كان هناك ما لا يقل عن عشرة مباني في الثكنة، وتراوح عدد الجنود بين مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة جندي. وبمجرد أن ينام الجنود، لم يكن مسموحًا لهم بمغادرة المباني حتى الفجر. كان كل جندي يُكَلَّف بنوبة حراسة ليلية مرتين في الشهر على الأقل، لحراسة المنطقة من «المتسللين» المجهولين الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء الحضور طوال تاريخ الثكنة الذي يمتد إلى أربعين عامًا. كان الحراس ينامون عادة في أثناء المناوبة الليلية، باستثناء الليالي التي يعلمون فيها أن عريفهم العجوز، وهو رجل عسكري صارم، قد يكون موجودًا لتفقدتهم. كانت عقوبة مَنْ ينتهك قواعد الثكنة، سواء بالنوم في أثناء المناوبة أو التجول بعد إطفاء الأنوار، شديدة، وتضمنت قضاء أيام إن لم تكن أسابيع في السجن.

أصبحت ليالي والدي المؤرقة، بالإضافة إلى الإحباط الذي شعر به بسبب ملازمته لفراشه في تلك المباني القديمة الرطبة حيث كان يسمع صوت الفئران وهي تقرض الأعمدة التي تدعم السقف، أكثر مما يحتمل. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لديه كثير من القواسم المشتركة مع الرجال في فرقته. اعتاد أحد الجنود أن يحمل في جيبه قطعة قماش خضراء كانت والدته قد فركت بها قبر أحد الأولياء لإبعاد الشياطين. كان هذا الجندي يعرف كثيرًا عن المعتقدات الخرافية الشائعة، وأمضى وقتًا طويلًا في تعليم رفاقه عنها. كان يقول:

- إذا وجَّهت سكينًا بالخطأ إلى شخص ما، اطعن الأرض ثلاث مرات، وإلا فإن دم ذلك الشخص قد يقطر من طرف تلك السكين يومًا ما. وإذا سكبت الماء على قطعة، فاغسل يديك ثلاث مرات في الوقت نفسه كل يوم لمدة ثلاثة أيام، أو قد تصاب بكيس على طرف أنفك.

في إحدى الليالي، قرر والدي أن يتجول في أرض المعسكر. شعر بحاجة إلى الخروج في العراء والتحرر مؤقتًا من القواعد واللوائح التي بدت له سخيفة للغاية. تولى الجندي المؤمن بالخرافات نوبة الحراسة تلك الليلة. ومن دون أن يعلم والدي، كان العريف العجوز مستيقظًا أيضًا. وبينما كان والدي يمشي، أطلق العريف العجوز المختبئ في الظلام صفارته، فبدأ والدي الركض، وتبعه العريف واثنان من الجنود القريبين منه. وسرعان ما جاء الحراس الآخرون من كل الاتجاهات يركضون ببنادقهم وصفاراتهم، ويعتمدون على مصابيح يدوية تضيء الأرض على نحو خافت على بعد نصف متر أمامهم. بدأ العريف العجوز يسبُّ بصوت عالٍ وهو يهز قبضتيه في الهواء ملوحًا بمسدسه وأمرًا الحراس بالقبض على المتسلل حيًا، لأن الموت من دون تعذيب سيكون عقابًا لطيفًا غير مناسب لجبان مثله.

شكّلوا دائرة كبيرة لضمان عدم هروب الدخيل، وصرخ العريف مرارًا وتكرارًا:
- انتبهوا للفجوات بينكم! أبقوا أعينكم مفتوحة وألقوا القبض على هذا المتسلل!

لم يخطر ببال الحراس في أكثر أحلامهم جموحًا أن متسللاً قد يفتحهم بالفعل أرض معسكرهم. كانت وضعياتهم الجادة وهم منحنون، وخطواتهم المتوترة، والتردد الذي حملوا به بنادقهم، ونظراتهم المندفعة إلى اليسار وإلى اليمين ثم إلى اليسار مجددًا، كلها تعبر عن انفعالهم.

استيقظ الجنود في المهاجع أيضًا، وتدافع الجميع للفوز بمكان عند النوافذ. بدأ الحراس يضيّقون الخناق على والدي. لم يكن يكثرث إذا أُلقي القبض عليه وسُجن، لكنه لم يحب فكرة الخسارة أمام العريف العجوز. في محاولة يائسة

لكسب مزيد من الوقت، ركض إلى سيارة جيب كانت متوقفة في مكان قريب وزحف تحتها. ثم زحف خارجًا لفترة كافية كي يلتقط حجرًا كبيرًا، ويرميه عبر نافذة مهجع على بعد أمتار قليلة من أجل تشتيت انتباه الجنود.

ركض اثنان من الحراس نحو المهجع، لكن الغالبية بقيت في مسارها وواصلت التركيز على موقع والدي. ضاع كل أمل، وكان والدي على وشك الزحف من تحت السيارة الجيب وتسليم نفسه عندما صرخ رجل من بعيد قائلاً:

- أنا هنا أيها الأوغاد! أنتم مجموعة من الحمقى الأغبياء الملاعين! وصاحب ذلك صوت كسر نافذة على بعد أمتار قليلة خلف المكان الذي يقف فيه العريف. تعرف والدي على صوت السيد مهربان. كان صديقه القديم قد هب لنجدة، فابتسم وهو يشاهد الجنود يركضون مرتبكين نحو صوت السيد مهربان. صرخ العريف العجوز:

- إنه هناك أيها الحمقى! كيف سمحتم له باختراق الدائرة؟ أنتم مجموعة من الأغبياء. كان يجب إعفاؤكم من الخدمة في جيش الرجال هذا! اركضوا، اركضوا! حاصروه، لا تدعوه يهرب!

ابتعد الجنود عن مخبأ والدي، حتى إن أحدهم مر بجانب السيارة الجيب، لكنه لم يكلف نفسه عناء النظر تحتها. رأى والدي ظل السيد مهربان وهو يركض في الظلام. توقف عندما بدأ عدد من الجنود في الاقتراب منه من الجانب الآخر، وركض جهة اليسار، ثم عاد إلى اليمين، ثم اختفى. زحف والدي من تحت السيارة الجيب والتقط حجرًا وصوبه نحو نافذة مبنى قريب منه. وقفت مجموعة من الجنود بجوار النافذة بملابسهم الداخلية، يشاهدون ما كان بالتأكيد الحدث الأكثر إثارة في العام حتى الآن. أشار إليهم والدي أن يبتعدوا عن النافذة، فتركوا. رمى الحجر، فأحدث صوت تحطم الزجاج هزة في أجساد الحراس الذين كانوا متأكدين أنهم حاصروا المتسلل هذه المرة.

ردد والدي ما قاله السيد مهربان:

- تعالوا وأمسكوا بي، أيها الأغبياء الملاعين! ألم تروني أمر بجانبكم؟ أنتم

مجموعة من الخفافيش العمياء! كان الله في عون البلد الذي تحاولون الدفاع عنه.

جنّ جنون العريف العجوز، وصوّب مسدسه نحو صوت والدي وأطلق رصاصة. انحنى الجميع، بمنّ فيهم الحراس الذين كانوا يقفون بجانب العريف العجوز. حطمت الرصاصة نافذة في الطابق الثاني من أحد المهاجع. وصرخ أحدهم من داخل المبنى:

- لقد أُصبت بطلق ناري! الدماء تسيل من ساقَيّ، انظروا!

قال شخص آخر:

- هذا ليس دمًا أيها الأحمق. لقد تبولت في سروالك فحسب.

رسم صوت الجنود وهم يضحكون ويطلقون السباب ابتسامة على وجه والدي. ركض حول المبنى، وتأكد أنه بعيد عن الأنظار في أحلك المناطق ظلامًا بالمعسكر. صاح العريف العجوز وصرخ وركل الحراس الذين التصقوا بالأرض، خوفًا من أن تصيبهم رصاصة طائشة في بطونهم. نهضوا ونفضوا الغبار عن أنفسهم، وبدأوا يركضون خلف والدي. لم يقطعوا ثلاث خطوات حتى سمعوا صوت تحطم النوافذ خلفهم. تلفتوا حولهم في حيرة وانزعاج، مترددين بشأن الطريق الذي يجب أن يسلكوه، وغير متأكدين كيف يمكن أن يكون أي شخص هنا في لحظة، وفي اللحظة التالية في الطرف الآخر من المعسكر. في تلك اللحظة، تحطمت نافذة ثانية على الجانب الآخر من المعسكر، ثم أخرى في موقع ثالث.

ألقى الجندي المؤمن بالخرافات بندقيته وبدأ يركض نحو بوابة الثكنة صارخًا:

- إنه جن، إنه جن!

أي روح شريرة أو شيطان. ألقى الحراس الآخرون أسلحتهم وبدأوا يركضون مبتعدين أيضًا، وهم يعضون المسافة بين إصبعي الإبهام والسبابة.

صرخ العريف:

- توقفوا أيها الحمقى الملاعين!

بدأت النوافذ تتحطم على جانبي المعسكر في وقت واحد، حيث بدأ والذي والسيد مهربان هجوماً شاملاً برمي الحجارة على كل النوافذ في المعسكر. وأخذ الناس في المهاجع يصرخون ويصفرون، مشجعين هذا الهجوم على النظام الذي أبعدهم عن أحبائهم لمدة عامين لتعليمهم كيفية أداء التحية العسكرية وليس أكثر من ذلك. انتهى الأمر بوالدي والسيد مهربان بالعودة إلى مهجعهما من دون أن يكتشف العريف هويتهما.

أخذ والذي نفساً عميقاً، وظهرت ابتسامة صغيرة على وجهه. أشعل سيجارة أخرى وقال:

- في اليوم التالي، كان الجميع يتحدثون عن الشياطين التي حطمت نوافذ الثكنة.

أدركت من النظرة التي علت وجهه أن ذكرياته عن سنوات شبابه مع السيد مهربان قد ملأته بالحزن.

قال:

- إنه أفضل صديق حظيت به على الإطلاق، وهو أكرم شخص عرفته في حياتي. ظننت أنني استعدته بعد ثمانية عشر عاماً، والآن أتساءل عما إذا كنت سأراه مرة أخرى.

ثمن الرصاصة

غلبني الاكتئاب، وأدرك أحمد ذلك، فصار يقضي معي هذه الأيام وقتاً أطول مما اعتاد قضاءه معي في السابق. وعرفت من محاولاته التي لا تنتهي للتخفيف عني أنه قلق على صحتي النفسية.

أحمد هو السند الذي أتكى عليه. اعتاد والدي القول إن هناك نوعين من الناس في العالم: العاديون والعظماء. وليس لدي شك أن أحمد ينتمي إلى الفئة الأخيرة. أخبرت أحمد عن اعتقال السيد مهربان بينما كنا نحل واجب الهندسة في غرفتي. بدا الحزن على أحمد، وقال إن هذا البلد سيشهد يوماً ما الثورة الأكثر دموية في تاريخ البشرية. سمعت ذات مرة الدكتور يقول إن ثورة في إيران ستغير العالم، فإيران مهمة جداً لاستقرار وتوازن القوى في هذه المنطقة الحيوية. بمجرد أن ذكرت اسم الدكتور، غيّر أحمد الموضوع، وبدأ في الغناء: «لا شيء يجعلك شخصاً أفضل، أكثر من حب امرأة!». سألته:

- هل اخترقت ذلك للتو؟ لم أسمع هذه الأغنية من قبل. وكيف يمكنك الغناء مع التركيز في الهندسة؟
أجاب:

- مَنْ قال إنني أركز في الهندسة؟ ونعم، أنا شاعر، ألم تعلم ذلك؟
ضحكت وهززت رأسي.
قال:

- لقد سئمت من المدرسة لأن المدرسة للأطفال، والواجبات المنزلية
للأشخاص المهووسين. المدرسة والحب ظاهرتان متضادتان تمامًا.
مازحته قائلاً:

- ظاهرتان متضادتان؟ مَنْ يستخدم الكلمات الكبيرة الآن؟
تجاهلني أحمد، وزعم قائلاً:

- بمجرد أن تقع في الحب، تصبح المعرفة الأكاديمية غير ذات أهمية. سأسأل
الأستاذ بانا كيف يمكن لعلم الهندسة، الأم اللعينة للعلوم كلها، أن يميز
بين شكل القلب العذري والقلب المعذب بالحب.

- هل كنت تدخن الحشيش؟
مازحني قائلاً:

- لا، لماذا؟ هل لديك بعض منه؟
ثم سألني، وقد ارتسمت على وجهه نظرة جادة لأول مرة:
- أتعرف ما الذي أعتقد أنه يجب فعله؟
- ماذا؟

- يجب أن نختطف فهيمة وزاري ونأخذهما في رحلة حول العالم.
تذكرت المرأة التي وبخني فيها عندما اقترحت أن نأخذ الفتاتين إلى السينما،
فقلت ساخراً:

- أوه، بالتأكيد، هل سنسحب من حسابك الجاري أم من مدخراتي؟
- حسناً، الأمريكيون، أكثر شعوب العالم انضباطاً، يفعلون ذلك طوال الوقت.
إنهم يتنقلون من خلال إيقاف السيارات العابرة، ويجدون عملاً أينما ذهبوا
ليحصلوا على ما يكفي من المال للانتقال إلى المدينة التالية. لقد رأيت
ذلك في الأفلام، وهذا ما أعتقد أننا يجب أن نفعله.

- أنت مجنون.

سألني:

- أتعرف ما خطبك؟

- ماذا؟

- أنت تأخذ الحياة على محمل الجد.

- وما العيب في ذلك بالضبط يا بروفيسور؟

- لا تأخذ الحياة على محمل الجد أكثر مما ينبغي، فلن تخرج منها حياً!

ثم التقط الهاتف واتصل بفهيمه. رد شقيقها على الهاتف، فغير أحمد نبرة صوته وسأل عما إذا كان هذا منزل السيد رضائي. أجاب شقيق فهيمه بالنفي، وأغلق الخط. انتظر أحمد بضع دقائق، ثم عاود الاتصال، ومرة ثانية أجاب شقيق فهيمه.

سأل أحمد بأدب:

- هل يمكنني التحدث إلى السيد رضائي؟

أجاب شقيق فهيمه بنبرة حازمة:

- لقد أخطأت في الرقم.

- هل هذا هو ٣٤٦٥٨٥؟

- نعم.

- إذن لم أخطئ الرقم. هلاً ناديت السيد رضائي من فضلك؟

شرعت في الضحك. كان إزعاج الناس عبر الهاتف أمراً مألوفاً بين الشباب الإيراني. وعلى الرغم من أنني ظننت أن مثل هذه المقالب صبيانية، فإن عليّ الاعتراف بأنني استمتعت بمشاهدة أحمد وهو يعذب شقيق فهيمه، الذي أطلق سيلاً من الألفاظ النابية وأغلق الهاتف. قلت لأحمد أن يكف عن العبث وأنا أضحك بشدة، ووبخته:

- ستورطنا في شجار كبير مع هذين الشابين.

قال:

- راقب هذا، راقب هذا.

اتصل بمنزل فهيمة مرة أخرى، وعندما أجاب شقيقها على الهاتف، قال أحمد:
- مرحبًا، أنا السيد رضائي. هل اتصل بي أحد اليوم؟

أبعد الهاتف عن أذنه، وسمعت شقيق فهيمة ينفجر غاضبًا.

سمعنا أمي تصعد الدرج، فأغلق أحمد الهاتف وتظاهر بالانشغال بالذاكرة.
دخلت أمي وهي تحمل صينية شاي وبعض التمر، وتمتت بشيء عن فخرها
بولديها. كانت تحب أحمد كما تحبني، كما سعدت بشدة لأن لدي صديقًا
رائعًا. طلبت منا أن نشرب الشاي قبل أن يبرد أكثر من اللازم، حيث كان شاي
لاهيجان، وهو أفضل شاي في العالم، والطريقة الوحيدة لشربه وهو ساخن.
كما أعطتنا محاضرة موجزة عن فوائد التمر، وكيف يأكله العرب لتجنب
الجفاف في لهيب الصحراء الحارقة، وكيف يعيش الرهبان البوذيون على
ثمرة واحدة في اليوم.

عندما غادرت أمي، وبينما كنت أنا وأحمد نتفحص الشاي بحثًا عن آثار
مسحوق ثمار شجرة الغبيراء المجففة، قال أحمد:

- هذا غريب، كنت أعتقد أن الرهبان يصومون ولا يتناولون أي طعام على
الإطلاق.

واجهت صعوبة في النوم في تلك الليلة. قرب منتصف الليل سمعت صوتًا من
منزل زاري، فهرعت إلى الشرفة ورأيت زاري ووالدتها تدخلان إلى الفناء.
نظرت زاري إلى الأعلى ورأيتني، فأحنت رأسها واختفت بسرعة داخل المنزل.
شعرت بالعجز، كما لو أنني لا أستطيع إدخال ما يكفي من الأكسجين في رئتي.
هل لم تعد تحبني؟ هل ستعود إلى الفناء كما كانت تفعل في السابق؟ أوه، يا لها
من أوقات رائعة قضيناها قبل اعتقال الدكتور.

كنت لا أزال على الشرفة عندما انضمت إلي. كان الطقس باردًا على غير
العادة بالنسبة إلى هذا الوقت من السنة. ارتدت كنزة بنية داكنة ثقيلة ذات رقبة

عالية، وسحبت الكُمّين إلى الأسفل وأمسكتهما بقبضتيها لتبقي يديها دافئتين. لم تتظاهر بالوجود هناك لأي سبب سوى التحدث معي. لطالما أعجبتني صراحتها وعدم تصنعها.

ألقت التحية بهدوء، واقتربت من الجدار الفاصل بين منزلينا. كانت هذه هي المرأة الأولى التي نتحدث فيها منذ القبض على الدكتور. سألتها:

- كيف حالك؟

هزت رأسها، وبدت عيناها حمراوين، وأدركت أنها كانت تبكي. بدت شاحبة وخالية من الحيوية التي لطالما ميزت حضورها. حكّت أعلى رأسها، ولاحظت أن يديها ترتجفان. وعندما نظرت إليّ، امتلأت عيناها بالدموع. تغضن جبينها الناعم، وعضت شفتها محاولة ألا تنفجر في البكاء. قفزت من فوق الجدار ووضعت ذراعي حول كتفيها. أعتقد أنها أدركت أن هذه ليست سوى بادرة صداقة وتعاطف لأنها لم تتراجع.

قالت:

- أنا بخير.

ثم بكت أكثر، وربّت برفق على يدها لتهدئتها.

أخيراً، سألت:

- ماذا سأفعل؟

- ليس هناك الكثير مما يمكننا فعله سوى الانتظار والدعاء.

جلست القرفصاء وظهرها إلى الجدار، وجلستُ بجانبها. بدأت تنتحب،

وقالت:

- لا أحد يعرف مكان الدكتور، وقد نُقل والداه إلى المستشفى. والدته على

وشك أن تفقد عقلها، والجميع قلقون بشأن حالة والده القلبية.

قلت:

- أليس هذا غريباً؟ كان والدا الدكتور يقولان إنه قلبهما وعقلهما.

- لم أكن أعرف أن الدكتور متورط إلى هذا الحد. كل ما كنت أعرفه أنه يقرأ الكتب الممنوعة، ولم أر أي ضرر في ذلك.
شهقت عدة مرات ومسحت دموعها وهي تزداد انفعالاً.
- لا أصدق أنهم يستطيعون القبض على شخص ما، من دون التصريح بكلمة واحدة لعائلته. أي نوع من الهمج هؤلاء الناس؟ أليست لديهم أي مروءة على الإطلاق، ولا أي اعتبار لألم الأم؟ لن أتفاجأ إذا أصيبت والدته الدكتور بسكتة دماغية في أحد هذه الأيام. أليس لدى هؤلاء الناس أي احترام لحرمة الحياة البشرية؟

انتحبت بمرارة.

بقينا صامتين فترة طويلة، وأخيراً، التفتت إليّ وسألتني:

- كيف حالك؟

كذبت قائلاً:

- بخير، أنا على ما يرام.

- هذا جيد.

قلت بتردد:

- أنا سعيد لأنك أتيت.

- أردت التحدث معك في وقت سابق، لكن لم تسنح لي الفرصة.

اعترفت قائلاً:

- ساورني القلق، واعتقدت أنك ربما تكونين غاضبة مني.

- لماذا أغضب منك؟

تساءلت إن كان عليّ أن أخبرها بالحقيقة بشأن ليلة القبض على الدكتور. ماذا

لو كرهتني بعد ذلك؟ ماذا لو لم تتحدث معي مرة أخرى؟

خرجت الكلمات لا إرادياً:

- كنت هنا في الليلة التي جاءوا فيها للقبض عليه. رأني العميل الذي كان يحمل

جهاز اللاسلكي، وأعتقد أن هذه هي الطريقة التي عرف بها مكان الدكتور.

حدقت زاري إلى وجهي بصمت، والدهشة في عينيها. ندمت على الفور
لاعترافي هذا، لكن فات أوان الصمت الآن.

- حدث كل شيء بسرعة كبيرة، إلى درجة أنني لم يكن لدي وقت للانحناء.
لفترة من الوقت، لم أعرف حتى ما كان يحدث. تجمدت ببساطة ولم أستطع
التحرك. أنا آسف جدًا. إذا رأيته في أي وقت، فأرجو أن أخبره بأنني أحبه
ولم أقصد أن يحدث هذا.

وضعت زاري إصبعها على شفتي وأسكتني. قالت:

- يجب ألا تقول ذلك مرة أخرى. لن يعتقد أحد أبدًا أنك قد تعتمد فعل شيء
كهذا للدكتور. علاوة على أن الجميع يعرفون كم تحبه. صدقني، أنت لا
تفيد أحدًا بتعذيب نفسك بسبب شيء كهذا. كانوا يعلمون أن الدكتور
خطيبي، ووضعوا الحي بأكمله تحت المراقبة منذ فترة طويلة.

حنيت رأسي وحدقت إلى قدمي. أخذت ذقني بيديها وأدارت وجهي نحوها.
- انظر إليّ، انظر في عيني.

نظرت إلى هاتين العينين الجميلتين، وشعرت بخجل لم أستطع السيطرة عليه.
قالت لي:

- عدني بأنك لن تلوم نفسك على هذا الأمر مرة أخرى.
أومأت برأسي موافقًا، على الرغم من أنني أدركت بالفعل أنني لن أستطيع
الوفاء بوعدتي.

أبعدت يديها عن وجهي ببطء، واتكأت على الجدار. همست:
- سوف يطلقون سراحه قريبًا. أعرف ذلك، أعرف ذلك فحسب.
اتكأت أنا أيضًا على الجدار.
- آمل ذلك.

قالت بعد قليل:

- أتعلم، أفتقد الأيام التي كنا نجتمع فيها معًا في فناء منزلي.
أومأت برأسي وهمست:

- وأنا أيضًا.

أطلقت عليها أيام الصيف الخالية من الهموم، ووافقتها الرأي، وقلت لها
إنني أردت أن يكون أفضل صيف في حياتنا، آخر أيام المراهقة. كم كانت بدايته
حلوة وكم كانت نهايته مريرة!

تساءلت بآلم:

- أتساءل عما إذا كان هذا هو جزء صيفنا الخالي من الهموم. هل تعلم أن
الحياة هي لعبة موازنة؟ ليس من المفترض أن يحصل أحد على الكثير من أي
شيء. أتساءل فقط لماذا كان على الدكتور المسكين أن يدفع ثمن أخطائي.
عادت تبكي مرة أخرى.

تساءلت ما الذي تقصده بالضبط بأخطائها، لكنني لم أقل شيئًا.
- أخطط للذهاب إلى سجن إيفين الأسبوع المقبل لأرى إن كان بإمكانني
الحصول على أي معلومات عن مكان وجوده.

قلت:

- سأذهب أنا أيضًا.

رفضت في بادئ الأمر، لأنهم قد يربطون بيني وبين الدكتور، لكنها وافقت
في النهاية.

ساعدني التأكد من أنها ليست غاضبة مني على إزالة القلق الذي غمرني منذ
ليلة القبض على الدكتور.

قلت بهدوء:

- النجوم جميلة الليلة.

أجابت:

- إنها كذلك بالفعل. هل تعتقد أن كل واحد منا لديه نجم هناك في الأعلى؟
أوضحت:

- ليس الجميع، بل الناس الطيبون فقط.

- حقًا؟

- نعم، ولا يمكننا أن نرى سوى نجوم الأشخاص الموجودين في حياتنا.

- ماذا تقصد؟

- مثلما أرى أحمد هناك.

سألتني وهي تحديق إلى سماء الليل:

- أي واحد هو؟

- ذلك النجم.

أشرت إلى أحد أكبر النجوم، فمالت نحوي ولا مس وجهها ذراعي بينما توجّه نظراتها تجاه سبابتي. نظرتُ إلى مؤخرة رأسها وكتفيها، وشممت رائحة شعرها، فانتشيت بالحب والرغبة.

- نعم، يمكنني رؤيته. نجمه كبير، أليس كذلك؟

- بلى، إنه واحد من أكبر النجوم.

سألتني:

- دعنا نرَ، أين نجم باشا؟

قلت:

- أوه، أنا لست هناك.

لكن تمنيت أن تصر على أنني كذلك.

استدارت ونظرت إليّ.

- لا؟

هزرت كتفي.

- حسنًا، استمر في البحث. من الصعب إغفالك.

بحثتُ لبعض الوقت، ثم استدرت نحوها من دون أن أقول أي شيء. حددنا إلى بعضنا، ثم نهضت واتجهت نحو منزلها. توقفت عند المدخل لتلتفت وتساألني:

- هل أعطيتها الصورة؟

لم أقل شيئًا.

- هل أخبرتها بعد؟

هززت رأسي بالنفي.
ابتسمت واختفت داخل المنزل.

كان يوم الجمعة، وأنا وأحمد في الزقاق لأن المدرسة مغلقة، وأتت فهمية لزيارة زاري في منزلها. سمعنا قصة في الزقاق مفادها أن مجموعة من الإرهابيين كانوا يخططون لتفجير سد في الجزء الشمالي من إيران خلال الصيف. لو نجحوا في ذلك، لكان آلاف الأشخاص قد لقوا حتفهم في المدن الواقعة عند مجرى النهر. ويُزعم أن الدكتور وجماعته رُصدوا على بُعد بضعة مئات من الأمتار من السد، وتمت مطاردتهم حتى طهران. رفضتُ الشائعة على الفور باعتبارها مجرد كذبة اختلقها الحكومة لتبرير اعتقال الدكتور. كان الدكتور مسالمًا، يؤمن بنشر أيديولوجياته السياسية من خلال تثقيف الناس وليس قتلهم.

بعد ساعات قليلة من انتشار الشائعة، كنت أنا وأحمد جالسين في ظل شجرة خارج منزلي حينما توقفت سيارة جيب عسكرية عند منزل زاري. خرج رجلان من السيارة، وتعرفت على أحدهما بوصفه العميل الذي حمل جهاز اللاسلكي. جلست متجمدًا في مكاني، ودخلا إلى منزل زاري من دون أن يطرقا الباب. بعد دقائق قليلة، سمعنا صراخ زاري. ركضت أنا وأحمد نحو منزلها، واندفعنا إلى الداخل بينما خرج الرجلان. نظر إليَّ الرجل الذي حمل جهاز اللاسلكي وغمز لي. أقسمت بالله إنني سأقتل ابن العاهرة يومًا ما.

جلست زاري على الأرض، وحامت فهمية حولها في قلتي. بدت زاري في حالة صدمة، وتجمد وجهها في تعبير من اليأس وعدم التصديق. هرعت نحوها.
- ما الأمر؟ ما الذي يحدث؟

استدارت نحوي، وأرسل الحزن البادي في عينيها قشعريرة في جسدي. اندفع أحمد نحو والدة زاري التي فقدت الوعي على بعد أمتار قليلة. سمعت صوت السيارة الجيب تغادر الزقاق، وبعد قليل هرع الجيران إلى المنزل، وبدأ الكبار يعتنون بزاري وأمها. نظرت إلى فهمية.

قالت بحزن:

- إنهم يريدونهم أن يدفعوا ثمن الرصاصة.

سألها وقد غمرني شعور بالبرودة:

- أي رصاصة؟

نظرت إليّ من خلال عينيّ مغرورقتين بالدموع.

- الرصاصة التي قتلت الدكتور. هكذا يمكنهم استعادة جثته.



شتاء ١٩٧٤

مستشفى روزبه للأمراض النفسية، طهران

- هل قتلتك يا دكتور؟
- هل أردت قتلي؟
- لا.
- لماذا تشعر بالقلق إذن؟
- قد يظن الناس أنني فعلت ذلك.
- لماذا؟
- حسنًا، هل سبق لك أن أحببت شخصًا لم يكن من المفترض أن تحبه؟
- قال الدكتور:
- نعم.
- حقًا؟ هل عرفت زاري؟
- لم يكن الأمر كذلك.
- ماذا تعني؟
- لم يكن الأمر كذلك فحسب.
- من فضلك، أخبرني كيف كان الأمر إذن. أود حقًا أن أعرف، هل كنت ستقتل من أجلها؟

- ربما.
- حتى لو ضحيت بحياتك؟
- بالتأكيد.
- أوه، يا إلهي، لقد وقعت في الحب إذن يا دكتور. ماذا حدث؟
- لقد قُتلتُ.
- أنا آسف جدًا، لكنني لا أفهم.
- لقد وقعت في حب الأفكار والأحلام والرؤى. وقعت في حب مفكرين لم يكن من المفترض أن أعجب بهم أو حتى أعرفهم.
- أفكار محرمة؟
- حب محرم، أفكار محرمة، ما الفرق؟
- حسنًا، الأفكار المحرمة في رأسك، والحب المحرم في قلبك.
- دعني أخبرك شيئًا: لا يوجد أي شيء في قلبك، كل شيء في رأسك. الحب والكراهية والأفكار والعواطف، كل شيء في رأسك. القلب مجرد عضو ميكانيكي يضخ الدم إلى بقية جسمك. والآن كفانا من درس الأحياء! أخبرني عن السبب الذي قد يدفع الناس إلى الاعتقاد بأنك قتلتني.
- لأنني أحب...
- استيقظت وأنا أتصبب عرقًا، وأرتجف من البرد. اعتدلت جالسًا في الفراش ونظرت حولي. حاولت جاهدًا أن أتذكر ما حلمت به، لكن عقلي قاومني. أعتقد أنني كنت أحاول إخبار الدكتور بأنني أحب زاري. أأمل ألا يكون الأمر كذلك. لا ينبغي لأحد أن يعرف ذلك، حتى أحمد. من المحظور أن تشارك الحب المحرم، حتى مع أقرب أصدقائك.

خريف ١٩٧٣

طهران

إخوة مدى الحياة

أصيب والد الدكتور بنوبة قلبية في اليوم الذي سمع فيه خبر موت ابنه، واعتقد معظم الناس أنه لن ينجو، كما لم تكن والدته الدكتور في حالة تسمح لها بحضور الجنازة. وفي ظل عدم وجود أحد من عائلة الدكتور المباشرة لاستلام جثمانه، أرسلت إلى منزل زاري تعليمات لمقابلة العملاء في المقبرة. أشارت التعليمات إلى أن زاري أو والديها وصديقاً أو اثنين من أصدقائها فقط يمكنهم حضور الجنازة. كما أشارت الرسالة أيضاً إلى أن الدكتور «تمت تصفيته» قرب نهاية شهر يور وفقاً للتقويم الإيراني، منتصف سبتمبر، أي قبل أسبوع بالضبط من بدء الدراسة.

أبلغتنا فهمية أنا وأحمد أن زاري تريدنا أن نرافقها إلى جنازة الدكتور، لأننا كنا أقرب إليه من أي شخص آخر في الزقاق. قالت فهمية إن زاري هي أكثر شخص متفهم في العالم، لأنها رفضت إرسال رسالة إلى ابنة خالتها وصديقتها المقربة، الملاك المُنْعَن، تطلب منها الحضور إلى طهران. كان وجود ثريا سيمثل مصدر دعم كبير لزاري، لكن والديها كانا مريضين، ولم ترد زاري أن تشغلها بمشكلات شخص آخر. قالت فهمية وهي تمسح الدموع عن وجهها:

- هل تصدقان كم هي لطيفة هذه الفتاة؟

قبلنا الدعوة للذهاب معها إلى المقبرة، وعلمنا أنه يجب إخفاء الخطة عن والدينا. أدركتُ أن والدي سيخشى أن تلاحظ الوكالة وجودي. لكن من حسن حظي، ذهب والداي لزيارة أقاربنا في الجزء الشمالي من البلاد، ولم يكونا على علم بأي شيء يحدث في الزقاق.

كان المساء السابق للجنائز، وجلست أنا وأحمد على سطح منزلي. بدا الليل رماديًا، ساكنًا في صمته، ومثقلًا بالحزن. ارتديت كنزة سميكة بنية اللون ذات رقبة عالية، ومع ذلك أحسست أن الطقس لا يزال باردًا وغير مريح. راقبت السماء في الأفق وشعرت بقشعريرة تسري في عمودي الفقري. فكرت في أن هذا العالم هائل، وفي كل سنتيمتر منه تتكشف دراما مختلفة في كل ثانية من كل يوم. لكننا نواصل العيش كأن اللحظة التالية في حياتنا لن تختلف عن سابقتها. كم نحن جميعًا حمقى.

لم أكن متأكدًا كيف ستجري الأحداث غدًا. هل سيسمحون لنا برؤية جثمانه؟ مَنْ سيحمل نعشه؟ هل سيسمحون لنا بتلاوة بعض الأدعية قبل أن يدفنه؟ ارتجفت لإراديًا. أخيرًا، كسر أحمد الصمت، وأشار إلى نجم كبير لامع في السماء وقال:

- هذا هو، أنا متأكد من ذلك.

امتلات عيناى بالدموع.

- كان رجلًا عظيمًا.

- كان الأفضل.

- هل تعتقد أنه غاضب مني لوقوعي في حب زاري؟

استدار أحمد ونظر إليّ، فخفضت رأسي لأخفي دموعي.

قال بيقين:

- لا.

غمغمت:

- أعتقد أنه غاضب مني. من المفترض أن تفكر في خطيبة صديقك بوصفها
أختك. كيف لا يكون غاضبًا؟
جادلني أحمد:
- لكنك لم تفعل أي شيء سيء إليه، ولا أحد آخر يعرف حتى طبيعة شعورك.
- ما كان يجب أن أقع في حبها.
- هل تعتقد أنه كان لديك خيار؟ كيف تعرف أن هذا لم يكن مقدراً لك؟ كان
الله يعلم ما سيحدث للدكتور. هل من المفترض أن تحزن زاري على موته
لبقية حياتها؟ هل يجب ألا تختبر الحب مرة أخرى؟
سألت بمرارة:
- وهل اختارني الله؟
قال أحمد ساخرًا:
- حسنًا، كان من الممكن أن يمثل إيراغ اختيارًا جيدًا أيضًا.
ابتسمت رغماً عني.
- أشار أحمد إلى السماء.
- انظر إلى ذلك. هل تدرك عظمة الخلق؟ هل ترى النظام المحدد للكون؟
لقد فرض الله قواعده وقوانينه على كل شيء. ما الذي يجعلك تعتقد أنه
أعفاك من ذلك؟
أحاطني بذراعه، وتابع:
- الدكتور يطل علينا من السماء الآن، ويشكر الله لأنه وضعك على الأرض
حتى تتمكن من رعاية زاري. من كان ليمثل خيارًا أفضل منك؟ أخبرني،
من؟
مسحت دموعي.
- لن أبكي في المقبرة لأنني متأكد أن الرجل الذي حمل جهاز اللاسلكي
سيراني. عدني بشيء.
- ماذا؟

- لن نبكي.
- نظر إليّ، وأعتقد أنه أدرك أنني جاد في كلامي.
- قال بحزم:
- حسناً.
- ثم أدار وجهه مرة أخرى إلى نجم الدكتور.
- لن نبكي.

أبقاني الترقب لأحداث اليوم التالي مستيقظاً طوال الليل. وقفنا صباح اليوم التالي خارج منزل زاري، وانشغلت بالعبث بكُمّي عندما جاء إيراج وسأل إلى أين نحن ذاهبان، فلم نُجبه.

- هل أنتما ذاهبان إلى المقبرة؟
- قلت:

- نعم.
- لا ينبغي لكما الذهاب. سيكون كل شيء تحت المراقبة، وسيلاحقناكما.
- قال أحمد:

- لا نكثر لذلك.
- لا، أرجوكم، لا تذهبا. لن يعجبهم ذلك.

كررت قول أحمد:

- لا نكثر لذلك.

- هذا فح. إنهم يكتشفون المتعاطفين بهذه الطريقة. يجب ألا تذهبا يارفيقيّ.

خرجت زاري وفهيمة من المنزل. بدت أعينهما حمراء، وكلتاها ترتدي الشادور الأسود. خرج الجيران من منازلهم بينما نسير في الزقاق باتجاه الشارع الرئيسي. نظروا إلينا بهدوء والدموع في أعينهم الحزينة، وقدموا لنا بصمت تعازيهم لوفاة الدكتور، واعتذارهم عن عدم حضور جنازته. كانت لديهم عائلات يعتنون بها، ولا يمكن الاستخفاف بالسافاك. سمعت أنين زاري، التي تنهدت

وعضت على شفتيها وارتجفت تحت الشادور. أحاطت فهيمة زاري بذراعيها، وهمست في أذنها لتهدئتها. رأيت إيراج يتبعنا، وعيناه القلقتان تتوسلان إلينا ألا نذهب.

ركبنا سيارة أجرة، وجلست في المقعد الأمامي بينما ركب أحمد وفهيمة وزاري في الخلف. أعطيت التوجيهات للسائق، وعندما انطلق، نظرت في المرأة الجانبية ورأيت إيراج يركض خلفنا ملوحًا بذراعيه. أدركت أنه يصرخ بشيء ما، ربما كان لا يزال يتوسل إلينا ألا نذهب. توقف بعد بضع دقائق، وانحنى وأمسك بركبتيه.

أراد السائق أن يعرف ما إذا كان المُتوفَّى - رحمه الله - أحد أقاربنا، فقلت إنه كان كذلك. استدرت ورأيت زاري تضرب رأسها بالزجاج الخلفي، ووضعت فهيمة يدها اليسرى بين رأس زاري والزجاج. سألتني السائق إن كان شابًا، فأومأت بالإيجاب.

قال وهو ينظر إلى زاري في مرآة الرؤية الخلفية:
- يرحمه الله، إنه القدر، القدر، ولا يمكننا فعل أي شيء حيال ذلك. كان لي أخ أصغر مني توفي قبل عامين، أخذه منا السرطان. لم يدخن سيجارة واحدة في حياته... كان رجلًا موفور الصحة ورياضيًا حقيقيًا. الألم الناتج عن فقدانه يقتل أمي، لكن ماذا يمكن أن نفعل؟ الله يعطي، والله يأخذ، الأمر بهذه البساطة. أعمل بالقيادة منذ ما يقرب من عشرين عامًا حتى الآن، وقد أخذت الكثير من العائلات إلى المقابر. أعرف مدى الألم الذي يسببه ذلك. أعرف ذلك عن تجربة، وأعرف ذلك من خلال مراقبتي للناس. رحم الله أرواح الجميع.

قال إنه لن يتقاضى منا أجرًا على الرحلة لأنه ليس من الصواب أخذ المال من الناس المكالمين. ثم أراد أن يعرف مَنْ هو المُتوفَّى، وَمَنْ أقاربه، وكم كان عمره، وما سبب وفاته. فأجبت بصبر عن جميع أسئلته، لكن بدلًا من أن أقول إن الدكتور قُتل على يد السافاك، قلت إنه مات في حادث. فالمرء لا يعرف أبدًا

مَنْ قد يكون عميلًا. همس السائق بالدعاء، لكنه لم يطرح مزيدًا من الأسئلة عن سبب وفاة الدكتور.

في كل مرة استدرت لأنظر إلى المقعد الخلفي، التقت عيناى بعيني زاري، لكنها كانت تهز رأسها وتنظر بعيدًا. تمنيت لو كان بإمكانى فعل شيء لتخفيف ألمها.

نظرت إلى فهمية، ولأول مرة أدركت أنها أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتنا. كانت تخاطر كثيرًا بذهابها معنا إلى جنازة الدكتور. أردت أن أقرب منها وأعانقها، وشعرت بأننى أحبها بقدر حبي لأحمد. كان اليوم سيبدو أصعب بكثير من دونها، وسعدتُ بوجودها هنا.

تذكرت وعدي لأحمد، واستدرت لأواجه الطريق أمامي. نظرت في المرأة الجانية وفكرت في إيراج وهو يركض خلف السيارة. تخيلت وجهه ونظرة القلق في عينيه والاهتمام في صوته. ربما لا يكون إيراج شخصًا سيئًا في نهاية المطاف. ترجلنا من السيارة عند بوابة المقبرة. وعلى الرغم من إصرارنا، فإن السائق لم يقبل تقاضي أي أموال منا. ذكرت التعليمات أن شخصًا ما سيقابلنا عند البوابة. كان هناك كثير من الأشخاص الذين يرتدون ملابس سوداء يقفون داخل المقبرة وحولها.

داخل البوابة، رأينا امرأة ترمي نفسها على أحد القبور، وتصرخ باسم بإيقاع مكتوم وتضرب نفسها على صدرها بينما يحاول أقاربها تقييد حركتها. كان الجميع يتحدثون في الوقت نفسه، بينما بكى الكثيرون في الحشد. أدركت أن المشهد أزعج زاري. أخذت تبكي بمرارة، لكن بهدوء، كما بكت فهمية أيضًا، وهي تشاهد المرأة داخل البوابة تلقي بجسدها على القبر مرة أخرى، وتعانق الأرض وتقبلها وتملأ قبضتيها بالتراب.

همست فهمية إلى أحمد:

- إنه أخوها. يا للمرأة المسكينة!

راودني شعور غريب عند رؤية صفوف و صفوف من القبور. غمر كل شيء

ضوء بلا حياة بلون الغبار، ما عدا الناس الذين بدوا أشبه بظلال ترتدي ملابس سوداء. كان هناك أناس أحياء في كل مكان، لكن بدا من الصعب تجاهل الحضور المخيف للموت. وبدا الهواء كريحه الرائحة وجافاً، على الرغم من برودة الطقس. تلبدت السماء بالغيوم الداكنة، وجعلتني بضع قطرات من المطر أتساءل عما إذا كانت هناك عاصفة في الطريق.

على أحد الطرق الرئيسية للمقبرة، حُمل نعش فوق أكتاف بعض الرجال الباكين، بينما تبعهم حشد كبير من الناس. صاح رجل في المقدمة:
- لا إله إلا الله!

وردد الموكب وراءه الهتاف نفسه في انسجام تام. صاح الرجل الذي يتقدم المجموعة مرة أخرى:

- رددوا بصوت عالٍ: لا إله إلا الله!

ردد الحشد:

- لا إله إلا الله.

خرج الموكب عن الطريق، وتوقف عند قبر تم حفره بالفعل. أنزلوا النعش وتجمع الحشد حوله، وتلا أحد الملالي بعض الآيات في مكبر للصوت.

- لقد فاز بالشباب الأبدي، ودخل جنة النعيم. لا تبكوا، فكل من على الأرض فاني، ولا دائم إلا الله. هنيئاً له الفردوس، دار الخلود للمسلمين. في الحياة، قد يكون هناك عدم مساواة، لكن الجميع سواسية في الموت!

تعالى صرخات الناس حول النعش بينما رفعت مجموعة من الرجال الجثمان الملفوف في ملاء بيضاء ووضعوه في الحفرة. وقفت إلى جانب زاري، وارتجفت ركبها وهي تطلق صرخة يائسة. اقتربت منها وأمسكتها، وأدركت من ثقل جسدها أنها فقدت كل قوة في ساقها. ساعدني أحمد وفهيمه على إسنادها.

عند القبر، رمت امرأة شابة نفسها في الحفرة، وصرخت بأنها تريد أن تُدفن مع زوجها الحبيب. من اتجاه نظرات زاري، أدركت أنها تراقب المشهد، فأدركتها للتأكد من أنها لن ترى مزيداً من عملية الدفن.

كان هناك رجلان على الجانب الآخر من الطريق يراقبانا، وسمعت أحمد يطلق السباب.

- أولاد الزواني!

التفتنا جميعًا ونظرنا. لا بد أنهما عميلا السافاك اللذان علينا التعامل معهما. ارتدى الرجلان بدلتين وقميصين أسودين. كان أحدهما طويل القامة، والآخر قصيرًا وممتلئ الجسم. شعرت بالغثيان بمجرد التفكير في مهنتهما القذرة، ووخزني ألم حاد في قلبي، وغلى الغضب بداخلي. أمسكت فهيمه يد أحمد.

- عزيزي، أرجوك، لا تقل شيئًا، أتوسل إليك. لقد وعدتني يا حبيبي. حاولت أن تمسك وجه أحمد بيديها، وأن تبعد نظره عن الرجلين إلى وجهها. - انظر إليّ. أنا أحبك. أحبك، وسأقتل نفسي إذا قبضوا عليك. لقد وعدتني، أرجوك.

لم يستطع أحمد أن يرفع عينيه عن الرجلين على الجانب الآخر من الطريق. التفتت إليّ فهيمه وقالت:

- أرجوك اطلب منه أن يهدأ، أتوسل إليك. سيلقون القبض عليكما، وسيقتلنا ذلك. أرجوك، أتوسل إليك!

همست إليّ زاري:

- أرجوك، امنعه.

عندما نظرت إلى الرجلين، بدأ جسدي يرتجف. تركت زاري وخطوت خطوتين نحو الطريق. أمسكت زاري بذراعي اليسرى وتعثرت وهي لا تزال واهنة بفعل الحزن، فأمسكتها قبل أن تسقط. همست في أذني: - أرجوك.

استدردت وألقيت نظرة أخرى على الرجلين على الجانب الآخر من الطريق. انضمت إليهما امرأتان وثلاثة أطفال، وابتعدوا جميعًا. شعرت بالحرَج، وأدركت أن أحمد شعر بالحرَج أيضًا.

انفجرت فهيمة في بكاء مرير، وارتجف جسدها وهي تجلس على الرصيف. حاول أحمد تهدئتها لكنها لم تستطع التوقف عن البكاء. همست إليّ زاري أن أحضر لفهيمة بعض الماء. ساعدت زاري على الجلوس على الأرض بجانب فهيمة، ثم أسرعرت مبتعداً. عندما عدت، أشارت إليّ فهيمة أن أجلس بجانبها. أحاطت كتفي بذراعيها وواصلت البكاء.

- سيستمع إليك، أرجوك اطلب منه أن يهدأ عندما يصلون إلى هنا، وعدني بأنك ستفعل الشيء نفسه، عدني.

وعدها، وتوجهت نحو أحمد الذي وقف يدخل سيجارة على بعد خطوتين. قلت له:

- دعنا نبقَ هادئين.

أوماً أحمد برأسه بتوتر.

بعد بضع دقائق، تقدم نحوي صبي صغير وسلمني ورقة. قال إن رجلاً طلب منه أن يعطيني الورقة. نظرت إلى الورقة بينما اقترب مني أحمد وفهيمة وزاري بقلق. احتوت الرسالة على توجيهات مفصلة للوصول إلى القبر. بدأنا في السير، وانعطفنا يساراً في الشارع الثاني، ثم يميناً في الطريق التالي، وتبعنا مساراً دائرياً قادنا إلى ما وراء مبنى يغسلون فيه جثث الموتى. كلما اقتربنا من وجهتنا، تزايدت خفقات قلبي قوة وعنفاً. تثبتت فهيمة وزاري ببعضهما، وأحمد خلفهما بخطوتين. وصلنا إلى قبر من دون شاهد. كان القبر الثالث بعد المبنى، والرابع من الرصيف، ويغطي حجر كبير مستدير النصف السفلي منه، تماماً كما ذكرت الرسالة.

نظرت إلى أصدقائي وأشارت إلى القبر. بدأت كتفا زاري ترتعشان بعنف. لم يكن هناك ما يعزيها في حزنها. جلست بجانب القبر، وجلست فهيمة بجانبها، وغمغمت بأدعية غير مفهومة بينما انهمرت الدموع من أعينهما.

مالت زاري فوق القبر ولمست الطين الرطب بيديها. همست وهي تستدير لتنظر إليّ:

- لقد وُضع هنا للتو.

جلست بجانبها، وأحطتها بذراعي لجزء من الثانية. همست إليّ زاري:

- لم يقتلوا الدكتور فقط، بل قتلونا جميعًا، أليس كذلك؟

نظرت في عينيها، وأدركت أنني سأبكي إذا فتحت فمي.

قالت زاري:

- لقد دمروا حياتنا بقتلهم له: والده ووالدته ونحن. لن يعود أي شيء إلى

سابق عهده، لن يعود أي شيء إلى سابق عهده أبدًا.

ثم وضعت ذراعيها ببطء حول القبر، بينما لامس وجهها الأرض الموحلة.

وقفت واتخذت مكاني بجانب أحمد، ونظرنا إلى بعضنا. أدركت أن كلينا يريد

البكاء، لكن يجب الوفاء بالوعد، خصوصًا عندما يكون وعدًا لأعز أصدقائك.

لقد فشلت في الوفاء بوعدي للدكتور عندما طلب مني الاعتناء بفتاته، ولن أخذل

صديقًا آخر.

أغمضت عينيّ وحبست أنفاسي بينما قلبي يخفق بشدة. نظرت إلى يميننا

ورأيت عددًا من المباني. كانت هذه هي المقابر الخاصة بالأثرياء، الذين يستطيعون

تحمل تكاليف تشييد بناء حول مثواهم الأخير. بدت هذه المقابر مهيبة بفعل

الأمعة الضخمة العالية، والسلالم المشيدة من الحجر الرملي، والبوابات الكبيرة.

تذكرت كلمات الملا عند البوابة. في الحياة، قد يكون هناك عدم مساواة، لكن

الجميع سواسية في الموت.

يا لها من مزحة. نظرت إلى قبر الدكتور المتواضع، ولم أصدق أن جثمانه

مدفون على بعد أمتار قليلة من المقابر الخاصة بالأثرياء.

كان أحد كتب الدكتور المفضلة هو كتاب الأم لمكسيم غوركي. لا بد أنه

يتساءل لماذا لم تأت والدته لرؤيته. هل يعلم أن والده في المستشفى؟ هل يتمنى

لو لم أكن هنا؟

بدأت أحادثه في ذهني، وأخبرته بأنني آسف لوقوعي في حب فتاته. كان هذا

قدري. أعلم أنه لا يؤمن بذلك، لكنني أحتاج إلى الإيمان بهذا. أخبرته بأنني

سأعنتي بزاري، وسأحبها ما حييت. وأخبرته بأنني أحبه، وأنني لو لم يحدث هذا لرحلت بهدوء، لأنني لم أكن أنوي سرقة فتاته. توسلت قائلاً:
- أرني إشارة، دعني أعرف أنك تتفهم الأمر، وأنتك سامحتني.

أحسست بشخص يقف خلفي، فاستدردت ووجدت إيراج. بدا شاحباً، يلهث ويتصبب عرقاً. قال إنه لم يكن لديه ما يكفي من المال ليستقل سيارة أجرة، لذلك استقل الحافلة ولهذا السبب تأخر.

وقفت أنا وأحمد جنباً إلى جنب. خطوات خطوة جهة اليمين، وقف إيراج بيننا بحيث صار ثلاثتنا الآن جنباً إلى جنب. نظرت إلى أحمد، فلم أرَ دموعاً في عينيه، كما وعدني. سمعت فهيمة وزاري تبكيان، ورأيت من طرف عيني ملا يقترب منا. سأل إن كان لدينا مانع أن يقرأ شيئاً من القرآن. مد أحمد يده في جيبه ليخرج بعض العملات المعدنية، وبدأ الملا خطبته.

جلست أنا وأحمد وإيراج بجانب القبر وتلونا دعاءً أخيراً للدكتور. كان شهر أكتوبر، وهبت رياح باردة قادمة من الشمال، فأرسلت رعشة في جسدي. وزادت السماء الرمادية الداكنة من المشاعر المؤلمة التي تدمي القلب، والتي جلبها أسوأ يوم في حياتنا حتى الآن.

كنت أبكي بهدوء في غرفتي في وقت لاحق من ذلك المساء، عندما سمعت طرقاً على نافذتي. رفعت نظري، فرأيت أحمد وإيراج يقفان في الخارج على الشرفة. فتحت الباب وسمحت لهما بالدخول، وأدركت من أعينهما الحمراء أنني لست الوحيد الذي كان يبكي. أشعل أحمد سيجارتين وأعطاني واحدة. قال إيراج إنه يريد واحدة أيضاً، فتردد أحمد للحظة. أومأت له أن يشعلها، ففعل، ودخن إيراج سيجارته كأنه اعتاد التدخين طوال حياته.

طلبت منهما الانتظار هناك، ثم هرعت إلى الطابق السفلي وأخذت زجاجة فودكا سميرونوف الخاصة بوالدي من الثلاجة، كما أحضرت أيضاً ثلاث كؤوس صغيرة وزجاجة كوكاكولا. أسعدني وجود والدَي خارج المدينة، حيث كانا

سيعترضان على كل ما فعلناه اليوم. في غرفتي، فتحت الزجاجاة وقلت لإيراج وأحمد إن علينا إحضار زجاجة أخرى بدلاً منها قبل عودة والدي. سألتهما:

- هل سبق لكما تناول هذا؟

هزأ رأسيهما.

- لا.

كانت المرة الأولى التي تناولت فيها الفودكا مع والدي، عندما كنت في السادسة عشرة من عمري. صب لي كأساً وأخبرني بأنه يريدني أن أتناول مشروبي الأول معه، وشجعني على عدم إخفاء أي شيء عنه أبداً. ربما سيكون من الأفضل لو أخبرته بما فعلناه اليوم بدلاً من استبدال الزجاجاة في الخفاء. قلت لهما:

- يقول أحد أعمامي إنه لا يمكنك أن تعد نفسك رجلاً حتى تشرب أول كأس من الفودكا.

وأضفت وأنا أتذكر حديث والدي عن الأمر:

- هناك طقوس يجب احترامها. لا بد أن يكون الساقى، الذي يصب المشروبات، عادلاً. يجب أن يصب للجميع بالتساوي.

ملأت الكؤوس بعناية، وتأكدت من احتوائها جميعاً على القدر نفسه من الفودكا بالضبط، وسألتهما:

- هل تعرفان كيف تشربان هذا؟

فهزأ رأسيهما مرة أخرى.

- التقطا كأسيهما.

ففعلا.

- اضربا كأسيهما معاً، هكذا.

لامست حافة كأسى منتصف كأسيهما.

- كما تريان، ليس من المفترض أن تدعاني أفعل ذلك. إن قرع الكؤوس

والتأكد من أن كأسك ليست أعلى من كأس رفاقك في لحظة التلامس
هما علامتان على الاحترام.

انتهيت من المحاضرة، وجرعت كأسي، وشرب إيراج وأحمد كأسيهما.
أدركت أنهما يشعران بالسوء مثلي عندما نزلت الفودكا، وأحرقت كل شيء من
ألسنتنا وصولاً إلى سُرَّاتنا. أخذ كل منا رشفة من زجاجة الكوكاكولا، وملأت
كوؤوسنا مرة أخرى بدقة وإتقان مثل سباق قديم.
قلت:

- يجب أن نشرب كأسين متتاليتين لنضمن الانتشاء كما ينبغي.
شربنا كأسنا الثانية ثم الثالثة، وشعرت بالنشوة بالفعل. جلسنا بهدوء فترة من
الوقت قبل أن يغمغم أحمد:
- لقد كان تناول الشراب اليوم هو أفضل فكرة خطرت ببالك.
تقبلت مديحه بإيماءة.

ثم امتلأت عيناه بالدموع، وتابع:
- هذا هو أفضل شيء لقتل الألم. أعرف بماذا تفكر، لكننا لم نَعُدْ في المقبرة.
كبرت الغصة في حلقي أكثر فأكثر، وقلت لإيراج وأنا أحاول حبس دموعي:
- كانت شجاعة منك، أن تقدم على ما فعلته اليوم.
أوماً أحمد برأسه موافقاً. وضعت ذراعي حول كتفي إيراج وقلت:
- أنا أحبك حقاً. سأحبك مثل أخي الصغير، حسناً؟ ستكون أخي الصغير
من الآن فصاعداً.

بدأ إيراج، الذي طغى عليه الانفعال والسكر بسبب الكحول، في البكاء.
صاح أحمد قائلاً:
- أنا أيضاً، لن أضايقك مرة أخرى.
قلت له:

- لقد كان ظهورك اليوم علامة أكيدة على أنه على الرغم مما يحدث يوماً
بعد يوم، فإن الروح الإنسانية لا يمكن تدميرها. لا أحد يستطيع تدميرها،

لا الشاه، ولا السافاك اللعين، ولا وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية،
لا أحد، أعني لا أحد يستطيع المساس بها.
ثم أجهشت بالبكاء.
قال إيراج:

- لقد أحببت الدكتور، كما أحبكما يا رفيقي. أحبكما، أحبكما حقًا. لم
أستطع الوقوف مكتوف اليدين وأنا أشاهدكما تعرضان نفسيكما للخطر.
مستحيل، وتبًا لأولئك الأوغاد من السافاك، وأسيادهم الغربيين، والخادم
الكبير للغرب. تبًا لكل من يريد أن يضعني في السجن لأنني وقفت إلى
جانب صديقي حدادًا على وفاة بطل، تبًا لهم جميعًا. لا يهمني إن كان
عليّ قضاء بقية حياتي خلف القضبان، لا يهمني ذلك حقًا. تعلمت اليوم
أن الصداقة تستحق التضحية من أجلها. أثبت الدكتور أن الحياة ثمن زهيد
تدفعه من أجل معتقداتك.

مسح إيراج الدموع عن وجهه بكُمّي قميصه، وتابع:
- لست متأكدًا مما يدور في قلبي الآن، لكنني أعلم أن شيئًا كبيرًا يحدث هناك.
شيء ما يحاول أن يسحبني إلى الداخل، أفهمان ما أعنيه؟ لست متأكدًا
من ماهيته، لكن هناك شيئًا ما. هناك شيء ما حقًا. هذا ما يحدث، أليس
كذلك؟ أعتقد ذلك. يحدث شيء ما بداخلك، ثم ينتهي الأمر.

راقبته أنا وأحمد وهو يتحدث. بكيت مرة أخرى كطفل صغير، وأنا ثمل تمامًا
بفعل الفودكا، وقلت:

- أحبه مثل أخي الصغير.

همس أحمد:

- وأنا أيضًا.

ثم عانق إيراج بثاقل.

سيطر عليّ شعور غريب، شعور يصعب وصفه. لا بد أن هذا ما أسماه إيراج
«شيء ما».

شجيرة الورد

لن يعرف أحد أبداً ثمن الرصاصة التي قتلت الدكتور. فقد حُظر والداه من الحديث عنه، وفُرض عليهما ترك شاهد قبره خالياً إلا من اسمه. وكان بوسع أفراد العائلة زيارة القبر كما يحلو لهم، لكن مع الامتناع عن تشجيع الآخرين على زيارته. ولم تُصدر شهادة وفاة للدكتور، كما أُتلفت جميع الوثائق المتعلقة بميلاده. بالنسبة إلى العالم، لم يكن للدكتور أي وجود قَطُّ. كما صودرت كتبه وبقية متعلقاته خلال فترة سجنه، ولم تُعد. تذكرت قول جدتي بعد وفاة أحد أفراد العائلة البعيدين، إن الأرض تبرد. أعتقد أن ما كانت تقصده هو أن دفن أحد الأحبة يهيئ الأسرة للانتقال إلى المرحلة التالية في عملية الحزن. ولهذا السبب يشجع الإسلام على الدفن الفوري للمُتوفى. في إيران، نستغرق وقتاً طويلاً للمضي قُدماً، حيث نحزن عامًا كاملاً على وفاة أحد أحبائنا. نجتمع في اليوم الثالث، والسابع، والأربعين بعد وفاة شخص ما، ويُقدم الشاي والشربات والحلويات. يحضر الأصدقاء والمعارف وأفراد العائلة حاملين الأزهار لتقديم التعازي، ويتكرر النوع نفسه من التجمعات في الذكرى السنوية الأولى للوفاة. وطوال العام الأول، يرتدي أفراد العائلة ملابس سوداء ويمتنعون عن حضور الحفلات أو الاحتفال برأس السنة الجديدة أو أي عيد وطني آخر.

في حالة الدكتور، أبلغ السافاك عائلة زاري أنه لن يُسمح لأحد بارتداء السواد، ولن يُسمح بالتجمعات، خصوصًا في اليوم الأربعين بعد وفاته، الذي يصادف عيد ميلاد الشاه.

كنت أبحث في غرفتي عن شيء ما عندما وجدت بالمصادفة كتاب الذبابة، الكتاب الذي أهداني إياه الدكتور، وهو قصة شاب ثوري متحمس يُقتل بسبب معتقداته. قرأته في أقل من يومين، وجذبني أسلوب الكتابة القوي الذي يعود إلى القرن التاسع عشر، وحماسة وتألق نضال البطل وتضحيته. فهمت الدكتور بشكل أفضل نتيجة لذلك، وتمنيت لو أنني قرأت هذا الكتاب عندما كان لا يزال على قيد الحياة! هل كان يعلم بالمصير الذي ينتظره، وهل طلب مني قراءته لهذا السبب؟

أُتلفت كل كتبه ما عدا هذا الكتاب، هذه الهدية الخاصة التي في حوزتي الآن. لن أتخلّى عنها أبدًا. يجب أن يسمع كل الأطفال في الزقاق قصة الذبابة، ويجب أن يعرفوا جميعًا الدكتور كما أعرفه أنا. إن لم يكن بوسعي أن أفعل له شيئًا آخر، يمكنني أن أخبر الجميع بأن الدكتور كان ثوريًا لا يخشى فقدان حياته. يجب على جميع مَنْ عرفوه أن يفخروا بعلاقتهم به، ولا بد أن يشعروا بأنهم مميزون لأنه نادرًا ما تتقاطع مساراتنا مع مسارات الأبطال الحقيقيين. سأخبر الجميع بأن السافاك منعنا من رثائه خوفًا من أن يلهمنا ذلك أن نحيا بطريقة تجعل موته ذا قيمة.

اعتقل السافاك عددًا من زملاء الدكتور في الجامعة، بزعم أنه كشفهم بوصفهم مشاركين في أنشطة مناهضة للنظام. وعلى الرغم من هذه الاتهامات الملفقة، فإن قصص شجاعة الدكتور ملأت الحي.

قال أحد الجيران:

- لم يسمح لهم بعصب عينيه.

وتباهى آخر قائلاً:

- ظل يصرخ: «الموت للشاه!» إلى أن أطلقوا عليه النار.

أدرك الجميع أن السبب الحقيقي لاعتقال الدكتور وإعدامه سيبقى لغزاً إلى الأبد. لن يفصح السافاك أبداً عن السبب الحقيقي. وفي ظل غياب الحقائق، شملت التكهنات والشائعات مجموعة من التفسيرات، بدءاً من تورطه في مؤامرة للإطاحة بالشاه إلى مجرد كونه ناشطاً طلابياً. قلت لأحمد إنني أعتقد أن صداقته الشخصية مع كلسرخي - الوردة الحمراء - لا بد أن تكون قد لعبت دوراً في إعدامه. قلت له:

- لو سُئِلَ عن صديقه، لأظهر القدر نفسه من التحدي مثله، ولصار هو أيضاً وردة حمراء دمرها السافاك.

ثم أخبرت أحمد لأول مرة بأن الدكتور كان الشخص الذي نشر ملصقات الوردة الحمراء في جميع أنحاء الحي ليلة إذاعة محاكمة كلسرخي على الهواء. هز أحمد رأسه في دهشة.

- يا إلهي! كيف لم تخبرني بهذا من قبل؟
وقبل أن تتاح لي الفرصة للرد، أضاف:

- لا عليك، كنت سأفعل الشيء نفسه على الأرجح.

أردت أن أفعل شيئاً مميزاً للدكتور، لكنني لم أستطع التفكير في وسيلة تليق بإحياء ذكرى وفاته من دون مخالفة تعليمات السافاك. وبينما كنت أفكر في تلك الليلة التي ضبطت فيها الدكتور وهو ينشر ملصقات الوردة الحمراء، خطرت في ذهني فكرة، شيء قد يدبر له أحمد. زرعت جيئة وذهاباً في غرفتي طوال الليل إلى أن اتخذت قراراً في النهاية وخرجت إلى البقعة في الرقاق حيث ضُرب الدكتور أول مرة، وحيث سالت دماؤه.

في صباح اليوم التالي، حسبت مبلغ المصروف الذي ادخرته وأدركت أنني بحاجة إلى اقتراض المال من أحمد، فوافق على إقراضي إياه من دون أن يسألني عن السبب. ذهبت إلى أحد المشاتل واشترت شجيرة ورد وبعض السماد، وعدت بهما إلى المنزل في سيارة أجرة، وأخذت كل شيء إلى القبو

من دون أن يراني أحد. وجدت في القبو مجرفة قديمة صدئة وزوجين من قفازات البستنة، كما وجدت الخرطوم الذي تستخدمه والدتي لسقي نباتاتنا، وأوصلته بصنبور قريب من الباب. في وقت متأخر من تلك الليلة بعد أن تأكدت من نوم الجميع، ذهبت إلى المكان وحفرت حفرة بعمق ثلاثين سنتيمتراً وعرض أربعين سنتيمتراً. تأكدت أن التربة جافة ونشرت خمسة سنتيمترات من السماد الطبيعي قبل وضع الجذور في الحفرة وتغطيتها بالتراب. سقيت النبات بعناية لأتأكد من استقرار التربة جيداً حول الجذور، ثم جمعت أدواتي واختفيت في المنزل.

نمت كالطفل الرضيع في تلك الليلة. وفي صباح اليوم التالي، هرعت إلى الطابق السفلي وخرجت إلى الزقاق. تجمع كل من في الحي حول النبات، وكانوا جميعاً يتحدثون في الوقت نفسه.

- من زرع هذه النبتة؟

- لماذا؟

- نعم، لماذا وردة حمراء؟

- لماذا هنا؟ هذا غير منطقي.

- أوه، وردة حمراء! هل تذكر الملصقات؟

- الملصقات؟ أوه، نعم، الملصقات، أتذكر الملصقات.

- الأحمر هو لون العاطفة، ولون الثورة.

- الأحمر لون الحب أيضاً.

- ولون الدم.

فجأة، هدا الجميع عندما تذكروا أن هذا هو المكان الذي أريق فيه دماء الدكتور، وساد الأجواء صمت مهيب. التفت أحمد ونظر إليّ. لم يقل شيئاً، لكن نظراته الصامتة نطقت بالكثير، فنحن الفرس أساتذة في التواصل الصامت. دخلت إلى المنزل وعدت بإناء السقي.

قال أحدهم من بين الحشد، بينما أسقي النبتة:

- يجب أن تتناوب على رعاية هذه الشجيرة.
وافقه الجميع.
- نعم، يجب علينا ذلك، من أجل الدكتور.

عرض الزقاق

لم يعرف أحد شيئاً عن وضع السيد مهربان في السجن. أتت السيدة مهربان إلى منزلنا كل يوم لقضاء بعض الوقت مع والدتي، وبدأت أكبر سنّاً من المرّة الأولى التي رأيته فيها، عندما كان لون فستانها وحذاءها وحقيبتها متناسقاً، ومكياجها موضوعاً بعناية، وشعرها نظيفاً ومصفّقاً بأناقة. بدت كأنها لم تُعد تهتم كثيراً بمظهرها في هذه الأيام. كانت تبكي باستمرار، وتتساءل عن حالة زوجها الجسدية والعقلية في السجن. بذلت والدتي قصارى جهدها لتهدئتها، وقدمت لها شاي أعشاب خاصاً معدّاً لمقاومة الاكتئاب.

تذمرت السيدة مهربان بأدب:

- طعمه مر.

أوضحت والدتي قائلة:

- كلما زادت مرارة مذاقه، زادت قوته العلاجية.

وشجعت والدتي صديقتها على إنهاء المشروب.

قالت السيدة مهربان إن ابتعادها عن زوجها أكثر صعوبة هذه المرّة لأنها اعتادت وجوده معها. كانا يتحدثان بحسرة عن السنوات الضائعة، ولم يكونا يعلمان أنه سيغيب مرة أخرى. كم سيطول الأمر هذه المرّة؟ لم يُعد شاباً، وبالنظر

إلى حالة قلبه، الله وحده يعلم إن كان بإمكانه تحمل الإيذاء النفسي والجسدي الذي يتعرض له السجناء يوميًا.

تابعت السيدة مهربان قائلة:

- يا لها من مضيعة للوقت! فالجميع يعلم أن الشاه لن يُطاح به أبدًا. ما ينبغي للمعارضة أن تفعله هو إيجاد طريق إلى الحكومة، والتأثير في القرارات والقوانين التي تمس المتضررين من الظلم. الثورة أمر غير وارد، فلماذا العناء؟

وأضافت أن السيد مهربان اعتاد التعبير عن قلقه الشديد بشأن الجيل الجديد من السجناء في سجون السافاك. أخبرها بأنه منزعج من الصبغة الدينية القوية في تفكير وفلسفة الثوريين الشباب، وكان يعتقد أن صعود الأصولية الدينية من شأنه أن يخلق حواجز جديدة لا يمكن التغلب عليها أمام تحقيق الديمقراطية في إيران. أوماً والذي برأسه وقال إن السيد مهربان كان دائمًا دقيقًا في تحليله للأوضاع السياسية.

في أثناء حديثنا في إحدى الأمسيات، ذكرت والدتي وضع الدكتور من دون قصد. كنت جالسًا على بُعد أمتار قليلة من السيدة مهربان، فرأيت وجهها يشحب بينما برزت تجاعيد القلق من جبينها، كأن صدمة مفاجئة أصابت جسدها. خففت رأسها، وأخذت بضعة أنفاس قصيرة ومتقطعة، ثم سقطت، فأمسكتُ بها قبل أن يرتطم وجهها بالأرض. وبَّخ والدي والدتي على ذكر الدكتور، واندفع نحونا صائحًا:

- أحسنت بالتقاطها يا بُني. لنأخذها إلى غرفة النوم.

ترهل جسدها وتدلّى، وتدلّت ذراعها في الهواء وأنا أحملها إلى غرفة النوم. كانت ثقيلة، لكنني صممت على حملها من دون مساعدة والدي، الذي تأخر خلفنا بخطوة واحدة. هرعت والدتي إلى المطبخ لإحضار أحد علاجاتها الطبيعية، وخفق قلبي بشدة، وأنا متأكد أن السيدة مهربان قد ماتت بسبب نوبة قلبية.

تداعت عضلات وجهها، تاركة جلدها شاحبًا ومغضنًا، وتحولت شفتاها إلى

اللون الأزرق، كما لو أنها لا تحصل على أي أكسجين. وضعتها على الفراش ووضعت ذراعي تحت عنقها في محاولة لإبقاء رأسها مرفوعًا. عادت والدتي بالماء الساخن والسكر، واستخدمت ملعقة صغيرة لتقديم السائل للسيدة مهربان. تبادل والدائي الحديث، وأصدر الأوامر بينما يهويان عليها بجريدة، ويرشان الماء البارد على وجهها، ويطلبان مني إبقاء رأسها مرفوعًا.

استعادت السيدة مهربان وعيها في غضون ثوانٍ قليلة، وبدأت تتحب بمرارة وهي تلعن الشاه وعائلته والسافاك والأمريكيين والبريطانيين الذين يدعمونه ويبقونه في السلطة.

عندما ذهبْتُ إلى الفراش، وجدت صعوبة في النوم، وشعرت بالقلق على السيد مهربان ومصيره في سجن الشاه. هل يضربونه الآن؟ هل يحرقون جلده مرة أخرى كما فعلوا في المرة السابقة؟ هل يصرخ؟ هل يبكي طالبًا الرحمة؟ أم أنه متمرد وثابت في كراهيته للنظام، كما كان «الوردة الحمراء»، وكما كان الدكتور على الأرجح؟ تمنيت أن يظهر أحمد مع سجائره.

عندما غفوت أخيرًا، حلمت بليلة القبض على الدكتور. رأيت الرجل الذي يحمل جهاز اللاسلكي، عيناه تحدقان، مثبتتان عليّ، وشفتهاه تهمسان في اللاسلكي، وقبضته تصطدم بخد الدكتور. رأيت عينيه المتربصتين مرة بعد مرة. بدا حاجباه رفيعين، وجبينه مغضنًا، وشعره الطويل مصفّفًا للخلف بشكل مرتب. كرهته، وأردت أن أهرع إلى الطابق السفلي وأمنعه من ركل الدكتور، لكنني عجزت عن التحرك.

ثم حدثت إليّ عينا الدكتور. لا بد أنه يتساءل أين طائرة الهروب، ولماذا لا أضحي بنفسني لإنقاذه هو وزاري، كما فعل همفري بوجارت في فيلم كازابلانكا. لا بد أنه يتساءل لماذا كشفت أمره. أرسل إليّ الرجل الذي يحمل جهاز اللاسلكي قبلة في الهواء. فتحت فمي، وخرج صوتي من صمته وأنا أصرخ بأعلى صوتي.

عادة ما يكون شهر أكتوبر معتدلًا في طهران، لكن الجو كان باردًا هذا العام على

وجه الخصوص. وعلى الرغم من أنه لم يعد من الممكن النوم على السطح، فإنني أنا وأحمد ظللنا نقضي كثيرًا من الوقت هناك. كلما ازداد الطقس برودة، ازداد زقاقنا هدوءًا، وصار انسحابنا إلى أعماق أرواحنا أكثر هدوءًا بينما نبحث عن إجابات لما يبدو غير مفهوم وغير عادل على الإطلاق. شعرت بتغير في فهمية، وأحمد، وفي نفسي. ازداد تقاربنا، وكل يوم بعد انتهائي أنا وأحمد من فصولنا الدراسية، كنا نسرع إلى مدرسة فهمية لنوصلها إلى منزلها. قضينا ساعات ونحن نتجول في الشوارع معًا، وأحيانًا من دون أن نتفوه بكلمة واحدة، ومع ذلك في نهاية اليوم وجدنا صعوبة في توديع بعضنا. عندما كنا نتحدث، دائمًا ما كان الحديث عن مستقبل بعيد جدًا، عن وقت نصير فيه جميعًا بالغين وموسرين ومتعلمين ونسافر حول العالم. لم يرغب أحد منا في أن يكون حاضرًا في أعقاب وفاة الدكتور. خلال حديثنا، ناقشنا أمر والدَي الدكتور، وقسوة السافاك، وحقيقة أن الأمر يبدو كأن أحدهم نثر غبار الموت على زقاقنا. تدمرنا من هشاشة الحياة وغياب المروءة وديمومة الشر على ما يبدو.

لم أذكر زاري على الإطلاق، لكن فهمية شعرت بما لم أفصح عنه. قالت إن زاري تمضي معظم وقتها في منزل الدكتور، ترعى والدته التي يقول الجميع إنها «مجنونة على نحو لا يرجى شفاؤه».

قالت فهمية:

- لا تأكل المرأة المسكينة أي شيء، ولا تتكلم. تجلس طوال اليوم بلا حراك وتحقق إلى الباب، كأنها تنتظر وصول الدكتور. تحتضن أحد قمصان الدكتور وتشم رائحته، وتضغط به على وجنتيها وتبكي بهدوء.

أضافت فهمية أنها قلقة من تأثير كل هذا في نفسية زاري.

- أعتقد أنها تلوم نفسها، كما لو كان عليها أن تعرف عن أنشطة الدكتور وتمنعه. تقول إنها لم تنتبه قط لما كان يفعله، وفي كل مرة حاول فيها مناقشة الأمر معها كانت ترفضه باعتباره حديثًا سياسيًا، وهو ما كانت تكرهه.

همست وأنا أفكر في أنني أنا الذي يجب عليه تحمّل اللوم على كل شيء:

- كيف لها أن تلوم نفسها؟

تابعت فهيمة:

- لا تستطيع أن تصدق كم كانت ساذجة بشأن الشاه والسافاك. كانت تجادل الدكتور بأن منظمة السافاك ربما لا يكون لها وجود من الأساس، وأنها في الغالب نتاج خيال طلاب الجامعة النشط. تلك المسكينة، تمنى لو كان بإمكانها التراجع عن كل ذلك.

في أحد الأيام، بعد أن ودعنا فهيمة، قال أحمد إن علينا مواصلة المشي، لأن المشي يصفى الذهن، ويساعدنا على رؤية المشهد كاملاً.

مشينا لساعات، وشعرت بأنني لأول مرة في حياتي أستوعب الكون من حولي: الأزقة الضيقة، والطرق الترابية غير الممهدة، وهوائيات التلفزيون القبيحة الخالية من الحياة على السطوح، والطريقة التي تتداخل بها أزقتنا مع بعضها على نحو شبيه بالمتاهة. لاحظت صخب الحياة غير المعتاد من حولنا: أطفال يلعبون كرة القدم، والأمهات ينادين عليهم، وسيارات بكواتم صوت مكسورة تمر من حولنا، وتطلق أبواقها. ذكرني كل ذلك الضجيج بما كان عليه زقاقنا قبل القبض على الدكتور. كانت الحياة، كما أتذكرها، أشبه بفيلم موسيقي ملون يُعرض على شاشة السينما. أما الآن فهي أشبه بصورة فوتوغرافية قديمة بالأبيض والأسود تجعدت وتحولت إلى اللون الأصفر.

في طريقنا إلى المنزل، توقف أحمد عند ناصية أحد الأزقة ونظر إلى لافتة الشارع المعلقة على الجدار.

سألته:

- ما الخطب؟

قال:

- لا شيء.

وواصل المشي. توقف مرة أخرى عند الناصية التالية، ونظر إلى لافتة الزقاق التالي.

سألته مجددًا:

- ما الخطب؟

- هل لاحظت كيف أن معظم شوارعنا وأزقتنا تحمل أسماء أفراد عائلة الشاه؟

- نعم، لاحظت ذلك.

قال بنظرة حيرة على وجهه:

- معظم هذه اللافتات تخبرك أيضًا بأبعاد كل زقاق أو شارع.

- ماذا تعني؟

- انظر، هذا الشارع يُسمَّى شارع العشرين مترًا لرضا بهلوي، أي أن هذا الشارع يبلغ عرضه عشرين مترًا. وهذا الشارع هو شارع الواحد والعشرين مترًا الفرح.

نظر إلى لافتة أخرى، وشرع في الضحك.

- هذا شارع الأربعة أمتار لدارابي. دارابي ليس من عائلة الشاه المباشرة، لذا فالشارع المخصص له أقل عرضًا.

أشار إلى شارع كبير على بُعد عدة بنايات وقال:

- هذا شارع الستين مترًا لشاهبور. إنه الأخ الأكبر للشاه، لذا حصل على الشارع الأعرض.

لم تكن لديّ أي فكرة ما الذي يهدف إليه أحمد بحديثه هذا. سألني أحمد:

- لماذا نحتاج إلى معرفة أبعاد كل زقاق وشارع؟

اقتربت أن عرض الطريق لا بد أن يكون عاملاً في تحديد قيمة العقارات في كل حي، لكن تعبير وجه أحمد كشف كونه يعرف أنني أخطئ. سألني:

- هل هذه القياسات صحيحة؟ اسم زقاقنا هو العشرة أمتار لشهناز. هل تعتقد حقًا أن زقاقنا بعرض عشرة أمتار؟

أجبتة:

- لا أعرف.

ارتسمت على وجهه نظرة قلق وقال:

- أشك في ذلك. ماذا لو لم يكن كذلك؟ يجب أن نقيس عرض زقاقنا.

- لماذا؟

- حسناً، ماذا لو لم يكن عرض زقاقنا عشرة أمتار؟

- مَنْ يهتم؟

قال وصوته مفعم بالانفعال:

- أنا أهتم. هل تعلم أن هذا يمكن أن يكون له تأثير مدمر في قيمة العقارات؟

ضحكت من الطريقة التي ردد لي بها ما سبق وتفوهت به من هراء.

عندما عدنا إلى زقاقنا، دخل أحمد إلى منزله وخرج حاملاً شريط قياس.

استدعى إيراغ وصبيّاً آخر، وبدأ عملية قياس عرض الزقاق. طلب من إيراغ

أن يمسك أحد طرفي الشريط، وطلب من الصبي الآخر أن يمشي عبر الزقاق.

مرت سيارة، ولوح أحمد للسائق بالتوقف. أخبر السائق بأنه مشغول بأمر مهم،

وأنه يقدر صبر السائق. وافق السائق، وأطفأ محرك سيارته. سألتني أحمد إذا كنت

أعتقد أنه ينبغي له أن يضم عرض الأرصفة إلى قياسه، فقلت إنه ربما ينبغي أن

يقيسه بكلتا الطريقتين.

تجمع الأطفال من جميع أنحاء الزقاق حول أحمد لمعرفة ما يفعله. ومرت

بضع سيارات أخرى، فأوقفها أحمد وأخبر السائقين بعمله المهم، من دون أن

يحدد العمل أو سببه. نزل السائقون من سياراتهم.

صاح أحمد في وجهي:

- عرضه اثنا عشر متراً وربع المتر تقريباً، إذا أضفت عرض الأرصفة. دوّن

ذلك.

لم يكن بحوزتي ورقة أو قلم رصاص، لذا اكتفيت بهز رأسي.

أصدر توجيهاته قائلاً:

- حسنًا، لنفقه من دون الأرصقة.

بدأ إیراج والصبی الآخر فی تحریک شریط القیاس. تجمع مزید من السیارات فی الزقاق، وجذبت الضجة کثیرًا من الناس. سد مشروع أحمد الزقاق ولم یعد بإمكان أحد العبور.

صاح أحمد فی إیراج:

- کم یبلغ عرضه؟

- تسعة أمتار ونصف المتر.

التفت أحمد إلى أحد البالغین وقال:

- لا یمکننی الوثوق بهذا الفتی. هلّا تفضلت بإمساک طرف شریط القیاس؟

تقدم الرجل وأخذ طرف الشریط من إیراج، الذی ركض إلى أحمد لیخبره بأنه کان یؤدي عمله بشكل صحیح. ابتسم أحمد وأشار إلیّ وقال:

- اذهب وقف بجانبه.

جاء إیراج نحوی، وعرفت من ابتسامته أنه أدرك فجأة ما یفعله أحمد. سأل

أحمد:

- کم القیاس الآن؟

قال الرجل:

- تسعة فاصل ستة أمتار.

التفت أحمد إلى إیراج ورمقه بنظرة قاسية، فابتسم إیراج وهز كتفيه. سأل

أحمد الرجل الثاني:

- هل أنت عند حافة الرصیف؟

فأجاب:

- نعم.

تقدم منه أحمد وتفحص وضع شریط القیاس. قسّم الناس أنفسهم بشكل

عشوائی إلى مجموعتین، ووقفوا خلف كل من حاملي شریط القیاس. اتجهت كل الأنظار إلى شریط القیاس وموضعِ حاملیه.

أغمض أحد الرجال إحدى عينيه، محاولاً تخيّل خط مستقيم بين حاملتي الشريط، وأمر قائلاً:

- هذا الاتجاه، إلى اليسار.

صاح رجل آخر من الجانب الآخر من الزقاق:

- لا، لا، هذا أبعد مما يلزم.

تراجع حامل شريط القياس إلى الوراء بضعة سنتيمترات، وبدأ عدد من الأشخاص في الجدال بأن الخط صار مائلاً بعض الشيء.
قال أحمد:

- من الصعب معرفة ذلك، فنحن نحاول تحديد استقامة خط وهمي. أرسل الأمريكيون رجلاً من الأرض إلى القمر مباشرة، بينما نعجز عن رسم خط مستقيم.

ثم نظر إلى إيراغ وسأله:

- هل تعرف لماذا استطاع الأمريكيون فعل ذلك؟

أوماً إيراغ برأسه بقوة وقال:

- نعم يا سيدي، لأن الأمريكيين هم أكثر الأمم انضباطاً في العالم!
قال أحد الرجال في الحشد إنه عامل بناء، وإنه يستطيع القيام بذلك وعيناه مغمضتان. ثم أخذ أحد طرفي شريط القياس بيديه وحركه على حافة الرصيف عدة مرات وقال:

- ها قد أصبح لديكم الآن خط مستقيم.

بدا الخط مستقيماً بالفعل.

سأله أحمد:

- ما القياس؟

أجاب عامل البناء:

- تسعة فاصل أربعة أمتار.

صاح أحمد بنبرة انتصار.

- هذا بالضبط ما أقصده! هذا الزقاق ليس بعرض عشرة أمتار.
نظرت حولي، فرأيت ما لا يقل عن خمسين شخصًا متجمعين في الزقاق.
توقفت حركة المرور تمامًا، لكن لم يبدُ أن أحدًا يهتم.
سأل أحد الرجال:

- هل هناك أهمية لذلك؟

أجاب أحمد وقد بدا الكثير من القلق في صوته:

- بالطبع هناك أهمية لهذا! قد يكون لهذا الأمر تأثير مدمر في قيمة العقارات.
تعتمد أسعار هذه المنازل على عرض الزقاق الذي بُنيت فيه. يمكن لمجلس
المدينة أن يعلن أن كل شيء في هذا الزقاق يساوي على الأقل خمسين
ألف تومان أقل من السعر الذي يحاول الناس بيعه به.
قال أحد الرجال بتخوُّف:

- لكن مجلس المدينة لا يتدخل في مثل هذه الأمور.

سأل رجل ثانٍ:

- هل أنت متأكد؟

صاح شخص آخر:

- بالطبع يتدخلون في ذلك.

- ماذا علينا أن نفعل؟

- يجب أن نقيس عرض كل شارع يحمل قياسًا متريًا قبل اسمه، وأن نكون
مستعدين لتقديم دليل على أن المنازل في هذه المدينة كلها مبالغ في
أسعارها.

أردت أن أضحك، لكنني سيطرت على رغبتي تلك، ورأيت في عيني
أحمد بريقًا أعرفه جيدًا. قال رجل إنه ليست لديه أي نية لبيع منزله، لكن إذا
قرر فعل ذلك، فلن يستطيع رئيس البلدية نفسه إجباره على تخفيض سعره.
قالت امرأة إنها وزوجها اشتريا للتو منزلهما في هذا الحي، ولو كانا يعلمان
أن الزقاق أضيق مما هو معلن عنه لربما بحثا عن مكان آخر. حاول عامل

البناء إقناع الجميع بأن بضعة سنتيمترات لا تهم حقًا، لكن لم يُعِره أحد أي اهتمام. انسحب أحمد تمامًا من المناقشات. نظر إليَّ وإلى إيراج وابتسم ابتسامة عريضة، فبادلناه الابتسام.

أثبت براءتك

في صباح اليوم التالي سمعت أمي تهمس إلى أبي بأنها خائفة حد الموت من أن أقع أنا وأحمد في ورطة خطيرة. قالت وصوتها مشحون بالذعر:

- لقد سمعتهما يتحدثان عن قتل الرجل الذي كان يحمل جهاز اللاسلكي. عليك التحدث معه ومع أحمد أيضًا. إنهما شابان قليلوا الخبرة ومنفعلان جدًا الآن. لا يمكنهما الاستمرار على هذا النحو.

ثم همست بنبرة حذرة، كأنها تخشى أن يسمعها أحدهم:

- هل تعلم أنهما ذهبا إلى موقع قبر الدكتور؟

أجاب أبي:

- لا.

توسلت إليه قائلة:

- ماذا لو رآهما العملاء؟ يا إلهي، لا يمكنني حتى تخيل ذلك. أرجوك،

تحدث إليهما.

أكد لها أبي أنه سيتحدث إلينا، لكن أمي واصلت:

- هناك شائعة في الزقاق بأن باشا هو من زرع شجيرة الورد خارج المنزل.

أدرك أنه غاضب ومكتئب، والله وحده يعلم ما قد يقوله أيضًا في المدرسة
أو للأولاد الآخرين في الزقاق!

في اليوم التالي، أجرى والدي محادثة خاصة مع والد أحمد. بعد دقائق
قليلة، استدعينا إلى غرفة جلوس أحمد، وأخبرنا والدي بأن عليه تولي أمر بعض
الأعمال الشخصية في الشمال، وأنه يفضل ألا يذهب بمفرده، وسيكون ممتنًا لو
ذهبت أنا وأحمد معه.

قال أبي بمجرد أن انطلقنا على الطريق:

- لا بد أن يبقى المرء حذرًا طوال الوقت، ففي هذا البلد، لا يحميك كونك
بريئًا من أن تلقى مصير المجرمين. هذا لأن لدينا كثيرًا من النوكر، أي
الخدم في هذا البلد. العبودية والولاء الأعمى هما ما ينتهجهما أولئك
النوكر.

ثم التفت إليّ وسألني:

- هل أخبرتك من قبل عن المهندس صادقي؟

أجبت:

- لا، من هو؟

شرح قائلاً:

- عندما كنت في السادسة من عمرك، كنت حارسًا في الغابة في مازندران.

لكزت جنب أحمد بمرفقي بحذر. لطالما حكى والدي قصصًا رائعة عن
سنوات شبابه. أوما أحمد برأسه عدة مرات وغمز لي من دون أن ينظر إليّ
ليعلمني أنه يستمع.

- كان الشاه قد أمم الغابات للتو، وكُلفت بمهمة منع السكان المحليين من

قطع الأشجار. كان أحد إخوة الشاه نفسه يخرق القانون على بُعد بضعة

كيلومترات فقط من مكان عملي، لكنني لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك. كنت

جالسًا في مكتبي ذات يوم عندما وصل مفتش حكومي من طهران. كان

اسمه المهندس صادق، وهو رجل يدّعي أنه ذو نزاهة ومبادئ عالية. قال لي إنني متهم بقبول رشوة للسماح بعمليات قطع الغابات غير القانونية في منطقة كوهدهشت. وإذا ثبتت إدانتي، وهو الأمر الذي كان متأكدًا منه، فإن عقوبتي ستكون ستة عشر عامًا في سجن إيفين، لأن المحاكم العليا تفسر عصيان أوامر الشاه بوصفها خيانة.

أشعل والذي سيجارة وأخذ نفسًا عميقًا. أدركت من النظرة التي علت وجه أحمد أنه يريد سيجارة أيضًا، لكنه بدا مستغرقًا تمامًا في قصة والذي.

تابع والذي:

- أخبرته بأنني لم آخذ رشوة في حياتي قط، فضحك وقال إن إنكاري لم يكن غريبًا بالنسبة إلى رجل بمبادئ الفاسدة. طلب مني أن أسلمه شارتي وأتبعه إلى سيارته الجيب، حيث سيأخذني إلى طهران لتلقي الحكم الذي أستحقه. لا يتمتع المتهم بأي حقوق في هذا البلد، ففعلت ما طلبه مني. سألته إن كان بإمكاننا التوقف عند منزلي لإبلاغ زوجتي بمحتني، فأجابني بالنفي، واستمر في القيادة باتجاه طهران.

كان رجلًا غريب الأطوار، ثرثارًا بشكل مدهش وصريحًا بوحشية. لم يبدو مكترثًا لعدم اهتمامي بحكاياته الطويلة عن أسلافه الذين كانوا مخلصين لأسرة الملك مثل الكلاب. كان والده خادمًا مخلصًا لرضا شاه، وكذلك جده. وذكر أن رضا شاه أخبر والده بأن عائلته ستحظى بأفضل معيشة ما دام آل بهلوي على العرش. وزعم أن آل صادقي كانوا من الناس ذوي النزاهة العالية الذين لا يمكنهم أن يفكروا في قبول صدقة من أي شخص، بمن في ذلك الملك نفسه.

كما تحدث عن ابنه وزوجة ابنه المستقبلية التي كان يحبها. كان من المقرر أن يتزوجا في غضون شهرين، وأسعده جدًا احتمال إنجاب أحفاد له، خصوصًا حفيدًا ذكرًا.

قال إن الرجال من أمثالي يصيبونه بالاشمئزاز، وإنه لم يخط خطوة واحدة

في حياته في الطريق الخطأ، ولا يستطيع أن يفهم الرغبة الشديدة في المال والسلطة لدى الرجال أمثالي. لم يفهم سيكولوجية الجشع، وكان في قمة اليأس عندما اضطر إلى أن يشرح لابنه - جوهره حياته - لماذا ينحدر بعض الناس إلى هذا الحد من الانحطاط إلى درجة المخاطرة بالشرف الشخصي والعائلي كما فعلت أنا.

جلست بهدوء واستمعت إليه وهو يواصل إخباري عن احترامه الشديد للعدل والمساواة الاجتماعية، وعن الآداب والأخلاق، والفساد غير المبرر للإنسانية. أخبرني عن الرشاوى التي عُرِضت عليه بوصفه مفتشاً، ورفضه قبول ريال واحد طوال حياته المهنية الطويلة التي لم تتزعزع. ذات مرة، عُرِض عليه مبلغ ضخيم كان من شأنه أن يمول تعليم ابنه في أرقى جامعات الولايات المتحدة. لكنه رفض قبول الرشوة، قائلاً إنه يفضل ابناً غير متعلم على ابن تحسن مستوى حياته بأموال جاءت من وسائل غير مشروعة. وفي مرة أخرى، رفض منزلاً جديداً مؤثلاً بالكامل في أحد الأحياء الراقية في العاصمة.

قال إنه يعلم جيداً أن أعداءه يترصدون به في الظل، منتظرين اللحظة المناسبة للانقضاض عليه، لكن مبادئه كانت ثابتة لا تتزعزع، وكان يفضل الموت على الحياة المخزية.

استمعت إليه في صمت، وأنا أفكر في المشقة التي ستلحق بزوجتي وطفلي العزيز. ماذا ستفعل زوجتي؟ لم تعمل يوماً واحداً في حياتها، والآن ستتحمل عبء إعالة الأسرة. لم أدخر أي مال، ولم تكن لدي أي ممتلكات يمكن بيعها. كانت بمفردها، وتخيلتك وأنت تتلقى صفعات من رب منزل أو صاحب دكان، وربما تتعرض للضرب لخطأ صغير كان محتملاً أن ترتكبه كطفل، أو تتلقى الركلات لتلقيك درساً، بينما أتعفن في السجن بسبب جريمة لم أرتكبها. تحرقت ألماً بينما كان ذلك المعتوه الذي نصَّب نفسه حارساً للمبادئ والقيم السامية، يثرثر عن إخلاص عائلته

لطاغية. نظرت إلى وجهه من مقعد الراكب، ورأيت فيه رمزًا لكل ما فسد في بلادنا، وعرفت ما يجب أن أفعله.

كان بإمكانني تحطيم جمجمته بضربة واحدة. أسقطت قبضتي رجلاً أضخم منه بكثير في الحلبة، والآن ستنقذ عائلتي من أعظم عدو واجهناه على الإطلاق. كوّرت قبضتي وأعددت نفسي.

أدركت أنني بحاجة إلى خطة قبل توجيه الضربة القاتلة. سأضربه، ثم أمسك عجلة القيادة وأتحرك إلى جانبه لأوقف السيارة. بعدها سألقي جثته على المقعد الخلفي، وأبتعد عن الطريق، ثم أدفن جثته في حفرة وأحرق سيارته قبل أن أستقل سيارة عائداً إلى مكنتي. لم يرنا أحد معاً، وكان لديه جيش من الأعداء. لم يكن أحد ليشتبه فيّ قط، لأنني أنا أيضاً عشت حياة نزيهة، حياة بسيطة كان هذا الرجل على وشك أن يدمرها من دون دليل واحد.

أوقف السيارة في اللحظة التي كنت مستعداً فيها لمحو وجوده من على وجه الأرض. كسر صمتي وتيرة حديثه، وأخبرني بأن الأشخاص الذين في مثل وضعي عادة ما يتوسلون الصفح أو يحاولون عقد صفقة أو يحاولون الهرب. وتساءل: «ما خطبك يا رجل؟ أليس لديك أي اعتبار لسمعتك؟ ألا تشعر بالندم؟ ألا تشعر بالخجل؟ ألا تشعر بالخوف؟ ألا تشعر بأي ألم؟ أوضح لي ما الذي يتطلبه الأمر للانحدار إلى مستواك».

واصلت صمتي بينما خرج من السيارة وأغلق الباب خلفه. جلس على سور على جانب الطريق وأشعل سيجارة. ترجلت من السيارة وانضمت إليه من دون أن أتفوه بكلمة، وظللت أتحين الفرصة المناسبة لشن الهجوم القاتل. ظل يتأمل الجبال والجدول الصغيرة التي تجري في الوديان، ونفت دخان سيجارته وسألني: «هل أنت بريء؟».

نظرت إليه لبعض الوقت، ثم سألته: «هل هذا مهم بالنسبة إليك؟ أليس الاتهام بارتكاب جريمة بمنزلة اعتراف بالذنب بالنسبة إليك؟ ألا يتحمل

الرجال أمثالك مسؤولية فساد منظوماتنا القيمية، وشكوكنا القومية، وتحفظنا على إجراءات العدالة والإنصاف؟ أليس صحيحًا أن الرجال أمثالك يكرسون قبح أنظمتنا السياسية والقانونية؟ لا، أنا لا أشعر بأي ندم ولا ألم ولا ذنب ولا خجل، فكل ما ذكرته يشعر به المذنب بارتكاب جريمة».

وتابعت: «دعني أكن صريحًا معك. كنت على وشك سحق جمجمتك قبل أن توقف السيارة. ولأكون صريحًا تمامًا، ما زلت أفكر في ذلك. ليس بسبب الألم غير المبرر الذي ستسببه لي، بل بسبب البؤس الذي ستجلبه على حياة أعز الناس إليّ. أنا لا أقدر نزاهتك أو مبادئك السامية التي لا تتزعزع، لأنني مستاء من نهجك ضيق الأفق في افتراض الذنب. لذلك أنصحك أن تهرب أو تتوسل الرحمة أو تتوب لأن وقتك على هذه الأرض يقترب من نهايته».

لم يحاول الهرب، على الرغم من رؤيته للغضب والألم في عيني. أطفأ سيجارته وأشعل سيجارة أخرى. وفجأة، كرجل مهذب نسي للحظات كيف يتصرف بشكل لائق، عرض عليّ سيجارة. أخذت واحدة، فأشعلها باحترام بولاعته القديمة.

سألني: «ماذا نفعل الآن؟».

فكرت قليلاً، ثم قلت: «لنعد إلى القرية ونواجه أصحاب الاتهام».

فوافق، واتجه إلى جانب السائق في السيارة.

همست إليه: «سأتولى أنا القيادة»، فاستدار ونظر إليّ، وأدركت أنه فهم ما أقترحه.

سألني: «ألم يلتقوا بك قط؟».

فأجبت: «بلى».

انطلقنا بالسيارة من دون النطق بكلمة أخرى. وفوجئت بأنه وافق على خطتي بهذه السهولة، لكن أعتقد أنه تعامل مع كثير من الشخصيات

الفاسدة في حياته. وأظن أنه أدرك في قلبه على الأقل، أن ذلك النمط لا ينطبق عليّ.

أدركت أنه يراقبني بينما كنت أقود السيارة عبر الطرق الممهدة بالحصى في جبال ألبرز. اجتزنا طرقاً ضيقة مخصصة للخيول والحمير، عبر الأودية وبمحاذاة الأنهار باتجاه قرية صغيرة تُعرف باسم كوهدشت. أحببت تلك المنطقة. ساد الهدوء في المروج حيث ترعى الأبقار، وعمّ الصفاء في الجبال المتماوجة، حيث يمكن رؤية الجداول البكر التي تجري على المنحدرات، وحيث يمكن بين الحين والحين رؤية غزال يتسلق المنحدرات.

شوهدت السيارة الجيب عن بُعد بضعة كيلومترات. وعندما وصلنا إلى مشارف كوهدشت، كان الكدخدا، أي العمدة، ونصف سكان القرية ينتظرون بفارغ الصبر للترحيب بنا.

ترجلت من السيارة الجيب وصافحت الكدخدا، وقدمت نفسي بوصفي المهندس صادقي. سعد الكدخدا بقاء مسؤول رفيع المستوى من العاصمة، ودعاني لأتبعه إلى «مسكنه المتواضع» لتناول كوب من شاي لاهيجان. نظرت إلى الراكب المرافق لي، وصحت فيه كي يتبعنا. وبينما كان صادقي يترجل من السيارة، سمعت رجلاً يصرخ قائلاً: «ما شعورك بعد أن قُبض عليك أيها اللص؟».

دخلنا إلى منزل الكدخدا، وتبعنا جميع سكان القرية تقريباً. اقتادوني إلى مكان في الغرفة المخصصة للضيوف المرموقين، وطُلب من صادقي أن يجلس بجانب الباب. لم تكن هناك كراسي في الغرفة، واكتست الأرضية بسجادة فارسية قديمة رخيصة الثمن. وترأصت وسائل أسطوانية الشكل فوق جلود الغنم ذات الرائحة الكريهة التي وُضعت على السجادة على طول الجدران التي صارت داكنة من أثر دخان الأرجيلة والسجائر.

صاح الكدخدا في ابنته لتحضر لضييفه الكريم كوباً ساخناً من الشاي. وأشار

إلى المهندس صادقي الذي لعب دور السجين ببراعة ممثل قدير، وقال: «أحضري كوبًا لهذا الرجل أيضًا».

أعرف أهل هذه المنطقة جيدًا، وأعرف مدى اهتمامهم بالظهور بصورة حُسن الضيافة، لذلك لم أتفاجأ عندما أشار الكدخدّا إلى صادقي وقال: «قد يكون هذا الرجل لصًا، لكنه ضيفي، ودائمًا ما يُعامل الضيف في منزلي معاملة مَنْ يحب الله».

وافقه بعض مساعديه الذين جلسوا في الغرفة بإيماءة من رؤوسهم. أحضرت إلينا ابنة الكدخدّا الشاي ومكعبات السكر والحلوى. نظر إليّ وقال: «مرحبًا بك في مسكني المتواضع يا سيدي المهندس صادقي. نادرًا ما أتشرف بحضور ضيف في مثل مكانتك. أرجو أن تغفر لي سلوكي الأخرق، وتمنحني شرف استضافتك الليلة». وأشار إلى صادقي وتابع: «أما بالنسبة إليه، فكن مطمئنًا أن لدينا الإمكانات المناسبة للسيطرة عليه».

شكرته على دعوته، وقلت له إنه يجب أن يغادر إلى طهران في الحال، وإنني أحضرته إلى هذه القرية من باب الإنصاف فقط، ليوافقه متهميه قبل أن أخذه إلى طهران ليتحمل عواقب أفعاله غير المشروعة. نظر الكدخدّا في أرجاء الغرفة وأصر على أن نبيت الليلة. قال متوسلاً: «هذه الطرق خطيرة، خصوصًا في الليل. سوف تضل الطريق، والجو بارد. بالإضافة إلى ذلك، ماذا سيقول أهل هذه القرية إذا لم أظهر لك الضيافة المستحقة لرجل محترم في مثل مكانتك؟».

نظر في أرجاء الغرفة مرة أخرى، وبدأ الجميع يُومئون برؤوسهم بأدب، وأصروا على أن نقضي الليلة في منزل الكدخدّا.

أخبرته بأنه يمكننا مناقشة اقتراحه بعد أن ننتهي من هذه المسألة الصغيرة المتعلقة بمصير هذا الرجل. سألت عمَّن يتهمه بأخذ رشوة، وعمّا إذا كان حاضرًا بيننا أم لا.

فقام أحد مساعدي الكدخدا، وقال إنه هو الذي يوجّه الاتهام، وإنه رأى المتهم يأخذ رشوة من حميه.

سألته عما إذا كان حاضراً عند تقديم الرشوة. فقال إنه كان حاضراً، وإنه رأى الصفقة بعينه.

طلبت منه أن ينظر إلى المتهم، السيد شاهد، بإمعان، ثم يخبرني على وجه اليقين بأنه رآه يقبل الرشوة من حميه. توجه صاحب الاتهام إلى المهندس صادقي، ونظر إليه بإمعان. صاح بعض الأشخاص الذين كانوا يطلون من النوافذ: «إنه هو، إنه هو! أخبر السيد المهندس المحترم بأنه هو، أخبره، أخبره!». نظر الرجل إلى صادقي بضع ثوانٍ أخرى، ثم التفت إليّ وقال إنه متأكد أنه قبض على المذنب. حتى إنه والمتهم دخنا سيجارة معاً عند مجرى النهر الذي يمر بالقرية، وهناك أخبره المتهم بأنه سيستخدم المال لشراء سيارة جديدة. بعد ذلك نفخ صاحب الاتهام صدره، وتباهى بأنه سيتعرف على هذا اللص حتى وهو مغمض العينين.

توسل صادقي قائلاً: «لماذا تكذب يا رجل؟».

فردّ عليه صاحب الاتهام: «أنا لا أكذب. أنت كاذب وحقير أيضاً».

سألته: «هل سبق لك أن رأيته قبل ذلك اليوم؟».

قال صاحب الاتهام: «لا».

نظر إليّ الكدخدا وقال بنبرة خافتة إنه سمع أن المتهم حاول توريط عائلة جلالة الإمبراطور في قطع الغابات. وقال إن الرجل لا يستحي، ويجب أن يُسجن لبقية حياته.

صرخ بعض المتفرجين قائلين: «احبسوه، احبسوه لبقية حياته!».

سألت صاحب الاتهام: «أين حموك؟».

فقال: «لقد حبسه رجال الشرطة، لكنه ينكر رشوة أي شخص».

سألته: «هل هو ثري؟».

«إنه يمتلك منزلاً ويعيش فيه بمفرده. أعتقد أنني وزوجتي مضطران إلى

الانتقال للإقامة هناك الآن لحماية العقار، حتى يسدد دينه للمجتمع. إنه عجوز يا سيدي، وأشك أنه سيخرج من السجن حيًّا. يا للعار! يا للعار!». نظرت إلى صادقي الذي بدا مأخوذًا بالأحداث التي تتكشف. كان هناك رجل بريء آخر في السجن بسبب جشع هذا الإنسان البغيض، وجهود التستر المخزية التي بذلها الكدخدأ. سألته إن كان قد رأى ما يكفي، فهز رأسه وهو مرتاع تمامًا.

أخذ والذي نفسًا عميقًا وتوقف عن الكلام. مد يده ليتناول سيجارة أخرى، فالتقطت الولاة بسرعة من لوحة القيادة وأشعلت سيجارته. أبدى والذي تقديره لبادرة الاحترام التي قمت بها، وربت على يدي عدة مرات وأرسل إليَّ ابتسامة. أدركت من النظرة الجادة على وجه أحمد أنه فهم مغزى قصة والذي. همس والذي:

- هذا عالم غير عادل، وللأسف فأن تكون متهمًا في هذا البلد يعادل كونك مذنبًا. كنتُ محظوظًا أن ينتهي بي المطاف مع شخص على استعداد للاستماع على الأقل، على الرغم من موقفه تجاه النظام الشبيه بموقف النوكر. لكن الحظ لا يصادف الجميع على هذا النحو، والحياة ليست عادلة طوال الوقت. سوف تتذكران هذا الآن، أليس كذلك؟ سألته وأنا أرغب في الوصول إليه ومعانفته:

- ماذا حدث بعد ذلك يا أبي؟
- نهضت وطلبت من صاحب الاتهام أن يأتي إليَّ، وعندما فعل، لكمته بأقوى ما أستطيع.

تدفق الدم حارًّا في عروقي، بينما تلاأت عينايا بالفخر والإثارة، وضحكت بارتياح وبهجة. والذي هو الرجل الأكثر حكمة بين مَنْ أعرفهم. كانت طريقته غير المباشرة في تحذيرنا من المخاطر المحتملة للصراع مع الحكومة وعملائها، من دون أن يذكر الدكتور على الإطلاق، طريقة عبقرية. هذا هو أسلوب الفرس، فنحن أساتذة في فن التلميح، وأحيانًا على حساب ضياع المغزى بالنسبة إلى

المستمع غير المتمرس. نادرًا ما تهمل الحقائق، فالمعنى والرسالة مغزولان دائمًا في نسيج خطابنا.

سمعت والذي يقول ذات مرة:

- في أعماق كل عقدة من السجادة الفارسية حكاية من الأيدي التي وجهت الإبرة والخيط بصبر.



شتاء ١٩٧٤

مستشفى روزبه للأمراض النفسية، طهران

استيقظت في الصباح الباكر، وقد اختفت شرنقة الراحة التي نسجتها حولي
الحبوب المهدئة، وحل محلها القلق والارتباك.

بدأت أصبح:

- وجه التفاحة، وجه التفاحة!

دخلت ممرضة شابة.

- أين وجه التفاحة؟

- إنها في المنزل، نائمة. اهدأ، هلاً فعلت؟ ستوقظ الجميع.

كانت تحمل كوباً من الماء في يد، وحنة دواء في اليد الأخرى. وضعت الحبة
في فمي، ومدت الكوب نحوي. بصقت الحبة وصرخت بأني أريد وجه التفاحة.
جلبت الضجة ممرضتين أخريين إلى الغرفة. غمرني الاضطراب، واعتراني ألم
مجهول المصدر. حاولت الممرضتان تثبيتي بينما يدخل رجل يرتدي زياً أبيض
إلى الغرفة. بعد ثوانٍ قليلة، شعرت بوخزة في ذراعي.

كانت وجه التفاحة جالسة بجانبني عندما فتحت عيني.

سألتني:

- هل افتقدتني؟

قلت لها:

- ما خطبي؟

- لا شيء لا يمكن علاجه. لكن الأمر يستغرق وقتًا.

- أنا جائع.

خرجت مسرعة من الغرفة، وعادت ومعها صينية طعام. تناولت بضع قضمات، وبعدها لم أستطع تناول مزيد من الطعام. ساعدتني في الجلوس على كرسي متحرك وأخذتني إلى غرفة كبيرة في الطابق الأول. أدركت للمرة الأولى أنني في جناح للأمراض النفسية. رأيت أشخاصًا يسرون بلا هدف في الممرات ذهابًا وإيابًا. نظر بعضهم إليّ، ومر البعض الآخر كأنهم يطفون في عالم مختلف. حاول اثنان من الممرضين مساعدة شاب على كرسي متحرك مثل كرسي. كشف لي عن أسنانه وابتسم. ماذا أفعل في مصحة عقلية؟ قيل لي طوال حياتي أن أتجنب المجانين، والآن أعيش بينهم. دفعت وجه التفاحة كرسي المتحرك إلى النافذة، وجلست بجانبني على كرسي.

سألتني مرة أخرى:

- هل افتقدتني الليلة الماضية؟

- أين كنت؟

- كنت في المنزل. هل تعلم أن لديّ طفلة صغيرة؟ إنها تحتاج إلى أمها أيضًا.

- كم عمرها؟

- أربع سنوات ونصف السنة. إنها لطيفة حقًا. هل تريد رؤية صورة لها؟

أومأت برأسي بالإيجاب، فأرنتني صورة لابنتها روشان، بمعنى «متوهجة»

أو «نابضة بالحياة».

قلت للأم الفخور:

- إنها جميلة.

- شكرًا لك.

أعادت الصورة إلى جيبها وجلست على كرسيها.

سألها بتردد:

- لماذا أنا في جناح الأمراض النفسية؟

- أنت هنا لتتلقى العلاج.

- لماذا؟

- لديك بعض الأشياء التي يجب أن تتذكرها.

- مثل ماذا؟

- تحلّ بالصبر.

نظرتُ إلى ساقِي وإلى الكرسي المتحرك، وتساءلت إن كنت مشلولاً.

- لماذا أنا على كرسي متحرك؟

فكرت وجه التفاحة بضع ثوانٍ.

- كنت ضعيفاً وشارد الذهن، لذا كان من الأسهل والأكثر أماناً وضعك على

كرسي متحرك.

بدأ الرجل العجوز في الجانب الآخر من الغرفة ترديد ترنيمة مرة أخرى.

سألت بهدوء:

- ما خطبه؟ لماذا هو هنا؟

همست:

- إنها قصة حزينة.

ألححت قائلاً:

- أريد أن أعرف.

- ربما لاحقاً.

- ماذا يعني بترانيمه؟

- لا أعرف.

شعرت بالشفقة على الرجل العجوز الذي واصل النظر إليّ.

سألت وجه التفاحة في طريق العودة إلى غرفتي:

- هل ستعرضين للمتاعب بسبب قضاء كثير من الوقت معي؟
أجابتي:

- لا يقع الأطباء في المتاعب لقضاء الوقت مع مرضاهم المفضلين.
افترضت أنها ممرضة لأنها امرأة، وشعرت بالخجل.
أضافت:

- أفتقد الأيام الخوالي، عندما كان الأطباء يقومون بزيارات منزلية. كان هذا
يتيح الفرصة للتعرف على المرضى وعائلاتهم وأطفالهم وأين يعيشون
وكيف. لكن كل شيء يتعلق بالعمل الآن.

بعد العودة إلى غرفتي، ساعدتني على النوم في الفراش وأعطتني حبة دواء.
أخبرتني بأنه يمكنني الاتصال بها في المنزل إذا استيقظت في منتصف الليل،
وتركت رقم هاتفها بجانب فراشي. شعرت بتحسن بعد أن علمت أن هناك طيبة
تعتني بي، وأخلدت إلى النوم على الفور.

استيقظت في منتصف الليل، وتمنيت لو كانت وجه التفاحة معي. فكرت في
ابنتها، وكبتُ رغبتي. ساد الظلام الغرفة، ولم أستطع معرفة الوقت. أدركت أن
والدي كانا في الغرفة بينما كنت نائمًا، لأنني رأيت وردة جديدة بجانب فراشي.
تحضر إليّ أُمِّي وردة حمراء واحدة كل يوم. هناك دلالة مهمة للوردة الحمراء،
لا أستطيع تذكرها الآن. ذهني منهك للغاية. أغمضت عيني وحاولت التفكير في
سبب وجودي في المستشفى. فجأة، باغتني صوت من الجانب الآخر من الغرفة.
فتحت عيني ونظرت نحو مصدر الصوت، فوجدت ظل رجل يقف بجانب الباب.
خفق قلبي بسرعة، وتملكني خوف شديد إلى درجة أنني لم أستطع النطق بكلمة
لطلب المساعدة، وارتجف جسدي.

- لو أنني أعرف ألمك، لتحملتة.

تعرفت على صوت الرجل العجوز.

همست:

- تعالَ إلى هنا.

اقترب الرجل العجوز ببطء من فراشي، وجلس على كرسي وجه التفاحة، وثبت نظراته عليّ.

- لو أنني أعرف طريقًا، لوجدته.

- ماذا يعني ذلك؟

جلس محدقًا إلى وجهي بعينه السوداوين الحزبتين اللتين بدتا كأنهما تتحولان إلى اللون الرمادي. كانت نظراته لطيفة، ولم أعد أخشاه. تمتم قائلاً:

- لو أنني أعرف نشيدًا، لغنيته.

- ربما يمكنك أن تخبرني ذات يوم ماذا يعني ذلك، ولماذا أنا هنا.

لم يقل الرجل العجوز شيئًا.

همست:

- لا يمكنني فهم الأمر. هل أيّ من هذا حقيقي؟

انتظرت رد فعل منه، لكنه حدق إليّ فحسب.

- لا أشعر بأنني مرتبط بأي شيء. يبدو الأمر كأنني دخلت إلى هذا العالم

قادمًا من مكان آخر، لكنني لا أستطيع تذكر المكان الذي جئت منه أيضًا.

يبدو كأنني لست هنا ولا هناك، لا حيًا ولا ميتًا. هل هذا ما يعنيه الناس

عندما يقولون إن شخصًا ما قد فقد عقله؟

ظل الرجل العجوز جالسًا من دون أن يقول أي شيء. عجزت عن إبقاء عينيّ

مفتوحتين، لكنني أردت أن أفهم ترانيمه المبهمة. أردت أن أعرف شعوره، وما

الذي يفكر فيه، ولماذا هو في غرفتي، لكنني كنت مرهقًا للغاية.

لم أستطع أن أعرف كم مر من الوقت عندما سمعت وجه التفاحة تتحدث

إليّ والدي في الردهة.

سأل والدي:

- ماذا سيحدث عندما يتذكر؟

أجابت وجه التفاحة:

- سيكون الأمر مدمرًا.

بدأت والدتي في البكاء، وتساءلت عن هذا الشيء الذي من المفترض أن أتذكره والذي سيكون مدمرًا للغاية.

خريف ١٩٧٣

مازندران

أعين الساحة

واصلنا رحلتنا نحو محافظة مازندران، متعرجين صعودًا عبر طرقات كندوان الخطرة، ثم نزولًا نحو الشمال، حيث يمكن شم رائحة ملح بحر قزوين العطرة من على بعد أميال. كانت السرعة القصوى التي يمكن قطعها عبر هذه الجبال هي خمسين كيلومترًا في الساعة، حتى لو كان المرء أفضل سائق في العالم. اعتاد جدي القول إن النازيين أنشأوا طريق كندوان المتعرج لغرس رمز «SS» (*) المقيت في وعينا. حاول الروس ردعهم، لكنهم فشلوا كما يفعلون دائمًا عندما يواجهون وحشية القوى الغربية.

هذه الطرق خطيرة للغاية، إلى درجة أن المئات من الناس يموتون كل عام في أثناء محاولتهم اجتيازها. وفقًا لأحد أعمامي، فإن قدرتي كمهندس مستقبلي هو بناء طريق سريع مكون من أربعة مسارات يربط بين طهران ومازندران، مما سينقذ آلاف الأرواح في السنوات المقبلة. طوال الرحلة، رأينا الناس متوقفين على جانب الطريق، لتبريد محركاتهم التي ارتفعت حرارتها، والتقاط صورة أو اثنتين للمناظر الطبيعية الخلابة: الوديان والأخاديد التي تشق بطن الطبيعة الأم.

(*) «SS»: رمز قوات الأمن الخاصة النازية. (الترجمة).

وصلنا أخيرًا إلى القرية، وجهتنا المقصودة، لكن الطريق المرصوف بالحصى جعل من المستحيل القيادة بسرعة كبيرة. نظر إلينا الناس في القرية بفضول، ولوّح إلينا بعضهم في أثناء مرورنا بالسيارة. تذكرت الدكتور الذي كان مفتونًا بحياة الناس في القرى الصغيرة، ودائمًا ما كان يتحدث عن بناء الطرق وحفر الآبار وتوصيل الطاقة الكهربائية وغيرها من التقنيات إلى هذه المناطق النائية.

بُنيت المنازل على منحدرات الجبال، وبدت معظمها صغيرة ومتهالكة بفضل أسقفها المصنوعة من الصفيح الصدئ. تألفت القرية بأكملها من متجرين صغيرين للبقالة ومقهى ومحل لبيع الجبن والزبادي ومخبز ومحل جزارة وحمام عام ومسجد، بُنيت جميعها بشكل منتظم حول ساحة كبيرة على نحو غير عادي. استغرق الأمر أقل من ثلاث دقائق للوصول بالسيارة من جانب القرية إلى الجانب الآخر. حرقت أنفي من الداخل رائحة الحطب المشتعل وروث البقر. وكانت هناك خيول وأبقار على الطريق، فاضطررنا إلى التوقف بشكل متكرر للسماح لها بالعبور. لم يُزر أحمد هذا الجزء من البلاد من قبل، لذا راقب كل شيء بفضول وصمت.

توقفنا أمام منزل كبير محاط بجدران عالية، ومدخله الرئيسي مغلق بأبواب معدنية عملاقة. ترجل والدي بابتسامة على وجهه، وسرعان ما خرج رجل - السيد كسروي، وهو صديق قديم لوالدي - لتحيّتنا. همس والدي:

- لا تدع سلوكه البسيط يخدعك، إنه رجل مهم جدًا.

تذكرت حديث أبي والسيد مهربان عنه. كان أغنى رجل في القرية، وهو مالك للأراضي ويربي الماشية والأغنام أيضًا. واعتاد قضاء جزء من وقته في نوشهر، وهي مدينة تقع على بحر قزوين، حيث يمتلك عديدًا من المتاجر ونزلًا كبيرًا. خرجت زوجته جلي جان، وهي امرأة بسيطة المظهر، مسرعة لتحيّتنا. وسرعان ما هرع الخدم والخادmates نحونا، يسحبون خلفهم خروفاً. أدركت ما سيحدث بعد ذلك، وحاولت تفادي النظر وهم يذبحون الكائن المسكين تحت أقدامنا.

من طرف عيني رأيت الحيوان وهو يقاوم، وتساءلت عما إذا كان يعرف أننا مسؤولون عن مصيره المؤسف.

صافحني السيد كسروي وعانقني كأنه يعرفني منذ سنوات. سألني إن كنت أتذكره، فأجبتة بالنفي بأدب. قال إنني اعتدت مناداته بـ«عمي كسروي» عندما كنت صغيراً جداً. ابتسم والدي، وأضاف أنني اعتدت مناداة جلي جان بـ«عمتي جلي». صافح السيد كسروي أحمد، ورحب به في مسكنه المتواضع. قالت لي جلي جان:

- لقد كبرت كثيراً. انظر إلى نفسك! لقد صرت رجلاً الآن.

اصطحبنا إلى غرفة مخصصة للضيوف، وأحضرت جلي جان وعاءاً من البلور ممتلئاً بالتفاح الأحمر والأخضر الكبير والبرتقال والعنب. قالت بفخر:

- كل شيء من حديقتنا الخاصة. تفضلوا رجاءً، هذه أفضل بكثير من الفاكهة التي تحصلون عليها في طهران، فهي طازجة من الأشجار. لقد قطفتها بنفسي منذ بضع دقائق فقط. تفضلوا، كلوا من فضلكم.

كان السيد كسروي طويل القامة، أسمر البشرة، ويبلغ من العمر نحو خمسين عاماً. بدا صوته مفعماً بالحياة، وكان يميل إلى تكرار حديثه في نهاية كل جملة. بدا من المستحيل تقريباً الاستماع إليه بوجه جامد، ولا سيما مع وجود أحمد الذي يمكن مبادلتة نظرات التهكم.

سأل السيد كسروي والدي:

- كيف حالك يا صديقي؟ حقاً، كيف حالك؟

كان لديه هو وجلي جان ابن اسمه مصطفى، وهو في مثل عمري تقريباً، وكذلك ابنة في الرابعة من عمرها تُدعى «شبنم». جلس كلا الابنين على الأرض على جانبي كرسي والدهما. أخيراً، جلست جلي جان وسألت عن والدتي: كيف حالها، وكيف تبدو الآن، وإذا كانت لا تزال تبدو صغيرة بالنسبة إلى عمرها، ولماذا لم تأت معنا. ثم أخبرني كم أن والدتي رائعة، وأنها تحبها وتفتقدها كثيراً.

أكد السيد كسروي:

- نعم، هذا صحيح. دائماً ما تخبرني بأنها تفتقد أمك كثيراً.
نظر إليَّ أحمد وغطى شفته العليا بشفته السفلى ليخفي ابتسامته. أحضرت
خادمة عجوز الشاي، وأصرت جلي جان على أن نشرب الشاي قبل أن يبرد
كثيراً، وحشنا قائلة:

- هذا شاي لاهيجان، الأفضل في العالم.

سألني أحمد هامساً:

- ما الذي يجعل شاي لاهيجان الأفضل في العالم؟ لطالما تساءلت عن ذلك.
أجبت هامساً:

- الطعم، والرائحة، والاعتزاز الفارسي.

ابتسم أحمد.

قال السيد كسروي:

- أنا متحمس للغاية لاستضافتكم في مسكني المتواضع، ولا أطيق الانتظار
حتى أريكم المكان، حقاً، لا أطيق الانتظار.
ثم قال لوالدي:

- لقد تغيرت الأمور كثيراً هنا، لم تُعد كما كانت عليه في السابق، لم تُعد كما
كانت عليه على الإطلاق.

والتفت إليَّ وإلى أحمد وسألنا:

- هل تعرفان كيف تركبان الخيل؟

هزنا رأسينا بالنفي.

قال وهو ينظر إلى ابنه:

- سيسعد مصطفى بتعليمكما، سيسعد جداً أن يعلمكما.

ابتسم مصطفى وأوماً برأسه ليُعلمنا بموافقته.

قال والدي:

- إنهما رياضيان بارعان، وسيتعلمان سريعاً.

وكما هو متوقع، بدأ الكبار في الحديث عن الماضي. التفت إليّ السيد كسروي وقال:

- كان والدك متمرّدًا، متمرّدًا بكل تأكيد. لطالما ظننت أنه سينتهي به المطاف في السجن، وأنني سأضطر إلى استغلال نفوذي لإخراجه.
هز أبي كتفيه وتمتم:

- كل شيء يتغير عندما تتزوج وتنجب طفلًا.
ثم تحدث عن السيد مهربان، وقال السيد كسروي برصانة وهو يستعيد الذكريات:

- كان راديكاليًا متهورًا، وأطلقنا عليه اسم كارل لأنه كان يذكرنا بكارل ماركس الشاب. من المأساوي أنه قضى معظم حياته خلف القضبان...
مأساوي جدًا.

ثم نظر السيد كسروي إليّ وإلى أحمد وتابع:
- لقد سمعت أيضًا عن صديقكما الدكتور. يؤسفني ذلك، يؤسفني ذلك حقًا.
بعد تناول الشاي ذهبنا إلى إسطنبول السيد كسروي حيث اختار لكل واحد منا حصانًا. ساعدني مصطفى أنا وأحمد على ركوب الخيل. شكرت مصطفى، لكنه لم يرد. ابتسم فقط، وتوجّه إلى حصانه.

بدا من الغريب بالنسبة إليّ ركوب حيوان حي، والسيطرة عليه باستخدام اللجام، ورؤية العالم من هذا الارتفاع. ألقيت نظرة على أحمد. أمسك اللجام بقوة، وبدا جسده متوترًا، وارتسم القلق على وجهه. همس قائلاً:
- أليست لديهم دراجات؟

امتطينا خيولنا عبر ساحة القرية. كان الطريق الذي سلكناه غير ممهد، وبدا من الواضح أن ما سواه هو حوافر الخيول، وعجلات الدروشيكي، أي العربات التي تجرها الخيول، والسيارات والشاحنات والجرارات التي تنتقل داخل وخارج القرية خلال موسم الأمطار. وسمعنا هنا وهناك صياح ديك أو نباح كلب أو خوار بقرة.

خرجنا من القرية واتجهنا نحو التلال. تقدم مصطفى الجميع، وبين الفينة والفينة، كان يتوقف ويستدير ثم ينظر إلينا ويحرك يده اليمنى للإشارة إلى المضي قُدماً.

سألت أحمد بصوت هامس:

- ماذا تعتقد أنه يفعل؟

أجاب أحمد بابتسامة ساخرة:

- إنه يستطلع بحثاً عن الهنود الحُمر. لقد سمعت أن كوتشيس(*) سئم من

التعرض للقتل على يد جون واين في تلك الأفلام الصهيونية اللعينة، لذا

قال أخيراً «سحقاً لذلك»، وانتقل إلى هذه المنطقة.

حاولت ألا أضحك بصوت عالٍ.

واجهت أنا وأحمد صعوبة في الحفاظ على توازننا على حصانينا في أثناء

صعود المنحدرات، وسمعت أحمد يتمتم بكلمات نابية، والابتسامة تعلو وجهه.

تقدمنا السيد كسروي ووالدي بخطوات قليلة، لكنهما تأخرا كثيراً عن مصطفى.

نصحنا السيد كسروي من فوق كتفه قائلاً:

- تعرّفا على حصانيكما، واتركاهما يتعرفان عليكما.

انحنى أحمد وهمس في أذن حصانه قائلاً:

- مرحباً، أنا أحمد. ما اسمك؟

فطلبت منه أن يتوقف عن العبث.

عندما وصلنا إلى قمة التل، أشار السيد كسروي إلى القرية وقال:

- هذه أقدم ساحة في منطقتنا. لقد بُنيت منذ نحو ثلاثمائة عام. هناك شيء

مميز في تلك الساحة، ألا تعتقدان ذلك؟

نظرت إلى الساحة محاولاً اكتشاف ما المميز فيها.

واصل قائلاً:

(*) كان كوتشيس من زعماء قبائل الهنود الحمر. (المترجمة).

- أنتما تعرفان لماذا كانوا يبنون الساحات في وسط معظم المدن والقرى الإيرانية، أليس كذلك؟
- أجبت:
- بلى.
- رمقني أحمد بنظرة مندهشة.
- قلت:
- في الأيام الخوالي، كان كل شيء يحدث في الساحات، المناسبات السعيدة وكذلك الأحداث المروعة. كانت مكانًا للتجمع.
- هز والدي رأسه تأكيدًا على ذلك، وأعتقد أنني لاحظت وميضًا من الفخر في عينيه. ابتسم السيد كسروي مشجعًا إياي على الاستمرار.
- كانت الساحة أيضًا المكان الذي يعاقبون فيه المجرمين حتى يتمكن الناس من المشاهدة والتعلم: تسلية وتعليم في آن واحد. التعليم لأن التعذيب كان يُستخدم لردع المجرمين المحتملين، والتسلية لأن الناس كانوا يأتون من كل مكان لمشاهدة هذه الأحداث.
- بدا السيد كسروي معجبًا جدًا بمعرفتي، وهز رأسه وقال إنني على حق. ثم تحدث عن العقوبات القاسية التي فُرضت على آلاف الأشخاص في عهد حكم القاجاريين.
- كانت تلك الفترة الأكثر خزيًا في تاريخ بلدنا الحبيب. كان القاجاريون وسياساتهم المتخلفة هم الذين منعوا إيران من التطور إلى دولة حديثة.
- كان بإمكاننا أن نصبح قوة عظمى في العالم، نعم يا سيدي، قوة عظمى. أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته.
- مال أحمد وهمس إليّ:
- أين تعلمت كل هذا الهراء بحق الجحيم؟
- فأجبت هامسًا:
- الكتب!

أدار رأسه على الفور نحو الساحة، حيث أدرك أنني أوبخه مرة أخرى لعدم قراءته.

سألني السيد كسروي:

- ما الذي تعرفه إذن عن القاجاريين؟

قلت:

- كان هناك سبعة ملوك في الأسرة الحاكمة، بدءاً من آغا محمد خان القاجاري

وانتهاءً بأحمد شاه، الذي أطاح به والد ملكنا الحالي في العشرينيات.

ثم أضفت بلهجة واثقة فاجأتني أنا نفسي:

- أتفق معك يا سيد كسروي. لقد دمر عدم كفاءة القاجاريين إيران خلال

حكمهم الذي استمر مائتي عام.

نظر السيد كسروي إلى والدي وأوماً برأسه. ألقى نظرة جانبية إلى أحمد

الذي هز رأسه وهمس:

- أيها الوغد.

قال السيد كسروي بانزعاج حقيقي:

- كان والدي يعرف جيراناً وأقارب وأصدقاء للعائلة تعرضوا للضرب والجلد

والشنق في تلك الساحة. أتساءل لماذا لم يحرق أحد المكان، ولماذا

لم يهدمه أحد بالجرافة. ربما يجب أن أفعل ذلك، نعم، ربما يجب أن

أفعل ذلك.

دفعني نظرة الكآبة التي علت وجهه إلى التساؤل عما إذا كان يفكر حقاً في

هدم الساحة بالجرافة.

- ينسى الناس كم كان الوضع سيئاً في هذا البلد. هل تعلم أنه لم تكن لدينا

سجون حتى أطاح والد الشاه بالقاجاريين؟ هل تعلم ذلك؟

هزرت رأسي بالنفي.

تمتم أحمد، كأنه يشعر بخيبة أمل عميقة:

- أيها الأحمق الغبي!

- لم تكن هناك أي سجون، أي سجون على الإطلاق. كان السجن مفهومًا غريبًا تمامًا في ثقافتنا، مفهومًا غريبًا تمامًا. اعتادوا قطع أيدي الناس، وبترو أرجلهم، وقطع آذانهم، ثم قتلهم أو إطلاق سراحهم. هكذا كانوا يعاقبون المجرمين. همس أحمد:

- يا إلهي!

قال السيد كسروي:

- لقد بُني أكثر من ستة آلاف سجن في إيران منذ تولي والد الشاه الحكم قبل خمسين عامًا. يعتقد الناس أن هذا أمر سيئ، لكنني أعتقد أنه أفضل من معاقبة بضعة ملايين من الناس وإذلالهم علنًا. كان يجب أن يتوقف التعذيب العقابي والإذلال العلني للمجرمين، كان يجب أن يتوقف ذلك. حتى المجرمون لهم الحق في الكرامة! كنت سأموت لو رأيت مهربان يُعذَّب ويُضرب علنًا.

أدركت فجأة الغرض من رحلتنا. لم يكن لوالدي أي عمل يتولى أمره هنا. كان السيد كسروي يعطينا درسًا في التاريخ، مبررًا ما يحدث في سجوننا السياسية بمقارنته بالفظائع المقيتة التي ارتكبت في عهد القاجاريين.

ليس من اللائق أن يغضب المرء من والده، لكنني شعرت بحرقة في معدتي. أبطأت من سرعة حصاني لأنفصل عن المجموعة وفكرت: هل التخلي عن التعذيب العلني لصالح التعذيب خلف جدران السجن قفزة كبيرة نحو التحديث والديمقراطية؟ هل شعر السيد مهربان بقدر أقل من الألم عندما كان عملاء السافاك يطفئون سجائرهم على صدره وذراعيه ومؤخرته؟ زدت المسافة بيننا أكثر بجذب لجام الحصان إلى الخلف.

كانت الشمس ساطعة، لكنني شممت رائحة المطر القادم بينما السحب تتجمع قادمة من البحر. سرعان ما وصلنا إلى مجرى مائي جبلي نقي، حيث سقينا خيولنا واسترحنا قليلًا قبل العودة إلى منزل السيد كسروي.

حل الليل بسرعة. وقبل العشاء، جلست أنا وأحمد في الشرفة، بينما والدي والسيد كسروي في غرفة المعيشة يلعبان الطاولة. سمعناهما وهما يتمازحان ويضحكان.

سألني أحمد:

- أنت تعرف لماذا أحضرنا والدك في هذه الرحلة، أليس كذلك؟

- بلى، أعرف.

- هل تشعر بالغضب؟

- إنه والدي، لكنني غاضب من مضيفنا.

- هوّن عليك، كان يقصد خيرًا.

- أعرف هذا.

أعدت السيدة كسروي عشاءً يليق بـ «ألف ملك»، كما اعتادت جدتي القول. أرز بسمتي، ودجاج مشوي، ولحم ضأن مطبوخ في فرن تحت الأرض، وثلاثة أنواع مختلفة من الخورشت، وخضراوات من جميع الأنواع، بما في ذلك الفجل والنعناع والبقدونس، وثلاثة أنواع مختلفة من خبز النان مع جبن الماعز والزبادي الممزوج بالنعناع المجفف والخيار، وأربعة أنواع مختلفة من الطرشي، بما في ذلك الثوم بالشبت، الذي يقول الجميع إنه لا يجعل رائحة أنفاسك كريهة بسبب الرطوبة في الشمال.

نظر أحمد إلى العشاء وقال لي:

- لا أمانع أن تتبناني هذه العائلة، حقًا، لا أمانع على الإطلاق.

لكزته بمرفقي في جنبه. تناول أبي والسيد كسروي الفودكا مع العشاء. وجلست أنا وأحمد ومصطفى إلى جانب بعضنا، وتناولنا طعامنا بشهية قطع من الذئاب المفترسة. حاولت أنا وأحمد أن نبدأ محادثة مع مصطفى عدة مرات في أثناء العشاء، لكنه نظر إلينا وابتسم فحسب.

سألت أحمد هامسًا بقلق:

- هل تعتقد أنه يستطيع الكلام؟

- ربما يكرر والده كل شيء لأنه يتحدث باسم كليهما.

عضضت شفتي العليا لأخفي ابتسامتي.

رفع أبي كأسه وشرب نخب المضيفين. ثم نظر إليّ وإلى أحمد ورفع كأسه الثانية لنا، وغمز لنا. مال نحوي، كما لو أنه يقرأ أفكاري، وقال بصوت منخفض:

- آسف على ما حدث بعد ظهر اليوم. لم تسر الأمور كما خططت لها. أحب أبي. أردت أن أطوق عنقه بذراعي وأقبله على خديه، كما كنت أفعل عندما كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري.

رن جرس الباب، فذهب السيد كسروي للرد عليه. وبعد دقائق قليلة عاد يتبعه رجل طويل القامة في نحو الخمسين من عمره. قدّم الرجل باسم السيد محتشم، ووقفنا جميعًا لمصافحته.

قال السيد كسروي وهو يصب الفودكا لضيفه الجديد:

- يالها من ليلة رائعة أن تأتي إلى منزلي، ليلة رائعة بالفعل. من الرائع وجودك هنا في الوقت نفسه مع ضيوف من طهران. لاحظت أن السيد محتشم لا يتكلم.

أحضرت جلي جان، التي بدت متحمسة أيضًا لوصول هذا الزائر غير المعلن، الأطباق وأدوات المائدة وأصرت على أن يبدأ في تناول الطعام على الفور. واصل السيد محتشم هز رأسه للتعبير عن امتنانه. التفت السيد كسروي إلى والدي وقال:

- لقد نذر السيد محتشم الصمت. قداسته معروف باستبصاره. إنه يرى المستقبل كما أتذكر أنا وأنت الماضي، بالقدر نفسه من الوضوح، حقًا، أنا لا أمزح معك. لقد تحققت جميع تنبؤاته على مر السنين، جميعها.

أعرب والدي بأدب عن امتنانه لله لأنه منحه شرف قضاء أمسية في حضرة السيد محتشم، بينما تساءلت لماذا ينذر المرء الصمت إذا كان الله قد أنعم عليه بمثل هذه القوة العظيمة.

أشار إليّ السيد كسروي وقال للسيد محتشم إنني شخص مميز جدًا، مميز جدًا بكل تأكيد، وإنني في سن السابعة عشرة أتمتع بنضج وحكمة رجل مثقف في الثلاثين من عمره. حذق إليّ السيد محتشم وهو يمضغ طعامه، ثم مد يده إلى جيبه وأخرج دفترًا صغيرًا وكتب: «إنه يتمتع بتلك السمة».

فاض قلبي بالحزن بينما طغت ذكريات الدكتور على ذهني. لكنني أحمد بمرفقه برفق وحذر، وهمس قائلاً:

- صدق هذا، فأنت كذلك بالفعل.

سأل السيد كسروي وهو يشرب جرعة من الفودكا نخب صحة ضيفه:

- ماذا يمكنك أن تخبرنا عن المستقبل يا صاحب القداسة؟

أجال السيد محتشم نظره حول الغرفة، وركز على مصطفى لبضع ثوانٍ. سادت الغرفة حالة من الصمت والحماسة الهادئة. وجدت صعوبة في تصديق أن أقدس رجل في إيران، الذي لا بد أن يكون قد صار منتشياً من أثر الفودكا، كان على وشك التنبؤ بأحوال الموجودين في الغرفة. كتب السيد محتشم على ورقة أن مصطفى سيسير على خطي والده وسيصبح رجل أعمال ناجحًا.

غمرت جلبي جان الفرحة، وهمست:

- إن شاء الله!

نظر أحمد إلى مصطفى وقال:

- مبارك.

بادله مصطفى الابتسامة، لكنه ظل صامتًا.

التفت أحمد إليّ وهمس:

- ستبادل الأدوار في النوم الليلة. أنا لا أثق بهذا الفتى.

وضعت يدي على فمي لأخفي ابتسامتي.

نظر إليّ السيد محتشم، وكتب أنني سأذهب إلى الولايات المتحدة للدراسة.

سأله والدي:

- ماذا سيدرس؟

رفع السيد محتشم يديه على شكل أسطوانتين ونظر من خلالهما. وثب قلبي بين أضلعي. كان يقول إنني سأدرس شيئاً متعلقاً بالكاميرات! سأصبح صانع أفلام على الرغم من كل شيء.

سمعت أحمد يهمس:

- أنت صهيوني.

قبل أن تغمرني فرحة عارمة، ذكرت نفسي بأن الأمر ربما لا يعدو كونه مجرد خدعة، فشرب الفودكا ليس معروفًا على وجه التحديد بتعزيز الوضوح والبصيرة. شرب السيد محتشم جرعة ثانية ثم نظر إلى أحمد، وكتب أن أحمد سيتزوج في سن مبكرة جدًا، وسينجب ثلاث بنات جميلات.

قال أحمد:

- لا أبناء؟ لن أتزوج إذن.

ضج الجميع بالضحك.

أخبر السيد محتشم جلي جان بأنها ستعيش حتى تبلغ مائة عام، وستنعم بحياة سعيدة مع أولادها وزوجها، فهمست في خشوع:

- إن شاء الله!

كما أخبرنا بأن أبي سيعيش شيخوخته وهو يبحث عن المعنى الحقيقي للحياة والوصال مع الله تعالى، وسيُعدُّ يومًا ما أحد أعظم الشعراء في التاريخ الإيراني الحديث. تساءلت كيف عرف أن والدي يكتب الشعر.

أما السيد كسروي، فسوف يتقاعد في مكان بعيد، محاطًا بأفراد عائلته.

قال السيد كسروي:

- المستقبل مشرق فيما يتعلق بهذه المجموعة، مشرق جدًا، والحمد لله. في تلك اللحظة، دخلت شبنم، ابنة السيد والسيدة كسروي البالغة من العمر أربع سنوات، إلى الغرفة. هرعت إلى والدتها لتشتكي عدم قدرتها على النوم. نظر السيد محتشم إلى شبنم باهتمام شديد فترة طويلة.

لاحظ السيد كسروي حدة نظرات السيد محتشم، فتوسل قائلاً:

- ما الأمر يا صاحب القداسة؟ ماذا ترى؟ ماذا ترى؟ أرجوك، أخبرنا. هل
ابتتي في خطر؟ من فضلك، أخبرنا هل هي في خطر؟
هز السيد محتشم رأسه بالنفي.

- الحمد لله. إذن ما الأمر؟ يجب أن نخبرنا، أنا مصمم على ذلك.
نظر إليَّ السيد محتشم وهو يتناول جرعة أخرى من الفودكا، فبدأت أشعر
بالارتياح.

توسلت إليه جلي جان قائلة:

- ما الأمر؟ ماذا؟ أرجوك أخبرنا، أتوسل إليك.

بدأ السيد محتشم الكتابة وهو يشير إليَّ. «لن يعجبه هذا الأمر الآن لأنها
صغيرة جدًا، لكنه سيعجبه بعد عشرين عامًا من الآن عندما يعود إلى إيران من
الولايات المتحدة».

توسل إليه السيد كسروي:

- ماذا؟ ما الذي سيعجبه يا صاحب القداسة؟ أخبرنا، أرجوك، أخبرنا!
صار الجميع الآن، بمن فيهم أنا، يشعرون بالفضول لمعرفة ما الذي سافعله
بهذه الطفلة المسكينة البالغة من العمر أربع سنوات بعد عشرين سنة من الآن.
كتب في دفتر ملاحظاته: «سيتزوج هذا الشاب ابتك، وسيعيشان معًا سنوات
عديدة سعيدة في الخارج».

صفق جميع من في الغرفة وهتفوا، وأطلق أحمد صغيرًا، وحتى مصطفى أيضًا.
وبدأ والدي والسيد كسروي في الضحك، وشربا مزيدًا من الفودكا للاحتفال
بهذه المناسبة.

فكرت: هذا الأمر مثير للسخرية. ياله من هراء! إنها في الرابعة من عمرها فقط،
وأنا في السابعة عشرة. ياله من عجوز معتوه! عانقتني جلي جان وأخبرتني بأنني
صهر مثالي. ثم هرعت إلى المطبخ وعادت حاملة الإسبند، وهي بذور يحرقها
الإيرانيون لطرد الشر. لوحت بالبذور حول رأسي ثم رأس شبنم، وسكبت الباقي

على الفحم داخل شواية أحضرتها الخادمة العجوز خلفها. سرعان ما ملأ الدخان الغرفة، وملأت أنفي رائحة الإسبند الطيبة.

ربت السيد كسروي على ظهري وقال لي إنه سيدعو القرية كلها إلى المنزل في الليلة التالية للاحتفال بخطبتي على ابنته، القرية كلها. شعرت بالشحوب يعتريني، فبدأ السيد كسروي في الضحك وأخبرني بأنه يمزح فقط، حقاً، يمزح فقط. ضحك الجميع ما عدا زوجتي المستقبلية التي لم تكف عن الشكوى لوالدها بأنها متعبة، لكنها لا تستطيع النوم.

شمعة الدكتور

مر أكثر من أربعة أسابيع منذ إعدام الدكتور، على الرغم من أنني شعرت بأنها أطول من ذلك بكثير. تساقطت أوراق الأشجار، وصارت شجيرة الورد التي زرعناها خارج منزلنا عارية، كما أصبح النهار أقصر، وبدأت الليالي كأنها تغرق في صمت أعمق.

لم أرَ زاري منذ اليوم الذي عدنا فيه من المقبرة، وظللت عاجزًا عن التفكير في الدكتور من دون أن أصاب بنوبة قلق. ظللت أقول لنفسي إنني في يوم من الأيام سأذهب إلى قبره بمفردي، وأقضي اليوم بأكمله أتحدث معه عما حدث في تلك الليلة. سأخبره بأنني أتمنى لو أنني انحنيت قبل أن يراني الرجل الذي كان يحمل جهاز اللاسلكي، وأنني مستعد لفعل أي شيء لأعود بالزمن إلى الوراء وأصحح خطئي. سأعتذر عن وقوعي في حب زاري، وعن قضاء معظم أيام الصيف في منزلها بينما كان هو غائبًا، وعن خيانة ثقته بي. وسأعتذر عن كوني أحلم بها الآن، وعن عدم قدرتي على قضاء دقيقة واحدة من اليوم من دون التفكير فيها، وعن كوني منبهراً ومفتوناً بها.

جلست على السور الذي يحيط بالسطح وراقبت السماء. كان الجو باردًا في الخارج لكنني لم أمانع ذلك على الإطلاق. قرأت عن نظامنا الشمسي في درس

العلوم، لكن الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها التعرف على أي من النجوم هي من خلال الأسماء التي أسندتها أنا وأحمد إليها، أسماء الأشخاص الذين يمتلكون تلك السمة. عندما أذهب إلى الولايات المتحدة، سأتواصل مع أصدقائي من خلال التحدث مع نجومهم كل ليلة. ساعدت حقيقة أنني سأرى نجومهم حتى في الجانب الآخر من العالم على تقليل قلقي من الابتعاد عنهم إلى حد ما. انشغلت بقراءة رواية الجريمة والعقاب لدوستويفسكي بدلاً من حل واجب الهندسة. ما زلت أكره تخصصي، وما زلت أكره أساتذتي، لكنني لم أعد أكره إيراج، على الرغم من أنه ما زال يحرقني إلى أخت أحمد. طلب منا معلم الإنشاء الجديد، الأستاذ رستمي، أن نكتب تعبيراً من خمس صفحات عن موضوع من اختيارنا. اقترح أحمد أن أقدم تحفته عن «التكنولوجيا كأم العلوم»، فرفضت بأدب. بدلاً من ذلك، كتبت موضوعاً عن الجريمة والعقاب في إيران. كتبت أن الجريمة هي فعل عنف غير قانوني يمكن أن يرتكبه أي شخص، وأن العقوبة هي التبعات التي تستهدف المجرمين الذين لا يملكون الإمكانيات المادية للتستر على أفعالهم. على مر التاريخ، كان أصحاب الثروة والسلطة معفيين من مواجهة عواقب أفعالهم الشريرة. ومن ثم، يمكن تعريف الجريمة على أنها مخالفة يرتكبها فرد ذو مكانة أدنى في المجتمع. والعقوبة هي تبعات تُفرض على مرتكب الجريمة فقط إذا كان يحتل إحدى الدرجات الدنيا من السلم الاجتماعي.

وقف الأستاذ رستمي في مؤخرة الفصل يراقبني بهدوء من فوق إطار النظارة المربعة الكبيرة المستقرة على طرف أنفه. شبك يديه خلف ظهره، وسألني:

- من كتب هذا الهراء؟

قلت وأنا أنظر إليه بغضب:

- لقد كتبه بنفسي.

بدأ يتقدم نحوي.

- وأنت فخور بذلك؟

أبقيت نظراتي مثبتة عليه وأجبت:



telegram @
yasmeenbook

- نعم، أنا فخور بذلك.

ملاً الغرفة ضجيج عصبى.

صرخ الأستاذ رستمي:

- اخرسوا!

في تلك اللحظة انطلق جرس الاستراحة، لكن الجميع ظلوا جالسين، متلهفين لمعرفة ما سيحدث بعد ذلك. أمر الأستاذ رستمي الجميع بمغادرة الغرفة، فامثل الفصل على مضض. جلس أحمد وإيراج متجاورين، وبدأ إيراج في النهوض، لكن أحمد أمسك بكُم معطفه وجذبه إلى أسفل. أمرهما الأستاذ رستمي: - اخرجا.

قال أحمد، الذي اعتاد الدفاع عني دائماً:

- نحن من وضع الفكرة في رأسه.

- اللعنة، اخرج من هنا أيها المهرج، وإلا سيعاقب بأسوأ مما تتخيل.

أشرت لأحمد وإيراج كي يغادرا الغرفة. عندما يستخدم المعلم كلمة مثل «اللعنة»، يدرك المرء أنه يعني ما يقوله. غادر أحمد وإيراج وأعينهما ممتلئة بالقلق. بعد مغادرتهما، اقترب مني الأستاذ رستمي ويداه لا تزالان معقودتين خلف ظهره. توقعت أن يصفعني على وجهي، وكنت على استعداد لإبعاد ذراعه وصدّه بقوة إذا ما وجّه إليّ ضربة، لكنه بدلاً من ذلك دار حولي عدة مرات وعلى وجهه نظرة تأملية، وسألني:

- ألا تعلم أنه ليس من المفترض أن تكتب مثل هذا الهراء؟

فاجأني سلوكه الهادئ، وتابع قائلاً:

- ليس لديّ خيار سوى الإبلاغ عن هذا. هل تفهم؟

قال ذلك بنبرة متألّمة، وبدأت عينه اليسرى في الارتعاش.

سألته بهدوء:

- لماذا لا أستطيع كتابة الحقيقة؟

هز الأستاذ رستمي رأسه.

- يمكنك كتابة ما تشاء، لكن عليّ إطعام أطفالتي. هل تعرف ما الذي سيفعلونه بي إذا لم أبلغ عن هذا؟
سألته:

- مَنْ هم؟
- النظام، المعلمون الآخرون، الإدارة، السافاك اللعين، مَنْ تعتقد بحق الجحيم؟
قلت:

- ليس من العدل أن تقع في ورطة بسبب ما كتبت.
لكنني أدركت جيدًا أنني أتصرف بسذاجة، فالمعلمون مأمورون من قبل الإدارة بعدم التسامح مع المعارضة بين صفوف الطلاب.
تنهد في إحباط.

- لا تبدو لي فتى غيبًا. أنت تعلم أنه لا يمكنك كتابة أشياء ذات دلالات سياسية، أليس كذلك؟
التزمت الصمت.

تمتم:
- ليس لديّ خيار، هل تفهم؟ لديّ أربعة أطفال، وأواجه صعوبة في إعالتهم الآن. تخيل ما سيحدث لعائلتي إذا فقدت وظيفتي. يجب أن أبلغ الأستاذ يزدي بهذا الأمر. اللعنة، هل تفهم؟
ظهر الألم في صوته، وأدركت أنه لا يريد الإبلاغ عني، لكن لم يكن لديه خيار آخر. قلت بهدوء:

- أتفهم ذلك، افعل ما يجب عليك فعله.
سألني بغضب:

- أوه، هل تتفهم ذلك؟ وهل تفهم أنني سأبقى مستيقظًا طوال الليل أفكر كيف أنني لم أمتلك الشجاعة لفعل ما هو صائب؟ هل تفهم أنه إذا فعلوا بك شيئًا ما، فسأضطر إلى التعايش مع ذلك لبقية حياتي؟

فكرت كيف أنني كشفت أمر الدكتور عن غير قصد، وأومأت برأسي.

صرخ:

- أعطني ورقتك اللعينة.

ناولته ورقتي، فأخرج ولاعة من جيبه وأشعل فيها النار ورمى الرماد من النافذة.

- من المؤسف أنني مضطر إلى استرجاع ما كتبته من ذاكرتي. ابقَ في الغرفة.

يجب أن أذهب لمقابلة المدير ومعلم الانضباط قبل بدء الحصة التالية.

ثم خرج الأستاذ رستمي على مهل من الغرفة، فأسرع أحمد وإيراج بالدخول.

سألني أحمد:

- هل أنت بخير؟

بقيت صامتاً فترة من الوقت، أفكر في أطفال الأستاذ رستمي الأربعة. بدت

تعايير وجهه والخُطى المحسوبة التي غادر بها الغرفة أشبه برجل يسير نحو حبل

المشقة.

همست قائلاً:

- لديه تلك السمّة.

سألني إيراج في حيرة:

- ماذا؟ مَنْ لديه ماذا؟

في اليوم التالي، طلب الأستاذ يزدي من والدي الذهاب إلى المدرسة لمناقشة

المفاهيم المقلقة التي وردت في موضوع الإنشاء الذي كتبته. وفقاً للأستاذ

رستمي، لم يكن الموضوع يحمل نقداً سياسياً على الإطلاق. ومع ذلك، استلزمت

مفاهيمي غير المقبولة اجتماعياً مناقشة مع والدي. كان الأستاذ رستمي قد تحفظ

على ورقتي، لكنه للأسف فقدّها في الطريق إلى مكتب المدير. وقد أحس بالقلق

من أنني دعوت في موضوعي إلى التسامح مع الأنشطة الإجرامية، إذا كانت

الدوافع مبررة. وأراد الأستاذ رستمي ببساطة أن يقنعني والذي بعدم ملاءمة

السلوك الإجرامي بصرف النظر عن الدوافع.

عندما عاد والدي إلى المنزل في المساء، توقعت أن يحدثني عن لقائه مع

الأستاذ يزدي، لكنه ظل صامتًا بشكل مثير للدهشة طوال المساء، وحتى في أثناء العشاء، حيث يحدثنا عادة عن يومه.

ظننت أنني أفلت من الأمر بسهولة، وصعدت إلى السطح بعد العشاء مباشرة. كنت جالسًا تحت الجدار المنخفض الذي يفصل منزلي عن منزل زاري، عندما صعد أبي. سألني إن كنت مشغولًا، فأجبتة بالنفي. جلس بجانبني وظل صامتًا فترة طويلة.

وأخيرًا قال:

- لا تزال منزعجًا من أحداث ليلة القبض على الدكتور، أليس كذلك؟

بدت عيناه حزيتين، وصوته محبطًا، وهو يتابع:

- كان الدكتور شابًا طيبًا، وجميعنا نفتقده. أعلم أنك كنت مقربًا منه بشكل خاص، أقرب إليه من أي شخص آخر في الزقاق.

انتظرت محاضرة طويلة، لكنه لم يقل أي شيء آخر، وأدركت أنه ينتظر ردي. قلت بمرارة:

- لم يكن ما فعلوه بالدكتور عادلاً. لم يكن إرهابيًا، ولم يؤذ أحدًا. لماذا يقتلون شبابًا مثل الدكتور؟ لماذا يسجنون شخصًا مثل السيد مهربان ثمانية عشر عامًا؟

ربت أبي على ظهري. أدركت أنني ألقى محاضرة على الرجل الخطأ، لكنني كنت بحاجة إلى الإفصاح عما في قلبي.

- أكره وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. إنهم مسؤولون عن موت الدكتور، وموت كل الشباب الآخرين الذين أعدمهم الشاه. أتعرف لماذا يا أبي؟ إذا علمتني كيف أقتل، وقتلت أحدهم، فأنت مسؤول عن جريمتي مثلي تمامًا.

أدركت أنني أصرخ، لكنني لم أستطع التوقف.

- لماذا لا يفعل الله شيئًا حيال ذلك؟ لماذا علينا أن ننتظر كل هذا الوقت من أجل العدالة؟ هذا ليس عدلاً يا أبي، أليس كذلك؟ هل تعرف لماذا لا

يفعل الله شيئاً حيال الفظائع التي تُرتكب ضد الأبرياء كاليهود في ألمانيا، أو أتباع النبي مزدك، أو عبيد الرومان؟ هل تعرف لماذا لا يفعل أي شيء حيال الأطفال الذين يموتون كل يوم في فلسطين؟ هل الله لا يهتم يا أبي؟ أغمضت عيني، وحنيت رأسي، وتركت الألم ينهمر من صدري وحنجرتي. أشعرني البكاء بالارتياح. أحاطني أبي بذراعيه، ووضعت رأسي على صدره كما اعتدت أن أفعل عندما كنت طفلاً. لم ينطق أبي بكلمة، حيث أدرك أن حتى حكمته لا تكفي بلسمًا لحزني.

في الليلة التالية كنت جالسًا تحت الجدار المنخفض، أقرأ شعر حافظ، عندما سمعت صوت زاري يناديني من الجانب الآخر من الجدار. - لقد سمعت ما قلته لأبيك الليلة الماضية. أردت أن أقفز وأطل من فوق الجدار لأراها، لكنني شعرت بأنها لا تريد أن يراها أحد.

سألتها:

- هل كنتِ على السطح؟

اعترفت قائلة:

- كنت على السطح كل ليلة هذا الأسبوع.

- لماذا لم تقولي شيئاً؟

- لم أرغب في مقاطعة قراءتك.

- ماذا كنتِ تفعلين، وأنتِ جالسة وحدك في الظلام؟

- لم أكن وحدي. كنت أنت أيضًا هنا.

سرت في موجة من الدفء لمعرفتي أنها كانت بالقرب مني.

- كيف تشعرين؟

- أنا بخير. ماذا تقرأ؟

- حافظ.

- لقد وعدتني بأن تحضر كتابك إلى منزلي وتأخذ لي فألاً، لكنك لم تفعل، أتذكر؟

قلت:

- نعم.

بعد فترة طويلة من الصمت، قالت:

- هلاً قرأت لي شيئاً الآن؟

- هل تمنيت أمنية؟

صمتت بضع ثواني، ثم قالت:

- لقد فعلت.

فتحتُ الكتاب على صفحة عشوائية، وبدأتُ في القراءة.

أيام الفرقة وليالي العزلة ستنتهي

قد درستُ أسرار الكون، وحزنك سينجلي

هبت علينا نسمة ليلية خفيفة، داعبت صفحات الكتاب، وأثارت تنهيدة ناعمة

من زاري.

خيلاء واعتداد الخريف

كلها إلى زوال مع قدوم الربيع اللطيف

يلوح من وراء الستار بصيص الآمال

انقضت الليالي المظلمة، والنصر آتٍ بلا جدال

توقفت عن القراءة وأصخت السمع، وفتشت الصمت بحثاً عن إشارة إلى

ردها، لكنها ظلت صامتة.

سألتها:

- هل أعجبتك؟

أصدرت همهمة خافتة، ثم قالت:

- شكرًا لك على زرع شجيرة الورد هناك.

أسعدني كونها تعرف ذلك، ولم يهمني إذا اكتشف الجميع الأمر، وبالتأكيد لم يهمني ما إذا ظهر عملاء السافاك على بابي الليلة. تمنيت فقط أن يرسلوا الرجل الذي كان يحمل جهاز اللاسلكي، حتى أجعل أعضاء جماعة الملاكمة يفخرون بي. قلت وأنا أنظر نحو الزقاق الذي سألت فيه دماء الدكتور:

- ستكون الوردة الحمراء شعارنا للتحدي من الآن فصاعدًا.

همست:

- حسنًا، هلأ قرأت لي في الليل؟

همستُ:

- نعم.

- كل ليلة؟

- كل ليلة.

وهكذا اجتمعت أنا وزاري كل ليلة على السطح. لم أرها قط، حيث كانت تجلس على جانبها من الجدار وأنا على جانبي. فصلت بيننا عشرة ستيمرتات من الطوب، لكنني كدت أشعر بدفئها. كنت أضع كفي على الجدار وأتخيل أنني ألمس انحناءات وجهها، وأسمع أنفاسها وحرركاتها من حين إلى حين. عرف أحمد ما يجري، وبقي بعيدًا. وبعد أن انتهينا من حافظ، طلبت مني أن أقرأ لها رباعيات عمر الخيام.

بعد أن انتهيت من قراءة رباعية قصيرة، سألتني:

- هل تؤمن بالله؟

أجبتها:

- لا أعرف.

- لا يبدو أن الخيام كان يؤمن بالله.

- لا أعتقد أنه كان يؤمن به.

سألتني:

- هل تؤمن بالقدر؟

- نعم.

- إذن أنت تؤمن بالله، لكنك غاضب منه الآن فحسب.

ألمتني بصيرتها تلك.

- لماذا أغضب من الله؟

- بسبب الدكتور. أعلم أنك أحبيته كثيرًا، على الرغم من...

توقفت عن الحديث.

سألتها وقلبي يخفق بينما أعض شفتي السفلى:

- على الرغم من ماذا؟

تبع هذه اللحظة المحرجة صمت طويل، حتى قالت أخيرًا:

- كان يقول لي إنني الشمعة التي تضيء لياليه.

لم أرد، وكتبت على الصفحة الأولى من كتاب الخيام مرارًا وتكرارًا: «شمعة

الدكتور».

همست بصوت مرتجف:

- لقد منعونا من ارتداء السواد.

قلت:

- أعلم، لكن لا حاجة إلينا بارتداء الأسود حداثًا عليه. ستكون شجيرة الورد

تلك رمزًا لحزننا.

بدت سماء الليل مخمورة بالنجوم، مثقلة بأرواح الأحبة، وكنت متأكدًا أنها

تشعر بجاذبية السماء الحالكة، وأن كلينا يحدق إلى الكواكب المتزاحمة. ضاق

صدري شوقًا، كما لو أنني قادر على الشهيق، لكنني لن أتمكن أبدًا من الزفير.

سألتني فجأة:

- إذا كان بإمكانك الذهاب إلى أي مكان، فأين تود أن تكون؟

قلت:

- لا أعرف.

لكن أعتقد أنها أدركت أنني أكذب. أردت أن أكون على الجانب الآخر من الجدار. عشرة سنتيمترات شرق موقعي الحالي، لا أكثر من هذا.

لم تأتِ إلى السطح في الليلة التالية. بقيت مستيقظاً طوال الليل قلقاً، أتساءل هل هي بخير؟ هل ألقوا القبض عليها أيضاً؟ هل سارها مرة أخرى؟

شعرت بالتعب والنعاس في اليوم التالي في الفصل. لم أقم بواجباتي المدرسية منذ أن بدأت أنا وزاري في الاجتماع على السطح، وكان هذا أمراً غريباً تماماً بالنسبة إليّ. طلب مني معلم التفاضل والتكامل، الأستاذ كرماني، أن أذهب إلى السبورة وأعطاني مسألة لم أتمكن من حلها. أمرني برفع يدي، ففعلت على مضض، وضربني مراراً وتكراراً بمسطرته. شعرت بحرقه في أصابعي، وثقل في يدي، وظننت أنني سأموت إذا ضربني مرة أخرى، لكنني رفضت منحه الشعور بالرضا إذا سحبت يدي بعيداً. ركزت عينيّ الدامعتين عليه بوصفه تجسيدا لكل شيء أكرهه. تساءلت عما إذا كان والذي سيظل مصمماً على أن أتخصص في الرياضيات إذا علم بما يحدث لابنه الوحيد. وماذا سيقول السيد كسروي عن كل هذا لو رأى ما يفعله بي معلمي أمام جميع الطلاب الآخرين؟

بينما كان معلمي يضربني، تذكرت عينيّ الرجل الذي حمل جهاز اللاسلكي: مفتوحتين على اتساعهما، غاضبتين، وشريرتين، ورأيت النظرة الشريرة نفسها في عينيّ الأستاذ كرماني. تذكرت الشجاعة التي تلقى بها الدكتور اللكمات والركلات من ابن العاهرة الذي كان يحمل اللاسلكي، وشعرت بدمي يغلي.

للحظة فكرت في لكم الأستاذ كرماني في وجهه، لكنه رجل عجوز، لذا تركته يضربني حتى غلبه التعب. وعندما توقف ليلتقط أنفاسه، صرخ في وجهي قائلاً: - أخفض عينيك الوقحتين وإلا اقتلعتكما وأرسلتهما إلى والديك الغبيين.

دفعني وصف والدّي بالغباء إلى الغضب حد الجنون.

- أعلم أنك أحد أولئك الأولاد الذين يستمتعون بالجلوس بجانب النار

وقراءة الهراء الفلسفي بدلاً من تعلم المعادلات المجربة التي قد تنقذ هذه الأمة من قبضة التخلف.

بصق الكلمات كأنه يطلق عليّ الرصاص.

- خلال سنوات عملي المشرفة في التدريس، رأيت قطعاناً من المدعين أمثالك الذين يعدون تجشؤهم بياناً ثورياً. كل واحد منكم سينتهي به المطاف أمام فرقة الإعدام رمياً بالرصاص، ولهذا السبب يحتاج هذا البلد إلى مهندسين وأطباء بدلاً من المثقفين الزائفين أمثالكم. وبعد أن يدفنوا جثثك عديمة القيمة الممتلئة بالرصاص، سأذهب إلى المقبرة وأتغوط على قبرك، كما فعلت مع ذلك الأحق الذي أطلقت عليه اسم الدكتور.

سمعت اندفاع الدم في أذني، وهاجمته مزجراً وأحاطت يداي بعنقه النحيفة القبيحة، ودفعته إلى الوراء حتى التصق بالجدار. أرجعت قبضتي اليمنى إلى الخلف، وأنا أعد نفسي لضربه في وجهه. أردت أن ألكمه، مرة واحدة، مرة واحدة فقط، ولتذهب الرابطة المقدسة لجماعة الملاكمة إلى الجحيم. سأضع كل قوتي في تلك اللكمة الواحدة لأعوض عن كل الضربات التي تلقيتها على يدي، وعن الضربات والركلات التي تلقاها الدكتور في وجهه وجانبيه وبطنه. ستكون هذه اللكمة الواحدة قوية بما فيه الكفاية لتعويض كل الضرب غير المبرر الذي يتعرض له آلاف الناس في هذا البلد الملعون كل عام.

أردت أن أضربه، لكنه كان عجوزاً وضعيفاً. تذكرت وعدي لأبي، وأجبرت نفسي على إنزال قبضتي. بصقت في وجهه بدلاً من ذلك، وخرجت من الفصل. كنت في منتصف الرواق عندما سمعت الأستاذ يزدي ينادي اسمي. استدرت ورأيت خلفي مباشرة، وذراعه مرفوعة، وهو على وشك أن يوجه إليّ ضربة قاسية. قلت:

- لقد فاض بي الكيل. اضربني، وسأجعل هذا آخر يوم في حياتك البائسة اللعينة.

تراجع الأستاذ يزدي خطوة إلى الوراء، ولمحت الخوف في عينيه. كان رجلاً

ذكيًا، ولن يفكر في مواجهتي، ليس الآن، ليس أمام كل هؤلاء الأولاد الذين يراقبوننا في الرواق. أمرني بالذهاب إلى مكتبه. رأيت أحمد يركض نحونا، فزجره الأستاذ يزدي ليبعد، لكن أحمد تجاهله ومشى بجانبني.

عندما دخلنا، كان الأستاذ مرادي يعتني بمعلم التفاضل والتكامل، الذي أخذ يرتجف بشدة. توقعت أن يخرج الأستاذ مرادي مسطرته، لكنه بدلًا من ذلك اقترب مني وهمس إليّ بتعاطف أنه ما كان ينبغي أن أفعل ما فعلته. ثم نظر إلى أحمد وقال:

- لماذا لم تمنعه؟

أجاب أحمد:

- لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة.

اقترب مني الأستاذ يزدي وصرخ بغضب:

- الاعتداء على المعلم هو أسوأ شيء يمكن أن يفعله الطالب، هل تفهم؟

ليس لديّ خيار سوى فصلك. ومع وجود هذه الجريمة في سجلك، لن تقبلك أي مدرسة أبدًا. أهنتك! لقد دمرت حياتك للتو.

أجبت صارخًا في المقابل:

- لا أكثر!

تقدم الأستاذ يزدي نحوي خطوة واحدة، ثم أعاد التفكير في الأمر بشكل أفضل. أمسك أحمد بذراعه وأخبره بأنه يريد التحدث معه ومع الأستاذ كرمانى على انفراد.

توجهوا إلى الزاوية المقابلة من الغرفة، ورأيت الأستاذ يزدي يزدد انزعاجًا أكثر فأكثر. التفت أحمد وغمز لي. ثم توجه الأستاذ يزدي ومعلم التفاضل والتكامل إلى زاوية أخرى من الغرفة وناقشا الموقف بهمهمات منخفضة. وأخيرًا، التفت إلينا الأستاذ يزدي وصرخ قائلاً:

- اخرجوا من هنا بحق الجحيم.

وعندما بدأنا نتوجه نحو الباب، ناداني وقال لي:

- لا تأتِ إلى المدرسة لمدة ثلاثة أيام، وأخبر والدك بأنني أريد رؤيته غدًا.
قلت له:

- أخبره بنفسك.

ثم خرجت.

وقف كثير من الطلاب في الرواق، وهتف الجميع عندما خرجنا. أردت أن أحییهم على دعمهم لكن أحمد أمسك بيدي وجذبني بعيدًا. سألته:
- ما الذي كنتم تناقشونه في الزاوية؟

رمقني بنظرة غاضبة وواصل السير. عندما ابتعدنا عن المكتب، توقف وصرخ:

- ما خطبك بحق الجحيم؟ أنت مصمم على تدمير مستقبلك بالكامل، أليس كذلك؟ أنا الذي ابتكرت مثل هذا النوع من الهراء الذي تقوم به هذه الأيام.
قلت:

- لست أنت من ابتكر ذلك. أكرههم، أكرههم جميعًا. لقد قتلوا الدكتور. لم يكن السافاك من قتله، بل كان هذا النظام الفاشل، هذه الدولة اللعينة، وشعبها اللعين الذي لا يستطيع أن يللم شتات نفسه للإطاحة بطاغية. نحن جميعًا مجموعة من الجبناء، وإلا كنا هرعنا إلى الشوارع محتجين على اعتقاله في الليلة التي كشفت فيها أمره. ربما كان سيظل على قيد الحياة حينها.
حاول أحمد أن يضع يده على كتفي لتهديتي، لكنني دفعت ذراعه بعيدًا، وهرولت خارج المدرسة.

قبلة

كانت أمي تبكي عندما وصلت إلى المنزل، بينما جلس أبي في الفناء بجوار الحوض يدخن سيجارة. بدا الجو باردًا على غير العادة بالنسبة إلى هذا الوقت من العام، في أواخر أكتوبر، ورأيت أنفاس أمي المتكثفة وهي تبكي. بدا أبي غاضبًا، لذا خمنت أن الأستاذ يزدي قد اتصل به، ووقف بمجرد أن دخلت إلى الفناء.

أشرت إليه بإصبعي قائلاً:

- قبل أن تقول أي شيء، فأنا لم أضربه. لقد أخبرتني بأنه ليس من الصواب ضرب شخص أضعف مني، لذا بصقت في وجهه بدلًا من ذلك لأنه نعتك أنت وأمي بالغباء، وقال إنه لا يطيق صبرًا حتى يتغوط على قبري كما فعل على قبر الدكتور. لقد فعلت ما كنت ستفعله أنت، وتشاجرت، كما فعلت أنت في الثكنة ومع المهندس صادقي. إذا كان هذا خطأ، فعاقبني.

جلس أبي مرة أخرى على حافة الحوض، ونفث دخان سيجارته ونظر إلى قدميه. راقبته فترة من الوقت، وعندما تأكدت أنه ليس لديه ما يقوله، توجهت نحو المنزل، حيث وقفت أمي عند الدرج. طوقتها بذراعي، وعانقتها بقوة، وقبلتها على خديها، ومسحت الدموع عن وجهها.

- لا تقلقي يا أمي. لقد كبرت الآن، وأعرف ما أفعله.

أخفت وجهها في صدري.

همست في أذنها محاولاً التسرية عنها:

- أعتقد أنك بحاجة إلى التوقف عن تقديم زيت المحركات لي.

تراجعت وضحكت بتوتر وعيناها دامعتان، ثم ضربت بخفة على صدري عدة مرات وهمست بشيء ما. عانقتها مرة أخرى قبل أن أصعد الدرج إلى غرفتي في الطابق الثالث.

شعرت بأنني أصبحت بالغاً فجأة. أنا شاب قادر على التحكم في حياتي، قوي الإرادة، مصمم وقادر على اختيار طريقي، تماماً مثل والدي. سأسيطر على الحياة من حولي، وسأحرص على ألا أعامل كطفل مرة أخرى من قبل والدي أو في المدرسة. لا بد أن أجد طريقة لأخذ زاري معي إلى الولايات المتحدة. وعندما نصل إلى هناك، سأعمل جاهداً لإعالتها. يا إلهي، هناك الكثير مما يجب فعله، وأعجبني الشعور بالمسؤولية عن كل ذلك.

كنت مستقراً في مكاني المعتاد على السطح عندما سمعت زاري من الجانب الآخر من الجدار.

قالت:

- مرحباً.

وبختها قائلاً:

- كنت قلقاً عليك. لم أعرف أين كنتِ، أو ماذا حدث لك.

- أنا بخير. لقد ذهبنا إلى المستشفى لرؤية والد الدكتور، ولم نعد إلى المنزل إلا في وقت متأخر جداً.

- كيف حاله؟

- ليس بخير.

- كيف حالكِ أنتِ؟

- لست بخير.
- يؤسفني ذلك.
- سمعت بكاءها من الجانب الآخر من الجدار.
- والدائي يرسلان إليك تحياتهما. إنهما يعتقدان أنك النقطة المضيئة الوحيدة في حياتي الآن.
- حقًا؟
- وأنا أيضًا أعتقد ذلك.
- لو حدث هذا في الشهر الماضي، لكنت ألقيت بنفسي من على السطح من شدة الفرح، لكنني صرت رجلًا الآن، لذا احتويت نفسي، وقلت وأنا لا أزال منفعلًا من الداخل:
- أنا لم أفعل أي شيء.
- حقًا؟ هل ترى أي شخص يصطف في الخارج ليقضي كل أمسياته مع فتاة مكتئبة وبائسة مثلي؟
- أدركت أنه من الأسهل تقبُّل المجاملات عندما لا تُقدِّم لك وجهًا لوجه.
- صمتت زاري فترة من الوقت، ثم قالت:
- اشكر صديقتك على السماح لك بقضاء كثير من الوقت معي.
- تمت:
- حسنًا.
- لا أطيق صبرًا حتى أعرف مَنْ هي.
- ستعرفينها قريبًا.
- لم ترد على ذلك.
- بعد فترة طويلة من الصمت قالت:
- سأذهب للتسوق غدًا. هل تود الذهاب معي؟ بعد المدرسة بالتأكيد.
- أجبت:
- لا أستطيع التفكير في أي شيء آخر أفضل أن أفعله.

لم أذكر شيئاً عن فصلي من المدرسة، لكنني كنت متأكدًا أن هذا الموضوع سوف يُطرح في نهاية المطاف.

في اليوم التالي، انتظرتها على بُعد زقاقين من زقاقنا. فلم يكن من الحكمة أن نُشاهد معًا في زقاقنا، ولا سيما بعد فترة وجيزة من وفاة الدكتور. سمعت صوت أحمد يتردد في ذهني: «لو كنا نعيش في الولايات المتحدة أو أوروبا، لما شعرنا بالقلق بشأن مثل هذه الأمور، أليس كذلك؟». لا بد أن أتصل به وأعتذر له عن تصرفي الأحمق معه في المدرسة.

تسارعت خفقات قلبي تحسبًا للرؤية زاري، وتشتت أفكارني حتى عجزت عن التفكير تقريبًا. عندما ظهرت، ألقينا التحية على بعضنا، وبدأنا السير نحو محطة الحافلة. مشينا جنبًا إلى جنب، ونظرت إليها وأدركت لأول مرة أنها أقصر مني ببضعة سنتيمترات.

بدا وجهها ذابلًا ومرهقًا، غير أنها كانت لا تزال تبدو كالدمية، ببشرتها الفاتحة، وأنفها الصغير المدبب، وشعرها المنسدل كالستائر الحريرية على جانبي وجهها، ورموشها الطويلة، وعينيها الزرقاوين الكبيرتين. بقي كل شيء كما هو، باستثناء ابتسامتها المعوجة. هذا هو الوجه الذي وقعت في حبه. استدارت ونظرت إليّ. ابتهجت للغاية لوجودها، إلى درجة أنني أردت أن أخبرها كم أحبها، وأني أريد قضاء بقية حياتي أمشي بجانبها.

لم نقل الكثير في الحافلة. جلسنا إلى جانب بعضنا، وتلامست كتفانا في كل مرة مررنا فيها فوق مطب. تأملتُ يديها، بأصابعها الطويلة الرشيقة. أحببت يديها. سألتني:

- هل تعرف ما الأسبوع المقبل؟

أدركت أنها تتحدث عن اليوم الأربعين لوفاة الدكتور، اليوم الذي كان ينبغي لنا أن نجتمع فيه لتحدث عنه، ونبكي ونخبر بعضنا كم نفتقده. اليوم الذي حُرمنّا فيه من فعل كل ذلك. نظرت إلى زاري بياس وصمت.

قالت وعلى وجهها ابتسامة حزينة:

- إنه عيد ميلاد الشاه. سيتوجه من قصره إلى ملعب أمجدية في موكب مفتوح، ويتوقعون حضور خمسمائة ألف شخص في الشوارع. أريد رؤيته.
- لماذا تريدان فعل هذا، خصوصًا في ذلك اليوم؟
- لم أره شخصيًا من قبل.

قلت بسخرية:

- إنه مثل أي دكتاتور آخر، رجل متغطرس ونرجسي وعديم الرحمة ترسل نظراته الباردة قشعريرة في عمودك الفقري. أنا أكرهه. لن تستشفي أي شيء عما حدث للدكتور من خلال مشاهدته وهو يمر في موكب للسيارات.

صمتت هُنيئة من الوقت، ربما مندهشة بعض الشيء من كلامي الصريح، ثم قالت:

- ما زلت أريد رؤيته.
- حسنًا، سأذهب معك.
- لديك كثير من المشاغل في المدرسة، ولست مضطرًا إلى هذا الآن. أفضل الذهاب بمفردي.

كررت بهدوء:

- سأذهب معك.

سألتني:

- لماذا؟ لماذا تريد الذهاب معي وأنت تكرهه إلى هذه الدرجة؟
- نظرت إلى ركبتي وأجبت:
- لأنني أفضل أن أكون معك في الجحيم على أن أكون من دونك في الجنة.
- أدركت أنها تحدق إليّ، ثم مدت يدها وأمسكت بيدي.
- باشا، أنا أيضًا أحب صحبتك. أنت شخص مميز جدًا. أنت حقًا تتمتع بتلك السمّة، تمامًا كما قال أحمد.

ضغطت على يدها بلطف، وشعرت بها تضغط على يدي في المقابل. نظرت في عينيها، فبادلتني النظرات.

همست:

- يداك دافئتان.

ترجلنا من الحافلة في لاله زار، وهي منطقة في طهران تضم آلاف المحال التجارية والعديد من المسارح والنوادي الليلية والمطاعم. امتلأت الشوارع والأزقة الضيقة بالناس من جميع الأعمار، وعبق الهواء برائحة اللحم والبرجر والكبد المشوية على الفحم المشتعل الساخن.

أعلن بعض الباعة عما يقدمونه:

- أفضل كباب في المدينة، أسرعوا قبل أن يبرد.

- قماش بريطاني أصلي بعشرة تومانات فقط للمتر، تعالوا واشتروا قبل أن ينفد.

- تذاكر، تذاكر لأروع عرض في الكون مع جبلي، أعظم مطرب في عصرنا.

قالت زاري:

- أحب هذه المنطقة، إنها مفعمة بالحياة.

في أحد المتاجر، ارتدت شادورًا وسألتني كيف تبدو. أخبرتها بأنها تبدو كالملاك، فضحكت واشترته.

ذهبنا إلى محل لبيع الآيس كريم، وطلبنا طبقين من الفالودج مع آيس كريم أكبر مشتي، الذي يُعد وفقًا لوصفة خاصة تتضمن الزعفران والفسق المملح غير المحمص وماء الورد.

عندما بدأنا نأكل، سألتني:

- هل تعلم أن فهيمة كانت ستقتل نفسها لو أجبروها على الزواج بجارها؟

جعلتني فكرة انتحار فهيمة أفقد شهيتي، وقلت:

- الانتحار لا يحل أي شيء أبدًا، ومن المؤكد أنه يزيد الأمور سوءًا بالنسبة إلى الذين يبقون من بعدهم. لا يمكنني أن أتخيل ما الذي كان سيفعله ذلك بأحمد!

قالت زاري بهدوء، وهي تحديق إلى الآيس كريم:

- لقد قرأت كتابًا عن سقراط العام الماضي، وأعجبني حقًا كيف اختار البقاء في السجن والموت، حتى عندما أُتيحت له الفرصة للهروب. هل كان مخطئًا في ذلك؟

أدركت ما الذي ترمي إليه بهذا الجدل، ولم أرد.

سألتنى وهي تنظر في عيني مباشرة:

- ماذا عن كلسخي؟ في رأيي أن كلاً من كلسخي وسقراط قد انتحرا، ألا توافقني الرأي؟

التزمت الصمت.

- هل تعتقد أن الدكتور...

لم تكمل جملتها.

هزرت رأسي في إحباط.

- أعتقد أن الحياة أضمن من أن نهدرها، خصوصًا عندما يكون لدى المرء شيء يستحق القتال من أجله.

راقبتني زاري بضع ثوانٍ، ثم سألتني بحذر:

- هل أغضبتك؟

هزرت رأسي بالنفي، بينما استخدمت ملعقتها لهرس الآيس كريم. اقترحت قائلاً:

- دعينا نغير الموضوع إلى شيء أكثر متعة.

قالت:

- حسنًا، لنفعل. هل لا تزال تخطط للذهاب إلى أمريكا؟

أجبتها مازحًا:

- قلتُ شيء أكثر متعة.

فبدأت في الضحك.

- أريدك أن تذهب. أتمنى أن تصبح صانع أفلام مشهورًا. اكتب سيناريو،

- وأخبر الجميع بقصة زقاقنا. لكن عدني بأن تجعل شخصًا مشهورًا يلعب دوري. مَنْ ممثلك المفضلة؟ إنجريد بيرجمان، أليس كذلك؟
- بلى، لكنها أكبر من أن تؤدي دورك الآن. يجب أن أحضر ممثلة أصغر سنًا، أجمل ممثلة على قيد الحياة.
- تخضب وجهها، وتفحصت عيناها عيني كما لو كانت تحاول استنتاج كيف تركب قطع أحجية معًا، ثم أخذت قضمة من الآيس كريم.
- سألته:
- ماذا حدث في المدرسة إذن؟
- كيف عرفت ذلك؟
- من خلال فهمي.
- قلت:
- إنها ثرثرة.
- وضحكنا معًا.
- سألته:
- هل أزعجك ذلك؟
- حسنًا، يتخيل المرء نوعًا مختلفًا من الأشخاص عندما يسمع عن حوادث كهذه. أتمنى ألا تفعل ذلك مرة أخرى.
- أسعدني قلقها عليّ، فقلت كي أطيل اللحظة:
- كان يستحق ذلك.
- قالت والتهديد ظاهر في عينيها:
- عدني بأنك لن تفعل شيئًا كهذا مرة أخرى.
- ضحكت ورفعت يدي اليمنى، ووضعت يدي اليسرى على قلبي.
- قالت زاري:
- يالك من ولد مطيع.
- ثم أضافت:

- أتعلم، أشعر بالمسؤولية عن عدم تركيزك في المدرسة.

- أنت أفضل شيء يمكنني التركيز عليه الآن.

تخضب وجه زاري مرة أخرى.

قبل أن نودع بعضنا، جعلتني أعدها بأن أدرس بجدية أكبر. وقالت إنها تريد

تفقد واجبي المنزلي كل ليلة، عندما نلتقي على السطح. وبينما هي تسير مبتعدة،

لعتُ حقيقة أن اليوم مر بسرعة كبيرة.

في ذلك المساء نفسه، كنت جالسًا على السطح عندما صعد أحمد، وجلس بجانبني.

سألني:

- هل أخذت لقاح داء الكلب هذا العام؟

نظرنا إلى بعضنا بضع ثوانٍ، ثم بدأنا في الضحك. أحطته بذراعي وعانقته،

وقلت له:

- أنا آسف حقًا، لن أصرخ في وجهك مرة أخرى.

لوح بذراعه للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن أقلق بشأن ذلك. ثم أخبرته بكل

تفاصيل يومي مع زاري، فسره أنني حصلت أخيرًا على فرصة لقضاء بعض الوقت

معها. وأضاف أنه سيذهب هو وفهيمة لرؤية موكب الشاه معنا.

قلت:

- سأفعل ذلك لأكون بصحبة زاري. عدا ذلك، فإنني أفضل السقوط من

على السطح وكسر عنقي على أن تقع عيناى على الرجل المسؤول عن

وفاة الدكتور.

- هذا هو شعوري نفسه بالضبط.

كان لدينا اختبار في التفاضل والتكامل بعد يومين من انتهاء فترة فصلي من

المدرسة. درست بجد قدر استطاعتي، حيث كان من المهم بالنسبة إليّ أن أفي

بالوعد الذي قطعته لزاري. وعند عودتي إلى المدرسة، رحب بي الطلاب، وحتى

حارس المدرسة، بحفاوة بالغة. قال الحارس:

- لقد أظهرت لذلك الضبع العجوز أنه لا يمكنه معاملة الأولاد الأذكىاء بهذه الطريقة. رأيته يسيء معاملة كثير من الأولاد الطيبين على مر السنين، لكنك الوحيد الذي وقف في وجهه. هنيئًا لك، حقًا، هنيئًا لك.

قال أحمد إن الأولاد في المدرسة تفننوا في إعادة رواية قصة مشاجرتي مع الأستاذ كرماني. سمع أحد الأولاد يقول لآخر إنني رفعت الأستاذ كرماني بنية رميه من النافذة قبل أن يمنعني الأستاذ يزدي. وفي بعض الروايات، حاول الأستاذ يزدي صفعي، لكنني استخدمت أحد أساليب أبي في الملاكمة لصده، ثم طرحته أرضًا وكدت أخنقه حتى الموت، قبل أن يسحبني الأستاذ مرادي بعيدًا عنه. سألته:

- لماذا يختلفون هذه القصص؟

قال أحمد من دون تردد:

- لأنهم يحتاجون إلى بطل، وأنت يا صديقي، تنطبق عليك هذه الصفة. التقيت أنا وزاري على السطح، أخيرًا على الجانب نفسه من الجدار المنخفض الذي ظل فاصلًا بيننا في كل تلك الليالي الأخرى. سألتني عما إذا كنت قد أكملت واجبي المنزلي، فأريتها دفترتي، وتفحصت كل صفحة بعناية. راقبت تلك الأصابع الطويلة والنحيلة وهي تقلب الصفحات، وأقسم إنني شعرت بالدفع المنبعث من جسدها. نشأت رابطة قوية بيننا، وشعرت بأنني محظوظ جدًا، لأن والديها لا يمانعان رؤيتي لها على السطح.

أخذت ترتجف وهي تتصفح واجبي المنزلي، فاستجمعت ما يكفي من الشجاعة لأحيطها بذراعي. استدارت ونظرت إليّ، ولعلها ترددت بشأن كيفية رد فعلها، ثم حركت جسدها لتجعل نفسها في وضع أكثر راحة في حضني، وقالت: - هكذا كان الناس يدفنون أنفسهم في الكهوف في عصور ما قبل التاريخ.

تذكرت كتابات داروين عن إنسان ما قبل التاريخ، وسألتها:

- هل تعتقدين أن استمتاعنا بالأحضان يعود إلى تلك الحقبة؟

ثم تساءلتُ على الفور عن السبب الذي يدفعني دائمًا إلى طرح أسئلة غريبة.

ضحكت قائلة:

- هذا، وأشياء أخرى على الأرجح.

قررت عدم الرد، وسعدت لأن أحمد لم يكن موجودًا ليسمع سؤالتي. جلسنا محتضنين بعضنا لساعات، حتى غفت زاري ورأسها على كتفي. لم أستطع رؤية وجهها، لكنها توهجت بدفء جعلني أفيض بالسعادة. صعد والدي إلى غرفتي، ورأنا من خلال النافذة، ثم غادر من دون أن ينطق بكلمة. بعد دقائق قليلة، صعدت والدة زاري، فانحبست أنفاسي في صدري. توقعت أن تلعنني وتسحب زاري بعيدًا، لكنها ابتسمت بدلًا من ذلك.

همستُ:

- لقد كانت متعبة، متعبة للغاية.

تسللت السيدة نادري إلى المنزل، وشعرت بارتياح شديد. لا يهمني إن رأنا العالم أجمع الآن. لن أخفي أي شيء عن أي شخص بعد الآن. نعم، ستتزوج ولن يعترض أحد. ستكون علاقة قائمة على الحب، وليس على التقاليد البالية. غمرني الشعور بالابتهاج.

استيقظت زاري نحو الساعة الحادية عشرة، ونظرت إليّ وابتسمت.

- هل نمت طويلًا؟

- ليس طويلًا بما فيه الكفاية.

- لم أتم هكذا منذ...

لم تكمل جملتها، لكنها داعبت كتفي وذراعي بحب.

- لا بد أن ذراعيك تؤلمانك من حمل رأسي الثقيل، أنا آسفة. كان عليك إيقاظي.

- لم أمانع ذلك. أنتِ تنامين كالملك.

- أنت لطيف جدًا.

- لقد صعدت أملك إلى السطح.

سألت، منزعة بعض الشيء:

- ماذا قالت؟

- لا شيء. ابتسمت وعادت إلى الداخل.

- لطالما نهتني لعدم حدوث أي اتصال جسدي مع الدكتور قبل زواجنا.
هزت رأسها وتابعت:

- لقد غيّر هذا الأمر الجميع. من الأفضل أن أذهب للتحدث معها.

نهضت وقفزت فوق الجدار المنخفض، واختفت داخل منزلها. جلستُ على الجدار، وفكرت كم يمكن أن تكون الحياة جميلة. يا إلهي، كم أحبها. أرجوك لا تحرمني منها أبدًا. أدركت أنني أدعو الله، بينما كنت غاضبًا منه قبل بضع ليالٍ، واستغفرتَه.

شعرت بشخص يقف خلفي، فاستدرت ورأيت زاري. ارتسمت على وجهها نظرة مشرقة للغاية. أمالت رأسها جانبًا بعض الشيء، ولمحت في نظراتها رقة وسكينة لم أرهما من قبل. قبّلت خدي وقالت:
- شكرًا لك.

ثم مشت ببطء عائدة إلى منزلها.

نجحت بتفوق في أول اختبار لي في التفاضل والتكامل. ظل الصبي الجالس بجانبني ينظر إلى اختباري وينسخ إجاباتي. كان الغش في الاختبارات أمرًا معتادًا في المدرسة، وكل مَنْ في صفي تقريبًا يغشون في مادة التفاضل والتكامل، حتى الطلاب الأذكياء. فهم يرفعون أوراقهم إلى أعلى، أو يجلسون معوجين حتى يتمكن الشخص الجالس خلفهم من نسخ إجاباتهم. تساءلت كيف يمكننا تفسير هذا الدافع الوطني للغش. ربما كان الأمر متعلقًا بالمشاركة أكثر من الغش. سمعت أن الناس في الغرب يتنافسون في كل شيء، وأنتك إما خاسر وإما فائز. لكن في بلدي، ليست لدينا الروح التنافسية نفسها. فقد عودتنا قرون من البؤس تحت هيمنة المغول والعرب والحكام المستبدين المحليين على التآزر ومساعدة بعضنا في المواقف العصبية.

تركت الصبي الذي بجاني ينسخ إجاباتي.
لم ينظر الأستاذ كرماني في عيني عندما أعاد إليّ اختباري عقب تصحيحه
بعد يومين. ولا أعتقد أنه نظر في اتجاهي ولو مرة واحدة خلال اليوم بأكمله.

كنت على السطح بالفعل عندما جاءت زاري وسألتنني عن اختباري. أخبرتها
بأنني حصلت على أعلى درجة في الفصل، فضحكت ونظرت نحو السماء،
كأنها تشكر الله.

مازحتها قائلاً:

- لماذا تشكرين الله؟ أنا الذي قمت بكل العمل الشاق.

قالت ونحن نجلس بجانب بعضنا وظهرنا إلى الجدار:

- لقد فعلت بكل التأكيد. يا لك من فتى مطيع.

كانت ليلة باردة، فأحطتها بذراعي من دون أدنى تردد. تحرّكت كي تشعر
بالارتياح، وعدلت وضعها بين ذراعي، وقالت:

- أنا سعيدة جداً بدرجاتك.

بدت كلماتي واثقة لأول مرة وأنا أقول لها:

- أشعر بأنني أستطيع أن أفعل أي شيء إذا طلبت ذلك.

فابتسمت.

بقينا جالسين فترة طويلة من دون أن نقول أي شيء آخر، حتى غفت بين
ذراعي مرة أخرى ورأسها على كتفي، ويدها اليسرى فوق صدري، على قلبي
مباشرة. أملت ألا تبقىها دقائق قلبي مستيقظة، وأحطتها بكلتا ذراعي. بدا الجو
ساكناً وهادئاً في الزقاق، وبرودة الخريف في الهواء، مما جعل عناقنا أكثر متعة.
شعرت بأنني أسعد رجل في الكون.

قبّلتها على خدها. كان وجهها متورداً، وشعرت بأنفاسها على عنقي. فتحت
عينيها، ووجهها لا تفصل بينهما إلا بضعة سنتيمترات. لم تبدُ عيناها ناعستين
ومتفتختين. لا بد أنهما كانتا مغلقتين، كما لو كانت مسترخية بين ذراعي، لا نائمة.

لم أستطع منع نفسي، فقبلتها على شفيتها، وقبلتني هي الأخرى. شعرت بأصابعها تداعب وجهي وعنقي وشعري. كانت شفاتها ناعمتين ودافنتين ومفعمتين بالحب، كأنهما خلقتا لتناسب شفتي تمامًا. تحرك جسدها مقابل جسدي وهي تتنفس بينما تشابكت أصابعنا. هل يمكن أن يتجمد الزمن عند هذه اللحظة إلى الأبد؟ ثم توقفت فجأة، ودفعتني إلى الوراء وهرعت إلى منزلها وهي تبكي قائلة:
- هذا ليس صائبًا، هذا ليس صائبًا.

لم تأت إلى السطح في الليلة التالية، وبقيت مستيقظًا طوال الليل أذرع السطح جيئةً وذهابًا. نظرت داخل فناء منزلها، لكن لم يكن هناك أثر لها. صعدت إلى شرفتها ونظرت داخل غرفتها المظلمة.

كان الجو باردًا في الخارج، لكنني لم أكثرث. سأنتظر حتى تخرج. وعندما تخرج، سأخبرها بأنني آسف على تلك القُبلة اللعينة، على الرغم من أنه لم يسبق لي الشعور بإحساس رائع على ذلك النحو. وسأعدها بأنني لن أستغل صداقتها أبدًا، إلا إذا طلبت مني ذلك. سأعتذر وأقسم إنني لن أقبلها مرة أخرى، حتى بعد أن نتزوج. وسأخبرها بأنني تخطيت حدودي عندما تسرعت في التصرف بهذه السرعة بعد وفاة الدكتور.

أتى أحمد إلى السطح وأخبرته بالقصة. لسبب ما، جعلتني رؤيته أكثر توترًا مما كنت عليه عندما كنت بمفردي.

قلت:

- آمل ألا يكون محكومًا عليّ بالعيش من دونها إلى الأبد.

ضحك أحمد وهز رأسه.

- لماذا تضحك عليّ وأنا منززع؟ وتدعي أنك صديقي؟

صحح لي قائلًا:

- صديقك المقرب، أيها الأحمق.

تجهمت.

- تبًا لك.

قال أحمد وهو لا يزال يضحك:

- اسمع، هل تعرف ماذا قالت لي فهيمة اليوم؟
لم أجبه.

- قالت إنها متأكدة الآن أن زاري واقعة في حبك.
صحت:

- ماذا؟ ماذا تقصد؟ هل قالت زاري ذلك أم أن فهيمة تتكهن؟
- فهيمة امرأة. النساء لا يتكهنن، بل يعرفن.

- كيف؟

- لا تسألني. هناك عديد من الأشياء التي نعرفها عن النساء، لكننا لا نستطيع
تفسيرها، وهذا أحدها.

هدأت بعض الشيء.

- لكن لماذا لا تأتي إلى السطح؟

- ثمة ما يشغل بالها. ربما الدكتور، أو أنها تشعر بأن الوقت مبكر جدًا، أو
أنها كبيرة جدًا بالنسبة إليك. أو ربما لا تعرف ما ينبغي أن تفعله بمؤخرتك
الجميلة.

قلت:

- اخرس!

وبدأت في الضحك، قبل أن أتابع:

- هل تعتقد حقًا أنها وقعت في حبي؟

- لِمَ لا؟ فأنت تتمتع بتلك السمّة، أتذكر ذلك أيها الفتى العاشق؟
رميت ذراعي حول أحمد وعانقته بقوة أكثر من أي وقت مضى.

في الليلة التالية وجدت ظرفاً على السطح في المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه،
وكان من زاري. قالت الرسالة التي بداخله: «إلى أعز وأقرب الناس إليّ: أعشقتك،
لكن يجب ألا تتعلق بي عاطفياً. لا أريدك أن تتأذى. مع كل حبي، زاري».

شعرت فجأة كأنني تلقيت ضربة من قبضة ثقيلة، ضربة أقوى بلا حدود من تلك التي وجهها إليَّ الأستاذ كرماني بمسطرته. انفتحت في قلبي هاوية بلا قرار، مما جعل العالم يبدو لي مكانًا موحشًا للغاية. أردت أن أبكي، لكنني قاومت الدموع بكل ما أوتيت من عزم، تمامًا كما فعلت قبل سنوات، وأنا أمسك ساقي المكسورة، إلا أنني هذه المرة أمسكت قلبي. نظرت نحو الباب المؤدي إلى سطح منزلها. كنت أعلم أنها خلف النافذة الزجاجية، جالسة في الظلام. أدركت أنها تراقبني، كما أدرك أحمد أن فهيمة كانت خلف الجدار ليلة بيعها في المزاد العلني.

انخفضت درجة الحرارة بسرعة، على نحو يعكس شعوري حيالي حياتي. عوت الرياح الباردة عبر الزقاق، كأنها تنذر بمزيد من الأيام الباردة المقبلة، وأيام أكثر بؤسًا في الطريق. شعرت بجلد وجهي مشدودًا وأصابعي تكاد تصبح خدرة، على الرغم من أنني كورت قبضتي بإحكام في جيبي سروالي. قفزت إلى سطح منزل زاري ومشيت إلى الباب الزجاجي الكبير المؤدي إلى منزلها. غطى الصقيع النوافذ، ولم أستطع رؤية ما بالداخل، لكنني كنت أعرف أنها على الجانب الآخر. استخدمت أصابعي لحك الصقيع عن الزجاج، وكتبت بالمقلوب، حتى تتمكن من القراءة من جانبها: «أحبك». رأيت وجهها من خلال الحروف، وكانت تبكي. لمست الزجاج بيدها، فضغطتُ كفي على الجهة المقابلة لها، ثم اختفت عن ناظري.

عدت إلى الجدار الفاصل بين منزلينا، وأدركت أنها تراقبني. عزمْتُ على أن أتجمد حتى الموت إن اضطررت إلى ذلك، لكنني لن أغادر حتى تخرج. انضم إليَّ أحمد على السطح ولف بطانية حولي.

- الجو بارد. لماذا لا تدخل لوضع دقائق؟ سأجلس هنا حتى تخرج.

- لا.

- حسنًا، كما تشاء.

- جلس بجانبني.

قلت له:

- اذهب إلى الداخل. ستُصاب بالبرد.

سألني متجاهلاً ما قلته:

- هل تريد سيجارة؟

أجبتَه مزمجرًا:

- لا.

- هل تذكر الليلة التي ظننت فيها أنني فقدت فهمي؟

أومأت برأسي.

- اعتقدت أن حياتي انتهت لأنني كنت سأفقدُها إلى الأبد. لديك النظرة

نفسها في عينيك الآن، ولا أفهم ذلك، فلديكما بقية حياتكما معًا. كل ما

عليك فعله هو التحلي بالصبر. زاري تعرف أنك تحبها، وأنا أعرف أنها

تحبك، لكن عليك أن تمنحها الوقت. ستفعل ما هو صائب. النساء دائمًا

ما يفعلن ذلك.

قلت كطفل عنيد مدلل:

- لا أريد الانتظار.

يا لرجولتي!

- انظر، عليها الابتعاد عنك الآن. من الصعب عليها أن تتقبل أنها واقعة في

حبك. لن تقفز بين ذراعيك وتظاهِر بأن الدكتور لم يكن له وجود بعد أقل

من أربعين يومًا من إعدامه. لذا عليك أن تصبر، ودعنا نسير في هذا الأمر

بالطريقة الصحيحة. ما تحتاج إليه الآن هو الوقت.

قلت بعينين دامعتين:

- غدًا هو اليوم الأربعون لرحيل الدكتور. كان من المفترض أن نكون معًا.

أكره رؤية الشاه، لكنني لا أريدها أن تذهب وحدها.

تصرف أحمد كأنه لم يسمع ما قلته للتو، ووبخني قائلاً:

- كن صبورًا. أرجوك، كن صبورًا.

قلت بمرارة:

- لا تصرخ في وجهي.

صرخ وهو يشير بإصبعه نحوي:

- لِمَ لا؟ أنت يا صديقي العزيز، من المفترض أن تتمتع بتلك السمّة. هأنذا أسألك: هل هذه هي الطريقة التي يتصرف بها الرجل الذي يتمتع بتلك السمّة؟ أنت لا تمثل قدوة حسنة لبقيتنا.

قلت:

- لتذهب تلك السمّة إلى الجحيم. لقد سئمت من سماع أنني أتمتع بتلك السمّة.

أزعجني امتلاء عيني بالدموع مرة أخرى.

- سئمت من ذلك. سئمت من التظاهر.

أدركت أنني إذا لم أتوقف عن الحديث، فسوف أبدأ في الصياح، كما أفعل دائماً عندما أكون منفعلًا.

أشعل أحمد سيجارة أخرى، ونفث الدخان وقال:

- حسنًا، دعنا نصّب بالبرد معًا إذن. إذا أردت الجلوس هنا طوال الليل، فساجلس معك.

قلت وأنا أمسح عيني:

- اذهب إلى الداخل.

هز رأسه.

- لا.

مر وقت طويل ولم يتفوّه أيّ منا بشيء. بدا الليل باردًا وهادئًا، والسماء صافية. لم أنم منذ أكثر من ست وثلاثين ساعة. غمرني التعب، وصارت جفوني ثقيلة وعقلي خدرًا. أعتقد أنني غفوت للحظات قليلة فقط، لأن صور الرجل الذي كان يحمل جهاز اللاسلكي شوشت ذهني. رأيت عينيه مرة أخرى، ورأيت شعره مشدودًا إلى الخلف. في لحظة ما، وقفت بجانبه، وحاولت أن أضربه

لكنني شعرت بذراعيّ ثقيلتين، أثقل من أن أتمكن من رفعهما. ثم استيقظت
ودقات قلبي تتسارع.
وقفت زاري أمامي، بينما جلس أحمد بجانبني.
توسلت إليّ زاري:
- اذهب إلى الداخل. أرجوك، ادخل.
قلت بصوت أجش:
- لا.
نهض أحمد.
- أحمد، أرجوك، خذه إلى الداخل.
قال أحمد وهو يتجه نحو غرفته:
- إنه مشكلتك أنت الآن.
وبختني زاري:
- لماذا أنت في الخارج هنا؟ سوف تتجمد حتى الموت.
شعرت بغصة في حلقي، وخشيت أن أجهش بالبكاء إذا فتحت فمي، لكن
حان الوقت لقول شيء ما.
- لا يمكنني أن أتجمد حتى الموت لأنني أعيش في جحيم منذ أن قررت
عدم التحدث معي.
ثم اختنق صوتي.
- أنا آسف حقاً على تلك القُبلة اللعينة.
هزت رأسها كأنها لا تصدق أنني أعترف.
قلت لها:
- لن أُقبلك مرة أخرى، ولا حتى بعد أن نتزوج وننجب أطفالاً.
ابتسمت والتمعت عيناها بالدموع.
- أريد أن أكون صديقك ورفيقك. وسأشاركك الحزن على موت الدكتور،
ما دميت أردت أن أفعل ذلك.

مدت يدها ولمست وجهي بحب.

- إذا كانت هناك حياة بعد الموت، فأنا أعيشها. وإذا كانت هناك جحيم، فأنا أحترق فيها. أحبك، ولطالما أحبيتك، حتى قبل أن يذهب الدكتور في رحلته. لقد عشت مع الحب والذنب فترة طويلة، ولا أريد أن يكون الأمر هكذا بعد الآن.

لمست زاري وجهي مرة أخرى بأصابعها الطويلة الجميلة، ومسحت الدموع عن وجنتي. أحاطتني بذراعيها وضممتني بقوة، وأقسم إنني شعرت بنبضات قلبها. همست:

- هذا يؤلم أكثر ألف مرة من كسر ساقِي.

- تعال معي.

تبعتها إلى غرفتها، حيث يوجد فراش ومكتب صغير وكُرسي معدني ومجموعة من الكتب. كانت هناك صورة لوالديها معلقة في إطار على أحد الجدران، وبجانبتها الصورة التي التُقطت لنا أنا وأحمد وفهيمة وزاري بجانب الحوض. همست:

- يبدو أن هذه الصورة التُقطت قبل ألف عام.

قالت:

- كانت كذلك بالفعل.

جلستُ على الكرسي وبطانية أحمد ملفوفة حولي، فرفعت البطانية ببطء وجلست في حضني، ثم لفتها حولنا مرة أخرى. أخبرتها بأنني أحبها، ولا أستطيع العيش من دونها، وسأفعل أي شيء لأتأكد من سعادتها. قبّلت وجهي وعيني وشفتي، وتذوّقت الدموع المالحة التي تسيل على وجهينا.

قضينا الليل كله محتضنين بعضنا. قلت لها إنني أريد أن نتزوج يومًا ما، وأن يكون لنا منزل خاص بنا، وأطفال. ابتسمت، لكنها لم تقل شيئًا. بدت عيناها تائهتين في كل مرة أتحدث فيها عن المستقبل. كان أحمد محققًا: إنها تحتاج إلى الوقت. وسأمنحها الوقت حتى تختفي هذه النظرة التائهة من عينيها إلى

الأبد. قلت إنه في وقت ما في المستقبل، بعد وقت طويل جدًّا، عندما نرزق أطفالًا، أتمنى أن تكون أعينهم زرقاء مثل عينيَّ أمهم لأن اللون الأزرق هو لون الاتساع والنقاء والعمق. أحكمت قبضتها حول عنقي، وهمست بأنني لطيف لكوني أتذكر ذلك.

همست إليها:

- أتذكر كل كلمة قلتها من قبل.

تحدثنا طوال الليل. في الواقع، كنت أنا من تولى معظم الحديث. أخبرتها بأن فهيمة تدعو لنا أن نصبح زوجين، حتى نظل أصدقاء لبقية حياتنا. أومأت برأسها، وجعلني صمتها أرغب في الحديث أكثر. أخبرتها بأنني كنت على السطح في الليلة التي كانت هي والملاك المُقنَّع يتحدثان عني.

سألتني:

- كيف عرفت أننا كنا نتحدث عنك؟

- أَلَمْ تكونا تتحدثان عني؟

- بلى.

ابتسمت قائلاً:

- ظننت ذلك.

قالت:

- أفقدها كثيرًا. أتعلم، لم أرَها أو أتحدث إليها منذ تلك الليلة.

- لماذا؟

- لأن والديها مريضان، وهي منشغلة برعايتهما.

- أعتقد أنها سترغب في السماع عني وعنك.

لم تقل زاري شيئًا، وعادت النظرة النათية إلى عينيها.

قلت بسرعة، على أمل أن أطرد النظرة التي علت وجهها، حتى ولو لبضع

ثوانٍ فقط:

- بعد أن عدتِ أنت والملاك المُقنَّع إلى داخل المنزل، جلستُ على السطح

وحدقت إلى النجوم طوال الليل. كانت ليلة مظلمة، لكن نجمك كان مرئيًا بوضوح.

سألتني:

- أين كان نجمك بالنسبة إلى نجمي؟

قلت:

- لم أجد نجمي. لا أجده أبدًا.

- كان يجب أن تتمكن من العثور على نفسك، لأن لديك أكبر نجم في الأعلى.

أسميه نجم باشا. إنه الأكبر والأكثر سطوعًا، وبقيتنا ندور حوله.

أردت أن أطبع قبلة صغيرة على خدها، لكنني خفت. وضعت رأسها على كتفي وشعرت بشفتيها تلامسان عنقي. ضممتها بإحكام أكثر، وداعبت يداي ظهرها وعنقها.

مرت بضع دقائق، ثم سألتني أخيرًا:

- متى ستغادر إلى أمريكا؟

- لن أذهب إلا إذا استطعت اصطحابك معي.

- لا يمكنك أن تربط خططك لحياتك بي أنا. عليك الذهاب، أريدك أن

تذهب. أريدك أن تبعد عن أعماق الجحيم هذه. يجب أن تبقى في أمريكا

إلى الأبد. اصنع أفلامًا وأخبر الجميع بحكايتنا، وحكاية الدكتور. يجب

أن يعرف الناس ما حدث.

بدأت في الرد، لكنها وضعت إصبعها على شفتي.

- أريدك أن تقسم إنك ستذهب إلى الولايات المتحدة مهما حدث.

- مهما حدث؟ ماذا تقصدين؟ لقد وقع لنا من الأحداث بالفعل ما يكفي

طوال حياتنا. أنا وأنت ستذهب إلى أمريكا معًا. سأخطط لكل شيء في

حياتي من الآن فصاعدًا مع وضعك في الحسبان.

عادت النظرة التائهة إلى عينيها وتوسلت قائلة:

- لا تقل ذلك.

- سأخذكِ معي، وانتهى الأمر. ويجب ألا تقلقي بشأن المال لأنني سأعمل
لأتمكن من إعالتك. لقد كنتِ طالبة متفوقة في المدرسة الثانوية، لذا أعتقد
أنكِ ستبلين بلاءً حسنًا في الجامعة. أنا شخصيًا أعتقد أنكِ ستكونين طبيبة
نفسية رائعة أو عالمة أنثروبولوجيا. على الرغم من أنني أفضل أن تكوني
جراحة قلب حتى تتمكني من علاج قلبي.

نظرت إليّ، وقد تجمد وجهها الجميل في قلق، وسألتنني:

- ما خطب قلبك؟

ابتسمت قائلاً:

- لقد حطمته.

ابتسمت هي الأخرى، وتلاشت النظرة النათية من وجهها أخيرًا، على الأقل
في الوقت الحالي.

إشعال شمعة للدكتور

كان اليوم هو عيد ميلاد الشاه، واليوم الأربعين لرحيل الدكتور. التقيت أنا وفهيمة وزاري وأحمد على بعد زقاقين من زقاقنا، ومشينا معًا إلى محطة الحافلات. ارتدت زاري الشادور الذي اشتريناه عندما ذهبنا للتسوق في لاله زار، وأخبرتها بأنني آمل أن تكون قد ارتدت شيئًا دافئًا تحت الشادور، لأن الطقس بارد على غير العادة في هذا الوقت من العام، فردت بالإيجاب. جلسنا معًا في الحافلة، وجلس أحمد وفهيمة خلفنا بصفين. سألتها:

- لماذا ترتدين الشادور؟

لم تُجب لبضع ثوانٍ قبل أن تنظر إليّ وتبتسم قائلة:

- لأنني أريد أن أبدو كالملاك.

أجبت من دون تردد:

- دائمًا ما تبدين كذلك، سواء بالشادور أو من دونه.

ثم اقتربت منها وأمسكت يدها بيدي.

لم تكن الشوارع مزدحمة كما توقعت، وتجاوزت الحافلة بعض المحطات، فلم يكن هناك ركاب لتقلهم، ولم ينزل أحد. وكلما اقتربنا من ملعب أمجدية،

ازدادت حركة المرور ازدحامًا. كان هناك مزيد من سيارات الشرطة وسيارات الجيب التابعة للجيش، ومزيد من رجال المرور، ومزيد من الناس. ترجلنا من الحافلة في شارع لم يُسمح للحافلات بتجاوزه اليوم. خيمت سحابة داكنة فوق الجبل في الشمال، الذي كان مرئيًا من حيث بدأنا مسيرتنا. وأنذرت رياح باردة بعاصفة وشيكة، كأن الطبيعة أيضًا تنعى اليوم الأربعين لوفاة الدكتور وميلاد الشاه.

امتلأت الشوارع بالناس الذين ينتظرون مرور زعيمهم في هدوء وصبر. كان معظم هؤلاء الناس من الموظفين الحكوميين والطلاب وأصحاب المحال التجارية الذين أتوا على مضض بعد أن أمروا بالخروج إلى الشوارع. ذكرت وكالات الأنباء أنه من المتوقع أن يتجاوز عدد الحضور أكثر من خمسمائة ألف شخص. بدا من الواضح أن هذا كذب وتلفيق تام، وربما كان ذلك من قبيل التمني من جانبهم. كنت متأكدًا أن وسائل الإعلام ستنتقل أخبارًا عن حشود متحمسة ومتلهفة لوصول ملكها. نظرت حولي ورأيت أناسًا يريدون العودة إلى منازلهم، أناسًا لا يريدون متحمسين للخروج إلى الشوارع. عند بعض النواصي، لوح أطفال من مختلف الأعمار بأعلام صغيرة، كما أمرهم معلموهم. وبين الفينة والفينة طُلب منهم الصياح وإصدار أصوات سعيدة بينما تركز عليهم كاميرات التلفزيون والمصورون. كما ظهر رجال الشرطة والجنود في كل مكان.

سرت مهمة في الحشد، لكنها بالتأكيد لم تكن مهمة الحماسة والابتهاج. وأغلقت المتاجر، لكن أصحابها أمروا، كما هي الحال في كل عام، بتزيين مداخلها ونوافذها بالأضواء الوامضة والملونة. كما بُنيت أقواس ضخمة من الأزهار في كل مربع سكني، ووضعت لافتات في كل بضع خطوات تهنئ الشاه بعيد ميلاده وتتمنى له الحياة الأبدية. وفي أحد أجزاء الشارع، وقفت مجموعة كبيرة من الرجال والنساء على مقربة من بعضهم. بدا من الواضح أنهم موظفون حكوميون من الإدارة نفسها، وقد أمروا بالبقاء في مجموعة. هتف أفراد المجموعة كل بضع

دقائق في انسجام تام: «عاش الملك، عاش الملك، عاش الملك». بدت هتافاتهم جوفاء، وضحك بعض الناس في الحشد كأنهم يشعرون بالخرج. شققنا طريقنا وسط الحشود إلى بقعة عند منعطف حيث سنحظى بإطلالة رائعة للموكب عندما يظهر. بدت زاري شاحبة بعض الشيء، فسألتها إن كانت بخير، فقالت إنه لا يوجد أي خطب. لكنني فارسي، ونحن لا نصدق أبدًا أي شخص يقول إنه لا يوجد أي خطب. نحن أهل الحدس: نشعر بالمتاعب ونشمها ونتذوقها من على بعد مائة كيلومتر. وقد تعودنا على القلق لأن تاريخنا ممتلئ بالفظائع التي ارتكبتها ضدنا حكام لا يرحمون. اعتقدت أن ترقب رؤية الشاه، الرجل المسؤول عن وفاة خطيبها، هو ما تسبب في اضطراب زاري. ظللنا ننتظر، ومنتظر، ومنتظر. كان الجو باردًا في الخارج، ووجدت صعوبة في الوقوف ساكنًا في المكان نفسه.

سمعت رجلًا يشكو بصوت منخفض لزوجته:

- متى سيأتي ابن العاهرة حتى نتمكن من العودة إلى منازلنا الدافئة؟
نظرت إلى زاري، وأدركت أنها تحمل شيئًا ما تحت الشادور.
أشرت إليها وسألتها:

- ما هذا؟

قالت:

- حقيبتني.

نظر أحمد إليّ.

- هل هناك خطب ما؟

- لا.

رمقني بنظرة الريبة نفسها التي رمقت بها زاري.

سألت فهيمة:

- ما الخطب؟

هز أحمد رأسه.

سألت أحمد:

- لماذا نحن هنا؟

قال ضاحكًا:

- لنكون مع ملائكتنا.

- كان بإمكاننا أن نكون معهما في مكان آخر.

وافقني الرأي، لكن الألوان كان قد فات. انتظرنا لنرى كيف يلوح الشاه إلى الناس.

انطلقت هتافات صاخبة من أقصى الشارع، وظهرت مجموعة من راكبي الدراجات النارية بالزي العسكري على بُعد بضعة مئات من الأمتار. قلت لزاري: - إنهم قادمون.

بدت شاحبة، شديدة الشحوب.

سألتها مرة أخرى:

- ما الخطب؟

- لا شيء يا حبيبي، لا يوجد أي خطب.

لقد نادتنى «يا حبيبي»! لم أستطع أن أشرح بنظري عن وجهها الشاحب المتعب.

اقترب الموكب أكثر فأكثر. أمسكت زاري بيدي، وصاحت وسط الضجيج: - أحبك.

أعتقد أنها قصدت تهديتي بكلماتها، لكنني أدركت أن هناك خطبًا ما. تسارعت دقات قلبي، ونظرت حولي لكنني لم أرَ أي شيء خارجًا عن المألوف، حتى صار الموكب على بعد أمتار قليلة فقط.

عندها شممت رائحة البنزين. نظرت إلى زاري. سقط عنها الشادور، ورأيت في يديها وعاء صغيرًا من البنزين تسكبه على ملابسها.

صرخت:

- ماذا تفعلين؟

بكت قائلة:

- أشعل شمعة للدكتور. اليوم هو اليوم الأربعون لوفاته. أحبك.
فجأة، تكاثف الوقت، وصرنا جميعًا محاصرين في رعب اللحظة. ركضت
زاري إلى الشارع وأشعلت عود ثقاب، وأشعلت النار في نفسها. ركضت خلفها
صارخًا:

- لا، لا، لا!

توقف الموكب، وأخرج حراس الأمن أسلحتهم. ركضت زاري نحو سيارة
الشاه مباشرة، فأسرع الضباط الذين يركبون الدراجات النارية بمحاصرة جسد
زاري المشتعل حتى توقفت.
صرخت:

- زاري، زاري! لماذا؟ لماذا؟

صرخ الرجال في الحشد، وضربت النساء أنفسهن وصرخن:

- يا علي! يا علي! يا علي!

وهو هتاف يُطلق عند حدوث شيء كارثي. سمعت صرخات فهيمة المحمومة،
وحاولت اختراق راكبي الدراجات النارية كي أصل إلى زاري، التي أخذت تصرخ
وتترنح في دوائر صغيرة متقطعة.

سمعت أحمد يصرخ:

- يا علي، يا علي!

التفتت زاري نحو السيارة التي تقل الشاه، فركلها أحد رجال الأمن بقوة في
بطنها وأسقطها على الأسفلت. حاولت النهوض، لكن الألم أبقاها مستلقية على
الأرض. مدت يدها داخل أحد جيوبها وأخرجت وردة حمراء ورمتها باتجاه سيارة
الشاه. دفعني منظر اللهب إلى حافة الجنون. رميت نفسي فوقها، وحاولت إطفاء
النار بذراعيّ ويديّ، مدرّكًا بمرارة أن إحساس الحريق الذي أشعر به لا يضاهي
الإحساس الذي في قلبي. ترنحت زاري من جانب إلى جانب، تصرخ وتئن.
صرختُ باسمها:

- زاري، أحبك. ماذا فعلتِ؟ لماذا؟ لماذا؟

خلع أحمد معطفه وألقاه على جسدها أيضًا، وركض رجل إلينا من الرصيف ووضع معطفه على وجهها. تقدم أحد الجنود نحوي ببندقيته، وخطأ أحمد بيننا، فضرب أحمد في رأسه بعقب بندقيته، وتهاوى أحمد. مر الموكب من أمامنا، وسمعت صفارات سيارة الإسعاف.

همست زاري قبل أن تفقد الوعي:

- أحبك.

أعماني الغضب، فصرخت:

- اللعنة، يا ابن العاهرة!

قفزت وضربت الجندي الذي ضرب أحمد، فسقط مثل جدار من الطوب المتداعي. هاجمني جندي آخر، فلكمته أيضًا، وسقط على ركبتيه. صرخت مصدومًا ويائسًا حتى شعرت بضربة حادة على مؤخرة رأسي، وكان هذا آخر ما أتذكره.

شتاء ١٩٧٤

مستشفى روزبه للأمراض النفسية، طهران

سد الثغرات

حل الليل بثقل عمّق الفجوة الكائنة في قلبي، وشعرت بأنني أبلغ من العمر مليون سنة. كانت هناك شجرة كبيرة خارج غرفتي، تنقر أغصانها الجرداء على زجاج النافذة كأصابع شبح. أعرف مَنْ أنا، وأني تعرضت لأذى، لكن بدا أنني لا أستطيع معرفة ما هو أكثر من هذه الحقائق. تفقدت جسدي بحثاً عن علامات. بدا جلد يدي ومرفقي متقرّحاً، لكن أضلعي لم تُعدّ تؤلمني. شعرت بصغر حجم صدري وذراعي، لذا علمت أنني فقدت بعض الوزن، كما كانت هناك كدمة كبيرة في مؤخرة رأسي.

نضح كل شيء في هذا المكان بالحزن، باستثناء وجه التفاحة التي بدت سعيدة ومرحة، على الرغم من أنها لم تكن كذلك عندما تتحدث عني مع والدّي. شعرت بالقلق والحاجة إلى الرفقة، لكنني علمت أن الممرضة سوف تعطيني حقنة أخرى إذا اتصلت بها. سيجعلني ذلك أشعر بالدفع لبضع دقائق، ثم يرسلني إلى نوم عميق، لكنني سأستيقظ لاحقاً وقد استهلكني الخوف والضيق.

سمعت فرقة مدوية، وانقطعت الكهرباء. سادت لحظة من الهدوء غير الطبيعي، أعقبتها فوضى صامتة بينما تدافعت الممرضات لترتيب الأمور خارج غرفتي. لم يسعني سوى الشعور بأنني كائن ليلي، بعد أن أصبح العالم مظلماً

حالكًا كما هي الحال داخل عقلي. سمعت خطوات أقدام تقترب من باب غرفتي، ثم ابتعدت. لم أستطع فهم ما تقوله الممرضات إلى بعضهن في الردهة، لكن الضجة ازدادت حدة مع مرور الثواني. عادت خطوات الأقدام، والتف حولي الخوف من المجهول مثل الأفعى بينما جلست على الفراش. انفتح باب غرفتي بصري ناعم، ودخل الرجل العجوز حاملاً شمعة في يده.

قفز اللهب والتهم الأكسجين الموجود في الغرفة، ورأيتها، صغيرتي زاري، وقد اندلعت في وجهها بثور قرمزية وهي تلهث من أجل الهواء. انهار العالم بداخلي، وانتزعت روحي من جذورها.

بدأت الصراخ، وشعرت كأنني لن أتمكن من التوقف أبدًا. لم أستطع تجنب شلال الذكريات المرعبة التي تدفقت خلف عيني المغمضتين. على الرغم من الألم الذي لا بد أن يكون قد استولى عليها، ظلت زاري تجاهد للوصول إلى الموكب. ثم ركلها الجندي، وانهار عقب البندقية على ظهر أحمد، واستغلت أنفاسها الأخيرة لتخبرني بأنها تحبني. كانت وجه التفاحة قد وصلت إلى جانب فراشي عندما استوعبتُ هذا الأمر الأخير.

سألت:

- هل ماتت؟

فأغلقت وجه التفاحة عينيها. صرخت بأعلى صوتي، محاولاً طرد الحياة من جسدي. حاولت وجه التفاحة أن تعانقني، لكنني شعرت كأن جلدي قد انقلب إلى الداخل، وأصبح الآن مغطى بإبر صغيرة حادة. هرعت الممرضات لتثيتي، لكن وجه التفاحة لوحث إليهن بالابتعاد. بكيت بين ذراعيها، وشعرت بدفء دموعي، وأحسست بألم في ذقني وفكي من البكاء.

صرخت:

- كيف؟ كيف؟

همست وجه التفاحة:

- لا أعرف.

صرخت مرارًا وتكرارًا وأنا أجذب رداء المستشفى:
- اللعنة، يا إلهي. لماذا؟ لماذا؟ أريد أن أعرف لماذا؟
مسحت وجه التفاحة وجهها بمنديل.

صحت وصرخت وبكيت، لكن لم يخفف شيء من وجعي. شعرت بالألم في كل مكان. نهضت عن الفراش وتجولت بلا هدف، محاولًا التقاط أنفاسي. شعرت بأن جلدي ضيق جدًا عليّ، ولم يبدُ أن هناك ما يكفي من الهواء في الغرفة. فتحت وجه التفاحة النافذة، واندفع الهواء النقي إلى الداخل. ثم جلستُ على الأرض وبكيت، ممسكًا رأسي بين يدي وأنا أتمايل إلى الأمام وإلى الخلف. فجأة، بدأ الدم يتساقط من شفتي على مقدمة ردائي. جلست وجه التفاحة بجانبني، وهمست قائلة:

- لقد عضضت شفتك يا عزيزي. أرجوك، كن حذرًا، أرجوك.

ضمتني بين ذراعيها، وطلبت من الممرضة منديلًا ورقيًا.

سألتها وأنا أبكي على كتفها:

- أين أحمد؟

همست إليّ وجه التفاحة:

- في السجن.

وتنفس الصعداء للحظة قبل أن يعاودني اليأس.

بعد ساعات، كنت لا أزال غير قادر على السيطرة على مشاعري. أتى والداي، فطلبت منهما وجه التفاحة الخروج إلى الردهة.

ثم غرقت في حالة من الضبابية، وبقيت أحرق إلى الأمام مباشرة فترات طويلة. لم أعد قادرًا على البكاء، ولم يعد لديّ مزيد من الدموع، وشعرت بالإرهاق من الداخل. فكرت في عائلة الشاه، وتساءلت عما إذا كانوا قد تحدثوا عن زاري على العشاء في تلك الليلة. هل سأله ابنه عمّن تكون تلك المرأة، ولماذا أشعلت النار في نفسها وركضت نحو سيارتهم؟ تساءلت إن كان زوجان مثلي أنا وزاري

سيجلسان في محل آيس كريم بعد ألفي عام من الآن، ويتحدثان عن خيار زاري. هل سيريانني جبانًا كان عليه أن يحتضن حبيبته وهي تحترق، ويحترق معها؟ لم أستطع أن أوقف عقلي وهو يتسابق من فكرة إلى فكرة، ومن وجه مُعذَّب إلى آخر. في مرحلة ما، أعطتني وجه التفاحة حقنة وغفوت.

عندما استيقظت، كان والداي في الغرفة يتبادلان حديثًا هادئًا مع وجه التفاحة. تذكرت زاري، وانهار العالم فوقِي مجددًا. اندفعت الدموع إلى عيني، واختلج شيء ما بداخلي ثم انكسر، وتشوّه لون العالم وأصبح مكانًا قبيحًا. تساءلت كيف سأتجاوز هذا اليوم، وكيف سأتجاوز الدقائق الخمس المقبلة. لا بد أن أُمي أدركت ما يدور في رأسي، لأنني ما إن فتحت عيني حتى بدأت في البكاء. أعتقد أنني أمسكت كُمي، هذه المرّة بأسناني. لم أشعر بالألم في ذراعي، لكنني تعرفت على الدم الذي صبغ ملاءتي. اندفعت وجه التفاحة نحوي، ثم رأيت الممرضات ووجهي والذّي الباكين، لكنني لم أسمع شيئًا سوى طنين متواصل. حلمت بأنني أنا وزاري جالسان على جانبيين متقابلين من جدول ماء متدفق. أخبرتني بأنها تحبني، وأنه يجب ألا أحزن على موتها لأن الموت لا يختلف كثيرًا عن الحياة. وقالت لي إن الدكتور ليس غاضبًا مني لوقوعي في حب فتاته، ورجتني ألا أغضب من الله، وأكدت لي أن الله رحيم وعادل وكريم. وذكرتي بأنه يجب أن يكون هناك موت لكي تكون هناك حياة، ويجب أن يكون هناك كذب لكي يكون هناك صدق، ويجب أن يكون هناك ظلام لكي يكون هناك نور. كما أرادت أن أعرف أنها ستكون دائمًا بجاني، لكن يجب أن أنساها وأحاول أن أعيش حياة طويلة ومزدهرة. نهضتُ وحاولت عبور الجدول، لكن خطواتي لم تأخذني إلى أي مكان.

شعرت كأنني أحتضر عندما استيقظت. حاولت الدكتورة سنا - وجه التفاحة - تهدئتي. سمعت كل كلمة قالتها، لكنني لم أفهمها. لم تعد وجه التفاحة إلى منزلها في تلك الليلة. اتصل زوجها، ووضعت وجه التفاحة المكاملة على مكبر الصوت. ألقى عليّ التحية، وكان صوته عميقًا، لكنه ودود. قال إنه آسف، وأنه

سيأتي لزيارتي قريباً، وإنني يجب أن أصمد وأتشجع، لأن كل شيء سيصير على ما يرام. وقال إن زوجته طيبة رائعة، وستحرص على أن أحظى بأفضل رعاية في العالم. لم أقل شيئاً، حتى ودّعني بعد قليل وأغلق الهاتف، فذبت مرة أخرى. لن تستمر حياتي من دون زاري.

أعجبني الشعور بالهدوء الذي غمرني عندما فتحت عيني. شعرت بثقل شديد في جفوني، إلى درجة أنني بالكاد استطعت أن أرمش. ذكر والدي شيئاً عن الذهاب إلى الجزء الشمالي من إيران، حيث لدينا فيلاً على سفوح جبال البرز، تطل على المياه الخضراء لبحر قزوين. يعيش معظم أفراد عائلة والدي في الولايات الشمالية. قالت وجه التفاحة إنها ستفتقدني عندما أغادر. سمعت كلماتهم، لكن عقلي كان بطيئاً في استيعابها.

تحدثوا عن الوقت الذي سأتحسن فيه، وتساءلت كيف لشخص مثلي أن يتحسن.

قال أبي لوجه التفاحة وهو ينظر في عيني الذابلتين:
- الوقت يعالج كل شيء.

الوقت هو أثمن سلعة يمتلكها البشر، ولم تعد له أي قيمة بالنسبة إليّ. فجأة، استسلمت لموجة من القلق. لم أدرك أنني تحركت حتى ركضت وجه التفاحة نحوي وأمسكت بكتفي، وشعرت بوخزة أخرى في ذراعي.

أتى زوج وجه التفاحة إلى المستشفى لزيارتي. كان شاباً وسيماً، طويل القامة ورياضياً، ذا عينين سوداوين كبيرتين، وحاجبين أسودين كثيفين، وشارب جعله يبدو مثل مارك توين الشاب. قدمته الدكتور سنا باسم يحيى، فصافحني وجلس على كرسي بجانب فراشي. اتسم بشخصية لطيفة، وأخبرني بأنه سمع الكثير عني، وأراد أن يقابلني شخصياً. لم أعرف ماذا أقول له في المقابل. قال إنه يخطط هو وآزار وطفلتهم لقضاء إجازة في غضون شهرين، وإنني يجب أن أذهب معهم. هزرت رأسي برفق بالرفض، مدركاً أن آزار هو الاسم الأول للدكتورة سنا.

غفوت بينما لا يزال الجميع في الغرفة، وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي شعرت بالحزن الشديد لأن زاري لم تأت لزيارة أحلامي مرة أخرى. وعدتني بأنها ستكون بجانبني دائماً. هل هي في الغرفة الآن؟

قلت بصوت عالٍ، وصوتي أجش وكلماتي مشوشة وبطيئة بسبب الدموع: - أفتقدكِ. كيف تركتني في هذه الحياة البائسة من دونك؟ لماذا لم تخبريني؟ لقد كُسرت ساقي في ثلاثة مواضع عندما كنت في الرابعة من عمري ولم أبكِ، والآن أبكي حتى تنفد دموعي.

غمغمْتُ أنها مدينة لي بتفسير، لأنه عندما يتحاب شخصان، لا يقدمان على تصرفات حمقاء كهذه. كيف كانت لتحب الأمر لو كان الوضع معكوساً؟ أنا متأكد أنها لم تكن لتحب ذلك، لأنها توسلت إليّ في حلمي أن أعيش حياة طويلة وسعيدة، وكيف لي أن أفعل ذلك وقد رحل مصدر سعادتي الوحيد؟ انتحبت بصوت عالٍ، ولم أكرث إن كان العالم كله يسمعي. تمنيت أن تراني، وتمنيت أن تندم على ما فعلته.

بكيت حتى ذهبت في النوم. وعندما استيقظت، وجدت الرجل العجوز جالساً على كرسي بجانب فراشي. تبادلنا النظرات وهو يتمايل إلى الأمام وإلى الخلف. همست:

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا صديقي؟ هل فقدت شخصاً ما أيضاً؟ واصل الرجل العجوز التمايل إلى الأمام وإلى الخلف، وكاد صرير الكرسي يبدو مريحاً. قلت له:

- شعرت بالغضب الشديد من الله الليلة الماضية، ولم ينهر السقف فوق رأسي. لذا سأعبر عن غضبي مرة أخرى الليلة، واللييلة التي تليها، حتى يعاقبني. لن يعيدها إليّ أبداً، لذا سأجعله يأخذني إليها. بحثت في داخلي عن شيء أتشبث به، لكنني شعرت بنفسني أنجرف بعيداً.

نجم أحمد

قضيت في المجمل ثلاثة أشهر في المستشفى. وخلال هذه الفترة، تعلمت أن أتقبل مصيري، لكنني فقدت إيماني. صرت ملحدًا الآن، تمامًا مثل الدكتور. لم أعد ألوم الله على أي شيء، ففي النهاية، كيف يمكنك لوم ما لا تؤمن به؟ في عصر بعض الأيام، كنت أذهب للمشي في الممرات أو في الفناء. وزادت من سخطي رؤية حالة بعض المرضى الآخرين ودرجة معاناتهم.

علمت خلال هذا الوقت أنني نُقلت من مكان انتحار زاري إلى المستشفى مباشرة. استغرق الأمر أقل من أسبوع ليقرر الخبراء أن الضربة التي تلقيتها في رأسي لم تتسبب في أضرار جسيمة، وأن الحروق الخفيفة في يدي وذراعي لا تتطلب تدخلًا جذريًا. اعتقد الطبيب الذي عالجني أن صمتي وانفعالاتي العرضية كانت حالة نفسية، ووُضعت تحت رعاية الدكتورة سنا.

اعتقدت وجه التفاحة أنني محوت بعض الأحداث من ذاكرتي من دون وعي، وحذفت كل ما حدث بعد أن أخبرت أحمد بأنني أحب زاري. كان العالم قبل تلك اللحظة أقل تعقيدًا، لذا فقد توقف الزمن في تلك اللحظة.

أدرك السافاك، الذي أجرى تحقيقًا شاملًا بشأن أنشطة الدكتور، أن أحدًا منا لم يكن على صلة بجماعته السياسية. وقد أكدت استجواباتهم لأحمد معتقداتهم.

كما أن الطريقة التي تعاملت بها أنا وأحمد مع وضع زاري في مكان الحادث أقنعت السافاك بأن زاري ارتكبت ذلك الفعل من دون استشارة أيّ منا.

خلال الفترة التي قضيتها في المستشفى، علمت أيضًا أن الدكتورة سنا وعائلتها من أتباع الديانة البهائية. في السنوات الأربع الماضية، أحرق متطرفون إسلاميون منزلها، وتعرض زوجها للاعتداء والضرب مرات عديدة على أيدي غرباء في وقت متأخر من الليل. وقد اشترى يحيى كلبين من فصيلة دوبرمان لحراسة منزلهم، لكن الخوف ظل قائمًا. قالت الدكتورة سنا إنهم سيغادرون إلى أستراليا بمجرد الانتهاء من ترتيب أوراق الهجرة الخاصة بهم. لم يُعد بإمكانها تحمّل الألم والمعاناة بعد الآن، ولم ترد أن تنشأ طفلتها في جو من الخوف والذعر المستمر. وقد غادر والداها البلاد بالفعل، ولن يمر وقت طويل قبل أن يغادر إخوتها وأخواتها أيضًا.

خلال إقامتي في المستشفى، عرفت أيضًا قصة الرجل العجوز. كان تاجرًا ثريًا ذا سمعة طيبة في بازار. توفيت زوجته الأولى منذ نحو خمسة عشر عامًا وتركت له ثلاثة أبناء، كانوا يعيشون مع زوجاتهم في منزله الضخم. تولى أبناء الرجل العجوز مسؤولية إدارة أعماله، واعتاد قضاء معظم وقته وحيدًا وفي حاجة ماسة إلى الرفقة. في النهاية، تزوج امرأة أصغر منه سنًا بكثير. اعتنت به، بل ويقول البعض إنها أحبته كثيرًا. عشقها ومنحها كل ما تريده. وانسجمت الزوجة الشابة مع زوجات أبنائه اللاتي كن في عمرها نفسه تقريبًا، تزيد أو تنقص بضع سنوات. ثم شُخصت إصابة الرجل العجوز بالسرطان قبل عام، وكانت ضربة مدمرة للعائلة بأكملها.

أراد الرجل العجوز أن يتأكد أن أحباءه سيحفظون بالأمان بعد وفاته، لذلك أعاد كتابة وصيته وقسّم ممتلكاته بالتساوي بين أولاده وعروسه الشابة، لكن ذلك أثار غضب ابنه الأكبر.

وفي أحد الأيام، عندما كان الرجل العجوز خارج المنزل، ذهب الابن الأكبر إلى غرفة العروس الشابة واتهمها بأنها حقيرة تسعى خلف المال. اندلع شجار

صاحب بين الاثنين، واجتذب الابنين الآخرين إلى الغرفة. هاجمها الابن الأكبر وضربها بوحشية. حاول أخواه وزوجتهما التدخل، لكن كان قد فات الأوان، وفارقت الحياة عند وصول الشرطة والمسعفين. حُكم على الابن الأكبر بالسجن مدى الحياة، وفقد الرجل العجوز عقله في اللحظة التي علم فيها بوفاة زوجته. وهو هنا منذ ذلك الحين، وحالته تتدهور بسرعة.

قالت وجه التفاحة بحزن:
- لم يتبقَّ له كثير من الوقت.

في أثناء وجودي في المستشفى، علمت أن أحمد أطلق سراحه من السجن. قال أبي إن السافاك قد برأنا جميعًا.
سألت:

- لماذا لم يسعوا خلفي؟
- حسنًا، أولاً بسبب حالتك. وثانيًا، كانوا يعلمون أن لا علاقة لك بأنشطة الدكتور.

- لماذا احتجزوا أحمد إذن؟
- للتأكد فحسب، والتحقق مما كانوا يعرفونه بالفعل. ليس من الغريب أن يفعل السافاك ذلك.

ملأني خبر الإفراج عن أحمد بفرحة لا توصف. لا بد أن هذه هي المرة الأولى التي ابتسمت فيها منذ سماع خبر وفاة زاري.

سألت أبي بعد أن استجمعت شجاعتي أخيرًا:
- أين دُفنت زاري؟

أجاب أبي بنظرة ألم في عينيه:
- لم يتم إخطار العائلة بعد.

لم أتم جيدًا في تلك الليلة. كانت السماء تمطر في الخارج، ولأول مرة فكرت في زاري في القبر، هناك تحت المطر. سرت قشعريرة في عمودي الفقري.

تذكرتها وهي تخبرني بأنها ستكون بجانبى دائماً، وحاولت أن أشغل ذهني بفكرة وجودها دافئة بين ذراعي.

تذكرت فجأة حلمي الذي رأيت فيه الدكتور وهو يمشي بين الأشجار مع أحمد وزاري.

ظلمت أكرر قائلاً لنفسي: «لقد أخذ زاري. لقد أخذ أحمد».

انتابني نوبة قلق شديدة أدخلتني في حالة من الهذيان. بدأت أنصب عرقاً، وبدأ جسدي يرتجف. هل يكذب عليّ والداي ووجه التفاحة؟ نحن الفرس نحب أن نحمي بعضنا من الأخبار السيئة لأطول فترة ممكنة. قبل عامين، توفي رجل في السبعين من عمره في زقانا. كانت ابنته طالبة في إحدى جامعات لندن في ذلك الوقت، وأخفت عنها عائلتها خبر وفاة والدها لمدة عام. في كل مرة تتصل فيها، كان يُقال لها إن والدها خارج المدينة، أو في رحلة عمل، أو في الخارج للتسوق، أو في منزل أحد الأقارب. قالوا: «لماذا تحتاج إلى معرفة ذلك الآن؟ لقد رحل، ولن يعيده حزننا. إنها في منتصف الفصل الدراسي ولا تحتاج إلى تشيت انتباهها».

لا بد أنهم يكذبون عليّ بشأن أحمد. فكرت في الحلم مرة أخرى. كنت في مرج مع زاري وفهيمه وأحمد. خرج الدكتور من الغابة القريبة وهو يقرأ شعر الرومي، وظل على مسافة بعيدة عنا. وانحنت زاري وقبّلني ثم تبعت هي وأحمد الدكتور إلى الغابة. بدا كل شيء منطقيًا الآن. لقد مات أحمد أيضًا! انفجرت بالبكاء، وصرخت مطالبًا برؤية أبي.

عندما أتى أبي إلى المستشفى، أخبرته بأنني أريد رؤية والدة أحمد لأنه إذا كان أحمد قد مات، فلن تستطيع إخفاء ذلك عني. ضاق جلدي بالمي، وأردت أن أصرخ بأعلى صوتي لأحرر نفسي من سجن جسدي. أقسم أبي بحياتي إن أحمد لم يمُت. في العادة، لا يقسم أبي بحياتي أو يكذب عليّ، لكن شيئًا ما أخبرني بأنه قد يفعل ذلك في ظل هذه الظروف. هذا هو نوع الكذب الاضطراري الذي يغفره الله، وفقًا لجديتي.

سألته:

- لماذا لم يأت لزيارتي إذا كان على قيد الحياة؟

أجاب أبي:

- لأن ذلك قد لا يكون آمنًا.

- ظننت أنك قلت إنهم برأوا ساحتنا.

- لقد برأوا ساحتك بالفعل.

- إذن لماذا من الخطر أن يأتي لزيارتي؟

بدا أبي مرتبكًا، وحاول جاهدًا العثور على إجابة. طالبت برؤية والدته أحمد، فتبادل أبي والدكتورة سنا النظرات، ثم غادرا الغرفة ليتبادلا الحديث.

في وقت لاحق من تلك الليلة وأنا أتقلب في فراشي، سمعت أحمد يقلد الجدة:

- لو كان زوجي هنا، لركل مؤخرتك!

قفزت من الفراش وهرعت نحوه. وقف بجانب الباب، وعانقنا بعضنا بقوة بعض الوقت، تمامًا كما فعل أبي والسيد مهربان في أول مرة التقيا فيها بعد ثمانية عشر عامًا. راقبنا أبي والدكتورة سنا بأعين دامعة، ثم غادرا الغرفة. بدا أحمد نحيلًا وضعيفًا، كأنه لم يتناول الطعام منذ فترة طويلة. قلت له:

- لقد فقدت كثيرًا من وزنك.

قال بابتسامة دافئة على وجهه:

- لقد مارست كثيرًا من الرياضة في الآونة الأخيرة.

- مارست الرياضة؟

- نعم، كما تعلم.

بدا غير مرتاح للموضوع، لذا تركت الحديث عنه.

سألته:

- لقد أمروك ألا تأتي لزيارتي، أليس كذلك؟ وإلا لكنت أتيت في وقت سابق.
- لم يقولوا ذلك قط، لكن الجميع، خصوصًا والدك، اعتقدوا أن الأمر سيكون أكثر أمانًا بهذه الطريقة.

سألت، في إشارة إلى السافاك:

- لم يبرئوا ساحتنا تمامًا، أليس كذلك؟
- بل فعلوا، لكن مع السافاك، لا يمكنك أن تكون واثقًا أبدًا.
- لماذا لم يأت أي شخص من السافاك للتحدث معي؟
- إنهم يعرفون أننا كنا مجرد أصدقاء للدكتور، ولن يزعجوننا بعد الآن.
هزرت رأسي وسكتنا بعض الوقت. وعدنا بعضنا ذات مرة بعدم البكاء عند قبر الدكتور، وحاولنا جاهدين الآن أن نحبس دموعنا. سألت أحمد إن كانت فهيمة بخير، فرد بالإيجاب، ثم قبل خدي وقال إنها منها. كان هو وفهيمة وكل من في الزقاق يعتنون بشجيرة الورد التي زرعها تكريمًا للدكتور. وكان الناس يأتون من كل مكان إلى الزقاق لرؤيتها. قال:
- إنهم يعاملون تلك النبتة كأنها نصب تذكاري مقدس.
- لدينا أناس رائعون في زقاقنا.

بعد بضع دقائق، سألت أحمد عما إذا كانوا قد آذوه في السجن، فقال إن أحدًا لم يمسسه. ظننت أنه يكذب، لكنني لم أواصل الحديث في هذا الموضوع. قال إنه وفهيمة لا يطيقان صبرًا حتى أخرج من هنا. ثم حددنا إلى بعضنا، وكلانا يعرف أننا نريد التحدث عن زاري. كدت أجهش بالبكاء، فأحاطني أحمد بذراعيه من دون أن يقول أي شيء.

أجبت:

- أنا بخير، أنا بخير. كيف حال والديها؟
- الملاك المُقنَّع تتولى العناية بهما.
قصصت عليه حلمي، وكيف أن زاري أخبرني بأن الدكتور سامحني على وقوعي في حب فتاته. وحكيت له كيف أخبرني زاري بأنها ستكون معي دائمًا،

وكيف أشعر بوجودها طوال الوقت. كنت متأكدًا من وجودها في الغرفة معنا الآن، سعيدة بأننا معًا. وعندها أجهشت بالبكاء المرير.

طلب مني أحمد أن أتحدى بالشجاعة وأكون قويًا. قال إنه لا يعرف ما يخبئه المستقبل لأيّ منا، لكن الله دائمًا ما يصلح الأمور. أخبرته بأنني لا أؤمن بالله، وأنه إذا كان هناك إله، فسوف يتعين عليه أن يشرح لي الكثير عندما ألتقيه. هز أحمد رأسه وابتسم. أعتقد أنه أراد أن يعرض الجلد بين إبهامه وسبابته، لكنه لم يفعل. دخل أبي والدكتورة سنا، وحان وقت ذهاب أحمد.

احتججت قائلاً:

- لكن لم تمضِ إلا بضعة دقائق.

قال أحمد:

- سنقضي كثيرًا من الوقت معًا قريبًا، تمامًا مثل الأيام الخوالي، حسنًا؟ تمامًا مثل الأيام الخوالي.

تعانقنا مودعين بعضنا بأعين دامعة.

بعد رحيلهم، جلست بجانب النافذة وتأملت السماء. أومض لي نجم لامع مضيء من على بُعد ملايين الأميال.

لا بد أنه أحمد. سيعيش حياة الملوك، أنا متأكد من ذلك.

اختنقت بالدموع عندما تذكرت زاري وهي تشير إلى أكبر نجم وتدّعي أنه أنا، في الليلة التي سبقت اليوم الأربعين لرحيل الدكتور.

بعد أسبوع، أخبرتني الدكتورة سنا بأن طلب الهجرة الذي تقدمت به إلى أستراليا قد تمت الموافقة عليه أخيرًا، وأنها ستغادر البلاد مع عائلتها بمجرد بيع منزلهم. سأخرج من المستشفى في غضون أيام قليلة، وستراسلني بمجرد أن تستقر في سيدني، وسترسل إليّ تذكرة لزيارتهم في منزلهم الجديد الآمن.

لون الزمن

في يوم خروجي من المستشفى، ازداد قلقي كلما اقتربنا من زقاقنا. لم أستطع تخيل كيف سيكون الأمر عندما أعود إلى المنزل مرة أخرى. هل يخضع منزلنا للمراقبة؟ هل طُلب من الناس عدم التعامل معي؟ وهل اختار والذي ساعة متأخرة لوصولنا لتجنب الجيران؟ عندما انعطفت السيارة في زقاق العشرة أمتار لشهناز، تذكرت اليوم الذي جمع فيه أحمد الجيران لقياس عرض الزقاق، فابتسمت، ولاحظ أبي ذلك.

سألني:

- لماذا تبتسم؟

أجبت:

- لا شيء.

طلبت منه أن يبطئ من سرعة السيارة حتى أتمكن من إلقاء نظرة جيدة على الحي. لفني الحنين وأنا أفكر في الماضي، عندما كانت البراءة هي السائدة، والشر موجودًا فقط في أذهان رواة القصص الخيالية. زمن بدا فيه إیراج شريرًا لأنه يحدق إلى أخت أحمد، وكان الموت حالة غريبة من «اللاوجود» مرتبطة بكبار السن. بدا زقاقنا مختلفًا، كأن فرشاة الأيام قد صبغت كل شيء بلون الزمن. بدا

الزقاق أكثر ظلمة وضيقًا مما أتذكره، والأشجار عارية وبلا حياة. شهر فبراير شهر بارد في طهران، تهب فيه الرياح الشتوية من الشمال فتتجمع الثلوج على الجدران العالية للمنازل. بدت نوافذ المنازل المطلة على الشمال متجمدة، وتذكرت قول أمي إن تلك المنازل هي أرض خصبة للجراثيم لأنها لا تتعرض للشمس أبدًا. تسلفت ابتسامة إلى وجهي مرة أخرى، لكنني رأيت منزل زاري من بعيد. بدا مظلمًا هو الآخر، وبلا حياة. عصف بروحي ألم مبرح، وبدا تخيل الزقاق من دونها أمرًا لا يطاق. رأيت شجيرة الورد، تقف شامخة لكنها عارية، كما يُفترض أن تكون في هذا الوقت من العام.

وصلنا إلى منزلنا، وعندما أوقف والدي السيارة، أصدرت المكابح صريرًا عاليًا. هرعت أمي إلى الزقاق، وعندما فتحت باب السيارة، أخذتني بين ذراعيها. عانقتني وقبّلتنني، وصاحت قائلة إنها لا تريد أن تتركني أبدًا. أردت أن أبكي، لكنني لم أفعل. وقبل أن ندخل إلى المنزل، نظرت إلى السطح.

سألت:

- أين أحمد؟

تبادل والداي النظرات، لكنهما لم يقلوا أي شيء. خفق قلبي وعشت بكُمّي بشكل لإرادي. ماذا حدث الآن؟ ماذا فعلوا به؟ لم يكن ليفوت وصولي! عندما دخلنا إلى الفناء، انهالت عليّ كرات الثلج المتطايرة التي تستهدف صدري ورأسي وبقيّة جسدي. سمعت شايبين يصيحان:

- اضربه! اضربه!

أشعلت أمي الأضواء في الفناء، فأتى أحمد وإبراج راكضين نحوي. هاجماني وطرحاني أرضًا.

ضحكت أمي، وقالت محذرة:

- انتبها، من فضلكما، انتبها. إنه ضعيف وعظامه هشة.

قال والدي:

- دعيهم وشأنهم. دعيهم يستمتعوا بوقتهم.

لم يُعِر أحمد وإيراج اهتمامًا لأحد بالطبع. أداراني ولكماني بشكل هزلي على بطني وجانبي، وكدّسا الثلج على وجهي وجسدي. غمرتني الفرحة، وقبّلتهمَا وعانقتهمَا أيضًا، لكنني لم أرد لهما اللكمات.

أُضيئت الأنوار في منازل الجيران، وشعرت فجأة كأن الزقاق بأكمله أصبح مفعّمًا بالحياة. صاح والد أحمد من الجانب الآخر من الجدار، بينما والدته منشغلة بالدعاء:

- مرحبًا بعودتك إلى المنزل.

وصاح رجل آخر على بعد منزلين:

- لقد اشتقنا إليك.

نظرت حولي ورأيت الجيران في نوافذهم وعلى سطوح منازلهم وشرفاتهم. لوحوا إليّ وابتسموا وتمنوا لي الخير.

قال أحد الجيران:

- ثم جيدًا الليلة.

- الحمد لله أنه عاد إلى المنزل سالمًا.

سمعت صبيًا يصيح:

- سنلعب كرة القدم في الزقاق في التاسعة صباحًا، حسنًا؟

أومأت برأسي، ولوحت إليه عندما دخلنا إلى المنزل. بدا أحمد وإيراج سعيدين جدًا، وأردت أن أعانقهما مرة أخرى. جلس أبي معنا، بينما ذهبت أمي إلى المطبخ لإحضار الشاي والحلويات. نظرت حولي، ولم أصدق أنني عدت إلى منزلي. كان تلفزيوننا الأبيض والأسود أمام الباب مباشرة، وتراصت ثلاثة كراسي زرقاء حول الأريكة القديمة الصغيرة كأنها تحرسها، وغطت الأرضية سجادة كرمان قديمة. لاحظت أن ورق الحائط الأزرق الزاهي الذي ساعد عملي على تركيبه منذ خمس سنوات أصبح قديمًا جدًّا بالنسبة إلى هذه الغرفة، ويجب استبداله. حاولت ألا أتذكر أن الأزرق كان لون زاري المفضل. وكانت الساعة القديمة الكبيرة، التي لم تعمل قط، موضوعة بشكل مائل في الزاوية بجانب مدفأة الزيت

البنية الضخمة. كما توسطت شرفة كبيرة بين غرفة المعيشة والفناء. ظلت الأنوار مضاءة في الفناء، ومن حيث جلست استطعت بوضوح رؤية الحوض وشجرة الزيتون التي زرعها والدي في اليوم الذي انتقلنا فيه إلى هنا.

أحضرت إلينا أمي الشاي وطلبت منا أن نشربه وهو لا يزال ساخناً، لكن ليس ساخناً جداً، لأن شرب الشاي الساخن قد يسبب سرطان الكبد. تشمم أحمد الشاي بحذر بحثاً عن آثار مسحوق ثمار شجرة الغبيراء، فضحكت ضحكة مكتومة.

أخبرني إيراج بأن الأستاذ يزدي قد تقاعد، وأن الأستاذ جورجي، معلم الدين حل محله مديراً للمدرسة. وقد اختلفت الأمور كثيراً في المدرسة الآن، لأن الأستاذ جورجي صارم بشأن الانضباط، وهو أمر لم يكن أحد يعرفه عنه عندما كان معلماً للدين، عديم الحيلة.

كان يجعل الطلاب يصطفون في طابور كل صباح، ويقفون في حالة انتباه بينما يلقي محاضرات على الجميع عبر مكبر الصوت بأعلى صوت. في ذهني، تخيلت صياحه المغرور. تحدثنا أيضاً عن معلم جديد لمادة الجبر اسمه الأستاذ شيدايي. كان طالب فيزياء في السنة الرابعة في جامعة طهران، يؤمن بأن كل شيء في العالم يمكن تفسيره بمعادلات رياضية، وأن القوانين الحاكمة للكون مشفرة في هندسة أهرامات مصر. وبدأ أن الأستاذ جورجي يكره نظريات الأستاذ شيدايي المهرطقة.

قال أحمد:

- يعلم الجميع أن أيام شيدايي بوصفه معلماً في المدرسة أصبحت معدودة، لكنه يقاوم بشكل جيد حتى الآن.

قال إيراج:

- لتسوية خلافاتهما، خرّجا قبل بضعة أسابيع وشربا الفودكا معاً. اعتاد الأستاذ جورجي أن يحاضرنا أن شرب الخمر معصية، وأن شارب الخمر كافر سيحترق في جهنم يوم الحساب.

سألت ضاحكًا من النفاق السائد لدى الأستاذ جورجي:

- كيف عرفت ذلك؟

أجاب إيراغ ضاحكًا:

- أخبر الأستاذ شيدايي أحمد بذلك! وفي اليوم التالي، أثنى أحمد على الأستاذ جورجي أمام مجموعة كاملة من الطلاب لأنه نحى خلافاته مع الأستاذ شيدايي جانبًا وتناول معه بعض المشروبات.

بدأت في الضحك على الفور بينما واصل إيراغ:

- قال أحمد إننا جميعًا تعلمنا درسًا قيمًا منهما: أن أي خلاف يمكن حله سلميًا بتناول بضع كؤوس من الفودكا.

ابتسم أحمد ابتسامة عريضة وهو يقول:

- غادر الأستاذ جورجي الغرفة مثل رصاصة من مسدس بست طلقات.

قاطع إيراغ أحمد، وقال:

- ما سمعناه بعد ذلك هو أن الأستاذ جورجي وصف الأستاذ شيدايي بالأحمق والثرثار، بينما نعت الأستاذ شيدايي الأستاذ جورجي بالمنافق والدجال.

ضحكت وأنا أتخيل أحمد وهو يسبب اضطرابًا كبيرًا آخر في المدرسة. كانت هذه المرة الأولى التي ضحكتم فيها بمرح منذ أكثر من ثلاثة أشهر. جلبت إلينا أمني مزيدًا من الحلوى والشاي.

قلت بهدوء:

- لا أفقد وجودي في المدرسة، خصوصًا إذا كان الأستاذ جورجي هو المدير.

سألني إيراغ:

- هل تخطط للعودة؟

قال والذي:

- لا يمكنه ذلك، لقد غاب بالفعل أكثر من ثلاثة أشهر، ولن يسمحوا له بالعودة حتى العام المقبل.

فجأة، أدركت أنني لن أخرج مع أحمد وإيراج، وامتلأت بالحزن لفكرة وجودي في المدرسة العام المقبل من دون أصدقائي.

أشار أحمد إلى إيراج وسأل:

- هل تصدق أن هذا الفتى ما زال ينمو؟ انظر كم هو طويل القامة!
وبالفعل، كان طوله قد زاد بمقدار خمسة سنتيمترات على الأقل، وغطى شفته العليا شعر كثيف مبعر يحتاج بشدة إلى الحلاقة.
سألته:

- لماذا لا تحلق شاربك؟

قال وهو محرج بعض الشيء:

- يعتقد والدي أنني صغير جدًا على الحلاقة، وأن ذلك سوف يفسد بشرتي،
كما تعلم.

قال أحمد مازحًا:

- بالطبع، فالمجلات الطبية ممتلئة بقصص عن بالغين يعانون مشكلات في
الجلد، وكل ذلك لأنهم بدأوا الحلاقة مبكرًا جدًا.
ضحكنا جميعًا، حتى إيراج.

أطلعتني والدتي على آخر المستجدات في الزقاق في أثناء غيابي. أقيم كثير
من حفلات الزفاف، وقريبًا جدًا سيعج هذا الحي بالأطفال. ولا يعني هذا أن
هناك أي شيء خطأ في ذلك، لكنها اعتادت أن يكون كل شيء هادئًا.

سأل الجيران عني طوال الوقت، وتمنى لي الجميع الخير. قال والدي إن عمي
وعمتي سيأتون إلى المدينة لرؤيتي خلال الأسبوعين المقبلين. وذكر أيضًا السيد
والسيدة كسروي، لكنه لم يذكر شيئًا عن السيد والسيدة مهربان. هل ما زال السيد
مهربان في السجن؟ دارت في رأسي فكرة أخرى مخيفة أكثر. إذا حدث له شيء،
فلا أريد أن أعرف بعد. تناولت رشفة أخرى من الشاي.

سهرنا حتى الثالثة صباحًا نتحدث عن كل شيء ما عدا زاري والدكتور. أحيانًا
بينما الآخرون يتحدثون، كان ذهني يشرد بعيدًا في منتصف الحكايات. لم يبدُ لي

أي شيء صائبًا. بدا أن فرشة الزمن قد مرت على روحي، وشعرت كما لو أنه لم يعد هناك شيء آخر لأتعلمه، ولا شيء آخر أطلع إليه. ما الذي يمكن أن تعلمني إياه الحياة ولم أختبره بالفعل؟

أخيرًا، حان وقت النوم، فودعنا إيراج وعاد إلى المنزل، وتوجهت أنا وأحمد إلى غرفتي في الطابق الثالث. أخيرًا صرنا وحدنا. نظرت إلى السطح، وتركت الدموع تنهمر على وجهي، فخفض أحمد نظراته. سألته:

- كيف حال فهيمة؟

- إنها تفتقدك. سنذهب لرؤيتها غدًا.

- لا أطيع الانتظار. الحمد لله أنكما بخير.

بمجرد أن قلت ذلك، تذكرت أنني لم أعد مؤمنًا بالله.

حدقنا إلى بعضنا، وقد أدركنا أنه عاجلاً أم آجلاً سيتحول حديثنا إلى زاري. وأخيرًا، قال:

- هل تريد التحدث عن الأمر؟

صمت قليلًا، ثم أوامأت برأسي.

شرع قائلاً:

- لم نعد نرى عائلتها كثيرًا. يخرج والدها في الصباح الباكر ولا يتحدث عنها مع أحد أبدًا. أما والدتها فلا تغادر المنزل على الإطلاق، ويقولون إنها مريضة طوال الوقت الآن. لقد أمضت وقتًا طويلاً في المستشفى بعد...

توقف عن الحديث لما يعادل ثلاث نبضات قلب، ثم واصل:

- لم أرَ والدتها منذ فترة، لكن الجميع يقولون إنها تبدو كما لو أنها أصيبت بصاعقة. يقولون إنها لم تعد كما كانت منذ ذلك اليوم. شاب شعرها، وتغضن وجهها، وصارت يداها ترتعشان بشكل خارج عن السيطرة، يا للسيدة المسكينة! أنت تذكر كم كانت جميلة وناضجة بالحياة دائمًا، أليس كذلك؟

أومأت برأسي بالإيجاب. أخذ أحمد نفسًا عميقًا وأشعل سيجارة، كما أشعلتُ واحدة أيضًا. فكرت في نظرة أبي الصارمة، تلك النظرة التي تؤلمني أكثر من ألف صفقة على وجهي، لكنني لم أعد أخشى تلك النظرة.

تابع أحمد:

- لم يُسمح لهم بارتداء السواد. على أي حال، فهم ليسوا بحاجة إلى ذلك، إذ إن ذلك المنزل يبدو مظلمًا للغاية. أتساءل كيف سيكون كيفان عندما يكبر. لقد مشيت معه إلى المدرسة ذات مرة وحاولت أن أعرف كيف حاله هو والديه، لكنه لم يتفوه بكلمة. قال إنه أمر ألا يتحدث مع أي شخص عن زاري وما يدور في منزلهم.

تذكرت اليوم الذي ساعدنا فيه كيفان على بناء بيت الكلب. وتذكرت ارتباكي في استخدام الأدوات، وسكب الشراب على صدري، وإصرار أحمد على أن أتحدث مع زاري، والمهزلة المتعلقة برواية سووشون. كاد قلبي ينفجر خارجًا من صدري، وشعرت بأن تلك الأيام مرت منذ قرن مضى.

قال أحمد:

- تركت الملاك المُقنَّع المدرسة وانتقلت إلى هنا لرعاية عائلة زاري. يقول جميع من في الحي إنها أعادت الهدوء والاتزان إلى حياتهم.

سألته:

- هل تلتقي فهيمة معها؟

هز رأسه.

- لا، من الصعب جدًّا على فهيمة الوجود في ذلك المنزل الآن، هل تفهم ما أعنيه؟

فكرت في شجرة الكرز، والبطانية الحمراء، والحوض الصغير في فناء منزلهم، فسالت دمعة على خدي. وضع أحمد يده على كتفي.

- هل أنت بخير؟

- نعم.

- هل تريد التحدث عن هذا في وقت آخر؟
- لا، أريدك أن تكمل.
- هل أنت متأكد؟
- نعم.
- حسنًا إذن.
- أخذ أحمد نفسًا عميقًا، وتابع:
- الملاك المُقنَّع لا تختلط بأحد. يُشاع أنها تعتني بالعائلة حتى يخلدوا إلى النوم، ثم تتوجه إلى غرفة زاري وتقرأ الشعر طوال الليل. أيمكنك أن تتخيل كيف يبدو الأمر بالنسبة إليها وهي تعيش في غرفة زاري؟
- تذكرت تلك الليلة الأخيرة في غرفتها، وصورتنا نحن الأربعة على الجدار، والكرسي الذي جلسنا عليه، وإحساسي بجسد زاري بين ذراعي، ورائحة شعرها المُسكرة. مسحت دموعي.
- لماذا لا يخبروننا أين دُفنت؟
- بصق قائلاً:
- لأنهم مجموعة من الأوغاد.
- ألم تحصل العائلة على... جثتها؟
- نعم، لم يحدث هذا قط. بالنسبة إلى العالم، لم يحدث أيُّ من هذا على الإطلاق، ولم يكن لها وجود. يدفعك هذا إلى الرغبة في الصراخ، أليس كذلك؟ الأوغاد الملاعين! يفعلون ما يحلو لهم، ولا يستطيع أحد فعل شيء.
- سألت بصوت هامس:
- هل وصلت إلى المستشفى؟
- هز أحمد رأسه.
- لم أعد متأكدًا.
- هل كان لوالديها أي اتصال مع السافاك؟

- لا أعتقد ذلك، لم يشارك أي شيء مع بقية الزقاق. كما قلت، فهما بالكاد يتحدثان مع أي شخص. لا يستقبلان الضيوف، ونادرًا ما يغادران المنزل. وكلما ذكر اسمها، بكى والدها. الأمر يفطر القلب. كان الرجل بطلًا أولمبيًا بحق السماء. هل هناك ما هو أسوأ من فقدان المرء أولاده؟
نظر أحمد إليّ، وتوقف عن الحديث.
اعتذر قائلاً:

- معذرة، لم أقصد ذلك.
هزئت رأسي لأعلمه أنه لا ينبغي أن يقلق لذلك الشأن.
- هل زودوا والديها بأي معلومات عنها؟
- لا شيء على حد علمي. عندما كنت في السجن، سمعت أنها ظلت على قيد الحياة فترة من الوقت، لكن لا يمكنك الوثوق بالمعلومات التي تتلقاها في السجن.
مسحت مزيدًا من الدموع عن وجهي، وتمنيت أن ينتزع أحد الخنجر من قلبي، أو يغرسه في أعماقي ليضع حدًا لحياتي البائسة.
سألته:

- كم من الوقت قضيت في السجن؟
أجاب كما لو لم يكن الأمر مهمًا:
- ليس طويلًا.
- ماذا فعلوا بك؟
قال بضحكة جوفاء سطحية:
- الأشياء المعتادة.
استنتجت من عينيه المغمضتين أنه لا يقول الحقيقة، وحدثت إليه بصمت وإصرار، لأعلمه أنه لم ينجح في الهرب من الموضوع.
أخيرًا، رفع كتفيه وهو يتحدث، وهي لفظة متوترة ومرتبكة لم أره يقوم بها من قبل، وأوضح قائلاً:

- إنهم يحتجزون الناس لأنهم يريدون الحصول على معلومات. لم يحدث أي شيء خارج عن المألوف، أقسم لك. مجرد الركلات واللكمات والسباب، كما تعلم، الأشياء العادية التي تسمع الناس يتحدثون عنها.

واصلت التحديق إليه، وأعتقد أنه أدرك أنني ما زلت غير مقتنع بإجابته، لأنه بدأ يشرح ما حدث أخيرًا، من دون النظرات المراوغة. قال إن أيامه الأولى في السجن كانت الأصعب، لأنه لم يعرف ما حدث لي أو لزاري، أو ما إذا كانت فهمة قد اعتُقلت أيضًا. عامله محققو السفاك بلطف في البداية لأنهم أرادوا استمالته وإغراءه بإخبارهم عن زاري. ففي النهاية، كان مجرد فتى مشوش بالنسبة إليهم. وعندما أنكر أي علاقة له بالشيوعيين أو الحزب السياسي المحظور المعروف باسم «توده» أو أي جماعات سياسية أخرى، هددوه بالضرب والتعذيب وحتى القتل.

وذاث ليلة، في وقت متأخر، أيقظوه في زنارته واقتادوه إلى غرفة مظلمة، حيث قيدوا يديه خلف ظهره، وعصبوا عينيه، وتركوه على كرسي غير مريح لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. كان يسمع بين الحين والحين بعض الحراس يتهامسون، ثم يسود الصمت. ازداد اضطرابًا مع مرور الوقت، وتوقع الأسوأ خلال فترات الصمت الطويلة. وفجأة من دون سابق إنذار، أمسك أحدهم ركبتيه وباعد بينهما، وشعر بضربة ساحقة بين رجليه. كان الألم مدمرًا إلى درجة أنه شرع يتقيأ على الفور. مرت دقائق، ولم يحدث شيء آخر. وعندما بدأ يشعر بأنه على ما يرام مرة أخرى، بدأ أحدهم بضربه بسلك طويل وسميك. لم يعرف ماذا يفعل سوى الصراخ والبكاء، لكنهم لم يتوقفوا. وكلما ازداد صراخه، ازداد ضربهم له، وشعر بالرضوض تظهر على ظهره وكتفيه ووجهه ورأسه. ولا بد أنه فقد الوعي وهم لا يزالون يضربونه.

عند العودة إلى زنارته وجد سجينًا جديدًا تعرض أيضًا للضرب المبرح قبل أسبوع أو أسبوعين. كان اسم صديقه الجديد جواد. كان شابًا في نحو الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين، طويل القامة وقوي البنية ووسيمًا للغاية. أخبر

جواد أحمد بكل شيء عن نفسه. كان عضوًا في الحزب الشيوعي، وطالبًا في كلية الحقوق في جامعة طهران، وقد فضح أمره صديقه الذي فقد حياته تحت التعذيب. كان يخطط هو وجماعته لسرقة بنك لتمويل أنشطتهم المناهضة للنظام. لم يُسمح له برؤية أقاربه، ولم يكن متأكدًا ما إذا كانوا يعلمون أنه لا يزال على قيد الحياة.

أظهر لأحمد يده اليسرى المشوهة، ووصف بتفاصيل مؤلمة كيف قطعوا اثنتين من أصابعه في ليلة واحدة. وفي ليلة أخرى، كما قال، أدخلوا به أجسامًا طويلة وسميكة، وكان الألم شديدًا إلى درجة أنه فقد الوعي. شعر جواد بمرارة شديدة بسبب ما فعله به السافاك، إلى درجة أنه لم يتوقف عن الحديث بما يكفي لسماع قصة أحمد. قال:

- هؤلاء الأوغاد خدم للغرب. إياك أن تثق بهم أبدًا، وإياك أن تدعهم يعتقدون أن لهم اليد العليا.

تعرض أحمد للضرب ليلة بعد ليلة، وفي كل مرة كان يُضرب بوحشية أكثر من ذي قبل. قال أحمد وهو ينفث دخان سيجارته:

- إنهم لا يهتمون بالتحقيق في جرائمك. بل يريدون اعترافًا، وسيفعلون أي شيء للحصول عليه. أخبروني بأنهم سيقطعون أصابع يدي وقدمي واحدة تلو واحدة، وقالوا لي أن أسأل جواد عن مدى الألم، ففعلت. لم يقل جواد أي شيء. أشاح بوجهه فحسب، وبدأ في البكاء.

بعد كل ضرب، كان جواد يداوي جراح أحمد بينما يخبره عن رؤيته للمستقبل، التي كانت تتضمن دائمًا تمردًا مسلحًا ضد نظام الشاه. وفي إحدى الليالي، اقترح على أحمد أن يعرف كل منهما الآخر على جماعته. وأوضح جواد قائلاً:

- لا يمكن القيام بثورة ناجحة في هذا البلد إلا من خلال اتحاد القوى. لقد خلقت الحكومة بيئة من الشك وانعدام الثقة بحيث لا يمكن للقوى الثورية أن تعمل إلا في خلايا معزولة. هذا لأن السيطرة على خلية صغيرة وحكمها أسهل بكثير من السيطرة على خلية كبيرة. وعلى الرغم من أن هناك دائمًا

خطرَ تسلل عناصر غير مرغوب فيها إلى جماعات أكبر، فإنه من الواضح لي أنك تنتمي إلى جماعة منظمة بشكل جيد ومدرّبة تدريباً رائعاً لأنك لا تتحدث أبداً عن رفاقك.

هز أحمد رأسه وضحك. أراد جواد أن يعرف مَنْ هو أحمد، وَمَنْ كان على صلة به، وما إذا كان «خدم الغرب الملاعين» هؤلاء قد اعتقلوا أي شخص آخر من جماعته. أخبره أحمد عن الدكتور وزاري وأنا. أخبره عن أيامنا تحت شجرة الكرز، وحفل عيد ميلاد كيفان، وليالينا على السطح. أخبره بأنه يحب فهمية، وأنني أعز أصدقائه، وأن زاري حبي الأول والوحيد. أثرت قصة زاري في جواد، وجعلته يبكي وهو يلعن الشاه وعائلته الذين «يستحقون الجحيم».

كان أحمد قلقاً من أن والدَي فهمية سيجبرانها على الزواج بجارها وهو في السجن. ففي النهاية، لم يكونوا يعلمون أنه لا يزال على قيد الحياة. أخبر جواد بأن قلبه ينفطر كلما تذكرني وأنا أركض خلف زاري بتلك النظرة الممتلئة بعدم التصديق والرعب على وجهي.

بكى جواد قائلاً:

- هذا النوع من الأشياء يسحق الروح، ويحطم القلب، ويضعف المعنويات. ليس من العدل أن يرى شاب ما رآه في ذلك اليوم المشؤوم.

قال أحمد إنه أراد أن يحطم جمجمته كلما فكر فينا تحت شجرة الكرز. كانت الحياة رائعة جداً، وتوقف كل شيء عندما ألقوا القبض على الدكتور.

خلال الأيام والليالي التي تحدث فيها جواد وأحمد، لم يأت أحد لتعذيبه. كانوا يأخذون جواد بعيداً من حين إلى حين، لكنه كان يعود على الفور من دون أي علامات واضحة على وجهه أو جسده. وفي وقت متأخر من إحدى الليالي، أخذ العملاء جواد بعيداً بصورة دائمة. لم يره أحمد مرة أخرى، وقلق من أنهم أعدموا صديقه الوحيد والمتعاطف معه في تلك الجحيم. ولم يعلم أحمد إلا قبل يومين من إطلاق سراحه أن جواد كان عميلاً في السافاك مكلّفاً بكسب ثقته وكشف جماعته.

أوضح قائلاً:

- إنهم يفعلون ذلك كثيرًا، خصوصًا مع الوافدين الجدد. كيف يفترض بي أن أعرف؟ لقد بدا صادقًا جدًا.

قال أحمد إن وجوده في السجن لم يكن هو الذي كاد يحطم معنوياته، بل القصص المتضاربة التي سمعها عن زاري وفهيمة وعني. أخبروه طوال الوقت بأنني أعدمته، وأن زاري ماتت. ثم أخبروه بأنها نجت من الحريق، وأنها اعترفت في أثناء التحقيق أنها من الخراب كر، وأنها ماتت تحت التعذيب. كما أوهموه أن فهيمة معتقلة، وأنها تتعرض للاغتصاب جماعي في الغرفة المجاورة في تلك اللحظة بالذات. وزعموا أنها ستعرض للاغتصاب مرارًا وتكرارًا حتى يعترف أحمد بجرائمه.

تمتم أحمد:

- تمنيت أن أقتل نفسي، وكنت سأفعل ذلك لو وجدت طريقة.

بدأ الضوء يبرز عندما خرجنا إلى السطح، الذي غطته طبقة رقيقة من الجليد. سرنا بحذر، متذكرين مقولة أمي إن مئات الأشخاص يسقطون من فوق السطوح كل عام. نظرت إلى غرفة زاري، وشعرت بجبل يجثم على صدري. كانت الستائر مغلقة، لكن الضوء داخل الغرفة كان مضاءً. ارتجف قلبي عند رؤية علامة الحياة في تلك الغرفة، وهمست:

- زاري.

وضع أحمد يده على كتفي، وقال:

- أنا آسف. لا بد أن الملاك المُقنَّع تؤدي صلاة الفجر.

جعلتني برودة الفجر أتمنى لو كنت أرتدي شيئًا أكثر دفئًا. ساد الهدوء في الخارج، لكن أومض ضوء هنا وهناك، وبكى طفل رضيع للحظة وجيزة، وأصدر باب صريرًا بينما يستيقظ الحي تدريجيًا.

قلت لأحمد:

- لم أكن ألاحظ هذه الأصوات من قبل.

- ولا أنا أيضًا.

- كيف حال معنوياتك الآن؟

- أقوى من أي وقت مضى الآن بعد أن عدت أنت وفهيمه إلى حياتي. يمكن

لأولئك الأوغاد أن يقبلوا مؤخرتي إذا كانوا يعتقدون أن بإمكانهم تحطيمي

ببضع كدمات!

سألته وأنا أنظر إلى السماء:

- أما زلت تفكر في النجوم؟

- بالتأكيد.

- لا يزال لديك أكبر نجم في السماء. ستمضي في حياتك لتعيش كالملك،

مع فهيمه كملكة جميلة في قصر كبير.

توقفت عن الحديث وأخذت نفسًا عميقًا. خفض أحمد رأسه وهدق إلى

أصابع قدميه. تابعت قائلاً:

- إن قوة صداقتنا هي الشيء الذي حفظ لي صوابي. أنت أخي ورفيقي

وصديقي مدى الحياة.

ربت أحمد على ظهري وابتسم من دون أن يقول شيئًا، لكنني عرفت من تعبير

وجهه الرقيق أنه متأثر للغاية.

من طرف عيني رأيت الملاك المُقنَّع تخرج إلى فناء زاري. اتجهت نحو

المخبز لشراء خبز اللافاش الطازج الساخن، تمامًا كما اعتادت زاري. لفتت

انتباهي خطأها السريعة على نحو غير عادي. كنت قد سمعت من زاري أن الملاك

المُقنَّع هي أكثر الأشخاص هدوءًا واتزانًا في العالم. تساءلت لماذا تسرع الخطي،

كما لو كان هناك من يطاردها. بينما أراقبها، امتلأت عيناى بالدموع مرة أخرى.

سألني أحمد إن كنت أريد العودة إلى الداخل، فأجبت بالنفي. فرك مؤخرة عنقه

بكف يده اليمنى.

قال:

- أنا آسف. ليس من المفترض أن تكون الحياة هكذا في عمرنا هذا.

- أعلم ذلك.

- عدني بأنك ستبذل قصارى جهدك لترك الماضي وراءك.

بينما أومئ برأسي، مد يده اليمنى وقال وهو ينظر في عيني مباشرة:

- لتتصافح على ذلك.

وبينما نفعل ذلك، تذكرت الليلة التي سبقت جنازة الدكتور، عندما تعهدنا

على عدم البكاء في المقبرة. لم أعتقد أنني سأتمكن من الوفاء بوعدى هذه المرة.

ألقيت نظرة نحو الطرف الشرقي من الزقاق، ورأيت الملاك المُقنَّع تعود.

وبينما أنظر إلى برقعها الذي يرفرف حولها، تذكرت أستاذنا في مادة الدين الأستاذ

جورجي، ونظرياته بشأن النساء غير المحجبات، وكيف يجعلن أنفسهن هدفًا

للرغبة الجنسية للرجال. تذكرت أيضًا اعتقادي بأن إيراج كان مغرمًا بشريا، على

الرغم من أنه لم يرَ وجهها قط.

سألت:

- هل لا يزال إيراج...

ابتسم أحمد قائلاً:

- إيراج مفتون بها.

لم يسعني إلا أن أبتسم في المقابل.

دخلت الملاك المُقنَّع إلى الفناء وأغلقت الباب خلفها. في تلك اللحظة

رفعت نظرها إلى الأعلى ورأتني أنا وأحمد على السطح. توقفت فجأة، كما لو

أنها اصطدمت بجدار غير مرئي، ثم اندفعت إلى داخل المنزل.

قال أحمد:

- لا بد أنها مصدومة لرؤيتك. كانوا قلقين عليك، يجب أن تعرف ذلك.

- سنذهب لزيارتهم قريبًا.

أرواح حبيسة

مر أكثر من أربع وعشرين ساعة منذ أن نمت. نزلت أنا وأحمد إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار مع عائلتي، وظلت أُمي تضع الطعام في أطباقنا لأن الشباب في مثل عمرنا يحتاجون إلى التغذية الجيدة وإلا فلن يشبوا أقوياء. قال أحمد إنه من الأفضل أن نطيعها قبل أن تحضر زيت المحركات وبول الخيل، فابتسمت. اضطر أبي إلى الذهاب إلى العمل، لكنه وعد بالعودة إلى المنزل مبكرًا واصطحبنا لتناول العشاء بالخارج. ستناول جلو كباب، وهو عبارة عن سيخ من اللحم المفروم الممزوج بالبصل والأعشاب الفارسية المحلية، وسيخ من شرائح اللحم، يُقدم فوق أرز بسمتي محضّر بالزبدة وأعشاب السماق الفارسية اللذيذة والطماطم المشوية.

قلت له:

- لا أريد الخروج حقًا يا أبي.

فأومأ برأسه، وقال إنه يتفهم ذلك، لكن أعتقد أنه اندهش من صراحتي. بعد الإفطار، خرجت أنا وأحمد إلى الزقاق. أتى الجيران لإلقاء التحية، وشكرتهم على انتظارهم لي في الليلة السابقة للترحيب بعودتي إلى المنزل. عانقني الرجال وصافحوني، وقال أحد الجيران:

- تبدو بحالة جيدة، تبدو بحالة جيدة.

وتدخل آخر قائلاً:

- يبدو في أحسن حال. نحيل بعض الشيء، لكن هذا متوقع.

قالت والدة أحمد وهي تعانقني وتقبّلني:

- أوه، نعم، يبدو ناحلاً، لكن والدته سترعاه ليصبح في أحسن حال خلال وقت قصير.

وأضافت والدموع في عينيها:

- لقد اشتقت إليك كثيراً. كنت أدعو كل يوم من أجل عودتك سالمًا. أوه،

لو تعلم فقط ما عانته أمك المسكينة البائسة. كانت مثل روح ضالة طوال

فترة غيابك. الأم من دون طفلها مثل الوريد من دون دم.

ثم همست في أذني:

- عليك أن ترى أم زاري. إنها تبدو كالشبح. مسكينة، يا للمرأة المسكينة!

وقفت جدة أحمد على بعد بضعة أمتار، وبدت كأنها كبرت عشرين عامًا في

غضون أشهر. همس أحمد أن حالة الجدة العقلية والجسدية تتدهور بسرعة.

قالت الجدة:

- لقد رحل زوجي ذات مرة. لمدة ثلاثين عامًا أم كانت أربعين عامًا؟ لم

أعتقد أنني سأراه مرة أخرى، لكنه عاد.

ثم التفتت إلى أحمد وسألته:

- لقد عاد بالفعل، أليس كذلك؟

ابتسم أحمد بلطف وهو يحيطها بذراعه.

- بلى يا جدتي، لقد عاد. كيف يمكنه الابتعاد عن فتاة جميلة مثلك؟

نظرت الجدة إليّ وسألتنني:

- أين زوجتك؟ هل تعلم بعودتك بعد؟ لم أعلم بعودة زوجي قبل مرور

فترة طويلة.

ثم التفتت إلى أحمد.

- لقد مر وقت طويل قبل أن أعرف، أليس كذلك؟

أوماً أحمد برأسه بالإيجاب.

واصلت هذيانها:

- مر وقت طويل قبل أن أكتشف الأمر، وقت طويل جداً. لماذا لم يخبرني

على الفور؟

ذكَرَها أحمد:

- أراد أن يفاجئك، وأن يظهر عندما لا تتوقعين ذلك. فما فائدة الغياب إذا لم

تستطع مفاجأة زوجتك عندما تعود؟

قالت الجدة:

- أوه، نعم! ما فائدة ذلك؟

صمتت قليلاً، ثم سألت:

- لقد فوجئت، أليس كذلك؟

التفت أحمد إليّ.

- أنت تتذكر، أليس كذلك؟ ألم تفاجأ؟

وقفت الجدة بجانبى مباشرة، فطوقت كتفيها بذراعي وقلت في أذنها:

- لقد فوجئت كثيراً يا جدتي. لن أنسى أبداً الطريقة التي ابتسمت بها عندما

رأيت.

أشرق وجه الجدة.

- لا بد أن تُفاجئ زوجتك أيضاً. ستحب ذلك، مثلما أحبيته أنا.

ثم مشت ببطء عائدة نحو منزل أحمد وهي تقول:

- نعم، أذكر أنني فوجئت بشدة.

غمز لي أحمد، وغمزت له بالمقابل.

تحمس الأولاد في الزقاق لرؤيتي، لكن بعض الأطفال الأصغر سناً بقوا على

مسافة مني. ففي النهاية، كنت قد خرجت للتو من مستشفى الأمراض العقلية.

ومع ذلك، صافحني معظم الأطفال وأرادوا معرفة ما إذا كنت لا أزال ألعب كرة

القدم، وما إذا كنت أرغب في اللعب في وقت لاحق من اليوم. شكرتهم وأخبرتهم بأنني متعب للغاية، وأنه قد مر وقت طويل منذ أن نمت.

ذهبت أنا وأحمد إلى منزله. أحضرت إلينا والدته الشاي والحلويات، وأخبرتنا بأنها كانت تحلم بهذا اليوم الذي سنجتمع فيه معًا مرة أخرى. كانت امرأة ضئيلة الحجم بوجه نحيف وجسم نحيل وبشرة شاحبة، لديها صوت راوية حكايات، لطيف ودافئ وواثق. ودائمًا ما يوجد مغزى - درس أو عظة - في قصصها. تحدثت عن أيام أحمد في السجن باعتبارها أسوأ أيام حياتها. قالت:

- الحياة ليست هي نفسها عندما تُنتزع قطعة من قلبك. الأمانة نعمة ونقمة، هذا أمر مؤكد!

طأطأ أحمد رأسه، وأعتقد أنه أحس بالحرَج.

نصحتني والدته أحمد بزيارة والدَي زاري.

- لقد عانيا كثيرًا. أولًا الدكتور، ثم تلك الفتاة الشبيهة بالوردة. كانت صغيرة جدًا، ومفعمة بالحياة. ما حدث لتلك العائلة أمر لا يُصدق. إذا كان هناك إله، فهناك يوم للحساب أيضًا، وستحظى والدتها المسكينة بالعدالة.

مسحت الدموع من عينيها، وتابعت:

- أوه، نعم، يجب أن تذهب لتقدم لهما التحية قريبًا. لقد رأيت الملاك المُقنَّع تراقبك من الشرفة في الطابق الثالث عندما كان الجميع مجتمعين حولك في الزقاق. أنا متأكدة أنها أخبرت العائلة بعودتك. ربما يتوقعان منك زيارتهما اليوم.

قال أحمد:

- نعم، لا بد أن نفعل ذلك.

ثم التفت إلى والدته.

- لقد رأيته في طريق عودتها من المخبز اليوم، ولاحظنا أنها بدت متفاجئة.

قالت والدته أحمد:

- كانت الملاك المُقنَّع هبة من الله لتلك العائلة. ظلوا منهارين إلى أن ظهرت وأعادت بعض السلام إلى حياتهم. لا بد أنها ملاك حقيقي. يدبر الله الأمور بطرق مدهشة، أليس كذلك؟
أومأت برأسي بالإيجاب، معتقداً أنه إذا كان هناك إله، فمن المؤكد أن لديه طريقة مدهشة في إظهار حبه للدكتور وزاري.
قالت والدة أحمد:

- بالتأكيد لن تملأ الفراغ الذي تركته زاري في حياتهما. سيكون ذلك مستحيلًا لأنه لا أحد - وأعني لا أحد - يمكنه أن يحل محل طفلك. لكن على الأقل الملاك المُقنَّع موجودة لترعاهما ولتكون أختًا لكيفان. ذلك الصبي المسكين! لن أعرف أبدًا كيف فسروا له خسارة أخته المأساوية. لا بد أن هناك عاصفة تختمر في داخله! كان الله في عونهِ، أتمنى فقط ألا يحاول الانتقام عندما يكبر. حمدًا لله على الملاك المُقنَّع، سمعت أنها تقضي معظم وقتها، إن لم يكن كله، في رعايته. لقد كرسَت حياتها لتلك العائلة. فهي لا تذهب إلى أي مكان، ولا تختلط مع أي شخص، بل تركز بالكامل على مساعدة تلك العائلة في التغلب على ألم فقدان ابنتهم العزيزة، باركها الله.

سمعنا الجدة قادمة نحونا. هزت والدة أحمد رأسها.

- حالتها تسوء يوميًا بعد يوم. قبل بضعة أيام فحسب، سقطت من على درج القبو لأنها اعتقدت أن زوجها، رحمه الله، كان ينتظرها في أسفل الدرج. إنها معجزة كونها لم تكسر عنقها. صارت تراه في كل مكان الآن.
الحياة قصيرة، قصيرة جدًا. استمتعا بكل نفسٍ تأخذانه، لأنه لا أحد يعرف ما سيأتي بعد ذلك. في أعين الكون، الوقت الذي يقضيه كل واحد منا على هذا الكوكب ليس أكثر من طرفة عين! علينا أن نعيش حياتنا واثقين بحكمة الله. هناك سبب لكل شيء. اعتادت أُمي المسكينة، رحمها الله، أن تقول لا تضيعوا وقتكم في سؤال الله عن السبب، لأن الله لن يرد. لكن على الرغم

من ذلك، فهو يُظهر لك علامات في مرحلة ما خلال الطريق، تساعدك على فهم سبب حدوث الأشياء على ذلك النحو.

أدركت ما تفعله والددة أحمد، وتمنيت أن تتوقف. أردت أن أتحدى ما تؤمن به، لكن ذلك سيُعد وقاحة بالغة. فبصرف النظر عن مدى انزعاجك، يجب ألا تعارض مضيفك أبدًا. والأهم من ذلك، هو ألا تقول أي شيء مسيء دينيًا.

دخلت الجدة إلى الغرفة، ونظرت إليّ بضع ثوانٍ، وسألني مرة أخرى ما إذا كانت زوجتي تعرف أنني عدت بعد.

ابتسم أحمد وقال:

- ليست لديه زوجة يا جدتي.

قالت الجدة وعيناها حائرتان ومرتبكتان:

- أوه! ظننت أنه متزوج بالفتاة التي تسكن بجوارنا، تلك التي اعتاد جدك أن يعطيها الشوكولاتة.

حاول أحمد التدخل:

- لا يا جدتي...

لكن الجدة قاطعته قائلة:

- إنها فتاة لطيفة. أنا أحبها كثيرًا.

همس إليّ:

- أنا آسف، إنها لا تعرف ما حدث.

- لا بأس، إنها تخلط بيني وبين الدكتور على الأرجح.

قالت لي الجدة:

- يجب أن تبلغ زوجتك بعودتك. لقد ظلت تنتظرك منذ فترة طويلة، تمامًا كما انتظرت أنا جدك.

هدأها أحمد قائلاً:

- نعم يا جدتي، سوف يبلغها.

قالت الجدة:

- إنها تبكيه كل ليلة. مسكينة، تبكي كل ليلة. إنها حزينة جدًا.

قال أحمد بصبر:

- حسنًا يا جدتي. سنتولى الأمر، وسنبليها.

قالت الجدة وهي تخرج من الغرفة متثاقلة:

- أجل، من الأفضل أن تبلغها، لا بد أن تعرف الفتاة المسكينة. إن سماع

بكائها هكذا يفطر القلب.

رن جرس الباب، وعندما فتح أحمد، دفعته فهيمة جانبًا وهرعت نحوي. اندفعت

بين ذراعيّ وقبّلت وجهي مرارًا وتكرارًا والدموع تنهمر على خديها، وشعرتُ

بجسدها يرتجف بين ذراعيّ. قصت شعرها الأسود الطويل على نحو قصير، مما

جعلها تبدو أكبر سنًا مما هي عليه في الحقيقة.

قلت ضاحكًا وأنا أحاول حبس دموعي:

- ماذا حدث لشعرك؟

ضحكت وهي تنظر إليّ بعينين دامعتين.

- احتجت إلى التغيير، هذا كل ما في الأمر. يبدو أنك فقدت كثيرًا من وزنك.

قلت:

- أنا أيضًا احتجت إلى التغيير.

ضحكت وعانقتني بقوة.

قالت:

- الحمد لله أنك عدت، الحمد لله على ذلك.

تبادلت والدّة أحمد التحيّة مع فهيمة، وسألتهَا إن كان والداها بخير، ثم سرعان

ما ذهبت إلى المطبخ للبدء في إعداد الغداء.

وضعت فهيمة ذراعها حول كتفيّ، وعضت على شفّتها السفلى وهي تذرف

الدموع بهدوء وتمسح وجهها بمنديل أبيض. قالت:

- تحدثت أنا وأحمد عنك كل يوم في أثناء غيابك. افتقدناك بشدة، ولم نطق

الانتظار حتى تعود إلى المنزل. كان الجميع في الحي يعرف ما حدث لنا، بمن في ذلك والداي وشقيقي. أحس والدي ووالدتي بالقلق عليك حقًا، وكانا يدعوان لك بالشفاء والعودة سالمًا.

سألتني عن شعوري، وقبل أن تسنح لي الفرصة للإجابة، عانقتني مرة أخرى وانفجرت في نحيب مريع.

قالت:

- ستتجاوز هذا الأمر معًا. لا أعرف كيف، لكننا سننجح. أعدك بذلك. قد يكون تعافينا بطيئًا، ولكننا سنتعافى، أنا متأكدة من ذلك.

كان شعورًا رائعًا أن أعود بصحبة أحمد وفهيمه مرة أخرى. بدوًا أكثر نضجًا مما أتذكر. بدا أن كلاً منهما على دراية تامة بالآخر على نحو لا يعرفه سوى المتزوجين. اختفت تصرفات أحمد الصبانية وسلوكياته الشبابة. جلس إلى جانبها، وبدا كرجل واثق وعازم، تحيطه هالة تشي بأن فهيمه هي امرأته. كما اختفت أيضًا التصرفات الطفولية التي كانت تجعل فهيمه تبدو كأنها مراهقة تقع في الحب للمرة الأولى. بدت امرأة الآن، ناضجة وهادئة وواعية أنها موضع عاطفة وإخلاص غير مشروط من شخص ما. تساءلت عما إذا كنت أنا وزاري سنصل إلى هذه المرحلة لو كانت لا تزال معنا.

بدأت فهيمه الحديث عن ذلك اليوم. كانت تتذكر أنها فقدت الوعي على الرصيف بعد أن هاجمني أنا وأحمد الجنود، لكنها لم تتذكر أي شيء بعد ذلك. كانت بعض العائلات التي وقفت على مقربة منا، وشهدت على كل شيء، قد تولت حمايتها من العملاء الذين جابوا الحشود لمعرفة «الأولاد الثلاثة المجانين المسؤولين عن هذا الهراء». أخبر الأشخاص الذين أخذوها إلى المنزل والديها بكل شيء. صرخ أخوها الأكبر وشمها عندما علم أنها كانت مع زاري وأحمد وأنا، لكن عندما سمع بما حدث لثلاثتنا احتضنها وأمطرها بالقبلات، وحمد الله على سلامتها.

ظلت فهيمه مريضة فترة طويلة، ولم تستطع الأكل أو النوم. لا تزال صور

ذلك اليوم تطاردها، وكثيراً ما تجد نفسها تبكي من دون سبب. حاول والداها إرسالها إلى إنجلترا للإقامة مع إحدى بنات عموماتها البعيدات فترة من الوقت، لكنها رفضت الذهاب.

سألتني:

- هل تعرف ما الذي يقتل المرء؟ عدم المعرفة، هذا ما يقتل المرء. ذهبت إلى سجن إيفين كل يوم، وكنت على يقين من أنني سأضطر إلى دفع ثمن الرصاص قبل أن أتمكن من استعادة جثثكم.

عضت الجلد بين إبهامها وسبابتها. قالت إنها لم تستطع البدء في الحداد على زاري بسبب عدم تأكدها من أحوالنا. انهارت في نوبة بكاء مريرة أخرى، وقالت:

- لم أستطع المضي قُدماً حتى أتأكد من مدى الخسارة التامة التي لحقت بحياتي. أفقدها كثيراً! أتمنى فقط أن أعرف لماذا فعلت ذلك. بدت مغرمة جداً بك. لم أكن لأتخيل ذلك ولو بعد مليون سنة.

أخبرتني بأنه كان ينبغي أن أعرف، وأني وزاري تحدثنا قبل أيام قليلة من حدوث كل ذلك، عن سقراط وكلسرخي. وأخبرتني كيف تحدثت عن الموت والانتحار عندما كنا نتناول الآيس كريم، وكيف غيرت الموضوع لأنني ظننته باعثاً على الاكتئاب.

قلت وأنا أمد يدي بعصية إلى كُمِّي:

- ربما لو كنت قد استمعت، لشككت في شيء ما.
أمسك أحمد يدي.

همس:

- لا تفعل ذلك.

توسلت إليّ فهيمة:

- لا تلم نفسك، لا يمكن لأحد التكهن بما نوت فعله من محادثة كهذه.
قال أحمد:

- لم أكن لأفسر أي شيء قالت زاري على أنه إشارة إلى ما كانت على وشك فعله. لقد جاء هذا الأمر بشكل مفاجئ.
- ثم وجه إليّ تحذيرًا حاسمًا:
- لا، لا يمكنك هذا، لا يمكنك أن تلوم نفسك.
- سألت:
- لماذا فعلت ذلك؟ قالت إنها تحبني. كيف يمكن للمرء أن يفعل هذا بشخص يحبه؟ لا أفهم.
- قلت إنني لا أفهم، لكنني تفهمت الأمر. فبقدر ما بدا تصرفها غير معقول، لكن لا بد أنها رأتها الطريقة الوحيدة لتصرخ بتحذيرها للشاه، وتقدم التضحية المطلقة من أجل الصالح العام: تصرف شبيه بتصرفات «الوردة الحمراء»، قرار سقراطي، لفئة بطولية، تدل على تفاهة الحياة من دون حرية.
- بعد الغداء، سألت كيف التقى أحمد وفهيمه بعد إطلاق سراح أحمد. هز رأسه وبدأ في الضحك، وحذت فهيمه حذوه.
- شرعت قائلة:
- لقد جاء إلى منزلنا، وفتح أخي الباب.
- توقفت عن الحديث، ونظرت إلى أحمد ليكمل.
- هز أحمد كتفيه.
- أنا سعيد للغاية لأنني لم أضطر إلى انتهاك عهدنا للرابطة المقدسة لجماعة الملاكمة.
- ابتسمت فهيمه وضربت أحمد على كتفه بظهر يدها، وقالت:
- إنه أخي العزيز. لم تكن تنوي ضرب ذلك الولد المسكين، أليس كذلك؟
- قال أحمد ساخرًا:
- لم يكن ولدًا عندما ضربني قبل بضعة أشهر.
- احتجت فهيمه ضاحكة:

- إنه مجرد صبي.

قال أحمد:

- على أي حال، من حسن حظ «الصبي» أنه ابتعد عن طريقي. كانت في منتصف الطريق إلى الباب حينها، وهي تصرخ وتصيح باسمي. يا إلهي، كان يجب أن تكون هناك! لقد أثارت ضجة كبيرة، وخرج الجميع من منازلهم لرؤية ما يحدث.

قالت فهيمة وهي تريني خاتم خطبتها ببهجة:

- بعد يومين، اجتمع أهلنا وأعلنوا للجيران أننا مخطوبان.

قلت وأنا أضغ ذراعَي حولها هي وأحمد في الوقت نفسه:

- لا أصدق أنني لم ألاحظ ذلك من قبل.

قال أحمد:

- لم نرغب في إقامة حفل خطبة من دونك. كما أننا أردنا الانتظار حتى

الذكرى السنوية الأولى لزاري.

سعدت جدًا من أجلهما. كانت هذه أول أخبار سارة أسمعها منذ عدة أشهر.

في طريقنا إلى منزل زاري، توقفنا عند البقعة التي زرعت فيها شجيرة ورد الدكتور.
همس أحمد:

- لقد تولى الجميع العناية بها. من أجل الدكتور ومن أجل زاري ومن أجلك.

هزرت رأسي في تقدير، وقلت:

- لن ندع هذه الشجيرة تموت أبدًا.

أكد أحمد قائلًا:

- لن نفعل.

وصلنا إلى منزل زاري، ومرت سلسلة من الصور في رأسي، بما في ذلك

اليوم الأول الذي قرعت فيه فهيمة الجرس ليبدأ صيفنا الرائع معًا. لن أنسى

أبدًا الابتسامة السعيدة التي ارتسمت على وجه زاري عندما فتحت الباب لأول

مرة. تعانقت هي وفهيمة، ثم نظرت نحونا وغمزت لنا قبل أن تعود إلى المنزل وتغلق الباب خلفها. من المؤلم للغاية معرفة أن زاري لن ترد على جرس الباب في ذلك المنزل مرة أخرى.

قرعت الجرس ويدي ترتجفان، وفتح والد زاري الباب. وقف في المدخل، وحدق إلى وجهي بعينين حزينتين. ألقى عليه التحية بتردد، فتقدم خطوة نحوي وعانقني بقوة إلى درجة أنني خشيت أن يسحق أضلعي. احتضني فترة طويلة، وشعرت بجسده يرتجف. عندما تركني، رأيت الدموع في عينيه. ثم تنحى جانباً ودخلنا إلى الفناء.

وبينما السيد نادري يغلق الباب، رأيت والد زاري تتقدم نحونا ببطء. مستها هي أيضاً فرشاة الزمن، فبدت التجاعيد على وجهها وشاب شعرها، تماماً كما أخبرني أحمد. بدت كامرأة عجوز مريضة لا تعاني جسداً مرهقاً ومتعباً فحسب، بل أيضاً روحاً مؤرقة ونفساً معذبة. توجهت إليها، فعانقتني، وشرعنا نبكي في أحضان بعضنا.

تردد صوت أمي في رأسي: لا يوجد ألم يضاهي ألم فقدان المرء أولاده. بعد بضع ثوانٍ، أمسكت أم زاري كتفي وأبعدتني عنها برفق لتحديق إلى عيني الدامعتين. ميزت آثار ملامح زاري في وجهها الحنون الذي يكسوه الحزن. تحت قناع الحزن، رأيت العينين الزرقاوين، والذقن المتناسق، وعظمتي الوجنتين الجميلتين.

مسحت والد زاري الدموع عن وجهي بأصابعها، وطلبت مني التحلي بالشجاعة. قالت:

- أنت أصغر من أن تحمل ألماً كهذا في قلبك فترة طويلة. يا عزيزي، يا ولدي العزيز، ليتك تعرف شعوري تجاهك وتجاه ما بذلته من أجل عزيزتي زاري. أومأت برأسي، وتذكرت الليلة التي رأت فيها ابنتها بين ذراعي على السطح. قالت السيدة نادري:

- عليك أن تنسى الماضي، وأن تركز على المستقبل.

عانقتني مرة أخرى، وهمست:

- أعلم أنك قوي بما يكفي للمضي قُدماً. اترك هذا البلد كما وعدت زاري بأنك ستفعل. يجب أن تذهب إلى الولايات المتحدة وتحصل على تعليم جامعي، لأن المتعلمين فقط هم من يستطيعون إنقاذ هذا البلد. وفي أثناء وجودك هناك، أخبر كل أمريكي بما فعله دعم حكومتهم غير المبرر لدكتاتور بالأمهات الإيرانية. أخبرهم بأن هذه الفظائع لن تنتهي حتى يتوقفوا عن دفع ثمن نفطنا بدماء أطفالنا. عدني بأنك ستؤدي دورك في تحرير شعبنا، لأنك مدين بذلك للدكتور وزاري.

أومأت برأسي بالإيجاب، لكنني لم أكن واثقاً في قرارة نفسي بأنني أستطيع مغادرة هذا الزقاق. ما أهمية حصولي على التعليم بعد زاري؟ كيف يمكنني الذهاب إلى الولايات المتحدة، البلد الذي دعم الرجل المسؤول عن موت ملاكي؟

مررنا بشجرة الكرز ودخلنا إلى المنزل. في الطريق إلى غرفة المعيشة، لاحظت وجود عدد من الصناديق في الردهة. سألت السيدة نادري:

- هل ستنتقلون إلى سكن جديد؟

أجابت:

- ليس قبل فترة، لكنني لا أطيق صبراً. يمكنك أن تتخيل كم كان من الصعب علينا الاستمرار في العيش في هذا المنزل.

ملأني الألم عند التفكير في وجود عائلة أخرى تسكن في المنزل الذي عاشت فيه زاري.

بدأت غرفة المعيشة تماماً كما أتذكرها من ليلة حفل كيفان. كانت صورة زاري والدكتور لا تزال على الرف. كدنا تبادل القبلات ونحن ننظر إلى تلك الصورة. حاولت إبعاد عيني عن الرف قبل أن انفجر بالبكاء.

غطت الأرضية سجادة كاشان رخيصة الثمن، وتوزعت حول الغرفة وسائد أسطوانية كبيرة فوق حصير تركماني صغير للجلوس. في إحدى زوايا الغرفة كان

هناك سماور يتصاعد منه البخار، وفوقه غلاية شاي. كما كانت هناك ستة فناجين شاي فارسية قديمة صغيرة ذات حلقات ذهبية باهتة حول قواعدها، موضوعة على صينية نحاسية بجانب كومة منتظمة من الأطباق المتطابقة. جعلت رائحة الشاي الطازج الغرفة تبدو مريحة ودافئة.

صبت لنا والدة زاري الشاي من السماور، بينما دخن السيد نادري سيجارته بهدوء. من طرف عيني، رأيت الملاك المُقنَّع في الردهة تهمس في أذن كيفان بشيء ما. لوححت والدة زاري إلى كيفان وقالت:

- تعالَ إلى هنا يا عزيزي. تعالَ ورحِّب بضيوفنا.

تقدم كيفان نحوي، وحثته والدة زاري:

- رحِّب به يا عزيزي.

رحب بي كيفان وعانقني، وأحاط عنقي بذراعيه الصغيرتين بقوة. بادلت العناق وهمست في أذنه بأنني اشتقت إليه. قال إنه اشتاق إليَّ أيضًا، ثم التفت ونظر إلى الملاك المُقنَّع، التي كانت في الردهة تعد صينية من الحلوى. جلس كيفان بجانبني ووضع مرفقه على فخذه ويده تحت ذقنه. أحطته بذراعي وضغطت على كتفيه عدة مرات. ابتسمت والدة زاري وقالت إن كيفان كان عونًا كبيرًا لابنة خالته ثريا، بينما كانت والدته المسكينة المفجوعة تتعامل مع الألم الذي لا ينبغي لأي أم الاضطرار إلى التعامل معه. هز كيفان كتفيه وابتسم، متفهمًا أن والدته تجامله.

قالت والدة زاري:

- الأولاد هم أغلى شيء في العالم، في رأيي.

ثم أدارت رأسها نحو السقف ودعت الله ألا يحرم أي والدين من فرحة تربية أولادهما.

أردت أن أسألها لماذا لم تفقد إيمانها بعدما فقدت ابنتها. تذكرت تلك الليلة على السطح عندما سألت والدي لماذا لا ينتقم الله من أولئك الذين يرتكبون الفظائع ضد الإنسانية، خصوصًا الصغار. كانت زاري جالسة تحت الجدار المنخفض تستمع إلينا في تلك الليلة. نظرت إلى صورتها على الرف، وشعرت

بعضلات صدري تنقلص حول قلبي. أردت أن أصرخ وأشد جلدي لأفسح بعض المجال للألم الذي يملأني.

بدأت السيدة نادري الحديث عن عائلة الدكتور، وقالت:

- والدته الآن في مصحة نفسية، ولا أمل في أن تتعافى من مرضها العقلي. أما والده فقد تُوفي قبل شهرين، رحمه الله. كان محظوظاً، في رأيي، فليس من الجيد أن يعيش المرء أكثر من أولاده. لا شيء أكثر إيلاًماً، لا شيء على الإطلاق. في الأشهر القليلة الماضية لم يكن يعيش حقاً، بل كان يتنفس فقط. الموت نعمة في مثل هذه الحالة.

هزت السيدة نادري رأسها، ومسحت الدموع من على وجهها.

دخلت الملاك المُقنَّع إلى الغرفة حاملة صينية ممتلئة بالحلويات. همست مُرَحَّبة، فنهضت أنا وأحمد وفهيمه لتحياتها. أشارت إلينا، وبإشارة من يدها طلبت منا الجلوس بينما تعانقت هي وفهيمه، وتبادلتا المجاملات. همست بصوت خافت جداً، إلى درجة أنني وجدت صعوبة في سماعها.

ابتسم السيد نادري بينما جلست الملاك المُقنَّع على وسادة على بعد سنتيمترات قليلة منه. همس إليها بشيء، فهزت رأسها بالنفي، ثم نظر إليّ. تمنيت معرفة ما دار بينهما للتو.

بدا صمت السيد نادري غريباً بكل تأكيد، وغير معهود بالنسبة إلى الرجل الثرثار والفلسفي إلى حد ما الذي عرفته ذات يوم. لطالما كان رجلاً طيباً، يتمتع بروح رقيقة، ومُبتلى بوجه قاسٍ يبدو أبعد ما يكون عن الود. لم تؤثر المحنة التي عاناها في جسده الأولمبي، وكان لا يزال يبدو بطل مصارعة مهيباً، بأذنين مكسورتين ووجه تعرض للاحتكاك بالحلبة أكثر من اللازم. اعتاد هو ووالدي الحديث عن مبارياتهما وخصومهما بالتفصيل. لطالما استمتعتُ بقصص السيد نادري المثيرة التي كان يرويها بصوته العميق الخشن. ياله من تناقض صارخ بين سلوكه الحالي، وسلوك البطل السابق المرح الذي كان عليه قبل بضعة أشهر! قالت والدته زاري إن الملاك المُقنَّع تعاني نزلة برد شديدة لا تزول.

- المسكينة فقدت صوتها، وتسعل طوال الليل. يجب أن تذهب إلى الطبيب.
لكن الشباب عنيدون للغاية، ويظنون أن بإمكانهم التغلب على كل شيء.
بارك الله فيها، لا يمر يوم لا أحرق فيه الإسبند من أجلها لإبعاد الأرواح
الشريرة! لا أعرف ماذا كنا سنفعل من دونها.

أدركت من حركة عيني الملاك المُقنَّع خلف الفتحات الصغيرة في برقعها
أنها تنظر إليّ. كانت هذه هي المرّة الأولى التي تراني فيها عن قرب. لا بد أنها
شعرت بالفضول تجاه الفتى الذي أحبه صديقتها المقربة وابنة خالتها. شعرتُ
بتوتر واضح في سلوكها، وكدت أقسم إنها ترتجف تحت نقابها. همس إليها
السيد نادري بشيء ما مرة أخرى، فردت عليه هامسة.

يبدو أنهما مقربان للغاية من بعضهما. لا بد أنها تملأ الفراغ الذي تركه موت
زاري في حياته. كان الرجل المسكين مولعًا بابنته، ودائمًا ما أشار إليها بوصفها
السبب الذي يحيا من أجله. كانت مركز كونه، الشمس التي تضيء أيامه والقمر
الذي يضيء لياليه المظلمة. في المساء، عندما كان يعود من العمل إلى المنزل،
كانت زاري تهرع إلى الباب وتشبك ذراعيها حول عنقه مفتولة العضلات لتحضنه،
وكان ذلك كافيًا ليشعر بالراحة والاطمئنان. وفي عصر يوم الجمعة، كانت زاري
تحضر إليه الشاي في الفناء بينما يجلس بجوار الحوض في ظل شجرة الكرز
ويقرأ الجريدة. دائمًا ما كان يتحدث عن أحلامه بأن يصبح له أحفاد. كان يقول:
- أريد حفيدين. سأعلمهما المصارعة لمواصلة تقاليد العائلة. المصارعة

هي أفضل رياضة في العالم!

والآن رحل الشخصان اللذان كان بإمكانهما تحقيق أحلامه. ربما تستطيع
الملاك المُقنَّع أن تمنحه يومًا ما تجربة قريبة مما كان سيحظى به مع زاري.
كررت السيدة نادري قائلة إن ثريا كانت السند الذي حافظ على الأسرة من
الانهيار، ودعت مرة أخرى:

- اللهم لا تحرم أحدًا من فرحة تربية أولاده، واللجنة على شيطان الشرق
الأوسط، خادم الغرب، ومدمر حياة الشباب.

طأطأنا رؤوسنا جميعاً في صمت. ثم تنهد السيد نادري وأشعل سيجارة أخرى.
شعرت بالحزن الشديد إزاء احتمالية أن يحتل شخص آخر منزلهم، فسألت:
- هل لي أن أسأل إلى أين ستنتقلون؟
- إلى بندر عباس.

انقبض قلبي. كانت الحكومة تنفي موظفيها المتمردين إلى بندر عباس، وهي
مدينة على الخليج الفارسي تشتهر بالحرارة والرطوبة اللتين لا تطاقان.
سأل أحمد:

- لماذا بندر عباس؟

نظرت السيدة نادري إلى زوجها، لكنها لم تقل شيئاً. أجبت بهدوء، على
الرغم من غضبي الشديد من فكرة وجودهم في المنفى:
- مَنْ سينسى زاري إذا استمرت عائلتها في العيش في هذا الزقاق؟
فهم أحمد الأمر فجأة، وبدا محرجاً من سؤاله.
قلت:

- لكن السافاك مخطئ. لن ينساها أحد على أي حال، لا هي ولا الدكتور.
الناس في هذا البلد لا ينسون، ولا يغفرون أبداً.

امتلاأت عينا السيد نادري بالدموع، وتجمدت عيناه اللتان يملأهما الألم على
وجهي وهو يطفئ سيجارته ويشعل أخرى.

تمنيت لو أنني أملك الشجاعة لأخبرهم عن نفسي وعن زاري، لكن الحب شأن
خاص، وخزانة القلب لا تُفتح بسهولة، ولا يُكشف كنز الحب. لطالما تساءلت
لماذا يتسم واقعنا بالتحفظ في المشاعر عندما يتعلق الأمر بأفراد الجنس الآخر،
على الرغم من العاطفة المتقدمة التي تتمتع بها كأمة تمتلئ أشعارها بتصريحات
الحب. فعلى الرغم من أن السيدة نادري رأتني أنا وزاري في أحضان بعضنا، فإنها
لن تتحدث عن ذلك أبداً، ولا أنا أيضاً. لا يهم أن ابنتهما كانت محور كوني، أو
أنني حزنْتُ على فقدانها في كل لحظة من لحظات اليقظة خلال الأشهر القليلة
الماضية. بعض الأشياء يجب أن تبقى حبيسة في قفص الروح.

نظرت نحو الملاك المُقنَّع، وأدركت أنها لا تزال تنظر إليَّ. رمشت عيناها
بسرعة خلف الدانتيل الداكن في مقدمة برقعها. ذكرتني عيناها بعيني ملاكي، إلا
أنهما لم تكونا باسمتين مثل عينيها.
جلسنا في تلك الغرفة لساعات من دون أن نتكلم كثيرًا، مستمدين العزاء من
حقيقة أننا نتقاسم الألم نفسه. وللمرة الأولى منذ وفاة الدكتور، أصبحنا قادرين
على الحزن معًا.

عينا ملاك

كان الطقس ربيعياً دافئاً على غير العادة بالنسبة إلى هذا الوقت من العام، منتصف شهر إسفند، نهاية فبراير، لكن أُمِّي أَصْرَتْ على أن أرتدي ملابس شتوية دافئة عند خروجي، وقالت:

- يمكن لهذا الطقس أن ينقلب من دون سابق إنذار، فيكون دافئاً في لحظة، ثم يبدأ الثلج في التساقط فجأة.

أخرجت زجاجة من مشروب عشبي من خزانة الأدوية الخاصة بها، وأصرت على أن أتناول ملعقتين صغيرتين كاملتين منه.

- سيقوي هذا الشراب جهازك المناعي الذي ضعف في الأشهر القليلة الماضية.

من الجيد معرفة أن بعض الأشياء لا تتغير أبداً. عرف الجميع أنني خرجت من المستشفى، وأرادوا كلهم المجيء لرؤيتي، فقررُوا القدوم لزيارتي في نهاية هذا الأسبوع. انشغلت أُمِّي بتجهيز المنزل، وأخذت تنفض الغبار وتكنس وتغسل الملاءات، وتحاول أن تدبر أين سينام الجميع، وماذا ستقدم لهم في كل وجبة. ذكرت أسماء الضيوف من دون أن تعدهم:

- السيد والسيدة كسروي، وعمتاك وعماك، والسيدة مهربان، وجدك وجدتك لوالدك، أيًا كان عددهم.

قال والدي:

- هؤلاء تسعة.

وبخته وعلى وجهها نظرة قلق:

- لا تعد! ألا تعلم أن عدد الناس أمر مشؤوم؟

سألها والدي، وهو يهز رأسه في ضيق:

- لماذا؟

- لا أعرف، الأمر هكذا فحسب.

ثم التفتت إليّ وقالت:

- جميعهم قادمون لرؤيتك، ألسنت متحمسًا؟

قلت:

- بلى، أنا متحمس.

لكنني تمنيت أن أعرف لماذا يشعر الناس بالحاجة إلى زيارة شخص مريض. عندما لا أشعر بأنني على ما يرام، فإن آخر ما أحتاج إليه هو أن يخبرني الناس بأنني أبدو بخير، وأن كل شيء سيكون على ما يرام. ستقودني الابتسامات والضحكات المصطنعة إلى الجنون.

بدا والدي عصبيًا ومضطربًا على غير عادته. لاحق أمي من دون أن يساعدها، ولاحظت أنه يثير أعصابها.

سألها ثلاث مرات على الأقل:

- هل لدينا ما يكفي من الفودكا؟ سيكون هناك كثير من الشرب والاحتفال الليلة. سنشرب جميعًا، بمن في ذلك باشا.

تذكرت المرة الأخيرة التي شربت فيها الفودكا - ليلة جنازة الدكتور - ولم تبد لي الفكرة احتفالية.

قالت أمي:

- نعم، هناك كثير من الفودكا.

- هل ستأتي السيدة مهربان؟

- نعم، لقد أخبرتك بذلك بالفعل.

- هل تحدثت معها شخصيًا؟

رمقت والدي بنظرة غاضبة، لكنه تابع:

- هل أكدت أنها قادمة أم قالت إنها ستفكر في الأمر؟

استدارت أُمِّي ونظرت إلى والدي وهممت بقول شيء ما، لكنها تراجعَت. وبدلاً من ذلك رمت بذراعيها في الهواء، وتمتعت بشيء ما، وابتعدت. تساءلتُ لماذا يشعر والدي بالقلق الشديد بشأن السيدة مهربان.

قال والدي وهو يتوجه نحو الثلاجة:

- حسنًا إذن، سأذهب لأتأكد أن لدينا ما يكفي من الفودكا.

وصلت عمّتي وعمّاي وجدّاي لوالدي قبل الظهر ببضع دقائق. عانقوني وقبّلوني وأخبروني عن مدى سعادتهم بعودتي إلى المنزل مرة أخرى. قالوا إنني أبدو رائعًا، وسرعان ما سأبدو أفضل بفضل طبخ أُمِّي الرائع.

كانت عمّتي وعمّاي جميعهم في الثلاثينيات من العمر، لكن عمّتي متين هي الوحيدة المتزوجة. وهي أضخم امرأة في عائلتنا، وأطيب امرأة على وجه الأرض. تُوفي زوجها الأول بشكل مأساوي بعد أربع سنوات من زواجهما في حادث سير في أثناء زيارة ضريح الإمام الرضا. وظلت عمّتي متين أرملة لمدة عشر سنوات، لكنها وقعت في الحب مرة أخرى في نهاية المطاف، وتزوجت السيد جمشيدي، وهو رجل في منتصف العمر يمتلك مصنعًا للألبان في مدينة مشهد شمال شرق إيران. وبعد عام واحد من زواجهما، اكتشفت أن السيد جمشيدي متزوج بالفعل. بكت ليلاً ونهارًا، وهددت بقتله، وطلبت منه الطلاق، بل وحبسته خارج المنزل بضعة أيام. ومع ذلك، قررت في النهاية أن الزواج برجل متزوج بامرأتين ليس سيئًا تمامًا، ما دام يحبها ويحترمها ويخلص

لها. لذلك أخبرت عمتي متين السيد جمشيدي بأنها إذا ما ضبطته مع زوجته الأولى فإنها ستختنه شيئاً فشيئاً حتى يصبح مخصياً. قال جميع أفراد العائلة إن السيد جمشيدي هو أكثر الرجال إخلاصاً في هذا الكوكب، ليس لأنه لا يحب النساء، لكن لأنه يعرف أن عمتي سيدة جادة لديها سكاكين حادة للغاية في خزانة مطبخها.

أما عمتي مريم، فهي امرأة جميلة ذات ملامح تبدو أوروبية أكثر من كونها إيرانية. وفي غياب جدي وجدتي، يسخر منها شقيقاها قائلين إنها ابنة غير شرعية، ربما كانت من نسل الجنود الروس الذين احتلوا الشمال خلال الحرب العالمية الثانية. دائماً ما تهز عمتي مريم رأسها وتضحك. فهي تتمتع بروح الدعابة، ولطالما أحببتها كثيراً. وتكاد عمتي مريم تكون دائمة الجدال، بل وأحياناً ما تكون عدائية تجاه أخيها، عمي منصور. لا يتحدثان لمدة أشهر في بعض الأحيان، وعلى الرغم من أنهما يعيشان في الزقاق نفسه، فإنهما يتجنبان بعضهما بأي ثمن.

من الممتع مشاهدتهما وهما يتجادلان، لأن الفرصة لا تسنح لأيٍّ منهما لإنهاء جملة واحدة. لذا عندما يتشاجران الآن، وبدلاً من التحدث، يكتبان رسائل إلى بعضهما، ويقرآنها على جميع أفراد العائلة قبل إرسالها إلى الشخص المعني. تبدأ رسائلهما دائماً بالتعبير عن الحب، لكنها سرعان ما تتحول إلى مكاشفات مريرة عن التضحيات التي قدمها أحدهما من أجل الآخر.

كتب عمي منصور ذات مرة: «أختي العزيزة، سمعت أنك أخبرت الجميع بأنني لا أحبك. هراء! أنت تعلمين أنني أحبك، ولطالما أحببتك، ولكنني لن أحبك أبداً بعد الآن. في الواقع، ما من أخ - وأعني ما من أخ في العالم - يمكن أن يحب أخته بقدر ما أحببتك! أتذكرين عندما استؤصلت لوزتاك، وكنّ في الفراش تبكين طالبة الآيس كريم؟ من الذي ركض ستة كيلومترات تحت المطر ليحضره إليك؟ وهل تذكرين المرة التي التوى فيها كاحلك في طريق عودتك

من المدرسة إلى المنزل؟ مَنْ الذي حملك إلى المنزل على ظهره؟ ألا أطمئن عليك دائمًا، وأسألك إن كنتِ بحاجة إلى أي شيء عندما أذهب إلى السوق؟ هل سبق لكِ أن فعلت أي شيء من أجلي، أو من أجل أي شخص آخر؟ أنتِ أنانية جدًّا، ولن أحبك مرة أخرى!».

ردت عمتي مريم برسالة خاصة بها، وكتبت إليه: «أخي العزيز منصور، أنت لم تحب أحدًا قطُّ سوى نفسك. أنت الأناني. لقد ضحيت بحياتي من أجلك: أصلحتُ ملابسك، وطبخت لك، ونظفت لك، وغسلت لك الأطباق. يمكنني أن أملأ كتابًا يسرد ما فعلته من أجلك. ربما كتابين! لن أفعل أيًّا من هذه الأشياء من أجلك مرة أخرى لأنك أناني ولا تفهم حب الأخت. يا لسوء حظك! وداعًا إلى الأبد. لن يسمع أحد اسمك من شفّتي مرة أخرى، لا أحد. سأنسى أنه كان لي أخ اسمه... حسنًا، أيًّا كان اسمك! وداعًا».

دائمًا ما يتدخل شخص ما بالطبع، ويتبادل الاثنان القبلات ويتصالحان، ويتعاهدان على عدم مناقشة هذا النزاع الأحمق مرة أخرى. يقول عمي منصور:

- ما فات مات.

فتوافق عمتي مريم على ذلك:

- ما مضى ذهب وانقضى.

- وحده الأحمق مَنْ ينكأ جرحًا قد التأم بالفعل.

- مَنْ منا لم تتشاجر مع أخيها؟ الشجار هو ملح الحياة، وكمية قليلة منه تجعل الحياة أكثر لذة!

بمضيان كأن شيئًا لم يحدث، حتى المرّة التالية التي يتشاجران فيها، ثم تطفو كل المشكلات القديمة على السطح مجددًا.

يبدو عماي كأنهما توأمان، على الرغم من أن الفارق بين ولادتهما سنتان. لدهما شاربان كثيفان يطابقان سواد شعرهما الداكن. كما أنهما ضخمان ومفتولا العضلات، وكثيرًا ما يقعان في مشكلات مع الشرطة المحلية في نوسهر، البلدة



telegram @
yasmeenbook

التي يعيشان فيها، لأنهما يتشاجران مع الغرباء طوال الوقت. يقول والدي إن عمِّي هما صورة لما كان عليه جدي في شبابه. أما الآن، فهو بالطبع رجل هادئ ونحيل يمشي بمساعدة عكاز، ويرتدي دائمًا بدلة رمادية اللون. كان ناشطًا ثوريًا في عهد مصدق، وكان يكره الشاه و«سياساته الإصلاحية الزائفة» التي لم تؤدَّ إلا إلى تعزيز مكانته كصوت استبدادي وحيد في إيران. وكان جدي، مثل الكثيرين من أبناء جيله، يكره البريطانيين بشدة تجعل وجهه يحمر كلما ذكر أحدهم اسم تشرشل.

كان يقول عن رئيس الوزراء البريطاني:

- لقد نظر ذلك الاستعماري اللعين إلى الهنود بالطريقة نفسها التي نظر بها هتلر إلى اليهود. ولو أُتيحت له الفرصة، لكان قد أحرق الهنود كما فعل هتلر باليهود!

وباعتباره ملحدًا، كره جدي أيضًا المؤسسات الدينية. في كل مرة يدور فيها نقاش حول الدين، كان يقول:

- أرني رجل دين نزيهًا، وسأريك ظربانًا لا تفوح منه رائحة كريهة.

دائمًا ما يضحك والدي على تصريحاته.

- الحمد لله أنه يكره الجميع على حد سواء: الملالي والقساوسة والرهبان والحاخامات والسياسيين.

وكان جدي يهمس بمرارة في كل مرة تصلي فيها جدتي:

- لا يوجد إله، ألم تتعلمي ذلك بعد؟ حاول ماركس أن يخبر الجميع بذلك، لكن القليل منا فقط استمعوا.

وفي كل مرة يتفوّه فيها جدي بشيء ينطوي على التجديف، تعض جدتي الجلد بين إبهامها وسبابتها من دون أن تنظر في اتجاهه. فقد عاشت معه فترة أطول من أن تظن أنها يمكنها التأثير في معتقداته.

لا يشاهد جدي التلفزيون أبدًا أو يستمع إلى الأخبار في الراديو. يقول والدي إن لديه مجموعة من المجلات والصحف من عهد مصدق يحرق عليها ويفديها

بحياته. في كل صباح يخرج إحدى الصحف من الصندوق المجاور لفراشه ويقرأها من أولها إلى آخرها، كأنها خرجت للتو من المطبعة. تساءلتُ كم مرة قرأ كل مقالة حتى الآن.

قَبْلَ جدي عَيْنِي المغمضتين، ثم جلس على كرسي بجانب الساعة الكبيرة التي لم تعمل منذ سنوات، وطلب من جدتي كوبًا من الشاي. طلبت أُمي من جدتي أن تجلس في مكانها، وهرعت إلى المطبخ لتحضر الشاي والحلويات والفواكه. نظر جدي إلى الساعة التي بجانبه، فهمست إليه بأن الوقت غير صحيح. نظر إليّ، ثم نظر إلى الساعة مرة أخرى، لكنه لم يقل شيئًا. بعد بضع ثوانٍ، سمعته يهمس قائلاً:

- إنه ليس خطأ، لكنها تظهر وقتًا مختلفًا فحسب!

كررت جدتي ويذاها ترتعشان وهي تمدهما لتلمس وجهي:

- الحمد لله على عودتك، الحمد لله أنك بخير.

تمتم جدي بشيء ما، كما يفعل في كل مرة تذكر فيها جدتي الله، وضحك أبي وعماي. ثم استدار جدي ونظر إلى الساعة الكبيرة المعطوبة مرة أخرى. تركزت عليّ كل الأنظار، ولم يعجبني ذلك. أدركت من أعين الجميع أنهم يشعرون بالحزن بسبب هزال مظهري، لكن لم يرد أحد أن أعتقد ذلك. في كل مرة لمحت أحدهم ينظر إليّ، ابتسموا وحاولوا أن يبدووا سعداء، باستثناء عمتي متين، التي أخفت وجهها حتى لا أرى دموعها.

عندما بدأ الجميع في شرب الشاي، رن جرس الباب ودخل السيد والسيدة كسروي إلى الفناء. حمل السيد كسروي بين ذراعيه شبنم، زوجتي المستقبلية. هرع الجميع إلى الباب وأحدثوا صخبًا مبهجًا من خلال حديثهم جميعًا في الوقت نفسه.

- كيف كانت الرحلة؟

- جيدة.

- يا إلهي، لا بد أنكم متعبون!

- يا له من طريق شاق. لو أن أحدهم أضاف بضعة مسارات إلى ذلك الطريق السريع اللعين، لما استغرقت الرحلة نفسها أكثر من تسعين دقيقة. تدخل عمي منصور قائلاً:

- من المزمع أن يشق ابن أخي طريقاً سريعاً من أربعة مسارات يربط طهران بنوشهر.

- أراد مصدق فعل ذلك، قبل أن يدبر الأمريكيون والبريطانيون انقلاباً.

- أجل، إنها رحلة متعبة، متعبة للغاية.

- ادخلوا، ادخلوا! الشاي جاهز.

أنزل السيد كسروي شبنم وعانقني، وسألني:

- كيف حالك يا ولدي؟ حقاً، كيف حالك؟ كنت أتصل كل يوم لأطمئن عليك. أنا سعيد جداً بعودتك، سعيد حقاً!

نظرت إليّ جلي جان، وبدأت في البكاء، وقالت:

- لقد فقدت كثيراً من وزنك! من الأفضل أن تأتي لزيارتنا قريباً. هواء الجبل النقي سيفيدك كثيراً.

قاد والدي الطريق إلى غرفة المعيشة، وتبعه الجميع. وبينما نحن نسير في الفناء، نظرْتُ إلى الأعلى ورأيت الملاك المُقنَّع في شرفة الطابق الثالث. تراجعت بمجرد أن أدركت أنني لمحتها. في غرفة المعيشة، جلست عمتي متين بجانبني، وأحاطت كتفي بذراعها، وهمست:

- كيف تشعر يا عزيزي؟

قال عمي منصور بصخب:

- إنه بخير. انظري إليه، إنه فتى قوي.

قال السيد كسروي:

- نعم، إنه كذلك بالفعل، صهري المستقبلي قوي جداً بكل تأكيد.

نظرت عمتي متين إلى جسدي الهزيل وهزت رأسها وهي تحاول حبس دموعها.

وبخها عمي منصور قائلاً:

- لا تفعل ذلك، سيعتقد الفتى أن به خطباً ما.

قال عمي مجيد:

- نعم، سرعان ما سيعود إلى الملاكمة.

قاطع عمي منصور عمي مجيد، وأعرب عن سعادته لأنني تعلمت أساسيات الملاكمة من والدي، وقال إنه يعتزم الآن تعليمي المهارات المتقدمة. ضحك الجميع، بمن فيهم والدي. ثم قال عمي منصور إنني بينما أدرس الهندسة المدنية في الجامعة في الولايات المتحدة، وأضع الخطط لبناء طريق سريع على الطراز الأوروبي بأربعة مسارات يربط بين طهران ونوشهر، سأضرب خصومي في الحلبة حد الموت. وظهرت ابتسامة عريضة على وجهه.

أخبرتني عمتي مريم بأنها تحبني، وأنها لا تطيق الانتظار حتى تستضيفني في منزلها لتقدم لي الكباب والأرز والخضراوات الطازجة والزبادي المصنوع في المنزل وسلطتها الخاصة من الخيار والملح والفلفل والنعناع، يلي ذلك بعض من شاي لاهيجان اللذيذ. وحينها سأكون مستعداً للعب التنس. أجل، التنس، لأن الملاكمة رياضة الحمقى وأنا أذكى من أن أسير على خطى إخوتي المجانين الذين يفتخرون بضرب الناس. طلبت مني أن أنسى كل ما علمني إياه والدي، وأستعد لدروس التنس التي ستدفع ثمنها من مالها الخاص. استغلت أمني هذه الفرصة لترمق والدي بنظرة غاضبة، تجاهلها تماماً. وتبع ذلك جدال حاد مع عمتي مريم التي هزت رأسها وإصبعها بقوة.

أخذ الجميع يتحدثون في الوقت نفسه، ولم يبدُ أن أحداً يستمع إلى أي شخص آخر.

راقب والدي الجميع من دون أن يقول أي شيء. وأدركت من نظرة القلق التي تعلقو وجهه وتكرار نظراته نحو الباب أنه ينتظر بفارغ الصبر وصول السيدة مهربان. لكنني ظللت لا أفهم سبب تلهفه الشديد لرؤيتها.

قالت عمتي مريم لأخويها:

- انظرا إلى أنفيكما، كلاكما! هل لديكما أي فكرة كيف بكت أمنا عندما رأت أنفيكما المكسورين؟

نظرت جدتي إلى ابنيها وهزت رأسها، وتمتمت بالدعاء، فhez جدي رأسه وهمس بكلمات نابية، مما دفع جدتي إلى عض الجلد بين إبهامها وسبابتها. قال عمي منصور:

- ليس من العار أن يكون للرجل أنف قبيح مكسور، فليس من المفترض أن يكون الرجل جميلاً.

صاحت عمتي مريم:

- أوه، بالله عليك!

قال عمي منصور:

- إلى جانب ذلك، لا يمكن لأحد حتى أن يلاحظ أن أنفي مكسور! انظري، يبدو الأمر كأنني ليست لدي عظمة هناك.

وضع إصبعه على طرف أنفه وضغط عليه، فاقتربت فتحتا أنفه من بعضهما، مما جعله يبدو كرجل عجوز، فبدأت في الضحك. لاحظ الجميع أنني أضحك، وانضموا جميعاً إليّ وعلى وجوههم تعابير الارتياح. خرجت أُمي من المطبخ ومعها مزيد من الشاي.

رن جرس الباب مرة أخرى، ودخلت السيدة مهربان. مثل والدة زاري، بدت أكبر بكثير مما أتذكرها. صار المزاج العام في المنزل كثيباً بمجرد دخولها، لكن والدي تحمس لرؤيتها، وهرع قبل الجميع لتحيتها. قال:

- أنا سعيد جداً لأنك هنا. قلقت بشدة من أن تكوني قد قررت عدم المجيء.

تجاهلت والدي تماماً وتقدمت بين الحشد نحوي، وقالت:

- يجب أن أرى باشا أولاً، سأراه أولاً.

ثم عانقتني وهمست:

- كيف حالك يا عزيزي؟ لقد افتقدناك كثيراً. كنت أدعوك بالسلامة كل يوم.

أتمنى لو كان مهربان هنا لرؤيتك أيضاً. لا أعرف إن كان أحد قد أخبره في

السجن. كنت سأخبره بنفسي، لكنهم لا يسمحون لي برؤيته. لن يخبروني حتى أين هو. أوه، لقد حاول والدك المسكين جاهداً الحصول على بعض المعلومات، لكنهم يرفضون إخبارنا بأي شيء.

قلت:

- آمل أن يطلقوا سراح عمي مهربان قريباً.

عانقتني السيدة مهربان مرة أخرى، وهمست:

- يا إلهي، آمل ذلك يا بُني، آمل ذلك حقاً.

في تلك اللحظة، وصل أحمد وفهيمه. قال والدي بفرح:

- انظروا، لقد دخل عريسنا وعروسنا اللذان سيتزوجان قريباً!

هرع السيد كسروي قبل الجميع لتحيتهما، وعاد الضجيج الفوضوي الذي أحدثه الجميع وهم يتحدثون في الوقت نفسه. قُدِّمت فهيمه إلى الجميع، وتناوبوا على عناقها والترحيب بها في المنزل. شكر عمي مجيد فهيمه على شفقتها حيال شاب مثل أحمد، الذي يمكنه عد عيوبه على أصابع اليد الواحدة. عد واحداً واثنين وثلاثة وأربعة وخمسة على أصابع يد واحدة، ثم ستة وسبعة وهكذا باستخدام اليد نفسها. ضحك الجميع، وأحاط عمي مجيد أحمد بذراعيه، وقال لفهيمه إنها فازت بواحد من أفضل الشباب في العالم. ابتسمت فهيمه وشكرته. عانقت فهيمه، وعندما بدأنا السير نحو غرفة الجلوس، نظرتُ إلى السطح ورأيت أن الملاك المُقنَّع قد عادت إلى شرفة الطابق الثالث.

داخل المنزل، أخبرت السيدة مهربان فهيمه بأنها سعيدة جداً بإطلاق سراح أحمد.

- أعلم مدى صعوبة الابتعاد عن الشخص الذي تحببته أكثر من أي شخص آخر. يعلم الله أنني مررت بذلك. في المرة الأولى التي أخذوه فيها، كنت شابة وكان هو أيضاً شاباً. امتلأنا بالخطط المثالية، وبدأ المستقبل كأنه طريق لا نهاية له. لكن الأمر مختلف هذه المرة. لقد تقدم بنا العمر، وأصبحنا بحاجة ماسة إلى رفقة بعضنا.

اندهشت من أن السيدة مهربان ألفت هذا الخطاب الطويل من دون أن تذرف أي دموع. لقد جعلها مرور الوقت أكثر صلابة إلى حدٍّ ما. أحضر والذي زجاجة فودكا، وقال إن الوقت قد حان للاحتفال. صب الشراب لجميع الرجال ورفع كأسه قائلاً:

- نخب عودة ابني.

ثم التفت إلى أحمد وفهيمه وأضاف:

- ونخب خطبة ابني الآخر.

شربنا جميعاً، ونظرت أُمِّي بقلق إليَّ وإلى أحمد. أدركتُ أنها تعتقد أننا أصغر من أن نشرب الخمر، لكنها لم تكن لتقول أي شيء من شأنه أن يحرجننا. جعلني مذاق الفودكا المر أرتعد، وذكّرني مرة أخرى بليلة جنازة الدكتور. ضحك الجميع على تعابير وجهي. ملأ أبي الكؤوس مرة أخرى على الفور وقال:

- هذه المرّة نشرب نخب عودة مهربان.

تناولنا مشروباتنا جميعاً.

انضمت النساء إلى والدتي في المطبخ لمساعدتها على تقديم الغداء. نادى والدي والدتي في الردهة، وسأل بعصبية ما إذا كان الوقت مبكراً جداً لتقديم الغداء. رمقته أُمِّي، التي لم يسبق لوالدي أن تدخل في شؤونها، بنظرة غاضبة وابتعدت. تفقد والدي ساعته، وأدرك أنه لا يرتدي واحدة. ثم نظر إلى الساعة الكبيرة المعطوبة وتمتم بشيء ما بصوت هامس.

سألت أبي إن كان هناك خطب ما، فأجاب بأنه لا يوجد، وبالطبع ازدادت شكوكي بسبب إنكاره. لكن ماذا يمكن أن يكون الأمر؟ جعلني سلوكه غير المعهود أَسْأَل عما إذا كان يتعاطى نوعاً من المخدرات.

تذمر أبي من أن الوقت مبكر جداً لتقديم الغداء، وهو قرار منزلي ما كان ليتدخل فيه في الظروف العادية. رد الضيوف بأنهم جائعون.

اعترض عمي مجيد قائلاً:

- الساعة الثانية بعد الظهر تقريباً.

- حقًا؟

نظر أبي إلى معصمه الفارغ مرة أخرى، ثم عاد إلى الغرفة وملاً كؤوس الجميع، ورفع كأسه قائلاً:
- نخب الصداقة.

تناول الجميع مشروباتهم.

سألني أبي كم الساعة الآن. هذه المرة نظرت مباشرة في عينيه لأرى ما إذا كان بإمكانني اكتشاف مرض ما. هل هو مرهق؟ هل فقد عقله؟ هل هو ثمل بالفعل؟ تمنيت ألا يكون مريضاً فحسب. رن جرس الباب، كأنه يرد على تساؤلاتي. طلب مني أبي أن أذهب إلى الفناء لفتح الباب، ثم هرع إلى المطبخ ليطلب من الجميع الخروج لأن لدينا ضيفاً جديداً.

بينما أسير نحو الباب، التفت وألقيت نظرة لأرى ما إذا كانت الملاك المُقنَّع لا تزال في شرفة منزل زاري، لكن لم يكن أحد هناك.

فتحت الباب، وصدمت برؤية السيد مهربان في الزقاق. اندفع إلى الأمام وعانقني بقوة كما فعل والد زاري عندما زرنا منزلهم. عمّ الهرج والمرج داخل المنزل، وبدأ الجميع الصراخ من فرط الحماسة وهرعوا نحو الباب.

كانت السيدة مهربان هي أول من يصل إلينا. ابتعدت عن الطريق، بينما ارتمتي الزوج والزوجة في أحضان بعضهما. صار الجميع في الفناء الآن، يتحدثون في الوقت نفسه، باستثناء والذي الذي راقب المشهد بهدوء من الشرفة في الطابق الأول. من الواضح أنه كان يعلم أن السيد مهربان سيطلق سراحه اليوم، وتلاشت النظرة المحمومة في عينيه. راقبته فترة طويلة. لم يعلم أنني أراقبه، كما لم يعلم أيضاً أنني أتمنى أن أكون مثله يوماً ما.

بينما حاول الآخرون احتضان السيد مهربان، جلست السيدة مهربان على الأرض وبكت.

صاحت وهي تضرب على صدرها:

- الحمد لله، الحمد لله! لم أعتقد قط أنني سأرى هذا اليوم.

عانقتها أُمِّي وأخبرتها بأن عليها أن تضحك لأن رَجُلها آمن وحر. لكن السيدة مهربان وقعت في نوبة من المشاعر التي لن تهدأ سريعًا. عانق السيد كسروي السيد مهربان، وأخبره بأنه سعيد برؤية صديقه القديم سالمًا معافى. قالت جدتي إننا بحاجة إلى حرق بعض الإسبند لإبعاد الشيطان، وربما جدي بنظرة غاضبة.

وأخيرًا، تعانق أبي والسيد مهربان. ضحكا وتهامسا معًا، بينما كانت السيدة مهربان لا تزال جالسة على الأرض، تهتز برفق وهي تبكي. ارتجفت يداها، وارتعش حاجباها، وتلعثمت باكية.

نظرتُ نحو السطح، واكتشفت أن الملاك المُقنَّع قد عادت إلى موقعها في شرفة الطابق الثالث. هل تعرف ما الذي يحدث، وهل تبكي هي أيضًا؟ بمجرد أن أدركت مرة أخرى أنني أنظر إليها تراجعت إلى الظل.

دخلنا جميعًا إلى غرفة المعيشة، وظل والدي يردد:

- هذا أفضل يوم في حياتي. أعز أصدقائي هنا، وعائلتي هنا.
وأشار إليّ وإلى أحمد وأضاف:

- وابنائي هنا.

صب أبي مزيدًا من الفودكا للجميع، وشرينا جميعًا نخب السيد مهربان. جرع السيد مهربان شرابه، ومسح شاربه الكثيف بكمّ معطفه، ونظر إلى زوجته وهو يعرض على شفّتيه ليحبس دموعه. بدأت جميع النساء في البكاء أيضًا، بينما أدار الرجال رؤوسهم بعيدًا بأدب. سمعت جدي يهمس بشيء مفاده أن محتتنا بسبب البريطانيين الملاحين.

لم ترفع السيدة مهربان عينيها عن زوجها، وهمست بالدعاء وهي تمسح دموعها. كسر أبي الصمت بسؤال السيد مهربان عن حاله. هز رأسه وهمس بأنه بخير، ثم انفجر في نحيب مرير. أعرف هذا النحيب، أتذكره منذ أيامي في المستشفى. ذلك النحيب يُنبئ عن قلب كسير وروح محطمة، عن ألم أعنف من أن يُعبّر عنه إلا بلغة الدموع المختنقة. تمنيت أن يسكب لنا أبي شرابًا آخر!

لم يُعَدُّ مذاق الفودكا المر يزعجني، ورحبت بمفعولها المخدر لأعصابي، تمامًا كما كانت الحال في ليلة جنازة الدكتور.

بدأ أحمد متأثرًا بكل ما حدث في منزلنا الصغير اليوم، وانهر بالسيد مهربان. سعدت لأنه أُتيحت له الفرصة أخيرًا لمقابلته، وكنت متأكدًا أن لديهما كثيرًا من الأفكار لتبادلها بوصفهما رجلين سُجنا ظلمًا.

سألته السيدة مهربان بصوت مختنق:

- لماذا احتجزوك؟

- إنهم لا يخبرون المرء بالسبب أبدًا.

جلست عمتاي متجاورتين بالقرب من السيدة مهربان، وأمسكت إحداهما بيد الأخرى بينما انهمرت الدموع على وجهيهما، ودخن عماي سيجارتيهما وهما هادئان على نحو غير معهود. جلست زوجتي المستقبلية في حجر أمها وهي تلعب بدمية. هل ستتذكر هذا اليوم عندما تكبر؟ جلس السيد كسروي على الأرض إلى جانب والدي، ولم يكن لديّ شك أنه أراد قول شيء عن القاجارين وسياساتهم الرجعية، لكنه أدرك أنه من الأفضل ألا يقاطع هذه اللحظة التي تخص السيد والسيدة مهربان.

أعقب الغداء مزيد من الشراب، وتلا ذلك العشاء، ثم مزيد من الشراب. كنت ثملًا تمامًا، وكذلك كل رجل آخر في المنزل. جلست السيدة مهربان إلى جانب زوجها، وعلى الرغم من أنه يُعَدُّ من الوقاحة في ثقافتنا أن يظهر الزوجان عاطفتهم تجاه بعضهما أمام العامة، فإن السيد مهربان طوق كتفيها بذراعه وضمها إليه بقوة.

لا أتذكر متى غادر أحمد وفهيمه، أو كيف ذهبت إلى الفراش. عندما فتحت عيني، وجدت نفسي مستلقيًا على مرتبة في غرفة المعيشة، وتذكرت حلمًا غريبًا جدًا راودني للتو. رأيت بستان برتقال يقع عند سفح جبل، يتدفق عبره نهر من الجنوب إلى الشمال. واقتربت غيوم داكنة بسرعة من الجبل من جهة الغرب، وعلى مسافة بعيدة، بعيدة، أضواء السماء صاعقة برق بينما تراقصت قطرات

المطر، واحدة تلو واحدة، في طريقها إلى الأرض. واكتست المنحدرات بأزهار
البرتقال البيضاء العطرة التي غطت الأرض مثل الثلج. صَعَبَ وهج باهر الرؤية
أسفل الجبل مباشرة. وفجأة، ظهرت هيئة شخص ما على المنحدر. حملقت لألقي
نظرة أفضل على الشخص الذي يقترب مني، لكن الوهج بدا ساطعًا جدًا. تعرفت
على عيني الملاك المُقَنَّع خلف دانتيل البرقع الأبيض، ترمشان بإيقاع منتظم مع
دقات قلبي. ذكرني كل هذا بالصورة التي رسمتها زاري لامرأتي الغامضة، في
المشهد الذي وصفته لها بحماقة في المطبخ في المرة الأولى التي كنا فيها وحدنا.
توقفت الهيئة البيضاء على بُعد بضعة أمتار مني، وحدقت عيناها الزرقاوان
الكبيرتان إلى عيني.

اشتدت الرياح، ونثرت الأزهار في الهواء في عاصفة ثلجية دوارة من الرائحة
المسكرة. جاهدت الملاك المُقَنَّع للحفاظ على توازنها. مددت يدي لأمسك يدها
من تحت برقعها، لكنها طفت بعيدًا عني، ودفعته الرياح إلى الخلف. حاولت
التمسك بها، لكن الطبيعة الأم القاسية أحاطت بها وعصفت ببرقع الملاك المُقَنَّع.
حملقتُ لألمح وجهها، لكن عاصفة الأزهار البيضاء جعلت من المستحيل رؤيتها.
ياله من حلم غريب.

ثم تساءلت لماذا لا يخبرنا السافاك بمكان دفن زاري. ما الضرر في ذلك؟
شعرت بغصة في حلقي. نظرت إلى الساعة مرة أخرى، وتمنيت لو كنت ذكيًا
بما يكفي لإصلاحها.

خيال وسط الظلال

جلست في غرفة المعيشة، أحرق من النافذة إلى فناء منزلنا، وكالعادة كنت شاردًا في أفكاري الخاصة. سمعت أبي يتحدث إلى أمي:

- الوقت يطير سريعًا. سوف يتخطى هذا الأمر قبل أن ندرك ذلك، أنا متأكد من هذا.

الوقت يطير؟ كم هذا سخيّف! إذن الوقت ليس فقط أئمن سلعة بشرية وعلاج كل الآلام، بل إنه يطير أيضًا!

كان أحمد وإيراج وبقية الأولاد في الزقاق يقضون اليوم كله في المدرسة. لم أفقد المدرسة، لكن بقائي وحيدًا أزعجني كثيرًا. أخبرت أبي بأنني لن أعود إلى مدرستنا في العام المقبل من دون أحمد وإيراج. وقد تفهم ذلك، وبدأ في الترتيبات اللازمة لمغادرتي إلى الولايات المتحدة في غضون أشهر قليلة. قال: - إن بقاءك في إيران ليس آمنًا لك. فلا أحد يعرف متى قد يقرر السافاك إعادة

النظر في هذه القضية لأن معتقلًا جديدًا قال شيئًا يورط الدكتور.

لم تعجبني أيضًا فكرة مغادرة إيران والبقاء وحيدًا في بلد يبعد اثني عشر ألف ميل.

قضيت معظم وقتي خلال النهار في الطابق الثالث من منزلنا، حيث أكون حرًا

في التشبث بالوسادة التي أصبحت أعتد عليها، سواء كنت جالسًا أو مستلقيًا أو أذرع ذهابًا وإيابًا في غرفتي. كلما تشبثت بها بقوة أكبر، شعرت بالهدوء أكثر. فقد وفرت لي حاجزًا ضروريًا للغاية بيني وبين محيطي. أحيانًا كنت أجد نفسي جالسًا في مكان واحد لساعات، أحرق إلى لا شيء، وأفكر في لا شيء، وأشعر بلا شيء، والأكثر إزعاجًا هو أنني لم أهتم بأي شيء. سيطر الصمت المستمر على حياتي. كانت الحياة تمضي قدمًا، وبدوت كأنني واقف بلا حراك، متحدثًا مطالبها بالتغيير. كنت أعيش حياتي من دون أن ألمسها، ومن دون أن أشعر بها، وبالتأكيد من دون أن أقدرها.

بين حين وحين، تمنيت لو أن بإمكانني العودة إلى ذلك الوقت الذي بدت فيه كل ذكريات الماضي كأنها فصل من فصول القصص الخيالية. في بعض الأحيان، ويدافع الملل، كنت ألتقط كتابًا لأقرأه، ثم أدرك أنني أحرق إلى الصفحات وعيناي شاردتان. لم يمض وقت طويل منذ أن احتفلت بتولي زمام أموري، كرجل. بدا لي كل هذا كأنه مزحة الآن.

بعد أيام قليلة من حلمي الغريب، تذكرت الليلة التي رسمت فيها زاري صورتني وأنا أحرق إلى الفتاة التي لا وجه لها وهي تطفو نحو الجبال. تذكرت أنني ثبتت الصورة على الجدار، ورأيت الثقب في الجص حيث كانت معلقة. بحثت خلف الكتب على الرف، وداخل الحقيبة التي اشتراها لي والذي في سستي الأولى في المدرسة الثانوية، لكن الرسم اختفى.

سألت أمي عن الصورة، فقالت إنها لا تعرف شيئًا عنها، بينما قال أبي إنه لن يأخذ أي شيء من غرفتي من دون أن يسألني أولاً. غطيت الثقب الموجود في الجدار، وتمنيت لو أن أحدًا يفعل الشيء نفسه مع الثقب الموجود في قلبي.

في بعض الليالي، بعد أن يخلد الجميع إلى النوم، كنت أنظر من نافذة غرفتي إلى المكان الذي اعتدت الجلوس فيه أنا وزاري. تذكرت احتضانها بين ذراعي ورأسها على كتفي وعيناها مغلقتان. امتلأت عيناوي بالدموع بسرعة، وشعرت بضيق في التنفس، كأن شيئًا ثقيلاً قد وُضع على صدري. بدا ذلك الشعور حقيقياً

للغاية، إلى درجة أن الطريقة الوحيدة للهروب من الوهم كانت النهوض والمشي. عادة ما ينتهي بي المطاف في الشرفة حيث أحاول منع نظري من الوقوع على أي شيء قد يذكرني بزاري، لكن عيني تهيمان في النهاية نحو غرفتها. دائماً ما تكون أنوارها مضاءة، والستائر مغلقة. ويمكنني أحياناً رؤية ظل الملاك المُقنَّع خلف الستائر. ينساب خيالها خلال حركات الصلاة: ترتفع يداها إلى أعلى عند الأذنين، ثم ينحني جسدها إلى الأمام، وفي النهاية تسجد ورأسها على المهر (*). كان الجو بارداً، واستطعت رؤية أنفاسي المتكثفة، لكن مع ذلك فضلت الوجود في الخارج على أن أكون في غرفتي، حيث تبدو الجدران كأنها تنغلق عليّ في بعض الأحيان.

في إحدى الليالي، كانت نافذة غرفة زاري مفتوحة، وسمعت الملاك المُقنَّع تقرأ قصيدة. تذكرت أن زاري أخبرني بأنها حفظت ديوان حافظ بأكمله. حاولت الاستماع إلى صوتها، لكن كل ما سمعته هو همس خافت. نظرت حولي، ورأيت القمر معلقاً في بطن السماء، والليل خارج نافذتي غارق في ضوء القمر. ألقّت المباني بظلالها التي بدت كأنها مربوطة في شيء ما، وبدأ هذا الشيء نفسه مربوطاً بكل ما حوله. في هذه الظلال، شعرت بأن زاري نفي بوعدها بأن تكون معي. اشتعلت في داخلي رغبة في اختراق الظلمة والاندماج بتلك الظلال. فتشت عنها في أشد الأماكن عتمة، وركزت نظري بإمعان في موضع تلو موضع، آملاً أنها تراقبني، وأن تلتقي أعيننا لوهلة خاطفة. شعرت بوجودها، وأردت مغادرة الغرفة، لكنني خشيت ألا أجدها.

في مساء آخر، جلست في غرفتي بجوار النافذة ونظرت نحو شرفة منزل زاري، عندما تحرك شخص ما فجأة في الظل، فقفز قلبي. بدا الأمر كما لو أن أحدهم انساب من مكان إلى آخر: انتقال من نقطة إلى أخرى، وحركة سريعة،

(*) المهر (أو التربة الحسينية): طين مجفف بالشمس يؤخذ من أرض كربلاء يسجد عليه الشيعة في صلاتهم. (الترجمة).

ثم توقف دائم. صار الشخص المتحرك الآن ساكنًا، ثابتًا في مكان واحد. هل هي مخيلتي أم أن هناك شخصًا ما في الخارج؟ تذكرت حديث وجه التفاحة عن مرض يجعل الناس يصابون بالهلاوس. هل أفقد عقلي؟

ركزت عينيّ لأستكشف على نحو أفضل الشكل الذي يتلاشى في الظلام، لكنني لم أكن متأكدًا أن الشكل الذي أحرق إليه له حدود حقيقية. كلما أمعنت النظر في الليل، قلّ يقيني بأن بقعة الظلام التي جذبت انتباهي ليست أكثر من مجرد ليل مُحاط بذاته. نهضت وأطفأت الضوء في غرفتي، ثم عدت وجلست في المكان نفسه الذي كنت أجلس فيه من قبل، باحثًا عن تلك الهيئة. لم يكن شيء هناك، وحتى الظل اختفى.

كانت ليلة معتدلة، لكن حالكة السواد. خرجت بهدوء إلى الشرفة ونظرت إلى غرفة زاري. كانت الأضواء مطفأة، والنافذة المؤدية إلى غرفتها مفتوحة، ومع هبوب الرياح، تحركت الستائر مثل امرأة بين ذراعي شريك رقص بارع. جلست على الجدار المنخفض الفاصل بين منزلينا، وتذكرت كيف كنا نجلس معًا على جانبها من الجدار ونقرأ الشعر. نزلت إلى شرفتها وجلست في المكان نفسه، وتظاهرت بأنها تجلس بجانبني. وفجأة وجدت نفسي أسقط وسط بحر من الكآبة. سقطت بسلاسة، من دون أن أحدث ضجة، سوى موجة مفاجئة من الألم وطوفان من الدموع. اتكأت برأسي على الجدار وأغمضت عينيّ وانهرت بداخلي. صعدت أنا وزاري تلة يلفها ضباب كثيف. وفي الأسفل، غطت البراري أعشاب خضراء ذابلة. هبت الرياح في أكثر من اتجاه، وانحنى العشب ومال في خمول. بدت السماء في الأعلى زرقاء كالحبر، وخلت من السواد الفاحم الذي يبرز عادة بريق النجوم في الليل. وعبق الهواء برائحة عطرة رائعة، منعشة ونظيفة، جعلت أنفي يتوق إلى مزيد، ورثتي تتوقان إلى حصة أكبر.

هل هذا حلم حقًا؟

ارتدت زاري فستانًا قطنيًا أبيض، وارتديت أنا بدلة داكنة. استدارت ونظرت إليّ. طوقتُ خصرها بذراعي اليمنى، وأسندت رأسها إلى كتفي ولامس وجهها

وجهي. قبّلت وجهها مرارًا وتكرارًا، وهمست إليها بأنني أحبها، وأنني لا أريد أن أكون من دونها أبدًا. إذا كان هذا حلمًا، فلا أريد أن أستيقظ.
أخبرتني زاري بأن هذا ليس حلمًا.
ثم صرنا على شرفة منزلها، وجلست خلفي محتضنة رأسي فوق صدرها وذراعاها ملتفتان حول عنقي. لم أستطع رؤية وجهها.
همست قائلة:

- الجو بارد في الخارج، وأنت لا ترتدي الكثير. ألا تعلم أنني لا أريد أن يصاب حبيبي بالبرد؟
التصقْتُ بها، وأحكمت ذراعيها حولي. أبقيت عيني مغلقتين. لم أرغب في اختبار وجودها بفتحهما. كان صوتها هو كل ما أحتاج إليه.
قالت:

- سأبقىك دافئًا بحرارة جسدي حتى تشرق الشمس، ثم يجب أن أذهب.
صحت:

- لا أريدك أن ترحلي.

لمست وجهي وقبّلت وجنتي، وأكدت لي أنها ليست بعيدة أبدًا، ولن تنأى على الإطلاق. أخبرتني بهمس خافت بأنها تحبني، لكن لا ينبغي أن أحزن على فراقها، فهذا هو المٌقدر. كما أسعدتها زيارتي لوالديها، وأنني كنت قويًا بما فيه الكفاية كي لا أبكي في حضورهما.

قلت لها إنها ملاكي، لكنها أجابتنني أن لا أحد يستطيع أن يرى ملاكًا. لا أحد يستطيع أن يسمع أو يشعر بملاك.

لذا، أخبرت نفسي بأنني ما دمت أسمع صوت زاري العذب وأشعر بجسدها الدافئ، فلا بد أنني أحلم. أردت أن ألتفت لأحتضنها، لكن ثقلًا يبعث على الشلل اجتاح كياني كله.

عندما فتحت عيني، لم أستطع تذكر أين أنا. نظرت حولي وأدركت أنني أجلس تحت الجدار في شرفة زاري. أشرقت الشمس، وجعلني الهواء البارد أرغب في

الزحف تحت الأغطية. ثم لاحظت وجود بطانية ملفوفة حولي. لم تكن إحدى
بطانياتنا، وبالتأكيد لم أذكر أنني خرجت من غرفتي بها. نظرت نحو غرفة زاري،
ورأيت أن نافذتها مغلقة. هل لفت الملاك المُقنَّع البطانية حولي أم كان أحمد؟
كان أحمد سيوقظني. كانت للبطانية رائحة عطر ذكية، نوع من العطور النسائية
غير معروف بالنسبة إليّ. هل هذه بطانية زاري؟ هل لفتها ذات مرة حول جسدها
الجميل لتدفئ نفسها ليلاً؟ ربما كانت هي من لفتها حولي الليلة الماضية!
أدركت من موقع الشمس أن الساعة تقريباً السادسة صباحاً. نظرت إلى الزقاق،
ورأيت الملاك المُقنَّع تسير عائدة من المخبز نحو المنزل، حاملة قطعتين كبيرتين
من خبز البربري.

مشيتها سريعة، أسرع بكثير مما اعتادت زاري أن تفعل.
دخلت إلى الفناء وأغلقت الباب خلفها. بمجرد أن اختفت داخل المنزل،
طويت البطانية وتركتها على الجدار بين منزلينا. ذهبت إلى غرفتي وزحفت إلى
فراشي، مستغرقة في حلمي بزاري. سحقت كآبة الوحدة روحي. قلت لنفسني إنني
كنت نائماً بين ذراعيها الليلة الماضية، وأدركت أنه حتى هذه الكذبة الفاضحة
لم تجعلني أشعر بتحسن.

في المساء التالي وجدتني مرة أخرى جالساً في غرفتي، أحتضن وسادتي وأنظر من
النافذة. كانت ليلة مظلمة وغائمة من دون أثر للقمر، والجو مقل بالمطر القادم.
وعلى الرغم من الهدوء، فإن أزيزاً مستمراً من مصدر مجهول بدا مهدداً للأذنين
ومسكناً للنفس. نظرت نحو شرفة زاري باحثاً عن الظل الذي شكّل قطعة من
الليل في صورة وهم باعث على الأمل في المساء السابق. ربما يمكنني العثور
عليه إذا أمعنت النظر بما فيه الكفاية. ربما إذا ركزت عيني وأمعنت بعناية أكبر،
فسيظهر مرة أخرى.

ها هو ذا: ظل، أو أثر، أو ليل سائل ذو حدود واضحة. راقبته بإمعان،
منتظراً أن يتحرك كما فعل الليلة الماضية. ربما لن يتعد خائفاً لو استطعت

أن أطفو برفق من خلال نافذتي. أيًا كان، فقد ظل بلا حراك، ساكنًا تمامًا في الزمان والمكان، وهو يراقبني. وفجأة، هبت الرياح وطارَت ستائر نافذتي في وجهي. في الخارج، تماوج جزء من الظلام بينما اضطرب الهواء المظلم، وارتجف الليل نفسه. تصلب الظل ورقص على أنغام الرياح. أعلم أن أيًا ما كان هناك قد تحرك، أنا متأكد من ذلك، ولست مصابًا بالهلاوس. انتصب الشعر في مؤخرة عنقي.

هرعت إلى الشرفة، لكنها كانت خالية. وقفت فترة طويلة أنظر حولي. أخيرًا، عبرت إلى جانب زاري وجلست في مكاننا. نظرت نحو غرفتها. ووجدت الأضواء مضاءة، لكن النافذة مغلقة والستائر مسدلة. بعد بضع دقائق بدأ المطر في الهطول، وانخفضت درجة الحرارة بسرعة. كانت الأضواء في معظم الزقاق مطفأة. نظرت إلى ساعتني: الحادية عشرة والنصف.

من خلف ستارة زاري، تحركت الملاك المُقنَّع من جانب الغرفة إلى الجانب الآخر، ولمحت ملامحها لجزء من الثانية. لم تكن ترتدي برقعها، لكنها مرت أمام النافذة بسرعة كبيرة بحيث لم أستطع رؤية وجهها. تقف إلى معرفة شكلها. كانت تسكن في الغرفة التي سكنت فيها حبيبتي زاري، وتنام في فراشها، وتجلس على الكرسي نفسه الذي جلستُ عليه وأنا أحتضنها بين ذراعي. اقتربتُ من نافذة زاري واختلست النظر من خلال الفتحة في الستارة. تسارعت دقات قلبي واندفع الدم إلى رأسي. ارتجفت يداي ووهنت ركبتاي من شدة الانفعال، وصار سطح جلدي باردًا.

جلست الملاك المُقنَّع في منتصف الغرفة وظهرها إلى النافذة. أحنيت رأسها وهي تقرأ كتابًا: ديوان حافظ، الذي تحفظه عن ظهر قلب. لماذا تقرأ الكتاب إذا كانت قد حفظته؟

ارتدت ثوبًا طويلًا داكنًا يلف جسدها من العنق إلى الكاحلين، وغطت رأسها بوشاح أزرق يخفي شعرها، بينما قبع البرقع الأسود على كرسي بجانب الطاولة المستديرة. وكانت البطانية التي لفتني الليلة السابقة موجودة على الفراش. نظرت

إلى الجانب الآخر من الغرفة ورأيت الدفتر الصغير الذي يحتوي على رسومات زاري. أوه، كم كنت لأضحى من أجل امتلاك هذا الدفتر!
وفجأة، رفعت الملاك المُقنَّع رأسها من الكتاب، وحدقت إلى الأمام مباشرة، كما لو أنها تعرف أن هناك مَنْ يراقبها من خلال النافذة. أردت أن أهرع عائداً إلى شرفتي، لكن قدمي التصقتا بالأرض. رأيت كتفيها ترتفعان وتنخفضان في أثناء تنفُّسها. التفتت جانباً بعض الشيء لجزء من الثانية، ثم خفضت رأسها وواصلت القراءة.

حمدت الله أنها لم تستدر، وتسلفت عائداً إلى غرفتي.

مرض عضال

مر أكثر من شهر منذ خروجي من المستشفى. وقد أضفت السنة الفارسية الجديدة، التي يُحتفل بها في اليوم الأول من فصل الربيع، حيوية هائلة على الحي. فالمدارس تغلق أبوابها في أول ثلاثة عشر يومًا من السنة، حيث يسافر الناس، ويتزاورون، ويتبادلون الهدايا، وينسون الخلافات القديمة، ويصفحون عنها. حتى إن روح السنة الجديدة حركت الشاه، مما دفعه إلى العفو عن عدد من السجناء السياسيين، والعفو عن بعض المجرمين العاديين. تساءلت عما إذا كان سيعفو عن الدكتور. وحتى عمتي وعمي تصالحا ونسيا خلافتهما. أما أنا، فكنت لا أزال عالقًا في شتاء حياتي المظلم، ولا أجد سبيلًا للخروج منه. أتى أحمد وإيراج لزيارتي في أحيان كثيرة، واستمتعت بصحبتهما، لكن في بعض الأحيان في أثناء حديثهما، كنت أشرد وأتجاهلهما، تمامًا كما ينظمس كل شيء خارجي عني.

في وقت مبكر من إحدى الأمسيات، كنت خارج غرفتي على الشرفة عندما سمعتُ جدة أحمد.

أعلنت من شرفة منزل أحمد:

- إنه قادم ليأخذني بعيدًا.

قلت لها:

- مَنْ سيأتي يا جدتي؟

شدت جبينها المغضن وهي تقول:

- زوجي. سوف يقدم لي هدية العام الجديد، ويأخذني بعيدًا.

قلت:

- أوه.

شعرت بالحزن من أجلها، لكنني تمنيت أن تأتي لي زاري أو الدكتور بالهدية نفسها.

لاحظت لمسة من المكياج على وجهها، فقلت لها:

- تبدين جميلة يا جدتي.

قالت:

- أردت أن أبدو جميلة من أجله. كما تعلم، نحن نتحدث كل ليلة، لكنه لا يدعني أراه.

سألتها وأنا أفكر في زاري، وهي تتسلل وسط الظلال ليلاً:

- هل ترينه يا جدتي؟

قالت، وعلى وجهها أثر ابتسامة حزينة:

- أوه، نعم، أراه كل ليلة منذ أن رحل. أنت أيضًا تراه، أليس كذلك؟

- أين تبحثين عنه؟

حدقت إليَّ الجدة، كما لو أنها لا تفهم سؤالِي.

سألتها:

- هل يختبئ في الظلام؟ هل يتحرك أم يبقى ساكنًا؟

سألتنِي:

- يبقى ساكنًا؟

بدا من الواضح أنها لا تفهم ما أتحدث عنه. توجهت إلى حافة الشرفة، ومرة أخرى سمعتُ صوت أمي يتردد في ذهني: يسقط مئات الأشخاص من فوق هذه

السطوح اللعينة كل عام. اقتربت بسرعة من الجدة لأتأكد أنني أستطيع اللحاق بها في حال فقدت توازنها.

همست بنظرة جادة في عينيها:

- يريدني أن أذهب معه بعيدًا هذه المرة.

سألتها:

- هل تحدثت معك من قبل؟

- تحدثت معي؟

- نعم.

فكرت الجدة لبعض الوقت.

- لا أعرف. أنا ثقيلة السمع. إذا كان يفعل، فأنا لا أسمعه.

- لكنك تسمعين بكاء زوجتي، أليس كذلك؟

- زوجتك؟ لماذا تبكي؟

نظرت إلى وجه الجدة الحائر، وتمنيت لو أنني لم أتطرق إلى الموضوع. قالت:

- يجب ألا تدع زوجتك تبكي. لم يدعني زوجي أبكي قط. لم يفعل ذلك قط.

- نعم يا جدتي.

أشرقت على وجهها ابتسامة معوجة صغيرة وقالت:

- هل تعرف كيف التقيت أنا وهو؟

- في السفارة الأمريكية؟

تمتت بدهشة:

- السفارة الأمريكية؟

استدركت قائلاً:

- لا يا جدتي، لا أعرف. كيف التقيتما؟

قالت، وقد انتابتها الحماسة:

- هل تريدني أن أخبرك؟

- نعم، من فضلك.

شرعت قائلة:

- عندما كنت في السابعة عشرة من عمري، شُخصت إصابتي بمرض عضال.

مرض عضال، هكذا أطلقوا عليه. كانت أُمي المسكينة تدعو ليلاً ونهاراً،

وتطلب من الله أن يرحمني، كأن الكون لم يكن به ما هو أهم مني!

فجأة زحفت تعابير الحيرة على وجه الجدة.

- هل سبق لك أن بلغت السابعة عشرة من عمرك؟

- نعم يا جدتي.

تمت:

- أوه، لكنك لم تصب بمرض عضال، أليس كذلك؟

- نعم يا جدتي، لم أصب به قط.

فكرت قليلاً، كأنها نسيت أين توقفت في القصة. وأخيراً سألت:

- هل تعتقد أن الجنة والنار متصلتان؟

سألتها:

- ماذا؟

- كانت أُمي تقول إن الله حفر حفرة كبيرة في الأرض وملاها بالنار، ثم

بنى الجنة فوقها. لكن هذا غير منطقي، أليس كذلك؟ هذا من شأنه أن

يجعل أرضية الجنة ساخنة جداً إلى درجة لا تسمح بالصلاة عليها، ألا

تعتقد ذلك؟

أردت أن أضحك، لكنني كتمت ضحكاتي.

تابعت قائلة:

- لكن إذا لم تكن الجنة والنار متصلتين، فماذا يوجد بينهما؟

استدارت ونظرت إليّ بفصول. هزرت كتفي لأشير إلى أنني لا أعرف الإجابة.

قالت:

- اعتادت أُمي المسكينة البكاء طوال الليل لأنني كنت مصابة بمرض عضال،

وكنت سأموت وأذهب إلى الجنة، أينما كانت الجنة. كانت تصوم وتتصدق بالمال على الفقراء، وتذبح خروفاً شهرياً، وتعطي أطيب أجزاء من اللحم للفقراء. كما كانت تعد حساءً خاصاً يُسمَّى آش وتطعمه للفقراء. وكنت أفكر طوال الوقت: «أنا التي تحتضر، لماذا يحصل الفقراء على كل تلك الأطيب؟». ابتسمت الجدة مدركة أنها ألقت نكتة طريفة، فابتسمتُ لها ابتسامة مشجعة. قالت:

- كنت أشعر بالمل فظيع في معدتي طوال الوقت. علاوة على ذلك، لم أستطع إبقاء الطعام في معدتي، ودائمًا ما كنت أتقيأ كل ما يلامس شفتي. لا يمكن أن تكون الحياة أكثر بؤسًا، وكل هذا وأنا في السابعة عشرة من عمري فقط.

هزت رأسها وتابعت:

- السابعة عشرة ليست سنًا جيدة. فحينها تدرك أن لديك قلبًا، وحينها تتدخل المشاعر في طريق التفكير. صمتت قليلًا، قبل أن تواصل:

- كان جد أحمد يعيش على بُعد بضعة منازل منا. كان شابًا وسيماً، رجلاً وسيماً للغاية. كلما رأيته، بكيت وبكيت وبكيت.

توقفت عن الحديث مجددًا لبعض الوقت، وهي تحديق إلى الليل. وأخيرًا قالت:

- هل أخبرتك بأنه سيعود ليأخذني بعيدًا؟

- نعم يا جدتي.

- لقد عاد من قبل، لكنني لم أستطع الذهاب. هذه المرة أود أن أذهب معه، أود ذلك حقًا.

صمتت الجدة فترة طويلة. نظرت إلى الفناء وأخذت نفسًا عميقًا. اقتربت منها أكثر فأكثر، خوفًا من أن تفقد توازنها وتسقط من على الحافة. بدا تعبير وجهها مشوشًا للغاية، إلى درجة أنني لم أستطع تخمين ما يدور في ذهنها.

وأخيرًا قالت:

- في أحد الأيام، تسلقت تلة كبيرة خلف منزل والدي، وألقيت نفسي من فوق جرف.

سألتها وأنا أقترِب أكثر:

- ألقيت نفسك من فوق جرف؟

- ما فائدة الحياة إذا كان عليك أن تعيش من دون الشخص الذي تحبه؟ أتذكر الآن. لم أكن أعاني مرضًا عضالًا، بل كنت واقعة في الحب. لكن الحب

مرض عضال، ألا تعتقد ذلك؟

وافقتها هامسًا أنه كذلك.

- بلى، بالطبع. لهذا السبب يموت كل العشاق المشهورين في نهاية قصصهم. فجأة، بدت الجدة مدركة تمامًا لكل شيء من حولها. اختفت نظرة الذهول والتشوش التي جعلتها تبدو شاردة الذهن وتائهة، وحل محلها تعبير متيقظ لشخص في كامل وعيه. جلسَت على مقربة مني إلى درجة يمكنني معها إحصاء تجاعيد وجهها، وهو وجه رأيتُه عدة مرات لكنني لم أنظر إليه قَطُّ. مررت أصابعها خلال شعرها الرمادي الطويل بشكل مذهل وهمست بشيء ما. كانت طويلة ورشيقة في السابق، لكنها انحنت مع تقدم العمر. وكانت عيناها بنيتين شاحبتين تقتربان من اللون الرمادي، وهو لون عينيّ جدي نفسه. واستنتجت من شكل ذقنها الطويل وطريقة ابتلاعها للعباب في فمها أنها ترتدي طقم أسنان صناعية. بدت أقرب إلى لوحة، أكثر من كونها شخصًا، وقد تعلمت أن أحبها حبًّا جمًّا. سألتني بصوت أجش لكنه لطيف، كصوت جدتي:

- بُني منزل والدي بالقرب من جرف. هل أخبرتك بذلك من قبل؟

- نعم، لقد فعلت يا جدتي.

- ظللت في الهواء طويلاً، أفكر أنني سأموت حتمًا. فمن ينجو من سقوط

كهذا؟ فقدت وعيي في الهواء، وعندما فتحت عينيّ، وجدت نفسي بين

ذراعيه. لقد رأيَني وأنا أقفز من الجرف وأمسك بي.

- هذا رائع يا جدتي. لا بد أنه كان رجلًا قويًا جدًا.

تذكرت الجدة بابتسامة شاردة.

- أوه، نعم، أقوى رجل في العالم.

سمعتُ صوت أحمد يؤكد من الظلام:

- هذا صحيح، لقد أمسك بجدتي في الهواء. كان أقوى رجل في العالم.

قالت الجدة لأحمد:

- إنه قادم ليأخذني بعيدًا.

قال أحمد وهو يعانق جسدها النحيل المحني:

- نعم يا جدتي. لقد أخبرتك بأنه سيعود قريبًا.

قالت وهي مندسة في حضن أحمد:

- إنه يريد أن يفاجئني. ويومًا ما سنعود ونفاجئكما. سيكون ذلك لطيفًا،

أليس كذلك؟

أومأت برأسي، ووافقها أحمد قائلاً:

- لطيف جدًا.

بدأت تعرج عائدة نحو المنزل.

تمتعت وهي تختفي في الداخل:

- سيكون ذلك لطيفًا جدًا، نعم، لطيفًا جدًا بالفعل.

هز أحمد رأسه وابتسم.

- أصبحت قصص جدتي أكثر إبداعًا وتسلية. إنها شخص رائع. هل تعلم أنها

كانت من أوائل النساء في بلدتها اللاتي تخلين عن الشادور؟

أجبتُه مندهشًا:

- لا!

- معظم الناس لا يعرفون ذلك، لكنها كانت كذلك. وفي قمصر، دونًا عن

كل الأماكن! إنها ليست المدينة الأكثر تقدمية في العالم.

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه، وتابع:

- كانت أول امرأة في بلدتها تحصل على شهادة المدرسة الثانوية. كانت متمردة وصعبة المراس وصلبة كالصخر. زوّجها والداها بجدي للتخلص منها.

ابتسم أحمد ساخرًا.

- لم تكن جدتي تريده، بل كرهته. طوال خمسين عامًا لم تقل له كلمة حنونًا، ولم يتوقع هو ذلك.

هزرت رأسي. أحلام الجدة التي لا تنتهي عن زوجها ذكرتني كثيرًا ببحثي الليلي عن زاري وسط الظلال. تساءلت عما إذا كنت سأتجول يومًا ما في الحي وأختلق قصصًا عن عمل زاري أستاذة جامعية أو إنقاذها قطعًا من مبانٍ محترقة.

تابع أحمد:

- كان رجلًا طيبًا وتحملها بصبر. أعتقد أنه كان الوحيد الذي أخذها على محمل الجد. كما أنه لم يتدمر منها قط. اعتقد بعض أصدقاء جدي أنه رجل ضعيف. قال الجيران في قمصر إنه لم يكن رجلًا على الإطلاق، وإنه عاجز عن مضاجعتها، ولهذا السبب كانت عدوانية إلى هذا الحد. لم يمانع جدي، ولم يستمع إلى أي شيء من ذلك، لكنها كانت تمانع. لذلك أنجبت أربعة أولاد على التوالي.

تسلل تعبير ماكر إلى وجه أحمد وهو يقول:

- أتساءل عما إذا كانت تلك هي المرات الوحيدة التي سمحت له فيها بمعاشرتها.

ابتسمت.

سألني أحمد:

- هل تعلم أنها ملحدة؟

- لا.

- امرأة في مثل سنّها، نشأت في قمصر، لا تؤمن بالله؟ هل يمكنك تخيل

ذلك؟ إنها محظوظة أنها لم تُرجم حتى الموت. يقول أبي إنها لم تدعُ بشيء
قَطُّ، لكن كل أمنياتها تحققت.

- كيف؟

قال أحمد وهو يشعل سيجارة:

- جدي. كان هو الإله الذي لم تعبده قَطُّ، وهي الآن تراه في كل مكان.

ملاك ينادي

أحضرت أمي الشاي الساخن، لكنني تظاهرت بالنوم في مقعدي، فغادرت الغرفة من دون أن توقظني. أخبرتها بأنني أغفو أسرع عندما لا أكون في الفراش. يبدو أن الاستلقاء في الفراش يُدخل عقلي في فوضى مفرطة النشاط، فأثقل في الفراش وأشعر بالإحباط، حتى ينتهي بي الأمر بالجلوس على الكرسي مع كتاب، وأغفو بعد قراءة بضع صفحات فقط.

لا أعرف متى غفوت حقًا، لكن راحتي التي كنت في أمس الحاجة إليها قطعها فجأة بكاء امرأة. لم أكن متأكدًا من مصدر الصوت، لكنني أحسست بشعر مؤخرة عنقي ينتصب. كان بلا شك بكاء امرأة، ومن المؤكد أنه جاء من خارج نافذتي. أردت أن أفتح عيني وأنظر إلى الخارج، لكنني كنت متعبًا جدًا. أصحْتُ السمع، ولم أسمع إلا صمت الليل الهادئ. تذكرت جدة أحمد وهي تقول إنها سمعت بكاء الفتاة التي تسكن في المنزل المجاور. زوجتك تفتقدك. إنها تبكي من أجلك كل ليلة، كما أبكي أنا من أجل جدك. سرت رعشة في عمودي الفقري.

سمعت بكاءً خافتًا مرة أخرى، هذه المرة من خارج نافذتي مباشرة. سرت قشعريرة في جسدي، وبدأت في الارتجاف بشكل خارج عن السيطرة. فتحت عيني ونظرت إلى ساعتني، فوجدتها الرابعة صباحًا.

أتى صوت بكاء مجدداً، فرميت وسادتي على الأرض وهرعت إلى الشرفة. خشيت أن أنظر إلى غرفة زاري، لكن هذا ما لفت انتباهي. كانت نافذتها مفتوحة، بينما الستائر مغلقة بإحكام. من الذي يبكي؟ ولماذا؟ هل هي الملاك المُقنَّع؟ لماذا تبكي؟ هل تفتقد زاري؟ ربما تشعر بالحنين إلى منزلها وتفتقد والديها. ربما تحب شاباً في بلدتها وتفتقده. لا، هذا مستحيل، فلم تبدُ لي من هذا النوع من النساء.

أصخت السمع بانتباه، لكنني لم أسمع شيئاً آخر. جلست على الجدار المنخفض الفاصل بين شرفتي وشرفة زاري، وتساءلت عما إذا كان ينبغي لي الاقتراب من نافذتها والنظر إلى الداخل. حرك نسيم خفيف ستائرها، وكان النور في غرفتها مطفأ. هل ينبغي لي العبور إلى ناحيتها؟ ما الفائدة؟ الظلام حالك، ولن أتمكن من رؤية أي شيء.

دوى خفقان قلبي في أذني وصدري. فجأة، تحرك شيء ما تحت الجدار المنخفض في شرفة زاري. نظرت إلى الأسفل، فرأيت الملاك المُقنَّع. جلست بلا حراك في البقعة نفسها التي اعتدت الجلوس فيها أنا وزاري، حيث جلستُ قبل بضع ليالٍ وأنا أحلم بأنني مع زاري. أردت أن أقول شيئاً، لكن صوتي انقطع. أردت أن أعود إلى غرفتي قبل أن ترفع هي نظرها، لكنني عجزت عن الحركة، تماماً مثل ليلة القبض على الدكتور.

وقفت برشاقة وصمت، كما لو كانت تعرف منذ البداية أنني هناك، كما لو كانت تتوقع وجودي. استدارت نحوي، واخترق ضوء القمر الدانتيل الأسود الذي يشكّل مقدمة برقعها، والتمعت تحته عينان رطبتان فيروزيتان تتألقان كنجوم في بحر مخملي من الظلام. تنفست بهدوء، وشعرتُ بأن الأكسجين في الكون لا يكفي لملء رئتي. بدت الملاك المُقنَّع بالطول نفسه تقريباً، وربما بالهيئة نفسها، على الرغم من أن الحجاب جعل من المستحيل معرفة ذلك على وجه اليقين. من المدهش كم يمكن أن تدوم لحظة من السكون التام!

فجأة، هبت رياح خفيفة من الجنوب وحركت برقعها الأسود، فذكرتني بذلك

المساء عندما رفرفت قطعة من الليل خارج نافذتي. يا إلهي، هل كانت الملاك
المُقنَّع، منسوجة في ظلام الليل، تتسلل وسط الظلال بسلاسة، وتراقبني وأنا
أتمايل في مقعدي إلى الأمام وإلى الخلف؟

استدارت الملاك المُقنَّع، وبدأت السير عائدة إلى غرفة زاري. جرجرت ذيل
برقعها خلفها، فجمع الغبار من الأرضية الخرسانية. أدارت رأسها نحوي وهي
تمشي مبتعدة. أردت أن أطلب منها التوقف، لكن صوتي اختفى. دخلت المنزل
وأغلقت الباب الزجاجي خلفها. جلستُ بعض الوقت على حافة الجدار الفاصل
بين منزلينا. هل تراقبني الملاك المُقنَّع في الليل؟ لماذا؟ أي نوع من الفضول
يجذبها إليّ؟ ماذا أخبرتها زاري؟ ربما أرادت أن ترى مدى ألمي.
مضت الساعات، لكنني عجزت عن النوم.

إن شاء الله

لم يكن أحمد يمزح عندما قال إنه لا يمكن لأحد أن يحطم روحه المعنوية بضربه في سجن عفن. صار أكثر تحديًا وتمردًا من أي وقت مضى، يقول ما يريد، ويفعل ما يشاء. ووفقًا لإيراج، فهو ينتقد مسؤولي المدرسة علانية، خصوصًا الأستاذ جورجي، معلم الدين العاجز سابقًا، الذي تحول إلى مدير مدرسة مجنون.

قال أحمد للجميع في ساحة المدرسة قبل أسبوع أو نحو ذلك، عندما كان الأستاذ جورجي يقف على بعد أمتار قليلة فقط:

- إنه فاشي.

سأله الأستاذ جورجي:

- من هو الفاشي يا أحمد؟

- موسوليني يا سيدي. كان موسوليني فاشيًا، كما أن عيدي أمين فاشي. هناك

كثير من الفاشيين في العالم يا سيدي. كثير من الفاشيين!

تأمل الأستاذ جورجي مسبحته، وتلا دعاءً ثم انصرف.

همس أحمد:

- وأنت فاشي يا سيدي.

التفت الأستاذ جورجي ونظر إلى أحمد، الذي ابتسم كأنه لا يخشى غضب الأستاذ جورجي على الإطلاق.

سأل أحمد فهيمة، التي قلقت من أن أحمد تمادى في كلامه:
- ماذا سيفعل بي؟

قالت فهيمة:

- سيُسبب لك المشكلات يا عزيزي.

وتوسلت إليَّ كي أتفاهم معه:

- ألا تعتقد ذلك؟ أرجوك، أخبره بأن يكف عن هذا الهراء.

ذات يوم، أخبر الأستاذ جورجي أحمد بأنه بحاجة إلى حلاقة شعره.
قال أحمد ساخرًا:

- لقد غادر الحلاق الخاص بي في إجازة يا أستاذ جورجي.

- حقًا؟ إلى أين؟

- لقد ذهب إلى أفغانستان. فهو مهرَّب مخدرات، كما تعلم!

زعم أحمد لاحقًا أنه بدا من الواضح له أن جورجي أراد أن يصفعه.

- طول شعري ليس من شأنه، ألا تعتقد ذلك؟ مَنْ يظن هذا الوغد نفسه؟ إنه مهووس بالسيطرة. ألم تخبرني ذات مرة بأن الفاشيين مهووسون بالسيطرة؟
قلت:

- لا، أنا وأنت تحدثنا عن الأناركية، وليس الفاشية.

- حسنًا إذن، لا بد أنني قرأت ذلك في مكان ما. الفاشيون مهووسون بالسيطرة.
يجب أن يكون هذا تعريف الفاشية في القاموس.

ناشدته فهيمة أن يتوقف:

- أنت لن تربح حربًا مع مدير مدرستك، فلماذا تفعل هذا؟

قال أحمد:

- لأنني أكره ابن العاهرة.

كلفتم كراهية أحمد للأستاذ جورجي ثمنًا باهظًا. بعد ظهر اليوم التالي، عاد

أحمد إلى المنزل وقد حلق رأسه. أحضر الأستاذ جورجي حلاقاً إلى المدرسة، وأجبر أحمد على حلاقة شعره على نحو قصير تمامًا، بينما شاهده جميع الطلاب والمعلمين في ذهول.

قال أحمد:

- تجول في الفناء وحدق إلى أعين الأولاد الذين تجمعوا حولنا، وأخبرهم بأنه السلطة المطلقة في المدرسة، وأنه لا ينبغي تحدي قراراته وأوامره أبدًا. ظهر لي من نظرة الاكتئاب في عيني أحمد ونبرة صوته المحبطة أنه يمر بوقت عصيب عقب هذه التجربة المهيينة.

سألته:

- هل قاومت؟

قال:

- لا، كنت سأخسر على أي حال. لا جدوى من قتال الأقوياء لأنك ستخسر. عليك انتظار اللحظة المناسبة للرد والانتقام. قلت له:

- يؤسفني ذلك.

بعد دقائق جاءت فهيمة، وتأملت رأس أحمد بنظرة مصدومة على وجهها. سألته وهي تضع أصابعها أمام فمها:

- ما الذي فعلته بنفسك؟

قال أحمد وهو يتصنع الابتسام:

- قص جورجي شعري.

- كيف؟

أجاب أحمد بغضب شديد:

- بماكينة الحلاقة!

حاولت فهيمة كبت ضحكاتها.

سألته:

- أنت لم تضربه، أليس كذلك؟

أجاب عابسًا:

- بلى، لكن كان يجب أن أفعل.

قالت فهيمة:

- حسناً، أنا سعيدة لأنك لم تفعل. هل قلت أي شيء؟

- نعم، بعد أن انتهى، نظرت في المرأة وسألته إن كان بإمكانه رفع السوالف قليلاً.

وضعت فهيمة يدها على فمها وضحكت، فنظر إليها أحمد باستغراب.

ضحكت أخيراً، وقالت:

- أنا آسفة، لكنك تبدو مضحكاً حقاً.

اتسعت عينا أحمد وهو ينظر إليّ:

- إنها تضحك!

هزرت كتفي على نحو مبالغ فيه، وأخفيت ابتسامتي.

قال أحمد:

- إنها تسخر مني!

هدأته فهيمة قائلة:

- لا، لا، لا.

ثم أطلقت ضحكة صاخبة.

- أعتقد أنك تبدو لطيفاً جداً فحسب.

نظر أحمد إليّ.

قلت:

- تبدو لطيفاً بالفعل.

سألني:

- هل أبداً كذلك؟ حقاً؟ لطيفاً إلى أي مدى؟

قالت فهيمة:

- لطيفًا جدًا جدًا.

التفت أحمد إليّ، فأومأت برأسي بكل جدية للتأكيد.

قال وهو يتجول بفخر:

- نعم، أنت على حق. سنُسمّي هذه «قصة شعر أحمد»، ونقدم واحدة مجانية

للأولاد في الزقاق. لكن فقط للأولاد في زقاقنا، أما الآخرون فعليهم الدفع.

نظر إليّ وقال:

- أنت، أنت زبوني الأول!

هرع إلى داخل المنزل وعاد حاملًا مقصًا في يده، وبدأ يطاردني في الفناء

بينما فهيمة تضحك.

صاح قائلاً:

- تعال إلى هنا يا ابن العاهرة! أمرك أن تقص شعرك! هل تعصي أوامري

العليا؟ كيف تجرؤ على ذلك! أيها الوغد ابن العاهرة!

في الأيام التالية، حاول أحمد أن يتجنب الأستاذ جورجي قدر الإمكان. ونظرًا إلى

معرفتي بأحمد، كنت متأكدًا أنه يضع خطة للهجوم. وقد ظهر الأستاذ جورجي

بدوره في جميع حصص أحمد تقريبًا، وجلس في الخلف يراقب المعلمين

والطلاب.

قال أحمد:

- بالأمس، جاء جورجي إلى حصة الهندسة للأستاذ بانا. ومنذ اللحظة التي

دخل فيها، عرفت أن هناك خطبًا ما، كما عرف جميع الطلاب ذلك أيضًا.

جلسوا جميعًا على كراسيهم وظهورهم مستقيمة، غير متأكدين أين ستقع

الضربة، لكنني عرفت. اقترب جورجي من الأستاذ بانا وهمس في أذنه بشيء

ما، ثم اتجه إلى آخر الغرفة، حيث كانت بإمكانه رؤية الجميع بوضوح. لم

يبدُ الأستاذ بانا سعيدًا بما طُلب منه القيام به. نقل ثقله من قدم إلى أخرى

عدة مرات، ونظر بعصبية إلى الأستاذ جورجي، ومشى ذهابًا وإيابًا أمام

مكتبه، ثم همس باسمي أخيرًا وأمرني بالذهاب إلى السبورة. طلب مني
بانا حل نظرية لم أرها من قبل.
نظر أحمد إلى قدميه وهو يلمس رأسه الحليق.
سألته:

- ماذا حدث؟

- لم أستطع حلها بالطبع. لذا أعطاني صفرًا، وخرج الأستاذ جورجي بابتسامة
رضا على وجهه.
قالت فهيمة:

- أنا آسفة يا عزيزي.

التفت أحمد إليّ.

- هل تذكر كم كنا نكره الأستاذ بانّا؟ كلنا نحبه الآن. أليس هذا غريبًا؟ جورجي
يجعل الجميع يبدون طيبين بالمقارنة. الأمر أشبه بالشعور بالألم في أجزاء
متعددة من جسدك، فأنت لا تشعر إلا بالجزء الذي يؤلمك أكثر من غيره.
ثم هز رأسه، وأخذ نفسًا عميقًا، وقال:

- هذا المتعصب المحتال يجعل طغاة الأمس يبدون كملائكة الرحمة. أليس
هذا غريبًا؟

سألته في إشارة إلى معلم الانضباط في المدرسة:

- ما رأي مرادي في كل هذا؟

- مرادي عاجز تمامًا. جورجي يكره مرادي لأنه يحب الأمريكيين. وفقًا
لجورجي، لا توجد أمة في العالم أحق بالكراهية من الأمريكيين، ربما
باستثناء الإسرائيليين.

قالت فهيمة:

- لا أريد أن أملّي عليك ما يجب فعله، لكنني أعتقد أن عليك العثور على
طريقة للتصالح معه.
تجاهل أحمد تعليق فهيمة.

- هل تصدقون ذلك الوغد؟ سيظهر في جميع حصصى الدراسية ويوقعني في المشكلات!

شرعت فهيمة في البكاء قائلة:

- أنا آسفة جدًا يا عزيزي.

طمأنها أحمد بابتسامة لطيفة على وجهه.

- أوه، يا حبيبتي، لا تقلقي. أرجوك، لا تقلقي.

كان لدموع فهيمة تأثير قوي في أحمد، فمنذ ذلك اليوم فصاعدًا، لم يعد يتحدث كثيرًا عن معاركه مع الأستاذ جورجى. ومع ذلك، لاحظت أنه يقرأ القرآن طوال الوقت.

سألته:

- هل أصبحت متدينًا؟

قال بابتسامة ساخرة على وجهه:

- بالطبع.

تساءلت عما ينوي فعله، لكنني لم أجروء على السؤال. وذات ليلة، سمعته يتلو الآيات بصوت عالٍ.

سألته مندهشًا:

- هل حفظت كل ذلك؟

فأجاب:

- نعم.

- لماذا؟

- إن شاء الله، ستعرف ذلك قريبًا.

ثم ابتسم وابتعد وهو يتلو آية أخرى.

عرفت سبب انشغال أحمد بالقرآن في اليوم التالي، بعد انتهاء اليوم الدراسي، عندما سمعت القصة كاملة. حضر الأستاذ جورجى إلى فصل الأستاذ بانا، وألقى

التحية على الجميع، ثم تلا الدعاء، وتوجه إلى الجزء الخلفي من الفصل، حيث أشار إلى الأستاذ بانا أن ينادي أحمد. بدأ الأستاذ بانا، الذي لم يوافق على أساليب الأستاذ جورجي وزياراته المتكررة لفصله، مكتئبًا على نحو مفهوم. رفع أحمد يده على الفور، وسأل بصوت عالٍ إذا كان بإمكانه طرح سؤال.

قال الأستاذ بانا:

- بالتأكيد.

قال أحمد:

- السؤال موجه إلى الأستاذ جورجي.

فأجاب الأستاذ جورجي:

- نعم، يمكنك طرح سؤالك.

تلا أحمد آية من القرآن، وطلب من الأستاذ جورجي ترجمة حرفية وتفسيرًا. لم يكن الأستاذ جورجي يتحدث العربية، ولا يحفظ إلا بعض الآيات فقط عن ظهر قلب، فhez رأسه وسعل عدة مرات لتنظيف حلقه، ثم قال إن لكنه أحمد جعلت من الصعب عليه فهم الآية التي تلاها. فأخرج أحمد مصحفًا صغيرًا من جيبه وقبله، وأشار إلى صفحة وقال:

- إنها هذه الآية يا سيدي. تفضل، هل ترغب في قراءتها؟

وقف الأستاذ جورجي بلا حراك وهو يحدق إلى أحمد، وأدرك جيدًا المصير الذي ينتظره من الآن فصاعدًا إذا ما دخل أي فصل آخر من فصول أحمد. أقسم أحمد إنه استطاع رؤية العرق يتصبب على وجه جورجي. بعد لحظة طويلة ومؤلمة، اعتذر الأستاذ جورجي، وغادر الغرفة بسرعة. وأعقب مغادرته ضحك وتصفيق وصراخ عالٍ وصفير، حتى إن الأستاذ بانا ضحك وانحنى لأحمد!

قال أحمد:

- لن يحضر دروسي بعد الآن. وأعدك بأنني لم أنتهِ بعد! قريبًا جدًا سأتابعه في الفناء، وفي مكتبه، وفي الحمام. سأكون أينما كان، أتلو القرآن وأطرح

عليه أسئلة. سأفعل كل ما بوسعي لإحراجه. سأحفظ كل كلمة من كتابنا المقدس، وأفصح ابن العاهرة لأكشف زيف ادعاءاته. هذه هي الطريقة للتعامل مع أمثال الأستاذ جورجي في العالم، معلم الدين العاجز ذاك، الذي تحول إلى إمبراطور.

أهم شيء هو تلك السمّة

كنت أغفو على الكرسي في غرفة نومي عندما أيقظني صراخ عالٍ. بدت هذه الصرخة بعيدة كل البعد عن البكاء الخافت للملاك المُقنَّع. تعرفت على صوت أحمد، وقاومت سلاًلاً مخيفاً ونهضت. بدأت أصوات أخرى تملأ الزقاق: أبواب تُفتح وتُغلق، وأشخاص يركضون، ونساء يبكين، ورجال يلهثون. ركضت خارج الباب إلى الشرفة. صرخت امرأة، عرفتُ صوتها على أنه صوت والدّة أحمد:

- يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي!

وسمعت صراخ أحمد:

- جدتي، جدتي!

ركضت إلى حافة الشرفة ورأيت الجيران في الزقاق يهرعون نحو منزل أحمد. في فناء منزل أحمد، كانت جثة الجدة ملقاة على الأرض، وقد تجمعت عائلتها بأكملها حولها. عبرت إلى شرفة أحمد ونزلت الدرج، متخطياً درجتين أو ثلاث درجات في كل مرة.

كان العديد من الجيران في الفناء عندما وصلت أخيراً إلى الطابق الأرضي. اتكأ أحمد على الجدار، وعيناه غارقتان بالدموع. انزلق ببطء وارتقى على الأرض. عندما لاحظ وجودي، هز رأسه في عدم تصديق وألم، بينما جلس إیراج بجانبه

وأحاطه بذراعه. تولت والدته إيراغ وعدد من النساء الأخريات العناية بوالدة أحمد التي جلست تبكي بجانب جثة جدته. وهمس والد أحمد بالدعاء، بينما حاول عدد من الرجال مواساته.

بدا الفناء مظلمًا، وحمل الهواء برودة مزعجة، عرفتُها من لقاءاتي السابقة مع الموت. وجعل الضوء المنبعث من غرفة المعيشة الشجرة الوحيدة في فناء منزل أحمد تلقي بظلال غريبة، استقر فيها جسد الجدة الملتوي.

دخل والدنا زاري إلى الفناء في اللحظة نفسها التي نظرتُ فيها إلى السطح ورأيت الملاك المُقنَّع في برقعها الأسود تطل على الفوضى في الأسفل. ولا بد أنها لاحظتني، لأنها كالعادة تراجعت خطوة على الفور، وتوارت في الظل.

تحطمت جمجمة الجدة، وتهشمت مفاصلها من قوة الارتطام. وتجول الجيران بحذر لتجنب الدوس على الدماء التي تناثرت في الفناء. كان من الصعب عليّ تقبُّل موت الجدة، فقبل ليلتين فقط أطلقت العنان لخيالها، وروت لي قصصًا غير معقولة عن طفولتها وزوجها الراحل. اجتاحت قلبي موجة من الحزن والقلق، إذ كانت وفاة الجدة بمنزلة تذكير موجه بالألم الذي كتمته بداخلي جرّاء فقدان الدكتور وزاري. لماذا كانت الحياة بهذه القسوة؟

بكى والد أحمد قائلاً:

- لقد طلبت منها الابتعاد عن ذلك السطح اللعين. لا بد أنها سقطت من على الحافة.

هز إيراغ رأسه وعض الشعر الكثيف على شفته العليا. همس أحمد:

- لم يمسكها جدي هذه المرّة.

سأل أحد الجيران جاره الآخر:

- ماذا علينا أن نفعل؟

- لقد فات الأوان لاستدعاء سيارة إسعاف.

- بالتأكيد، لكن يجب أن نتصل بواحدة على أي حال.

- لا بد أن المرأة المسكينة ظنت أن زوجها بالأسفل في الفناء.

خلال اليومين التاليين، جاء الناس من كل مكان لتقديم التعازي لعائلة أحمد. في مثل هذه الأوقات، لا يحلق الرجال لحاهم احترامًا للميت، وتضع النساء مساحيق تجميل لا تذكر، أو لا يضعن على الإطلاق. كما يُبعد الأطفال، ولا يشغل أحد الموسيقى، وتبدو الكآبة على الوجوه.

أتى والداه فهمة للمساعدة في استقبال الزوّار، وبدّوا متعاطفين ولطيفين. قدمت والدته أحمد حساء آش، بمساعدة والدتي وبعض القريبات والجيران. ودخن والد أحمد السجائر بشراسة، وبين الحين والحين استخدم منديلَه الأبيض لمسح الدموع من عينيه في أثناء استقباله للأصدقاء والأقارب.

في الليلة السابقة للجنّازة، صعدت أنا وأحمد إلى السطح. بدا الهلال المتدلي من بطن السماء المكتظة بالنجوم كأنه مهد من النيون مصمم ليضيء كل ما حوله. وكان الحي هادئًا وساكنًا، كما لو أنه انهار تحت وطأة كل الأحزان التي عاشها في الأشهر القليلة الماضية. بطريقة ما، بدت الظلال الداكنة للمنازل والأشجار أطول، وأومضت أنوار المدينة المتلاثلة على نحو خافت وخالٍ من الحياة. بدا الأمر كأن أحدهم نثر غبار الموت على الزقاق مرة أخرى. أشعل أحمد سيجارة، وعرض عليّ واحدة أيضًا، فقبلتها.

قال أحمد:

- كانت امرأة صالحة.

- نعم، كانت كذلك.

- لكن لا بد أن يموت كل إنسان في وقت ما، أليس كذلك؟

- بلى.

قال وهو يسحب نفسًا طويلًا من سيجارته:

- لا بد أن أجلبها قد حان.

- نعم.

- لكن لماذا كان عليها أن تموت بهذه الطريقة؟ لماذا لم تمُت بسلام في

الفراش؟ لماذا تركها الله تعاني إلى هذا الحد؟

توقف عن الكلام، وارتسمت على وجهه نظرة اعتذار.
- لا ينبغي أن أقول أشياء كهذه بعد ما مررت أنت به. أنا آسف.
قلت:

- لا بأس. في الواقع، شعرت بأنني قريب جدًا من الجدة في الفترة الأخيرة.
بدا الأمر كما لو أن حياتنا تسير في مسار متوازٍ.
قال أحمد:

- يا إلهي، لا تقل ذلك. لا أريدك أن تسقط من على السطح يومًا ما.
- لا، لا. أعني أنني شعرت بكربها، وألم الفراق الدائم، والفقد. بدأت أشعر
بأنها ربما لم تكن منفصلة عن الواقع.
- ماذا تقصد؟

- كل ذلك الحديث عن رؤية الجد.
توقفت عن الحديث قليلًا، بينما ازداد القلق على وجه أحمد، ثم تابعت:
- أعني، لا يمكن أن يموت الناس هكذا فحسب، أليس كذلك؟
لم يرد أحمد.

- إن إصرار الجدة على أن زاري كانت تنتظرنني ... حسنًا، أعتقد أحيانًا أنني
أراها وسط الظلال في الليل.

ازدادت نظرة أحمد قلقًا. صمت وقتًا طويلًا قبل أن يقول:

- أتساءل كيف يبدو الأمر عندما تكون ميتًا؟
ظننته يحاول تجنب الحديث عن أفكاره المجنونة. لم أقل شيئًا، لكنني
تذكرت حديث الأستاذ جورجي عن الموت باعتباره مصدر الرعب الأكبر. قال
ذات مرة وعينه تتقدان باللهب:

- خلقت الآخرة لعقاب المذنبين، الذين سيُحكم عليهم بعذاب أبدي لا
يمكن تصوُّره.

تذكرت سؤال الجدة عما إذا كانت النار تقع تحت الجنة، وارتسمت
ابتسامة على وجهي، لكنها اختفت بالسرعة نفسها. نظر أحمد نحو المكان

الذي يُفترض أن الجدة سقطت فيه من الشرفة، وتقلصت ملامحه وهو يحاول حبس دموعه.

همس وهو ينظر نحو السماء:
- رحمها الله. انتبه يا جدي!

في اليوم التالي، ذهبنا جميعاً إلى المقبرة. جلست أنا وأحمد وإبراج في مؤخرة سيارة أبي الجيب، وجلست أمي وفهيمة في المقدمة. وبين الحين والحين، استدارت فهيمة لتنظر إلى أحمد، وتمد يدها لتلمس يده أو تربت على ركبته. تذكرت اليوم الذي ذهبنا فيه إلى المقبرة من أجل الدكتور، وتذكرت وجه إبراج وهو يركض خلف السيارة الأجرة، فشعرت بالارتياح لأنه معنا هذه المرة. اكتظت الشوارع بالسيارات، وجعلت رائحة أدخنة العوادم قلبي يتلجلج بذكرى لحظات زاري الأخيرة. بدت السماء رمادية، ملبدة بالغيوم الداكنة المحملة بالمطر. وازدحمت الأرصفة بالمشاة المسرعين للهروب من المطر الغزير الحتمي. لم نتحدث كثيراً، إلا في لحظة قال فيها أبي إن الجدة كانت سيدة عظيمة، وتمتئنا جميعاً بالموافقة. كان جميع الجيران في المقبرة، بمن فيهم والدا زاري. وارتنى الجميع السواد احتراماً لوفاة الجدة. بدا من الرائع أن نتمكن من ارتداء الأسود على سبيل التغيير، يمكننا أخيراً أن نحزن ليس فقط على الجدة، لكن أيضاً على زاري والدكتور. قدم والدا زاري اعتذارهما لوالدة أحمد عن غياب الملاك المُقنَّع، موضحين أنها اضطرت إلى البقاء في المنزل لرعاية كيفان. قالت والدة زاري:

- لم يكن من المناسب إحضاره إلى المقبرة. إنه لا يزال صغيراً جداً.

تجمع الجميع حول حفرة حُفرت في الأرض. وقفت معظم النساء على جانب واحد من القبر، بينما وقف الرجال على الجانب الآخر. بكت والدة أحمد بهدوء، وهمست إلى أمي بأنها قلقة على زوجها. كانت الجدة هي آخر مَنْ تبقى من عائلته.

قالت إحداهن لوالدة أحمد:

- لقد عاشت حياة طيبة.

ووافقتها امرأة أخرى قائلة:

- نعم، لقد فعلت.

قالت المرأة الأولى:

- انظري حولك. هذا المكان ممتلئ بالشباب، رحمهم الله جميعاً، ورحم الله الجدة. لقد عاشت حياتها كما يحلو لها، والحمد لله أنها كانت حياة طويلة ومثمرة.

تساءلت كم من هؤلاء الجيران يعرفون قصة إلقاء الجدة بنفسها من فوق الجرف، وشككت أن أحداً منهم يعرفها.

فجأة، سُمعت من بعيد صيحة: «لا إله إلا الله!»، وهي إشارة إلى أن جثمان الجدة يُحمل إلى مثواه الأخير. عمّ الهرج والمرج عند القبر، وبدأ الجميع في البكاء، بمن في ذلك النساء اللواتي كن يواسين والددة أحمد. هرع أحمد نحو المجموعة التي تحمل نعش الجدة، وهرعت أنا وإيراج خلفه، ومددنا أكتافنا وأذرعنا لرفع النعش في الهواء. شعرت ببرودة وخشونة الخشب على عنقي على نحو غير طبيعي، وفكرت في جثمان الجدة الهامد فوق رأسي، وجعلني اندفاع الدم أرتجف بشكل يصعب السيطرة عليه بينما ازداد وجهي سخونة. في البداية، سيطر عليّ الدوار، ثم شعرت بالطاقة والقوة تتسربان من جسدي كما يتسرب الماء من خلال غربال. تركت النعش وتخلفت عن الموكب، وسرت مذهولاً وراء الحشد. لم يلاحظ أحد ضعفني المفاجئ. ذكرني القلق الذي سيطر عليّ بأيامي الأولى في المستشفى. تساءلت عما إذا كانت زاري مدفونة في المنطقة نفسها، في قبر من دون اسم.

وُضع نعش الجدة على الأرض، وتجمع الجميع حوله وهم يلطمون ويبكون ويهزون رؤوسهم. ركع والد أحمد على ركبتيه، وملأ قبضتيه بالتراب الأسود المتراكم بجانب الحفرة في الأرض، وأهال التراب على رأسه وهو يتحب بحرقه. عانق أحمد والده من الخلف وبكى معه. ثم أتى رجل دين بلحية رمادية كثيفة،

يرتدي رداءً أسود وعمامة خضراء، وردد بعض الآيات غير المفهومة وهو ينظر إلى أبي، الذي مد يده داخل جيبه ليدفع له. صارت هتافات رجل الدين أكثر حماسة عندما أدرك أنه سيحصل على مبلغ جيد مقابل خدماته.

لم أكن متأكدًا من سبب شعوري على ذلك النحو، لكن الحاضر بدا منفصلاً عن الماضي، كما لو وقع انقطاع مفاجئ في استمرارية الزمن. رأيت مجموعة من الغرباء يستخدمون معاول صدئة قديمة لإهالة التراب على جثمان الجدة الذي دُفِن بالفعل في الأرض. نظرت إلى يساري، ورأيت مدافن الأثرياء. أُنِشت أعمدة تلك المباني ودرجاتها ذكرى حية لليوم الذي جئت فيه أنا وزاري وفهيمة وأحمد إلى هذه المقبرة. نظرت إلى اليمين فرأيت المنعطف الصغير الذي عبرناه للوصول إلى قبر الدكتور. لا أعرف كم من الوقت أمعنت في النظر في هذا الاتجاه، لأنني وجدت نفسي فجأة أحرق إلى اسم الدكتور على شاهد قبره. بدا قبره موحشًا وكتيبًا مقارنة بالقبور المحيطة به، والتي تزينها النصب التذكارية والصور، وأحيانًا قصيدة مهداة إلى الفقيد.

همست:

- أنا آسف لأنني لم آت لزيارتك. لقد حدث الكثير منذ... منذ رحيلك. كُتب اسمه: «رامين صبحي»، وبدا حرف الراء في اسمه الأول متآكلًا بالفعل، مما يدل على رداءة الشاهد الموضوع على قبره. غطت شاهد القبر طبقة سميكة من الغبار، مما جعل من الواضح أن أحدًا لم يزُر الدكتور منذ فترة. أخرجت منديلاً من جيبِي، ومسحت الغبار عنه ببطء وعناية. همست:

- أنا آسف جدًا لأنني لم آت لرؤيتك. أتعلم، لقد زرعت لك شجيرة ورد تكريمًا لما فعلته من أجل كلسخي، وعليك أن ترى كيف يعتني بها جميع سكان الحي. هذا رائع، أليس كذلك؟ لن ينساك أحد أبدًا يا دكتور.

على بعد أمتار قليلة، تساقطت قطرات الماء بمعدل سريع من صنوبر في دلو من الصفيح. رفعت الدلو وحملتها إلى قبر الدكتور، وسكبت الماء على الشاهد، فامتصت التربة حول القبر الماء بسرعة. استخدمت منديلي مرة أخرى،

ونظفت الشاهد، ثم جلست بجانب القبر، وتذكرت عندما كان الدكتور على قيد الحياة.

تذكرت ابتسامته المشرقة، ونظارته السميكة المستديرة، وشغفه بالكتب، وتعامله البشوش مع الجدة. تساءلت عما إذا كان يعلم أنها ماتت الآن، ودُفنت على بعد أمتار قليلة فقط. أردت أن أقول له بضع كلمات حول ما حدث بيني وبين زاري، لكنني سرعان ما أدركت أنه يعرف الآن كل ما يجب معرفته، وقد سامح كلينا: أنا لوقوعي في حبها، وهي لسماحها لي بذلك.

همست وأنا أنظر إلى قبر الدكتور:

- لا بد أنها أحبتك حقًا. لقد ضحت بحياتها لتكون معك. كنتُ لأضحى بحياتي لأكون معها، لكنكما معًا الآن، كما كان ينبغي أن تكونا هنا في هذا العالم.

بينما أنظر إلى قبر الدكتور، تذكرت الأمسيات التي كانت تأتي فيها زاري إلى الفناء، وتشغل نفسها بأعمال غير ضرورية فيما أراقبها من السطح. كانت تنظر إليّ، لكنها لم تنطق بكلمة قط، أو حتى ترسل إليّ ابتسامة. كان ما بيننا حبًا مُحرمًا، عذبًا وسريًا ومُسكّرًا. ابتسمت وانهمرت الدموع على وجهي. لم أعد أشعر بالخجل من حب زاري، لأنه لا يوجد خطأ في حب شخص جدير بالمحبة.

لمست مكانًا على شاهد قبر الدكتور حيث انكسرت قطعة صغيرة منه. همست قائلاً:

- عندما أحصل على وظيفة وأجني بعض المال، سأستبدل هذا الشاهد من أجلك. «الدكتور»، هذا ما سيُنقش عليه. وسرعان ما سيتساءل الناس لماذا «الدكتور» وليس اسمًا. وسيسألون: «مَن كان؟ وماذا حدث له؟ كم كان عمره عندما أطلقوا عليه النار؟ كيف كان شكله؟ هل تعرض للتعذيب قبل أن يُقتل؟ ماذا حدث لمن أحبه؟».

سأروي قصتك لكل شخص أقابله. وبعدها سيعرف الجميع أن والدك

أصيب بنوبة قلبية، وأن والدتك فقدت عقلها من الحزن. سيقول الناس «يا للمرأة المسكينة». سيتحدثون عن زاري وشجاعتها وتحديها وتضحيتها بنفسها. «لا بد أن تلك الفتاة المسكينة أحبته كثيرًا! هذا ظلم كبير. كيف نسمح بحدوث مثل هذه الأمور؟». ثم سيخبر الناس أطفالهم وأصدقاءهم وجيرانهم، وستنتشر الأخبار، وسيعرف الجميع الحقيقة التي يحاول السافاك إخفاءها من خلال منعنا من الحزن على فقدانك، وتدمير الوثائق الدالة على وجودك، ومصادرة كتبك وربما حرقها.

ثم نظرت إلى قبره وابتسمت.

همست قائلاً:

- شكرًا لك لأنك علمتني ماهية تلك السمّة، يا دكتور. أعتقد أنني أعرف ما تعنيه الآن.

توقفت عن الحديث قليلاً، وتخيلت وجهه المبتسم، وهو يومئ برأسه. - يتعلق الأمر برمته بالشرف، والصدقة، والحب، وبذل كل ما لديك، وعيش حياة واعية، وعدم التظاهر بالجهل لأنه أسهل طريقة للتهرب، كل هذه الأشياء مجتمعة معاً، أليس كذلك؟ أشعر بأنني محظوظ لكوني محاطاً بأشخاص يتمتعون بتلك السمّة: أنت، وزاري، وأحمد، وإيراج، ووالداي، وفهيمّة. لقد عشت حياة رائعة من هذه الناحية.

لمست حرف الرء المتآكل من اسمه وأنا أقاوم دموعي.

- أجد العزاء في معرفة أنك وزاري لم تموتا. لأن الأشخاص الذين يتمتعون بتلك السمّة لا يموتون أبداً، ولا ينقطع وجودهم، بل يظلون أحياء في قلوبنا وعقولنا، حيث يهم وجودهم.

تدفقت دموعي بغزارة، وأدركت أنه لا يوجد شيء يمكنني فعله لإيقافها. قلت:

- هل تذكر عندما سألتني عن أئمن ما يملكه الإنسان؟ قلتُ «الحياة»، لكنك ابتسمت وقلت «الوقت». هل تتذكر ذلك يا دكتور؟

هبت رياح خفيفة فسقطت ورقة شجر واحدة على قبر الدكتور. التقطتها وتأملتها، ووضعتها عند طرف قبره.
قلت:

- لقد فكرت كثيرًا في مناقشتنا في ذلك اليوم. ومع كامل الاحترام، أعتقد أن كلينا كان مخطئًا. إن أؤمن شيء يمكن أن يمتلكه الإنسان هو تلك السمة. عندها فقط، شعرت بشخص ما خلفي. التفت فرأيت أحمد وفهيمه وإيراج. جلسوا بجانبني من دون التفوه بكلمة، وأحاطتني فهيمه بذراعها. بعد ثوانٍ، أتى والداي إلى القبر وفي أيديهما ورد أحمر. غمز أبي لي وهو يجلس قرب القبر، ووضع الورد على شاهد قبر الدكتور النظيف، وتلا دعاءً أخيرًا، كما فعلت أُمي الشيء نفسه. انضم إلينا جيراننا الواحد تلو الواحد، حشد غفير، كل مَنْ في الزقاق، وكل منهم يحمل وردة حمراء. لا أعتقد أن أحدًا اهتم بأنه من المحتمل أن السافاك يراقبنا. كان ينبغي أن يُسمح لنا بالحزن على وفاة الدكتور منذ زمن طويل.

فجر جديد

في اليوم التالي لجنازة الجدة، استيقظت على صباح يوم جميل من شهر أبريل. تسلل ضوء الشمس من خلال فتحة الستائر، وأدفاً وجهي، وسمعت العصافير في الخارج وهي تزقزق وتحتفل باليوم الربيعي الرائع. الليلة الماضية، نمت نوماً عميقاً لأول مرة منذ ليالٍ عديدة.

شعرت بالانتعاش والراحة والنشاط، كأني مستعد للخروج والركض بضعة كيلومترات، وهو أمر لم أشعر بالرغبة في القيام به منذ شهور.

سمعت صياح الأطفال وصراخهم في الزقاق، فخرجت إلى الشرفة واستنشقت الهواء النقي. مددت ذراعي إلى جانبي، وأصدرت صوتاً عالياً في أثناء الزفير، وملاً قلبي شعور غريب بالأمل. عند حافة الشرفة، أطللت على فناء منزلنا، حيث الشجرة التي زرعها والدي في أول يوم انتقلنا فيه إلى هنا بدأت تنبت أوراقها.

لم أكن الوحيد الذي يستمتع بهذا اليوم. بدا الزقاق مزدحماً بالناس من جميع الأعمار، تماماً كما أتذكره قبل اعتقال الدكتور. جلس إيراغ على الرصيف يلعب الشطرنج ضد نفسه. وعدت نفسي بأنني سأتحداه في وقت لاحق اليوم، ليس لأنني أستطيع الفوز، بل لأنني أردت العودة إلى استئناف نشاطي فحسب. بين الفينة والفينة كان يلقي نظرة متوترة نحو منزل زاري، ربما متلهفاً لرؤية الملاك

المُقنَّع. كانت مجموعة من الأطفال يلعبون كرة القدم، ودفع أحد الأطفال طفلًا آخر في أثناء اللعب، وتبع ذلك شجار قصير، ثم مشادة كلامية. ذكرني الأمر بحيلة أحمد للعودة إلى مركز حارس المرمى في الصيف الماضي، وبدا ذلك كأنه منذ مليون سنة مضت.

تجمعت مجموعات من النساء في أجزاء مختلفة من الزقاق: لجان النيمة الشرقية والغربية والوسطى، كما اعتاد أحمد تسميتها. تحدثن جميعًا في الوقت نفسه، وضحككن جميعًا وتفاعلن كأنهن يفهمن بعضهن على الرغم من الفوضى.

ثم رأيت رجلًا يتوجه إلى شجيرة الورد حاملاً دلوًا من الماء. ترك إيراغ لعبته وهرع نحوه، وسقيا نباتي معًا. انهمرت الدموع على وجنتي، دموع الفرح. نظرت إلى نهاية الزقاق، ورأيت أبولي وطفليين آخرين يقرعون جرس أحد المنازل ويهربون. بدأت في الضحك بصوت عالٍ، متذكرًا الخدعة الصغيرة التي لعبها مع أبي المسكين.

أغمضت عيني وأخذت نفسًا عميقًا. في تلك الحالة من الهدوء، تسلفت فكرة مريحة إلى ذهني ببطء: يجب أن أذهب بعيدًا. منذ أسابيع وأنا أقاوم الفكرة، لكن كلما أطلقت العنان لنفسي، ازدادت ارتياحًا لهذه الفكرة. سأذهب إلى الولايات المتحدة، وهناك يمكنني أن أبدأ حياتي من جديد. سأعيش بمفردي وأذهب إلى المدرسة، وأشغل نفسي بتعلم اللغة الإنجليزية والتعرف على الثقافة الغربية. هناك الكثير مما أحتاج إلى فهمه. أمل ألا يشعر الدكتور وزاري بالغدر. أتمنى ألا يحدث ذلك.

نزلت إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار. في غرفة المعيشة، وجدت فني صيانة يصلح الساعة الكبيرة القديمة. سحب الساعة إلى منتصف الغرفة، وشرع يتفحص عددًا من أجزائها المفككة.

سألت:

- ما الذي يحدث؟

أوضح لي والدي:

- إما أن نصلح هذا الشيء اللعين وإما أن نتخلص منه.

قال فني إصلاح الساعات:

- إنها أقيم من أن تتخلص منها يا سيدي. لم يعودوا يصنعون هذه الماركة.
إنها قطعة أثرية.

سألني والدي:

- ما رأيك؟

اقتربت من الساعة ولمست سطحها الخشن المتعرج.

- يجب أن نحتفظ بها. ماذا يهم إن لم تعمل؟ إنها قطعة جميلة. علاوة على ذلك، فقد أهديت إليك وإلى أمي هدية زفافكما.
أوماً أبي برأسه متأملاً.

- كانت الهدية الوحيدة التي حصلنا عليها. لقد اعتدت ملأها كل يوم عند تناول شاي الصباح.

ابتسم ثم التفت إلى فني الصيانة، وقال:

- سنحتفظ بالساعة مهما كانت نتيجة جهودك.
عند الإفطار، أخبرت والدي بأنني صرت أرغب حقاً في الذهاب إلى الولايات المتحدة.

وافقني الرأي قائلاً:

- سيكون ذلك أفضل. لطالما أردتُ أن تذهب إلى هناك، لتصبح مهندساً مدنياً. نعم، مهندس مدني، وبعد ذلك يمكنك العودة وإنشاء طريق سريع على الطراز الأوروبي يربط طهران بنوشهر!

قلت وأنا أنظر في عينيه مباشرة:

- أريد أن أصبح صانع أفلام يا أبي.
حذق إليّ بعض الوقت، ثم قال وهو لا يزال متحمساً لموافقتي على السفر إلى الخارج:

- حسنًا، ربما يمكنك دراسة تخصصين في الجامعة.
لم تتلقَّ أُمِّي الخبر بالحماسة نفسها. فعلى الرغم من أنها لم تُقل أي شيء
لتشيط عزيّمتي، فإن وجهها ارتسمت عليه نظرة تأمل وانشغال. تجولت بلا هدف،
ونفضت الغبار عن الرفوف، وإطارات الصور، وشاشة التلفزيون، والساعة الكبيرة،
وكل شيء آخر في الغرفة. ثم عادت لتبدأ بالرفوف من جديد.
قال أبي:

- لقد نفَضتِ الغبار عنها للتو.
نظرت إليه من دون أن تتكلم، وانتقلت إلى إطارات الصور.

جرى خبر رحيلي في الحي مجرى الماء في السيل. علم جميع مَنْ في الزقاق تقريبًا
أنني أَسْتَعِدُّ للرحيل إلى الولايات المتحدة. تمنى لي البالغون حظًا سعيدًا وعَبَرُوا
عن رغبتهم في الذهاب أيضًا. كان لدى كل شخص تقريبًا صديق أو قريب يعيش
هناك حاليًا، أو كان يعيش هناك في وقت ما.
علق أحد جيراني قائلاً:

- الولايات المتحدة مكان رائع. لقد عاد ابن عمي للتو من واشنطن، حيث
ركبت الحكومة أنابيب مياه ساخنة تحت الشوارع لمنع تجمُّد الطرقات
خلال فصول الشتاء القاسية.

تنهد جار آخر بدهشة، وكرر بنظرة حالمة على وجهه:
- يا للبراعة! يا للبراعة!

وأكد جار آخر أن الأمريكيين أكثر تقدمًا منا من الناحية التكنولوجية، لكن
ليس من الناحية الثقافية. وادعى أن الأولاد يُطردون من المنزل عندما يبلغون
الثامنة عشرة من العمر. شهق بعض الناس وهزوا رؤوسهم، بينما واصل الرجل
حديثه قائلاً إن الآباء الأكثر تعاطفًا يطلبون من أولادهم إيجارًا، ويفرضون عليهم
رسومًا مقابل طعامهم. زعم قائلاً:

- هذا هو سبب ارتفاع معدل الجريمة في الولايات المتحدة. بالتأكيد ستكون

أكثر ميلاً إلى الانجذاب نحو الجريمة عندما تكون بمفردك، من دون رقابة والديك، وبعيداً عن دفء وأمان منزلك!

وقال رجل آخر:

- نعم، يُسمُّون ذلك بالاستقلالية. إنهم يعلمون أولادهم منذ سن مبكرة أن يكونوا مستقلين.

- هذا ليس استقلالاً، هذا هراء!

التفت أحمد، الذي كان يقف بجانبني، إلى إيراغ وقال:

- أتمنى أن يطردني والداي قريباً.

ضحكت أنا وإيراغ ضحكة مكتومة.

مرت الأيام سريعاً، وتعلمت عائلة أحمد التأقلم مع الخسارة المأساوية لجدته، ووجدوا طريقهم تدريجياً للعودة إلى إيقاع الحياة اليومية في الزقاق. لم يحدث الكثير في منزل زاري، باستثناء ذهاب والدها إلى العمل كل صباح، وعودته ليلاً إلى زوجته التي اختارت قضاء بقية حياتها في المنزل. أما كيفان فكان يلعب في الفناء بمفرده، ويعيش طفولته وحيداً بعيداً عن الأطفال الآخرين في زقاقنا. وسمعت بين الحين والحين يضحك عندما يلعب الكرة مع الملاك المُقنَّع، تماماً كما كان يفعل مع أخته.

التقى والدي بانتظام مع السيد مهربان والسيد كسروي لترتيب إجراءات هجرتي إلى الولايات المتحدة. وقد أوفى المعارف في مكتب إدارة الجوازات بوعدهم، وصار بحوزتي جواز سفر. كانت الخطوة التالية في هذه الإجراءات هي الحصول على تأشيرة طالب سارية المفعول من السفارة الأمريكية، التي تتطلب شهادة I-20 وهي عبارة عن خطاب قبول من جامعة أو كلية معتمدة في الولايات المتحدة. وهنا سيؤدي السيد مهربان دوراً حاسماً، حيث سيحصل لي بعض رفاقه المنفيين في الولايات المتحدة على شهادة I-20 من إحدى الكليات في لوس أنجلوس. كما كان السيد كسروي يعرف أشخاصاً في وزارة التعليم يمكنهم المساعدة في تزوير

شهادة الثانوية، والحصول على درجة عالية في اختبار اللغة الإنجليزية المطلوب للسفر، حتى تتم الموافقة على طلبي للحصول على تأشيرة طالب. حاول السيد كسروي طمأنتني عندما عبرت عن قلقي من الحصول على شهادة ثانوية مزورة. خشيت أن أُمْنَع إلى الأبد من الالتحاق بالجامعة إذا اكتشفت السلطات الأمر.

قال السيد كسروي:

- كما ترى، يمكنك تحريك جبل في هذا البلد، إذا كنت على معرفة بالأشخاص المناسبين، يمكنك ذلك حقًا.

وأضاف السيد مهربان:

- وَلِمَ لا؟ عندما تُسَلَب منك حياتك بطريق الغش، فإنك تلجأ إلى الغش بالمقابل كي تنتقم. هكذا تسير الأمور في البلدان التي مثل بلدنا. لقد حرموك من الذهاب إلى المدرسة، لذا سنزور شهادة لتعويض الوقت الضائع. لم أشعر بالارتياح لهذه الحيلة، لكنني وافقت على أي حال. أردت مغادرة إيران أكثر من أي وقت مضى. لم تكن بوسعي العودة إلى مدرستي من دون أحمد وإيراج، ولم أستطع البقاء في هذا الزقاق بعد انتقال والدَي زاري إلى بندر عباس.

سعد أحمد وفهيمه لرؤية الأمل المتجدد فيّ، لكنهما حزنا أيضًا لرؤيتي أرحل. وعلى الرغم من أنني رأيت ذلك في أعينهما، فإنهما لم يقولوا أي شيء يثبط عزيمتي.

ابتسم أحمد قائلاً:

- ستسافر لفترة، وتدرس في أرقى جامعات الولايات المتحدة، وتعود شابًا متعلمًا.

وافقته فهيمه بحماسة:

- نعم، وسنكمل من حيث توقفنا بالضبط. سيكون الأمر كأنك لم تغادر قط، إلا أنك ستصبح عمًّا على الأرجح بحلول ذلك الوقت.

لم تتحمس أُمِّي لأيِّ من هذا، وقالت بقلق:

- إنه لا يتحدث اللغة الإنجليزية. كيف سيجد طريقه في المطار عندما تهبط طائرته؟ كيف سيطلب الطعام؟ كيف سيعرف ماذا يأكل أو كيف يتنقل؟
قال أبي:

- أوه، دعك من هذا، أنتِ تستخفين به! يقوم آلاف الشباب بهذه الرحلة كل عام. وهو على الأرجح أكثر كفاءة منهم كلهم مجتمعين. إنه أكثر الأولاد الذين أعرفهم صلابة.
أكد السيد كسروي:

- أوه، نعم، إنه فتى ذكي جدًّا، حقًّا، إنه أذكى فتى أعرفه.
نظرتُ إلى السيد كسروي وابتسمت لأعلمه أنني أقدر إطراره. وحاولت السيدة مهربان موازنة والدتي بإخبارها بأن دراستي الجامعية ستنتهي قبل أن تدرك ذلك، وسأعود في وقت قصير، مع إمكانية تحقيق مستقبل عظيم.
- على الأقل تعرفين أنه ذاهب إلى مكان جيد. ماذا لو كان ذاهبًا إلى السجن،
لا سمح الله؟

عضت السيدات الثلاث على الفور الجلد بين إصبعي الإبهام والسبابة.
قال السيد مهربان وهو يغمز لي:
- شاب متعلم مثله؟ يا إلهي، هل يمكنك تخيُّل ذلك؟ ستلقي الفتيات أنفسهن عند قدميه!

قاطعته السيدة كسروي:
- لا، لا، لا، فمن المقدر له أن يتزوج ابنتي شبنم.
ضحك الجميع، بمن فيهم والدتي. فكرت في زاري، وشعرت بغصة في حلقي.

سويت كل الأمور، وصار من المفترض أن أغادر في غضون شهر. أراني أبي تذكرة الطائرة ووجهه مشرق، وقال:
- ستهبط في لوس أنجلوس، وسيستقبلك بعض أقارب عمك مهربان.

سيتولون ترتيب حصولك على شقة وتسجيلك في جامعة جنوب كاليفورنيا.

ثم سألني فجأة، كأنه غير متأكد من أنني سأكون قادرًا على التعامل مع العيش بمفردي في الولايات المتحدة، على الرغم مما قاله لأمي:

- هل أنت مرتاح لكل هذا؟

قلت تلقائيًا:

- نعم.

في الحقيقة، على الرغم من الخطط العديدة التي وضعتها، فإن المستقبل بدا بالنسبة إليّ كمرآة ضبابية. كنت هناك، لكن لا يمكن رؤيتي أو التعرف عليّ بوضوح. عند التفكير في الولايات المتحدة، كان كل ما أتخيله هو الشوارع في الأفلام والبرامج التلفزيونية التي شاهدها. قررت أن أفضل طريقة بالنسبة إليّ للتعامل مع حالة عدم اليقين هذه هي عدم التفكير في الأمر، وكبت شعوري بالذنب في البحث عن مستقبل أفضل في البلد الذي دمر ماضيّ.

قالت أمي إن عليّ توديع أصدقائنا وأقاربنا في طهران، وأدارت رأسها وتمخبطت وهي تمسح دموعها عن وجهها. قررت دعوة الجميع إلى عشاء وداع.

أوضحت قائلة:

- سيكون ذلك أفضل بكثير، وأسهل بكثير بالنسبة إليك.

في اليوم السابق لحفل الوداع وقبل أسبوع من رحيلي، كنت أطل على فناء منزل زاري من موقع مراقبتي على السطح عندما قررت أن أخبر السيد والسيدة نادري بكل ما حدث بيني وبين زاري. سيكون من الجيد أن يعلموا أن نياتي كانت شريفة تمامًا، وأنني أحببت زاري أكثر من الحياة نفسها.

وافق أحمد على خطتي. وقد اعتقد أنهم سينتقلون قريبًا، لأنه لاحظ أنشطة غريبة في منزلهم. كان هناك غرباء يأتون ويذهبون في ساعات غريبة من النهار

والليل، لا بد أنهم عملاء السافاك. كانوا يخططون لهذا النوع من عمليات النفي بعناية لضمان تنفيذها بأكبر قدر ممكن من السرية، إذ إنه وفقًا للدعوات الرسمية فإن السافاك لا وجود له تقريبًا. منذ شهر، تتردد شائعات في الزقاق بأن السيد نادري يجب أن ينتقل إلى منطقة أكثر دفئًا حفاظًا على صحته.

قرعت جرس منزلهم، ففتحت الملاك المُقنَّع الباب. ألقيت عليها التحية، فردت التحية بصوت غير مسموع. كالعادة، كانت ترتدي برقعها، وبالكاد استطعت رؤية عينيها خلف الدانتيل. استتجت من عينيها اللتين خفصتهما وكتفيها المحييتين أنها لا تشعر بالارتياح في حضوري. أشحت بنظري بسرعة لأخفف من توترها، وهمست:

- أنا هنا لرؤية السيد والسيدة نادري. سأغادر بعد بضعة أيام، وأود أن أودعهما. وقفت الملاك المُقنَّع في المدخل من دون أن تتحرك أو تقول أي شيء. سألت:

- هل لي أن أراهما؟

فابتعدت بسرعة عن الطريق، وأومات إليَّ بالدخول إلى المنزل. حاولت ألا أنظر إلى شجرة الكرز ونحن نسير في الفناء. قادتنى الملاك المُقنَّع نحو غرفة المعيشة، وهمست إليَّ بأن خالتها وزوج خالتها في الطابق الثالث، وأنها ستناديهما لي.

تكدست الصناديق في كل مكان، مما أشار إلى قرب رحيلهم. وقفت في منتصف الغرفة، غير متأكد مما يجب أن أفعله، بينما اختفت بسرعة في الرواق. تذكرت مرة أخرى حفل عيد ميلاد كيفان. امتلأ المنزل بالأطفال الذين يركضون ويلعبون ويصرخون ويضحكون ويتذمرون من بعضهم بمرارة. تسلفت زاري بالقرب مني بينما أحمد يشغل الجميع بلعبة «مَن أنا؟»، وقالت وهي تميل إلى الأمام لتتأمل إلى عيني:

- أتمنى ألا تمنع حبيبتي في مساعدتك لي الليلة.

سألتها:

- جييتي؟

- نعم، تلك التي هي أنعم من...

عادت الغصة إلى حلقي.

امتلاً المنزل بالكثير من النشاط والحيوية في ذلك اليوم الصيفي الدافئ. بدت هذه الغرفة الخالية على النقيض تماماً. على بعد أمتار قليلة، على طاولة صغيرة مستديرة موضوعة بالقرب من السماور، رأيت دفتر رسومات زاري. توجهت إلى الطاولة والتقطت الدفتر. نظرت إلى كل رسم صفحة تلو صفحة، وتذكرت كل كلمة نطقت بها زاري لوصفها.

- هذا أنتم يا رفاق، بينما تلعبون كرة القدم! هل يمكنك تخمين من تكون

من بينهم؟

- أي واحد؟

- لم تكن هناك في ذلك اليوم!

قرب نهاية الدفتر، صادفتُ الصورة التي رسمتها لي أنا وفتاتي الغامضة. ماذا تفعل هذه الصورة هنا؟ انشغلت بالبحث عنها منذ عودتي من المستشفى. أعلم أنني علققتها على جدار غرفة نومي، وكنت أهدق إليها كل ليلة، وتخيلت مليون طريقة لأعطيها لها من دون التفوه بكلمة، تماماً كما أمرتني هي. تخيلت وجهها وهي تأخذ الصورة مني: تلكما العينان المبتسمتان وهما تنظران إليّ مباشرة، ووجتها المتوردتان من السعادة، وتنهيدة ارتياحها لمعرفتها أنها فتاة أحلامي.

حينها دخل السيد والسيدة نادري إلى الغرفة، فوضعت دفتر الرسم بسرعة على الطاولة. عانقني والدا زاري، وطلبا مني أن أجلس وأستريح. صبت لي السيدة نادري كوباً من الشاي، وأخبرتني بأنها سعيدة بسفري. فقد كانت الحياة صعبة جداً بالنسبة إليّ في هذا البلد، وسيفيدني سفري كثيراً، خصوصاً إذا ركزت جهودي على دراستي، بعيداً عن كل ما حدث هنا. ستفتقدني عائلتها، لكن هذا بالضبط ما يجب أن أفعله.

أوما السيد نادري برأسه موافقاً وهو يشعل سيجارة.

سألني، كما لو لم يكن هناك أي تخصص أكاديمي آخر متاح:

- هل ستدرس الطب أم الهندسة؟

وقبل أن تسنح لي الفرصة للرد، أضاف:

- ادرس بجد، لأن التعليم هو العلاج الوحيد للجهل، والأمر متروك لأمثالك

لتحرير هذا البلد من داء الدكتاتورية، والمساعدة في بناء مستقبل أفضل
للأطفال مثل كيفان.

دخلت الملاك المُقنَّع إلى الغرفة ومعها طبق من الحلوى وضعتة أمامي

وهمست قائلة:

- تفضل، رجاءً.

ثم انتقلت إلى الجانب الآخر من الغرفة، وجلست على الأرض بالقرب من
السيدة نادري، أمام الطاولة المستديرة حيث يرقد دفتر الرسم الخاص بزازي.
قال السيد نادري إنه وعائلته سعداء جداً من أجلي، ويتمنون ألا أنساهم في أثناء
غيابي. هزرت رأسي بالنفي.

أرادت السيدة نادري أن تعرف إلى أين أنا ذاهب، وكم من الوقت سأغيب
وماذا سأدرس، وهل أنا قلق بشأن وجودي في بلد أجنبي، وكيف يشعر والداي -
خصوصاً والدتي - حيال ذلك؟ ظلت عينا الملاك المُقنَّع مثبتتين عليّ بينما أجيب
عن أسئلة السيدة نادري. رأيتهما ترمشان بسرعة وراء البرقع، لكنني نظرت في
الغالب إلى السيد والسيدة نادري، لأن الانزعاج كان يبدو بوضوح على الملاك
المُقنَّع في كل مرة أوجه فيها نظراتي نحوها. أخبرتهما بأنني أتمنى الحصول على
شهادة بعد ثلاث سنوات، وأنني سأشتاق إلى إيران والزقاق وجميع أصدقائي
وأقاربي وجيراني، وأعربت عن أمنيتي بالرحيل في ظروف مختلفة. توقفت عن
الحديث قليلاً، وبدأت أتصعب عرقاً من فكرة الكشف عن السر الذي لم أفكر قط
في مشاركته مع أي شخص سوى أعز أصدقائي. بدأت يداي ترتجفان، وشعرت
بحرارة في وجهي.

همست:

- أود الحصول على إذن للتحديث بصراحة عن علاقتي مع زاري.

لم ينطق أحد بكلمة، وبدأت أشعر بأنه ربما يجب أن أتوقف عند هذا الحد. تعرقت كَفَّاي، وشعرت بالحرارة من وجهي المتخضب. تساءلت عن سبب صعوبة البوح بالحقيقة، وفهمت الآن لماذا يكتب عمي وعمتي الرسائل بدلاً من الحديث عندما تكون لديهما موضوعات غير مريحة لمناقشتها! لكن عليّ الاستمرار، فقد فات الأوان للتوقف الآن.

خففت نظري لأتجنب التواصل البصري مع أي شخص في الغرفة، وبدأت قصتي. قلت إنني لطالما اعتقدت أن زاري فتاة مميزة. في صغري، كنت معجباً بتصرفاتها. وبالطبع، فإن خطبتها للدكتور، أعظم شاب في حيننا، رفعت من مكانتها في عيني. قلت إنني كنت أراقبهما من سطح منزلنا، وعلى الرغم من أنني لم أكن أسمع ما يتحدثان عنه، فإنني أدركت أنهما يناقشان دائماً موضوعات مهمة، لأن الأشخاص الأذكياء لا يضيعون وقتهم في أشياء تافهة.

رفعت عيني فلاحظت تعبيراً جامداً على وجهي السيد والسيدة نادري. لم أجرؤ على النظر إلى الملاك المُقنَّع، فطأطأت رأسي وأكملت. - لقد أحببت الدكتور. كان شاباً استثنائياً، شاباً عظيماً. كان يتمتع بتلك السمة. أخيراً، نظرت إلى الملاك المُقنَّع، وأدركت من الأصوات الصادرة من تحت برقعها أنها تبكي.

- وبالطبع، لطالما كانت لخطبة زاري لصديقي ومرشدي مكانة خاصة في

قلبي. أعني، لقد كانت خطيبة الدكتور، أليس كذلك؟

كررت قلبي كما لو كنت أحاول تأكيد هذه النقطة، وتابع:

- كان من المستحيل بالنسبة إليّ أن أفكر فيها إلا بوصفها زوجة الدكتور المستقبلية.

ثم توقفت عن الحديث فترة طويلة، لأنني لم أعرف ماذا أقول غير ذلك. أنقل الصمت في الغرفة كاهلي. بدا هذا أصعب بكثير مما فعله أحمد من

أجل فهيمة. كنت سأتحمل الضرب الذي تعرض له بكل سرور بدلاً من هذا، فما من شيء أكثر خزيًا من الوقوع في حب خطيبة صديقك والاضطرار إلى الاعتراف بذلك.

أشعل السيد نادري سيجارة، ثم تنحنح وسألني:

- ماذا تحاول قوله يا بني؟

هززت رأسي، في صمت وخجل.

صاحت السيدة نادري:

- اللعنة على هؤلاء الأوغاد الذين دمروا حياة وآمال الكثير من الشباب!

بطرف عيني، رأيتهامسح الدموع عن وجهها بمنديل أبيض.

طمأنني السيد نادري بنبرة هادئة:

- لا داعي إلى قول المزيد إذا كان ذلك يزعجك. أنا متأكد أننا نعرف كل

شيء بالفعل.

أومأت السيدة نادري برأسها في موافقة صامتة، بينما لمست الملاك المُقنَّع

وجهها تحت البرقع ومسحت دموعها.

قالت السيدة نادري:

- لقد دمرت هذه المأساة الكثيرين من دون داعٍ وبشكل غير عادل. لا ينبغي

لأحد - وأعني لا أحد - أن يشعر بالخجل من أي شيء. لا يسعنا إلا أن

نتمنى لو أن الأفكار التي دفعتك إلى الشعور بالخجل هي أسوأ ما حدث

لنا. اللعنة على الشيطان.

قلت أخيرًا، بينما تنهمر الدموع على وجهي:

- لقد أحببتها كثيرًا، كانت حياتي، ومستقبلي.

نفث السيد نادري الدخان من رثتيه وتنحنح وقال:

- اسمع يا بني، الحياة مثل قارب بلا أشعة: لا يمكن معرفة إلى أين سيأخذنا

هذا القارب أو إلى أي شاطئ سينتهي بنا المطاف. أحيانًا يكون من الحكمة

عدم مقاومة الرياح، وقبول الأمور كما هي، مهما كانت مؤلمة، واثقين

بحكمة الله ومؤمنين بحتمية القدر. لا أحد يستطيع تبرير الألم الذي تحملناه جميعاً، ولا شيء يستطيع أن يمحوه أبداً. يعلم الله أنني أتمنى لو أستطيع تقديم بديل لك.

توقف فجأة، وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، وألقى نظرة نحو الملاك المُقنَّع، التي كانت لا تزال تبكي بهدوء تحت نقابها، وهز رأسه.

- أقسم بحبك لزاري - نور عيني وأنفاس رثتي - إننا جميعاً نتمنى بديلاً. ربما يصير كل هذا منطقياً يوماً ما، لكنه ليس كذلك الآن.

طأطأ رأسه ومسح عينيه، وواصل تدخين سيجارته.

اقتربت الملاك المُقنَّع من السيد نادري، وأحاطته بذراعيها، وهمست في أذنه بشيء هذأه للحظة. فاجأتني حالة السيد نادري، لكنني لم أعرف ماذا أفعل. أضافت السيدة نادري:

- ما يعنيه السيد نادري هو أنك ستكون دائماً موضع ترحيب في منزلنا. نحن نعلم كيف كان شعورك تجاه زاري، ولا داعي لأن تشعر بالخجل من ذلك. كما نعلم أنها كانت تحبك أيضاً. هذا كل ما سأقوله.

تمايلت من جانب إلى آخر، وضربت جانبها عدة مرات في ضيق، وتابعت: - من الصعب علينا التحدث عن هذا الأمر. أنا آسفة. كل ما تبقى لنا هو آمال ضائعة وأحلام محطمة. من الصعب جداً علينا التحدث عن ذلك.

انفجر السيد نادري في بكاء مريع، فاحتضنته الملاك المُقنَّع بقوة، وهمست بصوت أخذ يزداد ارتفاعاً:

- لا تبك، لا تبك. أرجوك، لا تبك. من أجلي، لا تبك. أتوسل إليك أن تتوقف. رأيت عينيها من وراء دانتيل برقعها؛ تلكما العينين الملائكيتين الحزيتين اللتين بدتا مألوفتين جداً بالنسبة إليّ. تذكرتهما من الصورة في ألبوم صور زاري. أدارت رأسها الناحية الأخرى، واتجهت نحو المدخل. ظل السيد نادري يكرر اعتذاره وهو لا يزال يبكي.

قلت وأنا أشير إلى الملاك المُقنَّع التي كانت على وشك الخروج من الغرفة:

- الحمد لله أنها معكم. كانت بمنزلة أخت لزارى.

هز السيد نادري رأسه وهمس قائلاً:

- نعم، الحمد لله أنها معنا!

ثم عانقني السيد والسيدة نادري بينما نهضت لأغادر. صحت قائلاً:

- لن تكونوا هنا عندما أعود.

أكد السيد نادري:

- لا.

سألت وأنا أبكي مثل طفل انفصل عن والديه إلى الأبد:

- كيف يمكنني أن أجدكم؟

قال السيد نادري:

- سنجدك. أقسم بحب زاري لك إننا سنجدك.

حب زاري لي. فطرت هذه الجملة قلبي، وانكسر شيء ما بداخلي إلى نصفين.

لا يمكنني أن أغادر البلاد. ثم فكرت في أن السيد والسيدة نادري وكيفان والملاك المُقنَّع لم يعودوا يعيشون هنا، وأدركت أن عليَّ الرحيل في أسرع وقت ممكن. بعد لحظات، عدت إلى منزلي بقلب مثقل.



telegram @
yasmeenbook

واحدة أخرى من فضلك

في اليوم نفسه، سألتني أمي إذا كنت أرغب في الذهاب للتسوق معها. قلت إنني أريد ذلك، لكنني متعب وأود البقاء في المنزل والاستمتاع بأيامي الأخيرة فيه. فعانقتني وقالت:

- سأفتقدك.

- سأفتقدك أيضًا يا أمي.

- أوه، لا، لا، لا، ليست لديك أدنى فكرة يا عزيزي كيف يمكن للأُم أن تفتقد ابنها. لذا لا تقل لي «سأفتقدك أيضًا يا أمي».

أومأت برأسي.

قالت وهي تحاول الابتسام بدلاً من البكاء:

- على الرغم من صعوبة هذا الأمر بالنسبة إليّ، فإنني أعلم أن هذا أفضل شيء بالنسبة إليك. لذا، أخطط لزيارتك بقدر ما أستطيع، حتى لو كان ذلك يعني بيع المنزل وسيارة العائلة وكل مجوهراتي، لأنه لا يمكن للمرء الابتعاد

عن قلبه لمدة أربع سنوات، أليس كذلك؟

عانقتها.

- أربع سنوات لا تُعد وقتًا يذكر، ستمر في غمضة عين. يجب أن تسعدي
لأنك ستحصلين على استراحة مني.
ابتسمت وند عنها صوت ما بين الضحك والبكاء، وقالت:
- معك حق.

بعد رحيلها، جلست على كرسي بجانب الحوض في فناء منزلنا. وبينما
هدهدتني شمس الربيع إلى حالة من شبه اللاوعي، فكرت فيما حدث في منزل
زاري. بقدر ما كانت التجربة مؤلمة، لكنني سعدت لذهابي وحديثي مع السيد
والسيدة نادري. شعرت بأنني على صواب في قراري. كان قرارًا ناضجًا، وشعرت
بالرضا لأنني لم أسلك طريق كتابة الرسائل في النهاية.

سيأتي أحمد قريبًا، وبقدر ما أستمتع بصحبته، أردت الاستمتاع بالهدوء
والسكينة في محيطي. أغمضت عيني وشردت بأفكاري. حتى في حالة الراحة،
كان ذهني في حالة نشاط مفرط. سمعت بوضوح صوت سيارة بكاتم صوت
مكسور تمر عبر الزقاق. ساد صمت طويل، ثم سمعت زقزقة بعض الطيور. بعد
بضع دقائق، هسهست قطتان في وجهي بعضهما، أعقب ذلك صوت زمجرة
عميقة، ثم لا شيء. هدرت طائرة مارة بالأعلى، تلت ذلك فترة طويلة أخرى من
الصمت من دون انقطاع. ثم سمعت قهقهة طفل، وصوت امرأة مكتومًا تطلب منه
الهدوء. ثم قهقهة ثانية، وثالثة، وأخيرًا همس شابة من الجانب الآخر من الجدار
في فناء زاري. انتصب الشعر على مؤخرة عنقي، وسرت قشعريرة في عمودي
الفقري، وفجأة صرت متيقظًا تمامًا.

همس الطفل:

- قصة أخرى من فضلك، قصة واحدة فقط!

كان الرد:

- صه!

فتحت عيني وأصخت السمع. لم أسمع شيئًا.

قلت لإرادياً:

- زاري!

استدردت ونظرت إلى الجدار خلفي وأنا أصغي بكل جوارحي إلى الصمت غير العادي الذي ملأ الأجواء. مشيت إلى الجدار الذي يفصل منزل زاري عن منزلي، وألصقت به أذني وأصغيت: لا شيء سوى الصمت المطلق. هل كان هذا حلمًا؟ لا بد أنه كان كذلك، ومن المحتمل أنني ما زلت أحلم، وإلا كيف للعالم أجمع أن يغرق في حالة من الصمت التام؟ نظرت حولي ولمست جدار الطوب بيدي لأتأكد من أنني أتحرك في عالم مصنوع من مواد صلبة. لم أكن أحلم.

تمنيت لو كانت بإمكانني رؤية فناء زاري. هرعت نحو السلم الذي يربط الفناء بشرفة الطابق الأول، ثم صعدت السلم إلى الطابقين الثاني والثالث، وتخطيت درجتين أو ثلاث درجات في كل مرة. فتحت الباب المؤدي إلى الشرفة، واندفعت إلى الحافة حيث يمكنني أن أطل إلى فناء منزلها بالأسفل. لم يكن هناك أحد.

انحنيت على الحافة لأرى إن كانت بإمكانني رؤية أي شخص في شرفتها بالطابق الأول، لكن لم يكن هناك أحد. نظرت نحو غرفة زاري في الطابق الثالث، فوجدت الستائر مسدلة بإحكام. ذرعت الشرفة جيئة وذهابًا بينما جسدي كله يرتعش.

همست إلى نفسي: «كان مجرد حلم. بالإضافة إلى ذلك، ماذا لو كان كيفان يتوسل فحسب إلى الملاك المُقنَّع طالبًا قصة أخرى، كما كان يفعل عندما كانت أخته على قيد الحياة؟».

نظرت إلى فنائها مرة أخرى. أردت أن أقول لنفسي إن شكوكي سخيفة ومنافية للعقل وغبية تمامًا، لكنني لم أفعل. تحدى قلبي المعذب عقلي المنطقي. ظللت أفكر: ما كانت لتفعل ذلك بي. ما كانت لتلحق بي كل هذا الألم، مهما كانت الظروف.

لكن ماذا لو كانت الملاك المُقنَّع هي زاري التي تخفي وجهها المحروق تحت البرقع؟ لماذا تفعل ذلك؟ ألا تعلم كم كانت حياتي بائسة من دونها؟ ألا تعرف الألم الذي سببه لي غيابها؟ انحنيت واستندت إلى الجدار المنخفض، وعضضت يدي لأكتم أنيني.

صحت:

- يا إلهي، أرجوك، أريد استعادة زاري!
وتذكرت بعد فوات الأوان أنني لم أعد أومن بالله.
نظرت إلى الفناء الخالي مرة أخرى، ولم أصدق كيف بدا أن كل شيء قد توقف، كأن العالم يحبس أنفاسه في انتظار إجابة لهذا اللغز. هرعت إلى غرفتي ونظرت حولي، غير متأكد مما آمل العثور عليه. اندفعت عائداً إلى الشرفة وأخذت نفساً عميقاً من الهواء النقي، وتمنيت لو كان أحمد وفهيمه هنا. جلست على الجدار المنخفض، وحاولت جمع قطع الأحجية معاً بطريقة منهجية، لكن عاصفة من المشاعر غمرتني، وأبعدتني أكثر فأكثر عن شواطئ العقل.
حاولت التركيز على اللحظة التي سمعت فيها همس كيفان: «قصة أخرى من فضلك...»، هل كان ذلك حلمًا؟ هل سمعته حقًا؟ ماذا سمعت قبل ذلك؟ السيارة ذات كاتم الصوت المكسور! هل يملك أحدهم سيارة بكاتم صوت مكسور في حينًا؟ إذا كان ذلك الصوت حقيقياً، فقد كان همس كيفان حقيقياً أيضاً. ماذا سمعت غير ذلك؟ قطتين تتشاجران، وتهسهسان في وجهي بعضها. بحثت في أفنية الجيران عن قطط. لا بد أن الزمجرة كانت حقيقية. لماذا أحلم بقطتين تتشاجران؟ لكن لا أحد من جيراننا يملك قططاً، لا بد أنهما قطتان شاردتان.
فكرت في الظل الذي يراقبني في الليل. عرفت أنها الملاك المُقنَّع، لكن لماذا تراقبني إلا إذا كانت هي زاري بالفعل؟ كان برقعها هو الذي تحرك بفعل الرياح في تلك الليلة، عرفت ذلك الآن أيضاً. بدا كل شيء منطقياً. قالت فهيمه ذات مرة:
- الملاك المُقنَّع لا تندفع أبداً إلى أي شيء، بل تنساب مثل نسيم الربيع، هادئة ولطيفة ومتأنية. لا يتسم أي شيء فيها بالعجلة.

إذن لماذا تمشي بسرعة في كل مرة أراها فيها عائدة من المخبز في الصباح؟
الملاك المُقنَّع ليست هي التي خلف ذلك البرقع، بل زاري، تختبئ مني، إما
لأن السافاك أمرها بذلك، وإما لأنها لا تريدني أن أرى وجهها المحترق. أوه،
يا عزيزتي المسكينة زاري!

أخبرتني ذات مرة بأنها تريد أن تصبح خبيرة في تفسير شعر حافظ. كيف
لم أدرك الأمر طوال هذه الليالي، وأنا أحرق إليها من خلال فتحة الستارة؟
الملاك المُقنَّع تحفظ كل أشعار حافظ. ما كانت لتقرأ ديوانه، لأنه كله في
رأسها. إنها زاري التي تقرأ الكتاب، وتحاول أن تشغل الليالي الموحشة.
وفي وقت سابق من اليوم، وجدت الصورة التي رسمتها زاري لي مع فتاتي
الغامضة في منزلهم. لا بد أن زاري أخذتها من غرفتي بطريقة ما عندما كنت
في المستشفى. يُضاف إلى ذلك انفعال السيد نادري. صار كل شيء منطقيًا
الآن. قال إنه يتمنى لو كان بإمكانه أن يقدم لي بديلًا، وعندها تقدمت زاري
نحوه وعانقته وهمست في أذنه بشيء ما. كانت الملكة المُقنَّع أكثر تدينًا من
أن تحتضن رجلًا ليس من محارمها!

انحنيت وبكيت فرحًا وحزنًا، ونشوة وبؤسًا. أغمضت عيني ورفعت رأسي إلى
السما، مدركًا أنه للمرة الأولى منذ اليوم الذي استعدت فيه وعيي في المستشفى،
انزاح عبء ثقل عن صدري. بدا أن الهواء الذي أستنشقُه يدخل صدري على
نحو أسهل، على الأقل في الوقت الحالي.

ماذا يجب أن أفعل؟ أحتاج إلى خطة للهجوم. أين أحمد عندما أحتاج إليه؟
هل يعرف؟ ربما كان هو وفهيمة يعرفان ما يجري، لكنهما لم يقلوا أي شيء
لحمائتي أنا وزاري من السافاك. ثم خطر لي فجأة أنني سأغادر إلى الولايات
المتحدة في أقل من أسبوع. لا يمكن أن يحدث ذلك الآن وقد استعدت زاري!
في ظل هذه الظروف، يجب إلغاء الرحلة. يجب علينا الاتصال بجميع الضيوف
وإلغاء حفل الوداع. لكن كيف يمكنني الوصول إلى الملكة المُقنَّع وكشف
الحقيقة؟ سيكون هذا محررًا لعائلتها، وقد تكون هناك أيضًا تداعيات أمنية

فيما يتعلق بالسافاك. أحتاج إلى الاقتراب منها بحذر. لا أريد أن يأخذ السافاك ملاكي مرة أخرى.

هرعت إلى الطابق السفلي، وتناولت جرعتين من فودكا أبي، مما أدفأني على الفور وهدأني. همست:

- في نخبك يا حبيبتي، أمل وأدعو أن تكوني قد بُعثت إلى حياتي من العدم. تسلقت الجدار إلى ناحية زاري، وجلست في المكان نفسه الذي اعتدنا الجلوس فيه. تذكرت الحلم الذي راودني في آخر مرة جلست فيها تحت هذا الجدار. صرت متأكدًا الآن أن تلك التجربة لم تكن حلمًا. كانت تجلس خلفي وتحضنني بين ذراعيها. قالت إنها أرادت أن تبقي حبيبها دافئًا. صغيرتي المسكينة زاري، يا إلهي، أحبك كثيرًا، وأفتقدك بشدة.

شعرت بالبرد، وأصابني الهذيان في تلك الليلة، ورأيتني زاري من النافذة وخرجت ببطانية. لفتها حولي واحتضنتني طوال الليل، وأبقتني دافئًا، وهمست في أذني أنها تخشى أن يصاب حبيبها بالبرد، وأنها ستحرص على ألا يصاب بالبرد. لم يكن ذلك حلمًا بالتأكيد!

انتقل ذهني من موضوع إلى آخر، ولم أستطع التركيز على فكرة واحدة لفترة طويلة. اندفعت إلى ذهني ذكريات اليوم الذي أشعلت فيه النار في نفسها، والأيام التي قضيتها في المستشفى، والاكئاب الخائق الذي اقترسني، والخوف من فقدان أحمد، والرجل العجوز، ووجه التفاحة... يا إلهي، لماذا الحياة بهذه القسوة؟ لا أعتقد أنني سأنجو لو اضطررت إلى معاشة كل ذلك مرة أخرى.

ثم اتجه تفكيري إلى زاري، التي تعيش في المنزل المجاور، وتتنفس الأكسجين نفسه الذي أتنفسه، وربما تفكر فيّ في هذه اللحظة نفسها. لا عجب أنني شعرت بوجودها بقوة. هذه هي الظروف التي جذبتني إلى نافذتها كل ليلة. ولماذا أحلم بالوجود على قمة جبل مع الملاك المُقنَّع، لو لم تكن زاري، في قرارة نفسها، ترغب في الكشف عن نفسها أمامي؟

منحتني الفودكا التي شربتها الشجاعة للسير إلى نافذة زاري. كانت الستارة

نصف مفتوحة، وألقيت نظرة فاحصة على الغرفة المظلمة. رأيت برقع الملاك المُقنَّع على فراش زاري، لذا عرفت أنها في الغرفة، أو على الأقل في المنزل. عدت إلى غرفتي.

رن جرس باب منزلنا، وكان إيراج. تحمست بشدة بشأن اكتشافي الجديد، وأردت أن أخبره بكل شيء عن ذلك، لكنه كالعادة بدأ في الحديث قبل أن تتاح لي الفرصة لقول أي شيء. على أي حال، لم يكن هو الشخص الذي أحتاج إلى التحدث معه. جلسنا بجانب الحوض في فناء منزلي. أراني كتابًا جديدًا اشتراه، سيرة ذاتية لبطله توماس إديسون. انزعج بشدة من رواية المؤلف لحياة إديسون. قال إيراج:

- وفقًا لهذا الرجل، كان إديسون محتالًا. كان يستأجر بلطجية يجبرون المخترعين الشباب على بيع اختراعاتهم له بثمان بخس، وإلا واجهوا ضربًا مبرحًا!

واجه إيراج صعوبة في تصديق هذه الأكاذيب الفاحشة، لكنه أقسم إنه إذا كانت هذه الاتهامات صحيحة، فإنه سيتخلى عن حلمه في أن يصبح مخترعًا، مقابل أن يصبح سياسيًا نزيهًا.

وفقًا لوالده وعمه، باتت أيام الشاه معدودة، لأن الناس ضاقوا ذرعًا بأساليبه الدكتاتورية ومعاملته اللإنسانية للمعارضين السياسيين. وحتى القادة في الجيش شعروا بأنه تمادى كثيرًا. وقد شارك عم إيراج، وهو جنرال في جيش الشاه المدعوم من الولايات المتحدة، في مفاوضات لشراء عدد من طائرات إف-١٦ من الحكومة الأمريكية. كانت هذه الطائرات المقاتلة ستجعل من إيران القوة العظمى في الشرق الأوسط، وهو بالضبط ما أراده الأمريكيون دائمًا. كان الإسرائيليون هم خيارهم الأول بالطبع، لكن من الأفضل أن تحمل دولة مسلمة عصاهم بدلًا من دولة يهودية يكرها الملايين من الناس في المنطقة. قال إيراج إن والده يعتقد أنه كلما اقترب الشاه من الغرب، قلَّت شعبيته في الشرق الأوسط. ومع ذلك، كان أكبر تهديد للشاه هو إسرائيل. لا بد أن الإسرائيليين يشعرون بالقلق

من نشوء قوة عسكرية هائلة في منطقتهم. وعاجلاً أو آجلاً، سوف يستخدمون جماعات الضغط اليهودية الغنية لتأليب واشنطن ضد الشاه.

أردت أن أقول لإيراج إنني لست مهتمًا بسماع نظريات والده السياسية، لكنني لم أفعل. يا إلهي، لماذا لا يتركني وشأني؟ لماذا كان عليه أن يأتي الآن؟ أليست هناك أمور أهم في الحياة من الوضع السياسي في إيران؟ لم أصرخ في وجه إيراج فقط لأنني تذكرت وجهه المتعرق في المقبرة، منهكًا من كل ذلك الجري للانضمام إلينا عند قبر الدكتور، على الرغم من علمه أن السافاك يراقبنا. ولدهشتي، غير إيراج وجهة حديثه، وبدأ يتكلم عن الملاك المُقنَّع. غلبه الاكتئاب في الآونة الأخيرة لأنه وجد صعوبة في لفت انتباهها، وما زاد الطين بلة أن أحدًا لم يأخذ حبه لها على محمل الجد. لم أخبره بأن المرأة التي تحت البرقع هي زاري وليست الملاك المُقنَّع. لم يكن بوسعي الكشف عن ذلك بعد. ماذا لو اتفقوا مع السافاك على أن تبقى زاري متخفية، وكشفت أمرها؟

قال إيراج إنه سئم من انتقاد الناس لحبه للملاك المُقنَّع. تساءل الجميع كيف يمكنه أن يحب امرأة لم يسبق له أن رآها، لكن هل يهم ذلك حقًا؟ قال إيراج:

- ليس من المفترض أن يقع المرء في حب شخص ما بسبب مظهره، فهذا حب سطحي. الحب الحقيقي هو أن تتقبل الصلاح الداخلي للشخص. ينتقدني الناس لأنني لا أعرفها شخصيًا، لكن هل أحتاج إلى معرفتها لأومن بصلاحها؟ أليس صحيحًا أن الحب الحقيقي هو احترام شخصية المرء وطباعه؟ ألا يجب أن يتزوج الناس على أساس توافق طباعهم؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن كل ما أعرفه عن الملاك المُقنَّع يجعلها عروسًا مثالية بالنسبة إليّ.

الملاك المُقنَّع! يا له من فتى مسكين، لو أنه يعرف الحقيقة فحسب. واصل إيراج الحديث، لكنني لم أنتبه له. أو مأت برأسي من حين إلى حين بالموافقة، بينما شردت أكثر فأكثر.

غادر أخيراً، وهرعت عائداً إلى السطح. كانت الأنوار في منزل زاري مطفأة. كنت أعلم أن العائلة لا تخلد إلى النوم في هذا الوقت المبكر، لذا لا بد أنهم يختبئون مني. لا يمكنهم الكشف عن هوية الملاك المُقنَّع الحقيقية. لا بد أنهم عقدوا اتفاقاً مع السافاك. نعم، هكذا أنقذوها من الذهاب إلى السجن، ولهذا السبب لا يوجد قبر. نظرت إلى غرفة زاري، حيث كان برقع الملاك المُقنَّع لا يزال على الفراش.

في صمت الليل

خلال العشاء في تلك الليلة، انشغلت بالتفكير في زاري، إلى درجة أن أبي سألني ما إذا كنت بخير. أجبته وأنا أعبت بطعامي:

- نعم.

أعاد أبي ملعقته إلى طبقه.

- هل تشعر بالتوتر بشأن رحلتك؟

أدركت أنه لا يمكنني إخبار والدَي عن أحداث ما بعد الظهر، لذا أوّمت برأسي بالإيجاب.

قال أبي:

- هذا طبيعي، أتعلم؟ هذه خطوة كبيرة، وقلقك مفهوم تمامًا. ليس من السهل أن تحزم أمتعتك وتنتقل إلى الجانب الآخر من العالم، حيث لا تتكلم اللغة ولا تعرف أحدًا ولا تعرف الثقافة. كنت سأشعر أنا أيضًا بالتوتر!

من طرف عيني، رأيت أُمي تبدأ في البكاء. تنحنح أبي وواصل:

- اعتاد أبي القول إن الحياة أشبه بمختبر تُختبر فيه شخصيات الناس الحقيقية. كان يؤمن بأنه كلما عظم الإنسان، اشتدت الاختبارات التي يواجهها.

أشعل سيجارة وأخذ نفساً عميقاً، واضطرت إلى منع نفسي من السؤال عما إذا كان بإمكانني الحصول على واحدة.

- لم يتعرض أحد في عائلتنا لاختبار كما تعرضت أنت. أنا فخور جداً بك، وبالطريقة التي تعاملت بها مع الأمور. لقد اخترت في عامين أكثر مما يختبره معظم الناس طوال حياتهم. أنا ووالدتك فخوران بك، فخوران جداً. سيمتلئ هذا المنزل غداً بالناس الذين يحبونك. أناس سيسعدون برحيلك، وسيزدادون سعادة بعودتك مهندساً. «السيد المهندس»، هذا ما سيناديك به الجميع لبقية حياتك. ستصبح رمزاً للنجاح، وقدوة للكثيرين في هذا المجتمع. أنت تفتح باباً لم يسبق لأحد من أفراد عائلتنا أن مر من خلاله، لكنني أؤكد لك أنك لن تكون الوحيد الذي سيمر عبره! فبينما تمهد الطريق، سيسير الآخرون على خطاك. ستكون شجاعتك وتصميمك مصدر إلهام. نجاحك سيجعل حياة الكثيرين أفضل. أنت حقاً تتمتع بتلك السمعة يا بُني. نظرت إليه ووجهي خالٍ من التعبير. الولايات المتحدة، ومختبر الحياة، واختبار العظمة؛ لو أنه يعلم فقط ما الأفكار التي تختمر في رأسي الآن!

استمر والذي في الحديث، لكنني لم أعد أصغي إليه، على الرغم من أنه من غير اللائق أن يكون المرء مشتبك الذهن بينما يتحدث والده. سمعت كلمات مثل الولايات المتحدة، والطائرة، والهندسة المدنية، والطريق السريع ذي المسارات الأربعة، ونوشهر وطهران، وبدأت أفقد صبري مع كل ذلك الهراء الذي أسمعته منذ أن كنت في الرابعة من عمري. فكرت، تباً للولايات المتحدة الأمريكية، ورحلة الطائرة، وشهادة الهندسة المدنية اللعينة، والطريق السريع اللعين ذي المسارات الأربعة الذي يربط بلدة لعينة بأخرى.

ثم فكرت في زاري، حبيبتي التي تخجل من إظهار وجهها المحترق، أو التي أجبرتها الحكومة على إخفاء هويتها الحقيقية. ملاكي التي قبلت حياة العزلة والوحدة. لم تعد هذه مجرد افتراضات، بل حقائق. ليست مجرد تصوراتي، بل هي الواقع. كانت جدة أحمد المسكينة تدرك ما تحدث عنه. لماذا لم يصغ إليها أحد؟

ظلت نخبرنا بأن بنت الجيران تبكي كل ليلة شوقاً إلى زوجها. كانت بنت الجيران هي زاري، وكنت أنا الزوج. لا أستطيع تصديق أنني ظننت أن حبيبتني ماتت. عضضت المسافة بين إصبعي الإبهام والسبابة. لا شك أن الجميع سيعتقدون أنني فقدت عقلي عندما أعلن أن زاري على قيد الحياة، وتختبئ تحت برقع الملاك المُقنَّع، لكنني لم أكثرث. فأنا واثق بما أعرفه، ومتأكد مما سمعته. كان صوت زاري هو الذي أسكت كيفان عندما توسل طالباً قصة أخرى. الملاك المُقنَّع هي زاري، لم يكن لديَّ شك في ذلك.

ملأنتني فكرة وجود زاري على قيد الحياة فرحاً وحماسة، إلى درجة أنني وجدت نفسي فجأة أميل إلى الورا وذرعاي ممدودتان على الجانبين، وعياني مغمضتان، ووجهي متجه إلى السقف، كما لو كنت أستقبل حضن الشمس. أحسست بدفء جسدها مقابل جسدي، كما كنت أشعر في الليالي التي كانت تنام فيها بين ذراعي. أحسست بأنفاسها على عنقي حيث يستريح وجهها، وسمعت قلبها كخفقان الأجنحة. شكرًا لك يا إلهي على إعادة زاري إليَّ. سامحني لشكي في حكمتك وكرمك. اغفر لي لأنني عشت حياة بلا إيمان، ودعني أكن خادماً لك، وأعدك بأن أكفر عن تصرفاتي الحمقاء.

فتحت عيني، ولاحظت أن والدَي يراقبانني. اعتدلت في جلستي بسرعة، وطأطأت رأسي من دون أن أنطق بكلمة. توقعت أن يسألني والذي ما الخطب، لكنه لم يفعل. همست أُمِّي قائلة:

- هذا ضغط كبير عليه. إنه يتصرف بغرابة منذ الصباح.

مدت يدها ولمست جبعتي، وتمتمت:

- إنه لا يعاني الحرارة. لا بد أنه يحترق من الداخل، يا لطفلي المسكين!

قال والذي بحدة وقد نفذ صبره:

- توقفي عن ذلك.

غادر الغرفة بينما لمست والدتي وجهي بلطف بأطراف أصابعها وهمست بقلق:

- ما الخطب؟

لم أستطع تمالك نفسي.

- إنها على قيد الحياة.

- مَنْ على قيد الحياة يا عزيزي؟

همست:

- ملاكي المُقنَّع.

قالت معتقدة أنني أقصد ثريا:

- بالتأكيد هي على قيد الحياة.

تمتتم وأنا أنظر إلى الردهة، حيث أمكنني سماع أبي يقترب:

- أنا لست مجنونًا.

هدأتني أمي قائلة:

- يا إلهي، لم تكن مجنونًا قطُّ. لقد مررت بالكثير، هذا كل ما في الأمر.

دخل أبي الغرفة وفي يديه كوب من الماء، وأعطاني حبة دواء وطلب مني أن أتناولها.

سألته أمي:

- ما هذا؟

أجاب:

- فاليوم، سوف يهدئه.

لم أتناول الفاليوم من قبل، لكنه بالتأكيد أفضل من أي شيء قد تعطيني إياه أمي، لذا ابتلعت الحبة من دون جدال.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يغمرني شعور بالخدر. تذكرت أيامي في المستشفى، عندما كان يعقب الإحساس بالسكينة استيقاظ مؤلم على واقع كئيب وقاسٍ. قبل أن أفقد الوعي، أردت الاطمئنان على أمي. سألتها:

- لماذا تبكين يا أمي؟ أرجوك، توقفي. زاري على قيد الحياة. لم أعد بحاجة إلى الذهاب للولايات المتحدة. أليس هذا رائعًا؟ ألا يسعدك هذا؟

أمسكت أُمِّي وجهي بيديها وأسندت جبينها إلى جبیني وهي تبكي بمرارة.

- حبيبي، طفلي الصغير. ماذا حدث لك؟

- إذا ذهبت إلى أي مكان، فسيكون ذلك مع زاري وأحمد وفهيمه، ولفترة

قصيرة فقط، مجرد إجازة. أليس هذا رائعًا؟ سأكون سعيدًا جدًا من الآن

فصاعدًا، كما كنت في السابق قبل أن يبدأ هذا الكابوس. أليس هذا رائعًا

يا أُمِّي؟

أومأت برأسها.

- بلى، إنه كذلك يا حبيبي.

واصلتُ وشفتاي جافتان، بينما يتدفق نهر من عيني:

- الحياة أشبه بالضياء في الصحراء، حيث النجوم هي الدليل الوحيد الذي

يمكن الاعتماد عليه. أنت وأبي وزاري وفهيمه وأحمد النجوم التي ترشدني.

أنتم جميعًا تتمتعون بتلك السمة. ويومًا ما سأكتب كتابًا عن كل ما حدث.

ثم التفت إلى أبي وغمغمت:

- هل تؤمن بالقدر يا أبي؟

بدا لي صوتي مشوشًا، ولا أذكر أنني سمعت إجابة أبي.

استيقظت على مرتبة في غرفة المعيشة، غارقًا في العرق، محمومًا، متثاقلاً، وأشعر

بالألم. كان والداي نائمين على الأرض على بُعد بضعة أمتار، والأنوار في الغرفة

مطفأة، لكن ضوء القمر المتسرب من خلال الستائر جعل كل شيء مرئيًا. نظرت

إلى الساعة الكبيرة التي أصلحها والذي قبل بضعة أيام، فوجدتها تشير إلى الساعة

الثالثة والنصف، بينما أشارت ساعتني إلى العاشرة والنصف. رأيت البندول يتحرك

ببطء من جهة إلى أخرى، وتساءلت لماذا تكبدت أنا وأبي عناء محاولة إصلاح

هذه الساعة القديمة المسكينة التي عفا عليها الزمن منذ فترة طويلة.

دار عقلي في دوامة من الأفكار عن الزمن. ولإيقاف ذلك، نهضت من على

المرتبة، وصعدت الدرج نحو شرفة الطابق الثالث. سأختبئ هناك في الظلام

وأنظر خروج زاري، كما تفعل عادة، لمراقبتي. وعندما تظهر، سأواجهها، وأكشف لها أنني أعرف الحقيقة.

عندما وصلت إلى الطابق الثالث، نظرت من خلال النافذة لأرى ما إذا كانت موجودة بالفعل في الشرفة. أضاء السماء جرم سماوي مستدير متوهج من الضوء، ورأيت كل شيء في الخارج بوضوح، لكن الشرفة كانت خالية. عبرت الجدار المنخفض بين منزلينا، وانتقلت إلى أقصى الجانب الجنوبي من الشرفة لأجلس في الظل. نظرت إلى ساعتني، وكانت لا تزال العاشرة والنصف.

كانت ليلة هادئة، هادئة إلى درجة أنه يمكن سماع سقوط ورقة شجر، أو صرير باب، أو صوت الليل نفسه يتنفس من خلال النسيم المعتدل الذي يهب وينقطع. جلست بصبر هناك في الظلام، وصدري يتمدد كأنه بالون من الترقب والقلق والأمل. نظرت إلى ساعتني، فوجدتها لا تزال الساعة العاشرة والنصف، وتساءلت كم من الوقت سأنتظر.

بينما جلست في الظلام على شرفة منزل زاري، أملت ألا يستيقظ والداي، لأنهما بلا شك سيصابان بالذعر ويهرعان إلى الطابق العلوي، وربما يفسدان خطتي لكشف زاري. اجتاحني قلق مألوف، يشبه نوبات الهلع التي كنت أعانيها في المستشفى. ربما أفقد عقلي. يا إلهي، أتمنى ألا يكون ذلك هو ما يحدث! لكنني بدأت أفقد صبري. ربما يجب أن أقتحم منزلها وأطالب برؤيتها. نظرت إلى ساعتني، ووجدتها لا تزال تشير إلى العاشرة والنصف، فهزرت معصمي ونقرت على الساعة. سمعت صريراً خافتاً لباب يُفتح، وترددت دقات قلبي في أذني بشدة، إلى درجة أنني خشيت أن يستيقظ الحي بأكمله. وضعت يدي على صدري، وضغطت بقوة لتهدئة نفسي. سمعت وقع خطواتها الخافتة على الشرفة، مصحوباً بالحفيف الخافت لبرقعها وهو يجرجر خلفها على الأرضية الخرسانية. كانت لا تزال بعيدة عن ناظري، لكن ظلها الطويل امتد بعيداً عن الباب، مندفعاً نحو حافة الشرفة، ثم انكمش فجأة وهي تجلس القرفصاء. تحولت إلى حجر بفعل ثقل اللحظة، غير قادر على الكلام أو حتى التنفس.

أطلت على غرفتي بوضوح من مكان جلوسها، واستتجت أنها تنتظر إنارة الضوء في غرفتي. ربما لم يكن هذا المكان الأنسب لي للاختباء، فما الفائدة إن لم أستطع رؤية ما تفعله؟

فجأة، امتد ظلها مرة أخرى، وظهرت وهي تتحرك ببطء من يميني إلى يساري، باتجاه البقعة التي اعتدنا الجلوس فيها معاً تحت الجدار المنخفض. بدت هيئتها المتشحة بالبرق الأسود والمضاءة بنور البدر خلفها أطول مما أتذكرها. نظرت من فوق الجدار باتجاه غرفتي، ثم وقفت على أطراف أصابعها، ومدت عنقها في محاولة للإلقاء نظرة أفضل. وقفت هناك بعض الوقت، ثم انتقلت إلى حافة الشرفة وانحنت لتتأمل إلى فناء منزلي. صرت متأكداً الآن أنها تتجسس عليّ، وأنها هي التي كانت تراقبني كل ليلة وهي في مأمن وسط الظلال. عادت إلى مكاننا، وألقت نظرة أخرى على غرفتي وجلست. شعرت بدمائي تتدفق في عروقي، وتنبض بقوة جعلتني واهناً كالماء.

بدأت تعثب بالجزء الأمامي من برقعها، كأنها تزيل الدانتيل الذي يبطّن قسم القناع من نقابها. عملت أصابعها بسرعة، لكن بدا أنها تجاهد لفك عقدة خفية. بدت يداها نحيفتين وشاحبتين ورشيقتين، تماماً مثل زاري. يا إلهي، إذا نجحت، فقد أتمكن من رؤية وجهها! بحركة خفيفة من يدها، رمت الدانتيل إلى الخلف، وبدأت تحك قمة رأسها. جاهدتُ لأرى وجهها، لكن ذراعها حجبت عني الرؤية.

بعد لحظات قليلة انزلت ذراعها إلى الأسفل، لكن جانب برقعها حجب وجهها. كل ما استطعت رؤيته هو ظل مخملي لملامحها الجانبية بلا حراك، مثل عارضة تتخذ وضعية أمام رسّام. بعد ثوانٍ قليلة، اتكأت على الجدار. وعلى الرغم من أنني لم أتمكن من رؤية وجهها، فإنني استطعت ملاحظة أن عينيها مغمضتان وشفتيها تتحركان، ربما لتلقي قصيدة من قصائد حافظ أو الخيام، ربما حتى واحدة من تلك التي قرأتها لها. ارتفع صدرها وهبط، وكدت أرى أنفاسها وهي تتردد. فجأة، تنبّهت، كما لو أنها سمعت صوتاً. أدركتُ من اتجاه نظراتها أنها تعتقد أن

الصوت صادر من منزلي، وأملتُ ألا يكون والداي في طريقهما إلى هنا. أعلم أنها ستهرع عائدة إلى منزلها إذا رأتهما.

ركزتُ بشدة في محاولة لرؤية وجهها. مال رأسها إلى اليمين، كأنها تنظر من فوق كتفها نحو غرفتي، متوقعة وصولي. وأدركتُ من وضعية جسدها وطريقة تمللملها أنها قلقة ومشتتة بسبب الصوت الذي ظنت أنها سمعته. بعد بضع ثوانٍ من الهدوء، اتكأت على الجدار مجدداً.

صارعتُ فكرة الخروج من الظلام إلى ضوء القمر. سننظر في أعين بعضنا، لكننا لن نقول أي شيء. ماذا يمكن أن يقول أيُّ منا؟ ستكون لحظة أجمل من أن تفسدها الكلمات. سأمشي إليها وأمد لها يدي وأساعدتها على النهوض، وستعانق إلى الأبد. لكن ماذا لو حاولت الهرب؟ سأمسك بها وأخبرها بأن الكابوس قد انتهى، وأني لا أهتم بمظهرها، وأنها ستكون لي لبقية حياتنا! همستُ من دون قصد:

- نعم.

رفعت رأسها فجأة، وحدقت إلى المكان الذي أجلس فيه. توهجت عيناها وتألقتا بضوء القمر المستعار، وكانتا بلا شك العينين أنفسهما اللتين راقبتاني كل ليلة. بدت نظراتها حادة وثاقبة، وشرسة وحذرة مثل نظرات قطّة مدعورة. وبدلاً من أن تهرب، مدت يدها بهدوء فوق رأسها، وسحبت الدانتيل إلى أسفل، أمام وجهها، لتحول نفسها مرة أخرى إلى الملاك المُقنَّع. ذكرتني الثقة والثبات في حركاتها بثقتها المعهودة.

وقفتُ وخرجت إلى ضوء القمر، بينما جلست هي بلا حراك، وجذبتني تجاهها كالمنغناطيس. مشيت ببطء نحوها، ووقفتُ للحظة، ثم انحنيت بحرص لأجلس بجانبها. رمشت عيناها وهما تحدقان إلى وجهي من خلف دانتيل برقعهما، وضبط قلبي إيقاعه ليجاري إيقاعهما، وامتلات عيناى بالدموع.

همست:

- لا تبك.

بحث عن نبرة مألوفة في ذلك الهمس.

كررت:

- أرجوك، لا تبك.

سألتها:

- هل هذه أنتِ؟

أدارت رأسها، وأخفت عينيها عن عيني.

توسلت إليها:

- أخبريني، هل هذه أنتِ؟

ظلت محتجبة وصامتة. اقتربت منها وأمسكت ذقنها بيدي لأدير وجهها نحوي.

- دعيني أرّ وجهك.

هزت رأسها بالنفي، لكنني استطعت رؤية دموعها تتساقط كالجواهر تحت برقعها.

وبختها برفق:

- كم من الوقت ظننت أن بإمكانك الاختباء مني؟

حاولت أن تدير رأسها بعيداً مرة أخرى، لكنني أمسكتها بقوة.

- هل ظننت حقاً أنني لن أراك؟

هزت رأسها في صمت ردّاً على سؤالي.

- هل لديك أي فكرة كم عانيت من دونك؟

اختلفت، وتسلسل الغضب إلى صوتي.

- هل تعلمين كم مرة ظننت أن الحياة لا تستحق العيش من دونك؟ ماذا لو

قتلت نفسي؟

تسللت يدها من تحت البرقع، وحاولت أن تضع أصابعها على شفتي لتهدئتي،

لكنني أبعدت رأسي وواصلت الحديث.

- هل ظننت أنني سأرحل وأنسى أمرك؟ كيف أمكنك أن تظني ذلك؟ ألم تعلمي

أن الاحترق في الجحيم إلى الأبد سيكون عقاباً أفضل من الحياة من دونك؟

توسلت قائلة:

- صَه.

- النار التي انتزعتك مني لا تزال تحرق قلبي.

همست:

- أرجوك، توقف.

- لا! لماذا أتوقف؟ كيف يمكنني ذلك؟

- أتوسل إليك، أرجوك، توقف.

- هل هددوا عائلتك؟ هل كان كيفان؟ هل هددوا بأخذه بعيداً؟ أخبريني بالحقيقة؟

بكت، وتخللت كلماتها أنفاس متقطعة.

- أرجوك، توقف، أرجوك...

توقفتُ واستمعت إلى بكائها، وشعرت كأن شخصاً ما ينتزع قلبي من صدري. ملأني الندم، وتوسلت إليها أن تسامحني. حاولت أن أشرح لها أن بركاناً قد انفجر بداخلي، وعلى الرغم من أنني أتمنى لو كان بإمكانني كبح جماحه، فإنني لا أستطيع السيطرة عليه.

مالت كي تقترب مني، ومسحت الدموع من على وجنتي بكفي يديها، ثم تراجعت بسرعة. أوضحت لها أنني لم أكن لأستطيع قط أن أتخيل مستقبلي من دونها، وأنه سيبدو مثل أرض قاحلة شاسعة، وأنا أستيظ كل صباح ولا أبالي إن كان الجو مشمساً أو ممطراً، حاراً أو بارداً، مبكراً أو متأخراً، شتاءً أو صيفاً. دعوت الله أن يأخذني، وأن يضع حداً للحياة لم تعد لها أي أهمية.

عضت الجلد بين إبهامها وسبابتها بسرعة، وقالت:

- لا تقل ذلك!

ثم انفجرت في بكاء مرير.

قلت:

- يا إلهي! ماذا أفعل؟ ما مررت به يا حبيبتي أسوأ مائة مرة مما تحملته أنا.

سامحيني لكوني أنانياً جداً.

- لا، لا، لا! أرجوك، توقف عن قول هذه الأشياء!

- مشيتك، وطريقة حركتك، وعيناك، والطريقة التي حككت بها رأسك قبل دقيقة، كل شيء يخبرني بأنك زاري.
- يجب أن تتوقف عن هذا.
- دعيني أضمك، دعيني أشعر بثقل جسدك قبالة جسدي. أخبريني بأن لا شيء سيفرقنا مرة أخرى.
بكت قائلة:

- يا إلهي، سامحني، ما كان يجب أن أدع الأمور تصل إلى هذا الحد.
- كل ما أريده منك هو أن تعطيني بأنك لن تفعل شيئاً كهذا مرة أخرى!
- يا إلهي، ساعدني. أرجوك، ساعدني!
- ما الذي تخشيه؟
- أرجوك، يا إلهي، أنا آسفة.
بدأت أستمع إليها، وقلت:
- لماذا أنت آسفة؟
- هذا سيحطم قلبه...
قاطعتها:

- لا يهمني شكلك. مظهرك لا يهمني. أنا أحبك.
- يا إلهي، ساعدني، ما كان يجب أن أدع الأمر يصل إلى هذا الحد.
دفعني برفق إلى الخلف عندما مددت يدي لأحتضنها، وفي الصمت الذي لا يطاق الذي أعقب ذلك، حدقت إلى عينيها، باحثاً بيأس عن إجابة لسؤال لا أملك الشجاعة لطرحه. حاولت أن تقول شيئاً ما عدة مرات، لكن بكاءها حال دون ذلك.
سألتها:

- ما الذي تحاولين قوله؟
أعقب ذلك صمت طويل. خفق قلبي، كما خفق قلبها، وسمعتُ كليهما.
بكت قائلة:
- أنا لست هي!

لم أقل شيئاً، خشية أن أكون قد سمعتها بشكل صحيح. همست وهي تهز رأسها وتنشج:

- أنا لست هي. ألا تفهم؟ أنا لست هي. أتمنى لو كنت كذلك، أتمنى هذا حقاً. تلاشى صوتي مع أُملي وأنا أتوسل قائلاً:
- لا تفعلني.

بكت وهي تقول:

- كنت أعرف أن الأمر سيصل إلى هذا الحد. توقعت كل هذا صباح عودتك من المستشفى. عرفت أنك ستبحث عن ملاكك تحت برقي في نهاية المطاف، لكنني لست هي. لقد أحبتك كثيراً، ولا أعتقد أنها كانت ستمتع بالقوة لتختبي خلف هذا القناع، مهما بدا شكلها بعد ذلك اليوم الملعون. انتحبت وارتجف جسدها بعنف.

شعرت كأن أحدهم حقني بماء مثلج. تصاعدت المرارة في فمي، واندفعت في عروقي، وحرقت جلدي.

لو أن لديّ حصاناً، لركبته.

لو أن لديّ قلباً، لأخفيته.

قالت:

- ما كان يجب أن أدع الأمر يصل إلى هذا الحد، أعرف ذلك الآن. نعم، لقد راقبتك كل ليلة من هذه البقعة، لأنني شعرت بالفضول تجاهك. أدركت أنك تراقبني، كما أدركت أنك ربطت بيني وبينها في مكان ما في أعماق ذهنك. أعرف أنك رأيتني من خلال النافذة بينما كان ظهري لك، لكنني تركتك تفعل ذلك لأنني أحبيت الشعور بنظرتك إليّ. كان يجب أن أوقفك، أتمنى أن تسامحني على ذلك.

لو أنني أعرف قافية، لرددتها.

لو أنني أعرف أغنية، لغنيها.

شعرت بنفسي وأنا أشرد بعيدًا. طن صوتها في أذني، لكنني لم أسمع الكلمات. رأيت رأسها يتحرك، وجسدها يميل من اليسار إلى اليمين، وعينيها الزرقاوين الكبيرتين تلمعان في ضوء القمر، والدموع تسيل على وجنتيها اللتين بالكاد تظهران من تحت برقعها. أغمضت عيني، وأحسيت عنقي بين كتفي، ولعقت شفتي، ودعوت الله أن تنتهي هذه اللحظة.

لا أعرف كم بقيت على تلك الحالة، لكن عندما فتحت عيني، كانت الملاك المُقنَّع لا تزال جالسة بجانبني، ساكنة وصامتة، وعيناها تتوسلان المغفرة. حدثتُ إلى الأرض فترة طويلة قبل أن أسأل:

- لماذا؟

- لا أعرف.

لم أقل شيئًا، لأنه لم يكن لديَّ ما أقوله.

قالت:

- ربما تمنيت لو كنت مكانها. يُسمُّونني الملاك المُقنَّع، لكن حتى الملاك

لا يستطيع مقاومة إغراء الرغبة في الحب.

لم أُجب.

- ليتني أوضحت لك منذ البداية أنني لست هي. أرجوك سامحني لأنني لم

أفعل. هل يمكنك أن تسامحني؟

بقيت صامتًا ومنهكًا، مثل شاهد قبر الدكتور.

- لن ألوئك إذا لم تستطع ذلك. اكرهني، لكن أرجوك ارحل كما خططت.

هذا أفضل لنا جميعًا. ولو كانت معنا، لرغبت في رحيلك.

قلت بمرارة:

- لا، لم تكن لترغب في ذلك.

اعترفت قائلة:

- حسناً، أنت محق، لم تكن لتريدك أن ترحل.

كررت مثل طفل صعب المراس:

- لا، لم تكن لترغب في ذلك.

قالت مرة أخرى باستسلام:

- حسناً، أنت محق، لم تكن لتريدك أن ترحل. أذكر كم كانت حزينه بشأن

ذلك. ساورها القلق من أن تذهب بعيداً وتنساها، وأن تعود بزوجة جميلة

ومثقفة وأكثر جاذبية منها بمليون مرة.

قلت بحزم:

- ما كان ذلك ليحدث أبداً.

قالت:

- أعرف ذلك الآن، لكنني لم أكن أعرفه حينها، لذا لم أستطع أن أقول شيئاً

عكس ذلك. أتدري، لقد أحببت الشعر الذي كنت تقرأه لها. لطالما تحدثت

عن كيفية قراءتك لكل بيت من الشعر كما لو كنت أنت الشاعر.

أشحت برأسي بعيداً بينما هي تتكلم. أغضبني صوتها الهامس، وتمنيت لو

أنها توقفت، لكنها واصلت الحديث.

قالت الملاك المُقنَّع بهدوء:

- ما كانت لتريدك أن تحمل ذكريات مريرة عنها. لو استطاعت أن تكون هنا

لدقيقة واحدة - دقيقة واحدة فقط - لاستغلت كل ثانية من ذلك الوقت

لتطلب منك الماضي قُدماً. كانت ستطلب منك أن تفعل ذلك من أجلها،

لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنها من خلالها أن تنعم بالسلام.

توقفت عن الحديث بضع ثوانٍ.

- لم تخبر أحداً عنك قط، سواي أنا. أنا الوحيدة التي تعرف كم كانت تحبك.

أرجوك صدقني عندما أقول لك إنني أعلم أنها كانت لتريدك أن تمضي قُدماً.

كيف يمكنها أن ترقد في سلام إذا دمرت حياتك بسببها؟

توقفت مرة أخرى، ومسحت الدموع عن وجهها. ثم سألتني، كأنها تذكرت فجأة شيئاً يجب أن يُقال:

- هل تذكر أنها أشارت إلى أكبر نجم في السماء وقالت إنه أنت؟
- نعم.

مالت نحوي، وحاولت النظر في عيني.

- عليك أن ترحل بعيداً، ولا تلتفت وراءك أبداً. عليك أن تترك الألم هنا، حيث ينتمي. أعلم أن هذا ما كانت تريدني أن أطلبه منك. لقد عرفتُها أفضل من أي شخص آخر في العالم. كانت ابنة خالتي، وصديقتي المقربة. يجب أن تثق بي.

فركتُ وجهي بقبضتي، وأومأت برأسي لأخبرها بأنني أثق بها. بكت لبعض الوقت، ثم اعتذرت مرة أخرى عن تضليلي، وقالت إنها بحاجة إلى العودة إلى داخل المنزل، لأن خالتها وزوج خالتها قد يقلقان عليها. لكنها لم تغادر، بل استمرت في الحديث. قالت إنها فهمت الآن لماذا ظنت زاري أن لديّ أكبر نجم في السماء، وأني أتحدى بتلك السمة. كانت زاري تجيد الحكم على الشخصيات، وكان تقييمها لي صحيحاً. وستحرص على الاطلاع على تقدمي في الحياة من خلال جيراننا وعائلتي، وستدعو لي كل ليلة طوال حياتها. وأكدت لي أنها ستعتني بوالدي زاري لأنهما صارا أولويتها الأولى، وستكون خادمة مخلصة ورفيقة مدى الحياة للعائلة.

وقفت ومدت لي يدها لأصافحها، فصافحتها على مضض. كانت يدها باردة، لكن قبضتها دافئة. ضغطتُ على يدها برفق، فضغطت على يدي أيضاً. خفضت نظري إلى أصابعها الطويلة، وإلى أظفارها التي تشبه أظفار زاري تماماً. ثم رفعت عيني، وحدقت إلى عينيها الفيروزيتين اللامعتين.

تذكرت ليلتي الأخيرة مع زاري، عندما أخبرتها عن المحادثة التي سمعتها بالمصادفة بينها وبين الملاك المُقنَّع. قالت زاري إن تلك كانت آخر مرة تحدثت فيها مع ثريا. لم يكن بإمكان الملاك المُقنَّع أن تعرف عن الليلة التي قضيتها أنا

وزاري معًا في غرفتها، عندما أشارت إلى السماء وأخبرتني بأن نجمي هو النجم الأكبر. وفي اليوم التالي، أشعلت النار في نفسها.
همستُ:

- إنها أنتِ، أليس كذلك؟
بدأت ترتجف تحت برقعها.
قلت:

- هاتان عينا زاري.
أغلقت عينيها بإحكام أمام نظراتي.
سألتها مرة أخرى بياس:
- هل هذه أنتِ؟
بكت قائلة:
- نعم، إنها أنا.

انثنت ركبتيها وانهارت بين ذراعي، فحملتها وضممتها إليّ، ونزلنا ببطء إلى الأرض بين أذرع بعضنا. قبّلت قمة رأسها وجبهتها وعينيها المغمضتين من خلال قماش البرقع. ربت يداها على وجهي، ومررت أصابعها خلال شعري، والتقت يداها لتلتفًا حول عنقي.

همست:

- أحبك.

همست في المقابل:

- أنا أيضًا أحبك.

شكوت قائلاً:

- اشتقت إليك.

- اشتقت إليك أكثر.

احتضنت مؤخرة رأسها بين كفّي، وسحبته إلى الأمام حتى تلامست جبهتنا.
- لم أكن لأستطيع النجاة من دونك.

- أنا آسفة جدًا.

سألته وأنا أهرها برفق:

- هل سمعني أتحدث إليك في أحلامي؟
قالت:

- كل كلمة، لكنني لم أستطع الرد. تمنيتُ أن ترحل وتسعى وراء أحلامك،
وتمضي قدمًا وتركني أختفي.

- أي حلم يستحق السعي وراءه من دونك؟
تصلب جسدها وهي تقول باكية:

- لا تقل ذلك! لا يمكنك البقاء. عليك أن تعدني بأنك سترحل كما خططت.
قلت وأنا أضمرها بقوة أكبر:
- لا، أبدًا.

توسلت إليّ:

- لكن يجب عليك ذلك، من أجلك ومن أجلي، ومن أجل سلامة الجميع.
يا إلهي، أتذكر ركضك خلفي، وصرخاتك اليائسة يا علي، يا علي ستبقى
في ذاكرتي إلى الأبد. شعرت بالأسف الشديد من أجلك. لا أدري لماذا
اصطحبتك معي لرؤية ذلك المشهد الرهيب. ربما تمنيتُ لاشعوريًا أن
وجودك هناك سيغير رأيي. أنا آسفة جدًا، آسفة جدًا يا عزيزي.

مدت زاري يدها تحت برقها لتمسح دموعها، وضممتها إليّ لأهدئ من
روعها.

- كان الألم الذي شعرت به من أجلك أكثر إيلاّمًا بكثير من آثار حروقي. أتذكر
صفارات الإنذار، والمسعفين الذين عملوا على إسعافي، والمستشفى. كان
بإمكاني تحمّل ألمي لو كنتُ أعلم أنك بخير. لم يتحدث معي أحد عن أي
شيء باستثناء الرعاية التي كنت سأتلقها. احترقت كتفائي وعنقي وأجزاء
من وجهي، وإن لم تكن الحروق بالغة. بدت أسوأ بكثير مما هي عليه في
الواقع. عرفت أنهم قصوا شعري، وأن على رأسي ضمادات. أردت أن

أسأل عن أحمد وفهيمة وعنك، لكنني لم أستطع لأنني لم أرغب في ربط أيّ منكم بنفسي. لكن في وقت متأخر من الليل، كنت أدعو لكم جميعاً سرّاً. في بعض الأحيان كنت أكرر الدعاء نفسه مئات المرات، معتقدة أنه كلما رددته أكثر، زاد احتمال أن يقبل الله دعواتي.

كان هناك رجل يزورني في المستشفى كل يوم: الرجل نفسه الذي لكم الدكتور في وجهه، الرجل الذي كان يحمل جهاز اللاسلكي. راقبني لساعات من وراء نافذة كبيرة، وتحدث إلى الأطباء والممرضات، ودوّن الملاحظات. نظر إليّ نظرات غريبة وحزينة، وبدا كأنه يشعر بالأسف تجاهي. ذات مرة، استيقظت في منتصف الليل ووجدته واقفاً بجوار فراشي، يحرق إلى وجهي بتلك النظرة التي تملو وجهه. أردت أن أقول شيئاً، لكنه غادر على الفور.

عذبني بشدة فراقك، وهكذا عرفت أنني أحبيتك بصدق. ولعنت نفسي لأنني طلبت منك الذهاب معي. ماذا ستجني من تجربة مشاهدتي أتحرق نفسي سوى حياة من العذاب والألم؟ أنا آسفة جداً يا عزيزي، آسفة جداً. ومما زاد الطين بلة، أنني كنت على قيد الحياة ولم يعرف أحد ذلك. تمنيت الموت، تمنيت لو كنت مت بالفعل. الألم الذي سببته لك أنت وفهيمة وأحمد، وبالطبع لوالدي، كان كل ذلك لا يطاق بالنسبة إليّ. والآن، على والدي أن يعيشا بقية حياتهما في المنفى بسبب ما فعلته. أتمنى لو أنني مت. أنا آسفة جداً.

أومأت برأسي شاكرًا الله لبقائها على قيد الحياة، وقلت:

- أتفهم ذلك.

قالت زاري:

- فيما يتعلق بي أنا، لم أندم قطّ على فعلتي، لكنني أعتذر بشدة عن توريط بقيتكم. كان عليّ أن أفعل ما فعلته. كان على شخص ما أن يفعل ذلك. كان على شخص ما أن يدلي ببيان علناً، بصوت عالٍ ويتحدّ. اعتاد الدكتور

القول إن النظام لا يفهم أن قتل الناس لا يخيف الناشطين، وإن الموت ثمن بسيط مقابل الحرية.

توقفت زاري عن الحديث، واستجمعت أنفاسها وهي ترتجف تحت البرقع. - مقابل كل شخص يقتلونه في الخفاء، يجب أن يفعل عشرة أشخاص ما فعلته أنا في العلن، حتى يرى النظام أن القتل لا يؤدي إلا إلى إبراز جرائمهم. توقفت زاري قليلاً مرة أخرى.

- عندما بدأ جلدي بالشفاء، نقلوني إلى طابق مختلف وغرفة مختلفة، حيث كانت لدي نافذة تطل على ساحة بدت ممتلئة دائماً بالناس. كان الغموض الذي يحيط بمصيري قد بدأ يرهقني، وكنت أجلس قرب النافذة وأتساءل إن كنت بخير، وإن كنت قد ذهبت إلى الولايات المتحدة، وإن كان أحمد وفهيمه حُرِين وما زالوا معاً.

قلت:

- لقد فعلت الشيء نفسه في غرفتي، لكنني تساءلت إن كنت ترينني أو تسمعينني. بكيت وظللت أسأل لماذا.

قالت:

- كنت أتحدث إليك كل ليلة. كنت أحتضنك بين ذراعي وأداعب وجهك وشعرك، وأقبل شفتيك. كنت سأموت لو حدث لك مكروه. كان الألم سيقتلني.

أصبح تنفُّسها غير منتظم، كما لو كانت تلهث، فسألتها بقلق شديد:

- هل أنت بخير؟

أومأت برأسها قبل أن تكمل:

- لم يكن لدي أي اتصال مع أي شخص، لا تلفزيون ولا راديو ولا جريدة. لم أكن أعرف ما هو الوقت أو اليوم أو حتى الشهر. لم تكن لدي أي فكرة عما يحدث في العالم، باستثناء أن الشاه كان لا يزال في السلطة لأن الرجل الذي كان يحمل اللاسلكي ظل يزورني كل يوم. في ليالٍ كثيرة كنت أحلم

بأيامنا الصيفية بجانب الحوض تحت شجرة الكرز، وعند استيقاظي كنت أشعر كأن أحدهم وضع طناً من الطوب على صدري. كنت أحاول أن أتذكر شكل وجهك، لكنني لم أستطع. لسبب ما، كلما اشتد اشتياقي إليك، ازدادت صعوبة تصوّر وجهك في ذهني.

في إحدى الليالي استيقظت في منتصف الليل، وأدركت وجود قلم رصاص وبعض الأوراق بجانب فراشي، فبدأت على الفور في رسم صورة لك. بدا من المدهش كيف لم أستطع رؤية وجهك في مخيلتي، لكن يدي لم تجد صعوبة في رسم كل ملامحك على الورقة.

مدت زاري يدها ولمست وجهي بحب، ورأيت من خلال الفتحات الموجودة في البرقع أن عينيها مغلقتان.

- عندما انتهيت من الصورة، وضعتها على المنضدة بجانب فراشي ونمت. وفي صباح اليوم التالي عندما استيقظت، كانت الصورة والقلم الرصاص والأوراق قد اختفت.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، رأيت الرجل الذي كان يحمل اللاسلكي خارج نافذتي، وأدركت أن الورقة والقلم الرصاص قد وُضعا بجانب فراشي لخداعي لكتابة أو رسم شيء من شأنه أن يعطي العميل دليلاً على هوية شركائي. أصابتنى فكرة أن يطاردك ذلك الرجل الشرير بحالة من الهياج. صحت وصرخت وضربت نفسي في رأس، ولعنت الشاه وعائلته وجميع أنصاره. هرعت الممرضات إلى الغرفة، وقيدنني إلى الفراش، وأعطينني حقنة جعلتني أغفو.

عندما استيقظت، كان الرجل الذي يحمل جهاز اللاسلكي في غرفتي. وقف بالقرب من الباب، ممسكاً برسمتي بين يديه. حدقنا إلى بعضنا في صمت لفترة طويلة، قبل أن يخبرني بأنه ليس موجوداً لإيذائي. أرادني أن أسترخي وأهدأ. خففت نبرة صوته الهادئة من توترتي، وسألته عن سبب وجوده هناك، فتقدم نحوي ووضع رسمتي على الفراش، فالتقطتها وضممتها إلى قلبي.

همس إليّ أنه لن يؤدي الشاب الذي في الصورة. كانوا يتحرون عنا جميعاً منذ فترة طويلة، وكانوا متأكدين تماماً أنه لا علاقة لنا بأفعال الدكتور، و«لا علاقة لنا بجماعته»، على حد تعبيره. ثم أخبرني بأنني سأعود إلى المنزل، وأنه تم الاتصال بالذي بالفعل. وبما أن والذي كان بطلاً أولمبيّاً، فقد قررت الحكومة عدم معاقبتي، على الرغم من تصرفي الأحمق في عيد ميلاد جلالته. ومع ذلك، تقرر أن تُنفى عائلتي بأكملها إلى بندر عباس، حيث سنعيش بقية حياتنا على الخليج الفارسي، بعيداً عن بقية أقاربنا. أشار إلى الرسمة التي بين يدي، وقال إنه من الأفضل ألا أتواصل مع الشخص الذي في الصورة، كما أوضح لي أنه يجب ألا أتحدث مع أحمد وفهيمه، وعندها نوقشت فكرة تنكري في زي الملاك المُقنّع. اقترح هو ذلك، ورأيت أنها فكرة جيدة، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني من خلالها البقاء في الجوار فترة من الوقت. أردت رؤيتك بشدة، وأردت أن أكون مع والذي. توقفت زاري عن الحديث، فعانقتها بقوة أشد، وهمست:

- أحبك، أحبك.

همست هي الأخرى:

- أنا أيضاً أحبك.

أردت أن أقول إنني مندهش من موافقة والديها على هذا الترتيب، لكنني أدركت حينها كم عانى السيد والسيدة نادري ظناً منهما أنهما فقدوا زاري. بدا التظاهر بأنها ميتة لإبقائها على قيد الحياة ثمناً زهيداً، كانا سيدفعانه بكل سرور. أدركت من الطريقة التي اتكأت بها زاري نحوي أنها منهكة. تأثرتُ بقوتها وشجاعتها. لم تشكّ ولو لمرة واحدة ألمها الشخصي أو ظلم مصيرها أو حروق جلدها.

أمسكت بذقني، ورفعت وجهي إلى أعلى، ونظرت في عيني.

- ها أنت ذا ترى الآن لماذا يجب أن ترحل. لا يمكنني أن أكون معك، ولا أستطيع العودة.

ضممتها بقوة، وهمستُ في يأس:

- لكنهم برأوا ساحتنا.

- لا، لقد برأوك أنت وأحمد. لا يزال عليّ أن أدفع ثمن ما فعلته.

ضممتها إلى صدري بقوة أكبر.

قالت:

- قد يحدث الكثير في غضون سنوات قليلة. ستتغير الأمور - دائماً ما تتغير -

وعندها قد يصير من الآمن لنا أن نكون معاً.

سألتها:

- ما مدى سوء إصابتك؟

هزت رأسها، فأمسكتُ وجهها، وقبّلتها فوق البرقع.

همست:

- إن فكرة معاناتك من كل هذا الألم تقتلني.

قالت بهدوء:

- لم يكن الأمر سيئاً، لم يكن بهذا السوء حقاً. ربما يمكنهم يوماً ما إزالة

الندوب بالجراحة التجميلية. مَنْ يدري؟ العالم يتغير بسرعة كبيرة. هذا

سبب آخر يجعلك بحاجة إلى المغادرة، بوسعك أن تجد أفضل الأطباء

في الولايات المتحدة، ثم يمكنك أن ترسل في طلبي. وعندما أصل إلى

هناك، يمكنهم علاج وجهي وجسدي وسأعود جميلة مرة أخرى. وحينها

تستطيع الزواج بي، وسننجب أطفالاً صغيراً.

تهدج صوتها.

- أريدك أن ترحل.

الترمتُ الصمت، آملاً ألا أضطر إلى الموافقة إن لم أتكلم.

- صدقني، ليس من السهل عليّ أن أتركك ترحل، أنا بائسة من دونك. لم

تمر لحظة منذ الصيف الماضي من دون أن أفكر فيك. علينا تقديم هذه

التضحية الصغيرة الآن لنضمن أن نكون معاً في المستقبل. ومن الآن وحتى

ذلك الحين، سأحلم كل ليلة باليوم الذي سيبدأ فيه الناس بمناداتنا بـ«باشا وزاري شاهد».

قلت:

- السيد والسيدة شاهد.

- يعجبني وقع ذلك.

- أحبك.

ضممتها إليّ، وللمرة الأولى منذ شهور، اختفى القيد الحديدي الذي يطوق صدري، وبدأ أن الغصة التي كانت تسد حلقي قد ذابت فجأة.

همست:

- أنا ملكك، افعلي بي ما تشائين.

- إذن سأرسلك بعيداً.

عانقنا بعضنا لبقية الليل، وسرعان ما بدأت الشمس تبرز جهة الشرق، واختفى الظلام تدريجياً. جلسنا هناك، ورأسها على صدري، وأصابعنا متشابكة، وساقاها ملتفتان على ساقي، نشاهد الحياة تدب في العالم. أغمضت عيني، وتجاهلت كل ما يشئت انتباهي حتى أتمكن من حفظ كل التفاصيل.

قالت وهي تتمطى لتنهض:

- تعال إلى غرفتي، أريدك أن تحصل على شيء ما.

تبعتها إلى غرفتها، حيث كل شيء معبأ في صناديق وجاهز للنقل. أعطتني الصورة التي رسمتها لي في الزقاق. لكن هذه المرّة، كان للمرأة الغامضة وجه، ووجهها هي.

قالت:

- لا تنسني.

فكرت فيها وسط صحراء الوحدة بينما أنا في الخارج، فتشكّلت لدي فكرة. قلت وأنا أجذبها نحوي مجدداً:

- إذا شعرت بالضيق، فانظري إلى السماء وستجديننا هناك، معاً.

سألتني وهي تترك جسدها يلتصق بي للحظة:

- أنا أعرف نجمك، لكن أيها نجمي أنا؟

- النجم الأكبر والأكثر سطوعًا.

صححت لي قائلة:

- هذا أنت.

همست:

- هذا نحن، نحن نتشارك النجم نفسه.

شكر وتقدير

شكرًا الماريان كلارك، وتيم وسو إيلين كين، وسودي رافيان، وكيفن دانيلز، وكيم ليفين، ونانسي ماكفي، ولورا هوبير، وموزجان سراجي، ومهري سفاري، وكامران حيدر بور، ودونيل جرين، وديبي شوتويل، ونانسي فلاح، وموني سراجي، على تشجيعكم الحماسي لي في أثناء تأليف هذا الكتاب. جعلني كل واحد منكم، بطريقته الفريدة، أؤمن بأن لديّ قصة تستحق المشاركة.

ستيفاني هاوز: أتقدم لك بخالص الامتنان لوجهات نظرك الثاقبة وأفكارك النيرة، وللمساعدة المستمرة التي تقدمينها لي.

عزيزتي سيبى: لقد ساعدتني رؤيتك الثاقبة على فهم شخصية باشا على نحو أعمق مما كنت سأتمكن منه بمفردي. وشكرًا لتشجيعك المتواصل لي حتى النهاية.

شكرًا لوكيلتي، دانييل إيجان-ميلر وجوانا ماكنزي من وكالة براون وميلر الأدبية، على إصراركما الصادق وعدم استسلامكما، ولكونكما الشرارة التي أطلقت تجربة غيرت مجرى حياتي. كما أشكر أيضًا أليك ماكدونالد، للمساعدة التحريرية، وماريانا فيشر لحماستها المبكرة.

وأخيرًا، أتوجه بالشكر إلى إيلين إدواردز، محررتي الموهوبة والمجتهدة:
شكرًا لك على إتاحة الفرصة لي، وعلى تحمُّلك مسؤولية إيصال كتابي إلى بقية
العالم. لقد كان العمل معك بمنزلة تجربة تعليمية رائعة.

عزيري القارئ:

يسعدني أن أرحب بك في عالم سطوح طهران.

لقد اكتشفتُ متعة القراءة عندما كنت في العاشرة من عمري، جالسًا على سطح منزلي في طهران، غارقًا في قراءة ترجمة فارسية لرواية أبيض الناب لجاك لندن. أذهلتني قوة الكلمات، الكامنة في القدرة على أخذي إلى مكان أعرفه بالكاد، وجعلي أشعر كأنني عشت هناك طوال حياتي. كانت تجربة لم تفارقني قط. بعد ذلك بكثير، بدأت كتابة قصصي الخاصة، وسرعان ما أدركت أن الكتابة أكثر إرضاءً من أي شيء آخر فعلته على الإطلاق. كنت أبدأ في وقت مبكر من المساء وأتوقف عند الفجر، مرهقًا ومبتهجًا، ولا أدرك تقريبًا أن الليل قد انقضى. أردت من خلال كتابة سطوح طهران تعريف القراء بإيران، وإحياء جزء صغير من الثقافة الفارسية العريقة التي تعود إلى قرون مضت. في وقت يُصوّر فيه البلد الذي وُلدت فيه في وسائل الإعلام الإخبارية بـ«العدو»، اخترت أن أروي قصة عن الصداقة والفكاهة والحب والأمل، وهي تجارب عالمية يقدرها الناس في كل زمان ومكان. أردت أن أظهر جانبًا من إيران عادة ما يكون مخفيًا عن الأنظار: شعبها الودود والمرح والكريم. لعلك وأنت تقرأ الرواية - بينما تقابل أصدقاء باشا: أحمد وفهيمه والدكتور وإيراج وزاري، وبينما ترافق باشا في أزقة الحي الذي يقطنه، وبينما تقضي ليلة على سطح منزله، وتختلس النظر من نافذة جيرانه وتقع في حب الفتاة التي تسكن في الجوار - ستفهم مدى حبي لإيران ولشعبها. وسترى لماذا لا تزال شعلة الأمل لإيران متقدة بشدة في قلبي، وفي قلوب كثير من الإيرانيين في الداخل والخارج.

منذ أن استغرقتني رواية أبيض الناب قبل سنوات عديدة، قرأت مئات الكتب، وكثيرًا ما تمنيت بعد ذلك أن أتمكن من مشاركة أفكارى ومشاعري مباشرة مع المؤلف. لذا أدعوك إلى التواصل معي. إذا كنت ترغب في إبداء تعليق حول رواية سطوح طهران، أو إذا كان نادي الكتاب الخاص بك يرغب في ترتيب لقاء عبر مكبر صوت الهاتف، فما عليك إلا إرسال رسالة إلى Mahbod@rooftopsoftehran.com، وستسعدني مناقشة روايتي ومشاركة قصتي.

أطيب تحياتي
مهبد سراجي



telegram @yasmeeenbook



telegram @
yasmeenbook

حوار مع مهبد سراجي

س. لقد عشت في الولايات المتحدة لمدة اثنين وثلاثين عامًا، منذ وصولك إليها في سن التاسعة عشرة. ما الذي ألهمك لكتابة روايتك الأولى في هذه المرحلة من حياتك، وما مدى استنادها إلى أحداث حقيقية؟
ج. شكرًا لإعلام الجميع بأنني رجل عجوز!

س. عجوز؟ لا أرى كيف يمكن ذلك، فأنا أكبر منك بعدة سنوات، ولا أزال في مستقبل العمر!
ج. آه، لكن من المعروف أن المحررين يظلون شبابًا إلى الأبد. على أي حال، وبالعودة إلى سؤالك، لطالما رغبت في الكتابة منذ أن كنت في العاشرة من عمري عندما قرأت أول كتاب لي، وهو رواية أبيض الناب لجاك لندن، مترجمة إلى الفارسية من الإنجليزية الأصلية، على السطح نفسه الذي صوّرت في هذه الرواية. لكن الحياة دائمًا ما كانت تعوقني عن الكتابة، حتى فقدت وظيفتي قبل بضع سنوات، وكان ذلك أفضل شيء حدث لي على الإطلاق. بدأت الكتابة ولم أتوقف منذ ذلك الحين.

دليل القراء

أما بالنسبة إلى الرواية، فبعضها مبني على أحداث حقيقية، ولكن ليس كلها. لذا من المهم الإشارة إلى أنها ليست سيرة ذاتية. من المهم أيضًا الإشارة إلى أنني تناولت محاكمة كلسرخي بشكل خيالي، من خلال تغيير التاريخ وبعض الكلمات التي استخدمها في الدفاع عن نفسه في المحكمة.

س. جئت إلى هذا البلد وأنت لا تتحدث الإنجليزية إلا قليلًا، لكن من الواضح أنك أتقنت اللغة. كيف حققت ذلك، وكيف كان شعورك وأنت تواجه التحدي الهائل المتمثل في تعلم لغة أجنبية، في أرض جديدة غريبة، من دون دعم من العائلة بالقرب منك؟

ج. أتمنى لو كان بإمكانني القول إنني أتقنت اللغة الإنجليزية، فهناك دائمًا المزيد لتعلمه! يُعدّ تعلّم لغة جديدة تحديًا يواجهه ملايين الأشخاص الذين يعيشون في بلدان غير أوطانهم، وتعلّم اللغة الإنجليزية أمر صعب، أحد أصعب الأشياء التي قمت بها على الإطلاق. عندما جئت إلى الولايات المتحدة لأول مرة، تناولت وجبات «بيج ماك»، مع بطاطس صغيرة، وكوكاكولا صغيرة لمدة ستة أسابيع، لأن هذا كل ما عرفت كيف أطلبه. أنا متأكد أن عائدات شركة «ماكدونالدز» ارتفعت بشكل كبير في ذلك الربع من العام! تكمن الحيلة لتعلم أي لغة أجنبية في الاندماج في ثقافة البلد المضيف، والاختلاط بالناطقين الأصليين بها، ومشاهدة التلفزيون بكثرة، والعامل الوحيد الذي يتجاهله الكثيرون للأسف هو القراءة بقدر الإمكان. كان أول كتاب غير مدرسي باللغة الإنجليزية قرأته هو كتاب إريك فروم فن المحبة. وبالنسبة إليّ، ترجمت ذلك إلى «فن حب القراءة». ومنذ ذلك الحين، وأنا أقرأ بانتظام. وقد وردت أسماء بعض كتّابي المفضلين في

دليل القراء

دليل القراء

سطوح طهران: إميل زولا، وفيودور دوستوفسكي، ومكسيم غوركي، وجاك لندن، وجون شتاينبيك، وبرنارد شو، ونعوم تشومسكي، وغيرهم الكثير.

س. في الرواية، تنقل لنا علاقة الحب والكراهية التي ربطت الإيرانيين بالولايات المتحدة في السبعينيات، إلى جانب بعض المفاهيم الخاطئة الطريفة للغاية. كانت الولايات المتحدة هي القوة التي تقف وراء الشاه المستبد، ومن ثمَّ عدوهم المكروه، لكنها في الوقت نفسه كانت مكاناً جذبتهم فيه الحريات والفرص، ياله من صراع عاطفي خلقه هذا التناقض! ما الذي فاجأك عن المجتمع الأمريكي عند وصولك إلى هنا، وما المفاهيم الخاطئة عن إيران التي لا تزال تواجهها لدى الأمريكيين؟

ج. لا أريد التعميم أو الإساءة لأحد في أيِّ من البلدين، لذا أرجو المعذرة إن فعلت. الأمريكيون شعب رائع: طيبون، ومتسامحون، وصادقون. إنهم ينزعون إلى الالتزام بما يقولونه، ويتصرفون بطريقة عادلة ومتوازنة. ونظام التعليم العالي في هذا البلد ممتاز، سواء من حيث الجودة أو من حيث القدرة على الوصول إليه. هنا يمكن لأي شخص الالتحاق بالجامعة، في حين أن عديداً من البلدان لا يمكنها ببساطة استيعاب كثير من الطلاب. وبالمناسبة، معظم من قدموا إلى هنا في السبعينيات جاءوا لتلقي التعليم. لم يستيقظوا ذات صباح ليقولوا: «سنذهب إلى أمريكا لنكون أحراراً»، بل قالوا: «سنذهب إلى هناك لتلقي التعليم». هذا فرق مهم. لم يقدِّروا تماماً الحريات التي نتمتع بها هنا إلا بعد فترة من إقامتهم.

ما أدهشني في البداية عند وصولي هو كيف أنه على الرغم من وفرة المعلومات المتاحة، فإن عددًا قليلاً فقط من الناس كانت لديهم المعرفة

دليل القراء

دليل القراء

أو الاهتمام بمعرفة ما يحدث في بقية العالم. وهذا لا يزال صحيحًا أيضًا إلى حد كبير اليوم. لقد صُدمت، على سبيل المثال، عندما علمت أن معظم الناس الذين قابلتهم لا يعرفون إلا القليل عن إيران. أتذكر أنني ذكرت ذات مرة، خلال نقاش في أحد الفصول الدراسية، في أثناء دراستي الجامعية في سبعينيات القرن الماضي، نجاح وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في الإطاحة بمصدق عام ١٩٥٣، رئيس الوزراء الوحيد المنتخب ديمقراطيًا في تاريخ إيران، فاتهمني نصف الصف بالكذب لأن «الحكومة الأمريكية لا ترتكب مثل هذه الأفعال السيئة». وحتى المعلم قال إن معلوماتي خاطئة. بعض الأمريكيين لديهم إيمان أعمى بحكومتهم. أعني، فكر في الأمر. يجب ألا تدعم الديمقراطيات المؤسسية مثل الديمقراطية الأمريكية - على الأقل من الناحية النظرية - الأعمال أو الحركات أو القوى غير الديمقراطية في أي مكان في العالم، بل يجب أن تعارضها في الواقع، أليس كذلك؟ لكن هذا ليس صحيحًا دائمًا في الواقع، وهذا ما يجد بعض الأمريكيين صعوبة في تصديقه أو حتى فهمه. لننظر إلى الوضع في العراق حاليًا، في الصيف السابق للانتخابات الرئاسية الأمريكية. لا يزال هناك أشخاص يفتشون تحت الصخور عن أسلحة الدمار الشامل، ولا يستوعبون حقًا أن حكومتهم خدعتهم.

الإيرانيون والأمريكيون على طرفي نقيض في هذه القضية. قد يتطلب الأمر قضاءً إلهيًا لإقناع بعض الأمريكيين بفساد جوانب من حكومتهم، لكن في الوقت نفسه، لا يمكنك، تحت أي ظرف من الظروف، إقناع إيراني بأن حكومته ليست فاسدة! الأمر مدهش، أليس كذلك؟

بالنسبة إلى المفاهيم الخاطئة السائدة لدى الأمريكيين حاليًا عن إيران،

دليل القراء

دليل القراء

أرى كثيرًا من التحريف في وسائل الإعلام. ولأن حكومتَي إيران والولايات المتحدة لا تتفقان معًا، فإننا نميل إلى تشويه صورة الشعب الإيراني وتصويره على أنه شرير. تنقل وسائل الإعلام على الفور صورًا ومعلومات تجرد الشعب الإيراني من إنسانيته. وبالمثل، يتم تشجيعنا على نسيان أن أعداءنا المزعومين لديهم مشاعر وقادرون على الحب والصدقة. نراهم مختلفين جدًا، إلى درجة أننا لا نستطيع أن نتخيل أن بيننا كثيرًا من القواسم المشتركة. إنه لأمر محزن حقًا بالنسبة إليّ أن أرى إلى أي مدى تباعدت المسافة بين هاتين الأمتين العظيمتين.

س. لا يعرف الأمريكيون إلا القليل جدًا عن التاريخ الفارسي. كنت مهتمًا بشكل خاص بمعرفة فترات الاحتلال والقمع الطويلة التي عاناها الفرس على يد الغزاة الأجانب على مر القرون. هل هناك طرق واضحة لا يزال هذا التاريخ يشكل بها الثقافة الإيرانية والمجتمع الإيراني؟

ج. إيران هي واحدة من أقدم الحضارات في العالم، ولها تاريخ مضطرب ومثير للاهتمام. فقد تركت ثلاث غزوات ضخمة آثارًا لا تُمحى على ثقافتنا ونفسيّتنا وأدبنا وفنوننا. تشمل هذه الغزوات الإسكندر الأكبر، الذي يُطلق عليه في إيران اسم «الإسكندر الملعون»، والعرب، وجنكيز خان. فقد الملايين من الفرس أرواحهم في تلك الغزوات، وتعرضوا لعنف لا يمكن تصوّره، ولم ينسَ الإيرانيون المعاصرون ذلك. وبين تلك الغزوات عانى شعبنا فظائع مروعة ارتكبتها طغاة من أبناء جلدتنا. يسهم تاريخ كل أمة، وكيفية تعامل شعبها معه، في تحديد ثقافة تلك البلاد. لذا وبسبب تاريخنا، فإننا نميل إلى النظر إلى الحياة بنظرة يائسة ومستسلمة.

دليل القراء

دليل القراء

فنحن نتسم بالتشاؤم، ونرتاب في رجال السلطة، ونشعر دائماً بأننا ضحية، ونؤمن بلا تردد بوجود قوى خفية تتحكم في الأحداث من وراء الستار، ونرى خيوطاً حيث لا توجد دمي. وفي الوقت نفسه، من المهم أن نذكر أننا شعب صامد، ونستطيع تحمل أي شيء تقريباً، فلا شيء يمكنه أن يكسر الروح الفارسية الحماسية. نحن نحب الجدل، لا النقاش، بل الجدل في السياسة. العائلة مهمة جداً بالنسبة إلينا، وصدقاتنا أسطورية. نحن أمة كريمة ولطيفة ومضيافة للغاية. حتى الآن، يتحدث عديد من الأمريكيين الذين يزورون إيران عن انبهارهم بدفء وكرم ضيافة الإيرانيين الذين يلتقون بهم في الأماكن العامة. تسمع قصصاً عن سائقي سيارات أجرة لا يتقاضون نقوداً من الركاب الأمريكيين، وأصحاب مطاعم لا يتقاضون أجراً من الأمريكيين مقابل الطعام، وأشخاص عاديين يبذلون قصارى جهدهم لمساعدة الأمريكيين. أعلم أن بعض القراء قد يجدون صعوبة في تصديق ذلك، لكنه صحيح.

س. هل ما زلت تزور إيران؟ كيف تغيرت منذ نشأتك هناك؟
ج. أعود لزيارتها بالفعل، حيث لا يزال والدي يعيش في إيران. لكنني لم أعد أستطيع أن أجد طريقي في طهران، فقد اتسعت كثيراً! كما يختلف الناس أيضاً. هناك حسٌّ من الكآبة في الأجواء تشعر به فور وصولك. لكن من المدهش أنك عندما تعود إلى روتين الحياة اليومي، تكتشف من جديد تلك الروح الفارسية التي لا تقهر، وذلك السلوك الذي يبدو كأنه يقول: «سنصمد أمام أي شيء!».

دليل القراء

س. كنت أعتقد أن إيران دولة صحراوية صخرية قاحلة حارة. لكن عندما أرسلت إليَّ بعض الصور لطهران، فوجئت عند رؤية خضرتها اليانعة، وأشجارها الضخمة، وتساقط الثلوج فيها. هل يمكنك أن تعطينا فكرة عن حجم البلاد وتنوعها الجغرافي؟ وما حجم الطبقة المتوسطة في إيران مقارنة بالطبقة الفقيرة؟

ج. على عكس الاعتقاد السائد، فإن إيران هي واحدة من أغنى بلاد العالم بالجبال. فهي في الواقع بلد كبير جدًا، وتحتل المرتبة السادسة عشرة في العالم من حيث المساحة، أي نحو خمس مساحة الولايات المتحدة الأمريكية، ويبلغ عدد سكانها المتنوعين أكثر من ٧٠ مليون نسمة، ويتألفون من مجموعات عرقية مثل الآذريين والبلوش والأكراد واللور والآشوريين والأرمن وغيرهم الكثير. وهناك سلسلتان جبليتان كبيرتان هما زاغروس وأبرز. أما أعلى قمة، وهي جبل دماوند البركاني الخامد لحسن الحظ، فيبلغ ارتفاعها ٥٦٧٨ مترًا (أو ١٨٦٢٨ قدمًا). إنه رقم يسهل تذكره، وكان سؤالاً مفضلاً في اختبار الجغرافيا عندما كنت في المدرسة الثانوية في إيران. توجد صحراوان ملحيتان كبيرتان في الجزء الشرقي من إيران، معظمهما غير مأهول بالسكان. يختلف المناخ من منطقة إلى منطقة، ويمكن أن يكون الشتاء قارس البرودة مع تساقط كثيف للثلوج في الشمال الغربي. أما الربيع والخريف، فهما رائعتان للغاية بصرف النظر عن مكان وجودك. ويمكن أن يكون الصيف حارًا وجافًا في بعض المناطق، وشديد الرطوبة في مناطق أخرى، خصوصًا في الشمال بالقرب من بحر قزوين وفي الجنوب بالقرب من الخليج الفارسي. ومن حيث الثروة، تُعد الأمم المتحدة إيران دولة شبه متقدمة، حيث يحتل ناتجها المحلي الإجمالي المرتبة الخامسة عشرة في

دليل القراء

دليل القراء

العالم. لذا فإن إيران ليست أرضاً صحراوية قاحلة كبيرة كما يعتقد كثير من الناس. بسبب طبيعة عملي، سافرت على نطاق واسع في جميع أنحاء العالم، والمنطقة الواقعة على بحر قزوين هي واحدة من أجمل المناطق التي رأيتهما وأكثرها خصوصية. أما من حيث مستوى المعيشة، فوفقاً للأرقام التي رأيتهما على الإنترنت لعام ٢٠٠٧، يعيش نحو ١٨ في المائة من السكان في إيران تحت خط الفقر (مقارنة بـ ١٢ في المائة في الولايات المتحدة). ومن بين نحو ٣٠ مليون شخص يشكّلون القوى العاملة، تتراوح نسبة العاطلين عن العمل بين ١٥ إلى ٢٠ في المائة من السكان، حسب إحصاءات الجهة التي تصدّقها. لذا، هناك طبقة متوسطة في إيران، لكنني أعتقد أنها آخذة في التقلص.

س. الآن وقد أجبت عن بعض أسئلتني الكثيرة عن إيران، دعنا نعدّ إلى الكتاب! أحد أسباب انجذابي إلى الرواية في الأصل هو أن قصة الحب بين باشا وزاري رومانسية للغاية. هل أنت رومانسي تحديداً أم أن هذه صفة فارسية؟

ج. سيسخر مني أصدقاؤني طوال حياتي إذا لمّحت حتى إلى وجود قطرة دم رومانسية واحدة في داخلي! قد تصاب زوجتي بالصدمة. لذا دعنا نتوخّ الحذر في هذا الأمر! أعتقد أن القراء سيتفاعلون مع زاري وباشا لأن الجميع يتذكرون المرّة الأولى التي وقعوا فيها في الحب. صغر سن زاري وباشا يضعهما في وضع مستحيل منذ البداية، وإذا أضفنا إلى ذلك التقاليد الاجتماعية المقيدة ووضع الدكتور، يصبح وضعهما ميؤوساً منه. وبالمناسبة، هذا هو التعريف المعتمد لكلمة «رومانسي» في الأدب

دليل القراء

دليل القراء

الفارسي. يكمن جمال الرومانسية في نهايتها المأساوية الحتمية. فما يستحق أن تضحي بحياتك من أجله هو ما لا يمكنك الحصول عليه. للمهتمين بمعرفة مزيد عن هذا الموضوع، يُعد كتاب الثقافة الإيرانية - رؤية فارسية للدكتور مايكل هيلمان (مطبعة الجامعة الأمريكية، ١٩٩١) مصدرًا رائعًا.

س. في المخطوطة الأولية للرواية، لم يُمنح الراوي اسمًا قط. لماذا كان ذلك خيارك الأول، ولماذا غيرت رأيك وأطلقت عليه اسم باشا؟
ج. حسنًا، الراوي هو أنا، وأولئك الذين يعرفونني سيدركون على الفور أنه أنا. لكنني لم أرغب في تسميته باسمي، لذا تركته بلا اسم، وكدت أفلت بفعلي ذاك، إلى أن أقنعتني أنت، محرري الرائع، بأن الوقت قد حان لأنفصل أنا وهو، ونفترق في طريقتين مختلفتين، ونعيش حياة مستقلة. بعدها لم أجد اسمًا له، حتى اخترت في النهاية باشا شاهد. كان اسمي الأول سيصبح باشا، لو لم يقع الاختيار على اسم مهبد، وشاهد هو اسم والدي المستعار، وكذلك لقب والدتي قبل الزواج. والدي شاعر صوفي نشر ثلاثة دواوين شعرية في إيران.

س. تذكرني شخصيات الرواية وأحداثها من نواحٍ بما هو مشترك وعالمي في التجربة الإنسانية: الدعم الضروري الذي يقدمه الأصدقاء والعائلة الودودون، وقوة الفكاهة في مساعدتنا على تجاوز الأوقات الصعبة، والطرق الذكية وغير الذكية التي يخضع بها الناس للقمع السياسي ويقاومونه، والرغبة في الحب وأن يكونوا محبوبين. ومع ذلك، قد يبدو خيار زاري المروع وردود أفعال الشخصيات المبالغ فيها للحزن غريبًا جدًا على القراء

دليل القراء

دليل القراء

الغريبين. هل يمكنك مساعدتنا على وضع هذه الأفعال في سياق قد يعيننا على فهمها؟

ج. نعم، الحب والكرهية والفكاهة والصدقات هي صفات عالمية مشتركة بين الناس من جميع الشعوب. أنت محق أيضًا في أن ثقافتنا تؤثر في كيفية استجابتنا للمواقف. في حياتي خارج نطاق الكتابة، أعمل على تدريس مقرر بعنوان «فهم الاختلافات الشخصية والثقافية». يعيش الإيرانيون، والشرق أوسطيون عمومًا، فيما يُسمَّى الخبراء «الثقافات العاطفية». وهي ثقافات يُظهر فيها الناس مشاعرهم بحرية، خصوصًا في أوقات الحداد. بينما يعيش الأمريكيون والبريطانيون والألمان في ثقافات «محايدة». لا يظهر الناس مشاعرهم في هذه الثقافات، بل يبقونها تحت السيطرة الشديدة. لذلك، على سبيل المثال، ستكون تجربة حضور جنازة في الولايات المتحدة مختلفة تمامًا عن حضور جنازة في إيران. سيبدو الأشخاص المحايدون باردين وعديمي المشاعر في نظر الناس المنتمين إلى الثقافات العاطفية، وعلى العكس من ذلك، سيرى المحايدون أن الأشخاص العاطفيين انفعاليون جدًا ومفرطون في التعبير.

أما بالنسبة إلى «خيار زاري المروع»، فأفضل ألا أكشف كثيرًا من تفاصيل القصة بالتعليق عليه، باستثناء القول إن ما فعلته ليس ممارسة شائعة في إيران. يحدث ذلك، لكن نادرًا. لقد تعمّدت اختيار مثل هذا الفعل المتطرف لتقديم رسالة قوية.

س. هل تخطط لكتابة رواية أخرى؟ هل عرفت بعد عما سيدور موضوعها؟
ج. لقد انتهيت بالفعل من نصف كتابي الثاني. وهو يدور حول رجل لديه

دليل القراء

أربع زوجات، لكنه يشعر بأنه حُرْم من الحب طوال حياته! ليس لديَّ عنوان له بعد. ويومًا ما، لست متأكدًا على الإطلاق متى سيكون ذلك، سأكتب بالتأكيد جزءًا ثانيًا من رواية سطوح طهران. أحتاج فقط إلى الابتعاد عنها بعض الوقت حاليًا.

المؤلف

ولد مَهْبُد سِرَاجِي في إيران عام ١٩٥٦، وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٧٦ وهو في التاسعة عشرة من عمره. حصل على بكالوريوس في الهندسة المدنية، وماجستير في الإذاعة والسينما، ودكتوراه في تصميم وتكنولوجيا التعليم من جامعة أيوا. يعمل مَهْبُد مستشارًا إداريًا، ويقيم في منطقة خليج سان فرانسيسكو.

المتجمة

إيناس التركي مترجمة مصرية. تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

ترجمت لدار الكرمة كتاب «عندما تحب النساء أكثر مما ينبغي: أن تعيشي في انتظار أن يتغير» لروبين نورود، والروايات: «خلف هذه الأبواب» لروث وير، و«جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس» لماري آن شيفر وآني باروز، و«المكتبة المتنقلة» لكريستوفر مورلي، و«أبريل الساحر» لإليزابيث فون أرني، و«بدافع القتل» لأنتوني هورويتز، و«لا تكذب أبداً» لفريدا مكفادن، و«ريبيكا» لدافني دو موريه، و«مكتبة الكلمات المفقودة» لستيفاني باتلاند، و«سقوط جنتلمان» لهربرت كلايد لويس، و«كل هذا غير صحيح» لليس جويل.

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتييرًا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجيرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزة البرية - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. ه. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠. الوعد - فريدريش دورنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورساي: صاحب الملك - جون جالزوردي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دو هاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادي - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة - جيرالد مرنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء - هيلاهاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيلبست إنج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٢٥. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.
٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ.م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.
٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٣٢. الحرب والتربتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.
٣٣. سولاريس - ستانيسواف كم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.
٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٥. شخص نعرفه - شاري لاينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.
٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٣٧. احتضان - كلير كيغن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٣٨. اترك العالم خلفك - رمان علم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٩. بندقية صيد - ياسوشي إينويه. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٤٠. لن نقدم القهوة لسبينوزا - أليتشه كابالي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤١. سأبقى هنا - ماركو بالزانو. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤٢. نادي القتال - تشاك بولانيك. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٤٣. دير مافوريا - كريج كليفنجر. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٤٤. المولود من ذي قبل - خوان خوسيه ساير. ترجمها عن الإسبانية: محمد الفولي.
٤٥. ثلاثية - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٤٦. ملحمة أنيت - آث فيبر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٤٧. الفجيرة - جني إربنك. ترجمها عن الألمانية: نبيل الحفار.
٤٨. الواقعون - كارلوس مانويل ألباريس. ترجمها عن الإسبانية: أحمد محسن.
٤٩. مسيو إبراهيم وزهور القرآن - إريك-إيمانويل شميت. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٥٠. جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس - ماري آن شيفر وآني باروز.
ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٥١. سدهارتا: قصيدة هندية - هرمان هسه. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٥٢. محادثة ليلية - ساشا ناسبيني. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٥٣. أحد الرجال - كيئتشيرو هيرانو. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٥٤. المكتبة المتنقلة - كريستوفر مورلي. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٥٥. القفزة - سيمونه لابرت. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٥٦. الميراث والوصية - فيجديس يوت. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وسها السباعي.
٥٧. ثورة القمر - أندريا كاميليري. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٥٨. لا تكذب أبداً - فريدا مكفادن. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٥٩. أبريل الساحر - إليزابيث فون أرنيش. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٠. أوهام العقل - برنلف. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٦١. بدافع القتل - أنتوني هورويتز. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٢. صمت الحملان - توماس هاريس. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٦٣. الشطرنج - شتيفان تسفايج. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٦٤. أمسية عند كليز - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
٦٥. ريببكا - دافني دو موريه. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٦. مكتبة الكلمات المفقودة - ستيفاني باتلاند. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٧. سقوط جنتلمان - هربرت كلايد لويس. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٨. كل هذا غير صحيح - ليسا جويل. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٦٩. لم يتبقَّ غيرها - رايلي ساجر. ترجمها عن الإنجليزية: عبد الرحيم يوسف.
٧٠. سطوح طهران - مهبد سراجي. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.